الأربعون المنبرية

في

أشراط الساعة والأمور الأخروية

تأليف

عبد العظيم بن بدوي الخلفي





الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الخلفي، عبد العظيم بن بدوي ، كتاب / الأربعون المنبرية في أشراط الساعة و الأمور.

تاليف / عبد العظيم بن بدوي الخلفي . -ط١- ٢٠٠٦

دار الصفا و المروة للنشر و التوزيع. ١٧ * ٢٤

ردمك 5 - 17 - 6168 - 977 ٤٥٦ صفحة

١ - الوعظ و الارشاد . ٢ - يوم القيامة.

٣ - علامات الساعة .

العنوان ديوي ٢١٣

رقم الإيداع	٢٠٠٦ / ٨٠٣٤

الناشر

دار الصفا والمروة

للنشر والتوزيع

١٨٥ ش جمال عبد الناصر – سيدي بشر نهاية النفق – الإسكندرية – ج م ع

ت: ٠٣ / ٥٤٩٦١٠٧ ، فاكس : ٠٣ / ٥٥٦٧١٣٤

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرور أنفُسِنا وسيئاتِ أعمالنا، من يهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له.

وأشهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ الله، وحدَه لا شريكَ له، وأشْهَدُ أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[الأحزاب].

أمّا بعد: فإنَّ أصدقَ الحديث كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

وبعد: فهذه هي «الأربعون المنبرية (العاشرة)» خطبتُ بها في مسجدنا العامر مسجدِ النُّور بالشِّين مركز قطور، في الفترة من (٢/ ٢/ ١٤٢٤هـ الموافق ٤/ ٤/ ٢٠٠٣م) إلى (٢٣/ ١١/ ١٤٢٤هـ الموافق ١٦/ ١/ ٢٠٠٤م).

وها أنا ذا أقدّمها للمسلمينَ عامَّةً، وإخْواني الخُطباءِ خاصَّـةً، عسى قارئٌ كريمٌ أَنْ ينتفعَ بها، أو أخٌ خطيبٌ يخطُب بها، فيكتبَ الله لي مثْلَ أجْره من غيْرِ أَنْ ينقُصَ من أجْره شيء.

وقد سمّيْتُ هذه الأربعين

الأربعون المنبريَّة

في أشراط السَّاعة والأمور الأخرويَّة

وأسأل الله أَنْ ينفع بها مسموعة ومقروءة، وأَنْ يضع لها القبول، وأَنْ ينفعني بها في الدنيا والآخرة، إنَّه وليّ ذلك والقادِرُ عليه.

وصلى الله على محمَّدٍ وآله وصحبه وسلَّم.

وكتبه

عبد العظيم بن بدوي الخلفي

ضحى الأربعاء ٢٨ / ١١ / ١٤٢٤هـ

٢١ / ١ / ٢٠٠٤م

متى الساعة

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا وَرَسُولُ الله ﷺ خَارِجَيْنِ مِنَ المسْجِدِ فَلَقِينَا رَجُلاً عِنْدَ سُدَّةِ المسْجِدِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: فَكَأَنَّ الرَّجُلَ اسْتَكَانَ. ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ. قَالَ: فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[1].

في هذا الحديثِ يُخْبِرُ أنسُ بنُ مالكٍ خادمُ رسولِ الله ﷺ أنَّه كان يوماً خارجاً مع رسولِ الله ﷺ منَ المسجدِ فلقِيَا رجلاً، فنادى الرَّجُلُ رسولَ الله ﷺ سائلاً متى السَّاعة؟ «وأصْلُ السَّاعةِ القِطْعَةُ منَ الزَّمان، ثُمَّ غلبَ اسْتِعْمالُها على يَوْمِ القِيامَة، فصارتِ الألفُ واللاَّمُ فيها للغلَبةِ، كَهِيَ في «البيْتِ» للكَعْبة، و«النَّجْم» للثُّرَيَّا.

وقد جُمِعَ بَيْنَ المعْنَيَيْنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ المجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ[55]﴾[الروم]، فالسَّاعةُ الثَّانيةُ القِطْعَةُ منَ الزَّمان، والسَّاعة الأولى القِيَامة، وسُمِّيَتْ ساعةً لِقِلَّتِهَا بالنِّسْبَةِ لما بعْدَها منَ الخلود، أوْ لِسُرْعَةِ الحسَابِ فيها على الباري عزَّ وجلَّ، كما قالَ تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الحكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحاسِبِينَ[62]﴾[الأنعام][2].

وقالَ الرَّاغِبُ: «السَّاعاتُ الَّتِي هيَ القيامةُ ثلاثةٌ: السَّاعةُ الكُبْرَى وهيَ بَعْثُ النَّاسِ لِلمحَاسبة، وهيَ الَّتِي أشار إليْها النبيُّ ﷺ بقولِهِ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ»[3]، وذكَرَ أمورًا لم تحدُثْ في زمانِهِ ولا بعْدَه.

---

(١) متفق عليه: خ(٦١٧١/ ٥٥٧/ ١٠)، م(٢٦٣٩-١٦٤-/ ٢٠٢٣/ ٤)، ت(٢٤٩٣/ ٢٢/ ٤).

(٢) روح المعاني (١٣١/ ٧)، البحر المحيط (١٠٦/ ٤).

(٣) صحيح: [ص.ج: ٥٧٧٠]، طس(١٣٧٨/ ٩٣/ ٢).

والسَّاعةُ الوُسْطَى وهي مَوْتُ أهْلِ القَرْنِ الواحد، وذلكَ كقولهِ ﷺ وقد سُئِلَ عن السَّاعة؟ فمرَّ غُلامٌ فقال: «إِنْ يُؤَخَّرْ هَذَا فَلَنْ يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»(١)، فقيلَ إِنَّهُ آخِرُ مَنْ ماتَ منَ الصَّحابة.

والسَّاعةُ الصُّغْرَى وهيَ مَوْتُ الإنْسَان، فساعةُ كلِّ إنْسَانٍ مَوْتُه، وهيَ المشَارُ إليْها بقولهِ تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا(٣١)﴾[الأنعام]، ومعْلومٌ أنَّ هذهِ الحسْرَةَ تنالُ الإنْسَانَ عنْدَ مَوْتِه»(٢).

وقال القَاسِميُّ: «السَّاعةُ: سُمِّيَتْ ساعةً لأنَّها تَفْجَأُ النَّاسَ بغتةً في ساعةٍ لا يَعْلمهَا إلاَّ اللهُ تعالى»(٣)، كما قالَ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلم السَّاعَةِ(٤٧)﴾[فصلت]، وقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلم السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٥)﴾[الزخرف]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلم السَّاعَةِ(٣٤)﴾[لقمان]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(١٥)﴾[طه]: «عن مُجاهدٍ قال: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أيْ منْ نَفْسِي»(٤).

قالَ الطَّبَرِيُّ: «إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُهُ خاطبَ بالقرآنِ العربَ على ما يعْرِفُونهُ منْ كلامِهم وجرَى بهِ خطابُهم بيْنَهم، فلما كانَ معروفًا في كلامِهم أنْ يقولَ أحدُهم إذا أرادَ المبالغةَ في الخبرِ عنْ إخْفائهِ شيئًا هوَ لهُ مُسِرٌّ: قد كِدْتُ أُخْفِي هذا الأمْرَ عنْ نَفْسِي منْ شِدَّةِ اسْتِسْرَارِي به، ولو قدَرْتُ أنْ أُخْفِيَهُ عنْ نَفْسِي أخْفَيْتُه. فخاطَبَهمُ اللهُ على حسَبِ ما جرَى بهِ اسْتِعْمَالُهم في ذلكَ منَ الكلامِ بيْنَهم، وما قدْ عَرَفُوهُ في مَنْطِقِهم»(٥).

---

(١) متفق عليه: خ(٦٥١١/ ٣٦١و٣٦٢/ ١١)، م(٢٩٥٣-١٣٩-/ ٢٢٧٠/ ٤)، واللفظ له.

(٢) المفردات (٢٤٨).

(٣) محاسن التأويل (٥٠١/ ٦).

(٤) جامع البيان (١٤٩/ ١٦).

(٥) جامع البيان (١٥١/ ١٦).

وإذِ الأمْرُ كذلكَ تعيَّنَ على كلِّ مُسْلم أَنْ يعْتقِدَ أَنَّهُ لا يعْلم متَى تقومُ السَّاعةُ إلاَّ الله، لا يعْلم ذلكَ مَلَكٌ مُقرَّبٌ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَل، فَضْلاً عمَّنْ دُونَهما منَ الإنْسِ والجنِّ، ولـذلكَ لما سأَلَ جِبْرِيلُ النبيَّ ﷺ : « **مَتَى السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا المسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلم مِنَ السَّائِلِ**»[1].

وقال ﷺ : «**مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لاَ يَعْلمهَا إِلاَّ الله، لاَ يَعْلم مَا فِي غَدٍ إِلاَّ الله، وَلاَ يَعْلم مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ الله، وَلاَ يَعْلم مَتَى يَأْتِي المطَرُ أَحَدٌ إِلاَّ الله، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلاَ يَعْلم مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ الله**»[2].

قالَ الحافِظُ في الفَتْحِ: «قالَ ابنُ أبي جَمْرَة: عبَّر بالمفاتيحِ لتقْريبِ الأمْرِ على السامعِ، لأَنَّ كلَّ شيءٍ جُعِلَ بيْنكَ وبيْنَهُ حِجابٌ فقدْ غُيِّبَ عنْك، والتَّوَصُّلُ إلى مَعْرفَتهِ في العادةِ منَ الباب، فإذا أُغْلِقَ البابُ احْتيجَ إلى المفْتَاح، فإذا كانَ الشَّيْءُ الَّذي لا يُطَّلَعُ على الغيْبِ إلاَّ بهِ لا يُعْرفُ مَوْضِعُهُ فكيفَ يُعْرفُ المغَيَّب»[3].

ولذلكَ لما كَثُرَ سُؤالُهم عنِ السَّاعةِ لم يُجابُوا إلاَّ بشَيْءٍ واحدٍ، وهُوَ أَنَّ علمها عنْدَ الله، قالَ تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلمهَا عِنْدَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلمهَا عِنْدَ الله وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلمونَ**(١٨٧)﴾[الأعراف].

وقالَ تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا**(٤٢)**فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا**(٤٣)**إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا**(٤٤)﴾[النازعات].

---

(١) م(٨/ ٣٨/ ١)، ت(٢٧٣٨/ ١١٩-١٢١/ ٤)، د(٤٦٧٠/ ٤٥٩-٤٦٤/ ١٢)، جه(٦٣/ ٢٤و٢٥/ ١).

(٢) خ(٤٦٩٧/ ٣٧٥/ ٨).

(٣) فتح الباري (٥١٤/ ٨).

فلما آيسهم من معرفة متى هي؟ أخبرهم بقربها، فقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلمهَا عِنْدَ الله وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا(٦٣)﴾[الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿الله الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالحقِّ وَالميزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ(١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلمون أَنَّهَا الحقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ(١٨)﴾[الشورى].

«في غايةِ البُعْدِ عنِ الحقِّ، وأيّ بُعْدٍ أبْعَدُ ممَّنْ كذَّبَ بالدَّارِ الَّتِي هِيَ الدَّارُ على الحقِيقَة، وهِيَ الدَّارُ الَّتِي خُلِقَتْ لِلْبقَاءِ الدَّائم، والخلودِ السَّرْمَد، وهِيَ دارُ الجزَاء، الَّتِي يُظْهِرُ فيها اللهُ فضْلَهُ وعَدْلَه، وإنَّمَا هذهِ الدَّارُ بالنِّسْبةِ إليْها كراكبٍ قالَ في ظِلِّ شجرةٍ ثُمَّ راحَ وترَكها، وهي دارُ عبُورٍ وممَرٍّ، لا دارَ مُسْتَقرٍّ، فصدَّقُوا بالدَّارِ المضْمحِلَّةِ الفَانِيةِ حيثُ رأوْها وشَاهدُوها، وكذَّبُوا بالدَّارِ الآخِرَةِ، الَّتِي تَواتَرتْ بالإخْبَارِ عنْها الكُتبُ الإلهيَّةُ والرُّسلُ الكِرامُ وأتْباعُهم»(١).

فاسْتَحقُّوا بذلكَ العذابَ المهين، كما قالَ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لمنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١)إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا(١٢)وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا(١٣)لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا(١٤)﴾[الفرقان].

وقالَ تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ(٥٥)الملْكُ يَوْمَئِذٍ لله يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ(٥٦)وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(٥٧)﴾[الحج].

فالإيمانُ بالسَّاعةِ واجبٌ، وهي آتيةٌ لا ريْبَ فيها، كما أكَّدَ ذلكَ ربُّنَا سُبْحانَهُ في أكثرَ منْ آية، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(٥٩)﴾[غافر].

(١) تيسير الكريم المنان(٦/٦٠٧).

وقالَ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجمِيلَ(٨٥)﴾[الحجر].

وقالَ تعالى في أصْحابِ الكهْف: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلموا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا(٢١)﴾[الكهف].

وقالَ تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥)ذَلِكَ بِأَنَّ الله هُوَ الحقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الموْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦)وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ(٧)﴾[الحج].

فالسَّاعةُ آتيةٌ لا ريْبَ فيها، في وقْتٍ لا يعْلمهُ إلاَّ الله، كما قالَ تعالى: ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً(١٨٧)﴾[الأعراف].

وقالَ تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ(٦٦)﴾[الزخرف].

وقالَ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٤٨)مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩)فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠)﴾[يس].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا»(١).

فالأَوْلَى أَنْ لا يَنْشَغِلَ النَّاسُ بالسُّؤالِ عنِ السَّاعةِ متَى هي؟ «وأَنْ يَنْصَرِفَ الاهتمامُ للتَّهيُّؤِ لها والاستعدادِ، قبلَ أَنْ تأتِيَ بغْتةً فلا يَنْفعُ معها الحذَر، ولا تُجْدِي عنْدَها الحيْطَة، ما لم يأْخُذوا حِذْرَهم قبْلَها، وما لم يَسْتعِدُّوا لها وفي الوقْتِ مُتَّسَع، وفي العُمُرِ بَقِيَّة، وما يدْرِي أحدٌ

---

(١) خ (١٣/٨١/٧١٢١).

متى تجيء؟ فأَوْلَى أنْ يُبادِرَ اللحظةَ ويُسارِع، وألاَّ يُضَيِّعَ ساعةً قد تَفْجَأهُ بعْدها السَّاعة»(١).

ولذلكَ قالَ النبيُّ ﷺ للسَّائلِ عنِ السَّاعة «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا»؟ قالَ الحافِظُ في الفَتْحِ: «قال الكَرْمَانِيُّ: سلكَ معَ السَّائلِ أسْلوبَ الحكيم، وهُوَ تَلقِّي السَّائلَ بغَيْرِ ما يَطْلبُ مِمَّا يُهِمُّهُ أوْ هُوَ أَهَمُّ»(٢).

فالسَّاعةُ آتيةٌ، والمهمُّ أنْ تستعدَّ لها بصالح العمل، لأنَّها إذا جاءتْ فلا عَمل، كما قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ»(٣).

وقد أخبر اللهُ تعالى أنَّ المفرِّطينَ سَيسْألونَهُ الرَّجْعةَ إلى الدُّنْيا ليتداركُوا ما فاتَهم من صالح الأعمال، وأنَّ هذا السُّؤال يتكرَّرُ: عندَ الموْتِ، قالَ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾[المؤمنون].

وعندَ العَرْض، قالَ تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢)﴾[السجدة].

وعندَ دُخولِ النَّار، قالَ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧)﴾[فاطر]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)﴾[الكهف].

---

(١) في ظلال القرآن (٦٩٦/ ٣).

(٢) فتح الباري (٥٦٠/ ١٠).

(٣) خ تعليقاً (٢٠٥/ ١١).

وأفضلُ الأعمالِ الصَّالحةِ محبَّةُ الله ورسولِه، ولذلكَ اتَّخذَها ذلكَ الرَّجلُ عُدَّتَه، وجعلَها عُمْدتَه، فقالَ وقد سألهُ رسولُ الله ﷺ: «**مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ وَلاَ صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ**».

قالَ القُرْطُبِيُّ: « يعْنِي بذلكَ النَّوافِلَ منَ الصَّلاةِ والصَّدقةِ والصَّوْم، لأنَّ الفرائضَ لا بُدَّ لهُ ولغيرِه منْ فِعْلِها، فيكونُ معْناهُ: أنَّهُ لم يأتِ منْها بالكثيرِ الَّذي يُعْتَمدُ عليه، ويُرْتَجى دخولُ الجنَّةِ بسَببه.

ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ أرادَ أنَّ الَّذي فعلَهُ منْ تِلكَ الأمُورِ - وإنْ كانَ كثيرًا - فإنَّهُ مُخْتَصَرٌ بالنِّسْبَةِ إلى ما عنْدهُ منْ محبَّةِ الله تعالى ورسولِه، فكأنَّهُ ظهرَ لهُ أنَّ محبَّةَ الله ورسولِه أفْضَلُ الأعْمالِ، وأعْظمُ القُرَب، فجعلَها عُمْدتَه، واتَّخذَها عُدَّتَه»[1].

وقدْ صدَّقَ رسولُ الله ﷺ ظنَّهُ في فضْلِ المحبَّةِ فقالَ له: «**فَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**» يعْني في الجنَّةِ، فأعْظِمْ بأمْرٍ يُلحقُ المقصِّرَ بالمشمِّر، والمتأخِّرَ بالمتقدِّم.

ولذلك فَرِحَ الصَّحابةُ بهِ فرَحاً شديداً، حتَّى قَالَ أَنَسٌ: «**فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» قَالَ أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ**»[2].

وفي هذا الحديث من الفوائد:

أنَّ المؤمنَ بالسَّاعةِ ينْبَغي ألاَّ يَصْرفَ اهتمامَهُ في البحْثِ عن وقْتِها، وإنَّما يَنْبَغي لهُ أنْ يستعِدَّ لها، وأنَّ الاسْتِعْدادَ يكونُ بالأعْمالِ القَلْبِيَّةِ الباطِنَةِ منْ نَحْوِ الإيمانِ والتَّوكُلِ، والمحبَّةِ والإنابة، والخشْيةِ والرَّجاء، والإخْلاصِ والصِّدْقِ والتَّقْوَى، كما يكونُ بالأعْمالِ الظَّاهِرَةِ منَ الصَّلاةِ والصِّيام، والصَّدقةِ والحجِّ والجهاد، والأمرِ بالمعْروفِ والنَّهْيِ عنِ المنْكرِ،

---

(١) المفهم (٦٤٦و٦٤٧/٦).

(٢) خ(٣٦٨٨/٤٢/١١).

وبرِّ الوالدَيْن، وصِلَةِ الرَّحِم وإكْرام اليَتِيم، ورَحْمةِ الأرْملَةِ والمسْكين.

وأنَّ المؤمنَ لا ينْبَغي لهُ أنْ يرَى عملَهُ، فضْلاً عنْ أنْ يَسْتَكْثِرَه، فإنَّ الفضلَ فيه لله أوَّلاً وآخِرًا، ثُمَّ إنَّهُ لا يعلم هل منَّ اللهُ عليْهِ بالقبولِ كما منَّ عليهِ بالعملِ أم لا؟

ولذلكَ لم يلتَفِتْ الرَّجُلُ إلى أعْمَالِهِ الظَّاهِرةِ، ولم يُقِمْ لها وزْناً، وقالَ حينَ سألهُ النبيُّ ﷺ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ الله، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلاةٍ وَلاَ صِيَامٍ وَلاَ صَدَقَةٍ»[1].

وهذا موافِقٌ لقولِهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ(٦٠)﴾[المؤمنون].

قَالَتْ عَائِشَة: يَا رَسُولَ الله! أَهُم الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُم الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخيْرَاتِ(٦١)﴾[المؤمنون]»[1].

فإذا عمِلْتَ عملاً صالحا فقُلِ: ﴿الحمْدُ لله الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا الله(٤٣)﴾[الأعراف]، ثُمَّ ألح على ربِّكَ بسُؤالِ القَبُول: ﴿رَبَّنَا تقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧)﴾[البقرة].

وإيَّاكَ ورُؤْيةَ العَمل، وإيَّاكَ والإعْجَابَ به، ﴿وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ(٦)﴾[المدثر]، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجنَّةَ، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله! قَالَ: لاَ، وَلاَ أَنَا إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَلاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الموْتَ إمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ»[2].

---

(١) صحيح: [ص.ت:٣١٧٥]، ت(٣٢٢٥/ ٩/ ٥)، جه(٤١٩٨/ ١٤٠٤/ ٢).

(٢) متفق عليه: خ(٥٦٧٣/ ١٢٧/ ١٠)، م(٢٨١٦/ ٢١٦٩و٢١٧٠/ ٤).

وَقَالَ ﷺ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قُبِلَ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، فَتَعْلَم أَنَّ مَا أَصَابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ»(١).

ومن فوائد الحديث:

أَنَّ محبَّةَ الله ورسولِهِ خيرُ ما يَعُدُّهُ الإنسانُ للسَّاعة، وليْسَتِ المحبَّةُ كلماتٍ تُقالُ، ولا شِعاراتٍ تُرْفَع، وإنَّما المحبَّةُ طاعةٌ واتِّباع، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي(٣١)﴾[آل عمران].

قال الحسنُ البصْرِيُّ: «ادَّعَى قوْمٌ محبَّةَ الله فابْتلاهُم بهذِهِ الآية»(٢).

وما أحسنَ قوْلَ القائل:

تَعْصِي الإلهَ وأنتَ تزْعمُ حُبَّهُ ... هذا وربِّكَ في القياسِ شَنيعُ
لوْ كُنتَ صادِقًا في حُبِّهِ لأطَعْتَهُ ... إنَّ المحِبَّ لمنْ يُحِبُّ مُطيعُ

ومحبَّةُ الله تعالى ورسولِهِ ﷺ فَرْضُ عَيْنٍ، لا نجاةَ للعبدِ إلاَّ بها، وقد ذمَّ اللهُ تعالى قَوْمًا سَوُّوا بيْنَهُ وبيْنَ غيْرِهِ في المحبَّة، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ(١٦٥)﴾[البقرة]، فكيفَ بمَنْ كانَ الْغَيْرُ أحبَّ إليْه.

(١) صحيح: [ص.د:٣٩٣٢]، د(٤٦٧٤/ ٤٦٦و٤٦٧/ ١٢)، جه(٧٧/ ٢٩و٣٠/ ١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٥٨/ ١).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ الله وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(١١)﴾[التوبة].

نسألُ اللهَ السَّلامةَ والعافية

❏ ❏ ❏

خمس مؤذنة بخراب العالم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لم يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ، قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ الله! قَالَ: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[1].

عرفْنَا أنَّ السَّاعةَ هِيَ القِيَامةُ الكُبْرَى، وأَنَّ عِلمها عنْدَ الله، لا يَعْلم متَى هِيَ إلاَّ هُو، لكنَّهُ سُبْحَانهُ أخبرَ عنْ قُرْبِهَا فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[القمر]، وأخْبرَ عنْ ظُهورِ أماراتِها وعلاماتِها فقال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[محمد]، «أيّ أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾[النجم]، وكقوله جلَّتْ عظمتُه: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾[القمر]، وقولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ الله فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[النحل]، وقولِهِ جلَّ وعلا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء]»[2].

ولما كانَ النبيُّ ﷺ خاتَمَ النَّبِيِّينَ الَّذي لا نَبِيَّ بعْدَه، والحاشِرَ الَّذي يُحْشَرُ النَّاسُ على عَقِبه، فقد بيَّنَ ﷺ أماراتِ السَّاعةِ وأشْراطَها، وأوْضحَ ذلكَ بما لم يؤتَهُ نَبِيٌّ قَبْلَه:

فقالَ لذلكَ السَّائل: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». فسألهُ الرَّجُلُ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»، ومعْنَاهُ: إذا وُضِعَ الرَّجُلُ

---

(١) خ(٥٩/١٤١و١٤٢/١).

(٢) تفسير القرآن العظيم(١٧٧/٤).

في غيرِ مَوْضِعه، وأُنزِلَ في غيرِ مَنْزِله، ووُلِّيَ ما لا يصلح له، مِمَّا لا علم لهُ به، ولا قُدْرةَ لهُ عليه، فانْتظرِ السَّاعة، وقد كانَ ما أخبرَ به النبيُّ ﷺ وظهرَ ظُهورًا لا يخْفَى على أحد. وقد أخرجَ البُخاريُّ هذا الحديثَ في «كتاب العِلم» من صَحيحِه، وفي «كتاب الرِّقاق»، قال الحافِظُ في «الفتح»: «ومُنَاسبَةُ هذا المتْنِ لكتابِ العِلم أَنَّ إسْنادَ الأمْرِ إلى غيْرِ أهْلِهِ إنَّمَا يكونُ عنْدَ غلَبَةِ الجهْلِ ورَفْعِ العِلم، وذلكَ مِنْ جُمْلَةِ الأشْرَاط، ومُقْتَضاهُ أَنَّ العلم ما دامَ قائمًا فَفِي الأمْرِ فُسْحَة، وكأَنَّ المصنِّفَ أشارَ إلى أَنَّ العلم إنَّما يُؤْخذُ عنِ الأكابر، تلميحًا لما رُوِيَ عن أبي أُمَيَّةَ الجمحي أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُلْتَمَسَ الْعِلم عِنْدَ الأَصَاغِر**»[1]»[2].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَقِلَّ الْعِلم وَيَظْهَرَ الجهْلُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وَتَكْثُرَ النِّسَاءُ وَيَقِلَّ الرِّجَالُ حَتَّى يَكُونَ لخمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ»[3].

والمرادُ بالعِلم الَّذي رَفْعُهُ منْ أشْراطِ السَّاعةِ العِلم الشَّرْعِي، المأخوذُ عنِ الله ورسُولِه، العِلم الَّذي يدلُّ النَّاسَ على الهُدى والخيْر، والنَّجاةِ منَ النَّارِ والفَوْزَ بالجنَّة، وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ كيفَ يُرْفَعُ هذا العِلم فقالَ ﷺ: «**إِنَّ الله لاَ يَقْبِضُ الْعِلم انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلم بِقَبْضِ الْعُلَماءِ، حَتَّى إِذَا لم يُبْقِ عَالما اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلم فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[4].

وقد ابْتُلِيَتِ الأُمَّةُ في بِضْعِ سِنينَ خَلَتْ بِفَقْدِ أكابرِ عُلمائِها الَّذين كانوا لها أَمَنَةً منَ الفِتنِ والضَلال، ففقَدتْ بِفَقْدِهم عِلما كثيرًا، وَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

---

(١) صحيح: [ص.ج:٢٢٠٣]، وانظر تحقيق القول فيه في (س.ص:٦٩٥).

(٢) فتح الباري (١٤٣/ ١).

(٣) متفق عليه: خ(٨٠و٨١/ ١٧٨/ ١)، م(٢٦٧١/ ٢٠٥٦/ ٤)، ت(٢٣٠١/ ٣٣٣/ ٣)، جه(٤٠٤٥/ ١٣٤٣/ ٢).

(٤) متفق عليه: خ(١٠٠/ ١٩٤/ ١)، م(٢٦٧٣/ ٢٠٥٨/ ٤)، ت(٢٧٩٠/ ١٣٩/ ٤)، جه(٥٢/ ٢٠/ ١).

أمَّا علم الدُّنيا، أمَّا علـم القـراءةِ والكتابـة، فقـد جعـلَ النبيُّ ﷺ انتشـارَهُ مـنْ علامـاتِ السَّاعةِ فقالَ ﷺ : «**إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الخاصَّةِ، وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ المرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ، وَقَطْعَ الأَرْحَامِ، وَشَهَادَةَ الزُّورِ، وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الحقِّ، وَظُهُورَ الْقَلَمِ**»(١). وقد ظهر القلم، ومُحِيَتْ أُمِّيَّةُ الكثيرِ منَ الرِّجالِ والنِّساءِ، من حيثُ القراءةُ والكتابة، وحلَّتْ محلَّها أُمِّيَّةُ الدِّين، فترى الرَّجلَ يُجيدُ القراءةَ والكتابة، ويُجيدُ اللُّغاتِ الأخرى، ولا يُحسنُ قـراءةَ القـرآنِ الكريم، ولا يُحسنُ الوضوء، ولا يعرفُ أصغرَ المسائلِ من مسائلِ الفقْهِ الأكبرِ أو فقْهِ الفروع.

وقد كَثُرَ الزِّنا كما أخبر النبيُّ ﷺ، ومن أسبابِ كَثْرتِهِ وأسرارِ تفَشِّيهِ ظُهورُ الكاسياتِ العارياتِ اللَّاتِي ظهرْنَ كما أخبر النبيُّ ﷺ حيثُ قـال: «**صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لم أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المائِلَةِ، لاَ يَدْخُلْنَ الجنَّةَ وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا**»(٢).

كما كَثُرَ شُرْبُ الخمر، وصارتْ تُباعُ كما تُباعُ مِياهُ الشُّرْبِ بلا مُراقبٍ ولا مُحاسبٍ ولا مُعاقِب، وسُمِّيَتْ بغيْرِ اسمِها كما أخبر ﷺ حيثُ قال: «**لاَ تَذْهَبُ اللَّيَالِي وَالأَيَّامُ حَتَّى تَشْرَبَ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي الخمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا**»(٣).

أمَّا كثْرةُ النِّساءِ وقِلَّةُ الرِّجالِ فقد «قِيلَ أَنَّ سببَهُ كثْرةُ الفِتَنِ، فيكْثرُ القتلُ في الرِّجالِ لأنَّهم أهْلُ الحرْبِ دونَ النِّساء»(٤). وقد عدّ النبيُّ ﷺ من أشْراطِ السَّاعةِ كثرةَ القتْلِ فقال: «**إنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ أَنْ يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيُقْبَضُ الْعِلم، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: الْقَتْلُ الْقَتْل**»(٥)، وقد كَثُرَ الهَرْجُ في كلِّ مكان، وكَثُرَ القتْلَى من الرجال،

(١) صحيح: [س.ص:٦٤٧]، حم(٧٢/ ٢٠و٣٠/ ٢٤).

(٢) م(٢١٢٨/ ١٦٨٠/ ٣).

(٣) صحيح: [ص.جه:٢٧٢٩]، جه(٣٣٨٤/ ١١٢٣/ ٢).

(٤) فتح الباري (١٧٩/ ١).

(٥) متفق عليه: خ(٧٠٦١/ ١٣/ ١٣)، م(٢٦٧٢-١٥٧-/ ٢٠٥٧/ ٤)، ت(٤٢٣٥/ ٣٣٢/ ١١).

ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ.

ويُحتَملُ أنْ تكونَ قِلَّةُ الرِّجالِ وكَثْرَةُ النِّساءِ « علامةً محْضةً منْ علاماتِ السَّاعة، فيُقَدِّرُ اللهُ في آخرِ الزَّمانِ أنْ يقلَّ مَنْ يولدُ مِنَ الذُّكور، ويَكْثُرَ مَنْ يولدُ من الإناث، قال الحافظ: وكَوْنُ كَثْرَةِ النِّساءِ من العلاماتِ مُناسِبَةٌ لظُهورِ الجهْلِ ورفْعِ العلم. وكأنَّ هذهِ الأمورَ الخمْسةَ خُصَّتْ بالذِّكْرِ لكوْنِها مُشْعِرَةً باخْتِلالِ الأمورِ الَّتي يحصلُ بحفْظِها صلاحُ المعاشِ والمعاد، وهي: **الدِّين**، لأنَّ رفْعَ العلم يُخِلُّ به، **والعقل**، لأنَّ شُرْبَ الخمْرِ يُخِلُّ به، **والنَّسَب**، لأنَّ الزنا يُخِلُّ به، **والنَّفْسُ والمال**، لأنَّ كَثْرَةَ الفِتَنِ تُخِلُّ بهما. قال الكرمانِيُّ: وإنَّما كانَ اخْتِلالُ هذهِ الأمورِ مُؤْذِنًا بخرابِ العالم لأنَّ الخلْقَ لا يُتْرَكُونَ هَمَلاً، ولا نبيَّ بعدَ نَبِيِّنَا صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهم أجمعين»[1].

ومنْ أشْراطِ السَّاعَةِ الَّتي ستكونُ سببًا لكثرةِ القتْلِ انْحِسارُ الفُراتِ عنْ جبلٍ منْ ذَهَب، كما قالَ ﷺ: « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَبٍ، يَقْتَتِلُ النَّاسُ عَلَيْهِ فَيُقْتَلُ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ لَعَلِّي أَكُونُ أَنَا الَّذِي أَنْجُو** »[2].

وقد وصّى النبيُّ ﷺ بعَدَمِ الازْدِحَامِ عليْهِ وعَدَمِ الأخْذِ منْه، فقال ﷺ: «**يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ كَنْزٍ مِنْ ذَهَبٍ فَمَنْ حَضَرَهُ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا**»[3]. ومن الجديرِ بالذِّكْرِ أنَّ كنْزَ الذَّهبِ المذْكورِ في الحديثِ يجبُ حمْلهُ على حقيقتِهِ، ولا يجوزُ تأويلُهُ بأنَّهُ البِتْرُول، لأنَّ الأصلَ في الألفاظِ حملُها على الحقائقِ الَّتي وُضِعَتْ لها.

---

(١) فتح الباري (١٧٩/ ١).

(٢) م(٢٨٩٤/ ٢٢٩١/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ(٧١١٩/ ٧٨/ ١٣)، م(٢٨٩٤-٣١-/ ٢٢٢٠/ ٤)، د(٤٢٩١/ ٤٣٦و٤٣٧/ ١١)، ت(٢٦٩٤/ ١٠١/ ٤).

ومنَ القتالِ الَّذي يكونُ قبلَ يومِ القيامةِ قتالُ المسلمينَ اليهودَ حتى لا يتركوا منهم أحدًا، كما في الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المسْلمونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ المسْلمونَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الحجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلم يَا عَبْدَ الله، هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلاَّ الْغَرْقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»[1].

ومن أشراطِ السَّاعةِ: تفرّقُ الأمّةِ وانْقِسامُها انْقِسامًا يُطَمِّعُ فيها عَدُوَّها، كما قالَ ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا. فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الموْتِ»[2].

ومنْ أشراطِ السَّاعةِ: تكثُّفُ الدُّنيا عندَ مَنْ لا خُلُقَ لهُ ولا دين: كما قالَ ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعٍ»[3].

ومن أشراطِ السَّاعةِ: تطاولُ النَّاسِ في البُنْيَانِ: كما قالَ ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَطَاوَلَ النَّاسُ فِي الْبُنْيَانِ»[4].

ولما سألَ جِبْرِيلُ النبيَّ ﷺ: «أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا المسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلم مِنَ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرَى الحفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»[5]. وقد تطاولوا في الْبُنْيَانِ، حتى تطاولوا في القُبورِ الَّتي لا يجوزُ بناؤها أصْلاً ولا رفْعُها فوقَ الأرض.

(١) متفق عليه: خ(٢٩٢٦/ ١٠٣/ ٦)، م(٢٩٢٢/ ٢٢٣٩/ ٤) واللفظ له.

(٢) صحيح: [ص.د:٣٦١٠]، د(٤٢٧٦/ ٤٠٤/ ١١).

(٣) صحيح: [ص.ت:٢٢٠٩]، ت(٢٣٠٥/ ٣٣٤/ ٣).

(٤) صحيح: [ص.خد:٣٥٠]، حم(١٠٨٥٨/ ٤٩٩/ ١٦).

(٥) م(٨/ ٣٦/ ١)، ت(٢٧٣٨/ ١١٩-١٢١/ ٤)، د(٤٦٧٠/ ٤٥٩-٤٦٤/ ١٢)، جه(٦٣/ ٢٤و٢٥/ ١).

ومن أشراطِ السَّاعةِ: أَنْ يُرْفَعَ الوضيعُ، وأَنْ يتكلم في الأمورِ المهِمَّةِ فَيُصدَّقَ فيما يقولُ ويُكَذَّبَ أهلُ الفَضْل: كما قال النبيُّ ﷺ: « **سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ: يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الخائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ. قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ**»[1].

ومن أشراطِ السَّاعةِ نَزْعُ البرَكةِ منَ الوَقْت: كما قالَ النبيُّ ﷺ: « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الجمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَاحْتِرَاقِ السَّعَفَةِ**»[2].

ومن أشراطِ السَّاعةِ كثْرَةُ الزَّلازِل: كما قالَ النبيُّ ﷺ: « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلم، وَتَكْثُرَ الزَّلاَزِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ المالُ فَيَفِيضَ**»[3].

ومن أشراطِ السَّاعةِ حِرْصُ النَّاسِ على الدُّنيا حِرْصًا يجعلُهم لا يُبالُونَ بما كسَبُوا أَمِنَ الحلالِ هو؟ أم منَ الحرام؟ كما قال النبيُّ ﷺ: «**يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي المرْءُ مَا أَخَذَ مِنْهُ أَمِنَ الحلاَلِ أَمْ مِنَ الحرَامِ**»[4].

ومن أشراطِ السَّاعةِ انْسِلاخُ المسْلمينَ منْ شَخْصِيَّتِهِمُ المتَمَيِّزَةِ ومبادئهِمُ القيِّمَةِ، وتقليدُهمُ الكفَرةَ الفَجَرة، كما قال النبيُّ ﷺ: « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَأْخُذَ أُمَّتِي بِأَخْذِ الْقُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، فَقِيلَ يَا رَسُولَ الله! كَفَارِسَ وَالرُّومِ؟ فَقَالَ: وَمَنِ النَّاسُ إِلاَّ أُولَئِكَ**»[5].

(١) صحيح: [ص.جه:٣٢٦١]، جه(٤٠٣٦/ ١٣٣٩و١٣٤٠/ ٢).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٣٣٢]، ت(٢٤٣٤/ ٣٨٧و٣٨٨/ ٣) من حديث أنس، حم(١٠٦/ ٤٠١/ ٢٤) من حديث أبي هريرة.

(٣) خ(١٠٣٦/ ٥٢١/ ٢).

(٤) خ(٢٠٥٩/ ٢٩٦/ ٤)، ن(٢٤٣/ ٧).

(٥) خ(٧٣١٩/ ٣٠٠/ ١٣).

ومن أشراطِ السَّاعةِ تَباهِي النَّاسِ في المساجد، وافتخارُ كلِّ حيٍّ بأَنَّ مسجدَهم أحسنُ عِمارةً من مسجدِ غيْرِهم، كما قال النبيُّ ﷺ: « **لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَبَاهَى النَّاسُ فِي المَسَاجِدِ**»(١).

ومن أشراطِ السَّاعةِ عَدَمُ قِسْمَةِ المواريث، وعَدَمُ الغنائمِ بسببِ تَرْكِ الجهاد، كما قال النبيُّ ﷺ: « **إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَقُومُ حَتَّى لاَ يُقْسَمَ مِيرَاثٌ وَلاَ يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ**»(٢).

ومن أشراطِ السَّاعةِ فسادُ الأخلاق، كما قال النبيُّ ﷺ: « **مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَتَخْوِينُ الأَمِينِ، وائْتِمَانُ الخَائِنِ**»(٣).

ومنْ أشراطِ السَّاعةِ: أَنْ يَنْتَشِرَ الإِسْلامُ ويظهرَ على سائرِ الأَدْيان، حتَّى يدْخُلَ جميعَ القُرَى والأَمْصَار، وتعودَ الخلافةُ الرَّاشِدَةُ التي فقَدها المسْلمونَ منذُ سُقوطِ الخلافةِ العُثْمَانِيَّةِ:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « لاَ يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللاَّتُ وَالْعُزَّى، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ حِينَ أَنْزَلَ اللهُ ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[التوبة:٣٣]، أَنَّ ذَلِكَ تَامًّا. قَالَ: إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لاَ خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»(٤).

وَعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا»(٥).

---

(١) صحيح: [ص.د:٤٣٢]، د(٤٤٥/ ١١٨/ ٢)، ن(٣٢/ ٢)، جه(٧٧٣٩/ ٢٤٤/ ١).

(٢) م(٢٨٩٩/ ٢٢٢٣و٢٢٢٤/ ٤).

(٣) صحيح: [ص.ج:٥٧٧٠]، طس(١٣٧٨/ ٩٣/ ٢).

(٤) م(٢٩٠٨/ ٢٢٣٠/ ٤).

(٥) م(٢٨٨٩/ ٢٢١٥/ ٤)، ت(٢٢٦٧/ ٣١٩/ ٣)، د(٤٢٣٢/ ٣٢٢/ ١١).

وَعَنِ المِقْدَادِ بنِ الأَسْوَدِ قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهارُ، لا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلا وَبَرٍ إلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّين، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الإسْلامَ، وَذُلاًّ يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ»(١).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًا فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيًّا فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ»(٢).

وستكونُ القُدْسُ عاصِمَةَ تلكَ الخلافة، فإذا كانَ ذلكَ فقد صارتِ السَّاعةُ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، كما في الحديث:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوَالَةَ الأَزْدِيُّ وَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى رَأْسِي ثُمَّ قَالَ: «يَا ابْنَ حَوَالَةَ إِذَا رَأَيْتَ الخلاَفَةَ قَدْ نَزَلَتْ أَرْضَ المقَدَّسَةِ فَقَدْ دَنَتِ الزَّلاَزِلُ وَالْبَلاَبِلُ، وَالأُمُورُ الْعِظَامُ، وَالسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنَ النَّاسِ مِنْ يَدِي هَذِهِ مِنْ رَأْسِكَ»(٣).

❑ ❑ ❑

---

(١) صحيح: [س.ص:٣]، حب(١٦٣١و١٦٣٢/ ٣٩٣و٣٩٤).

(٢) صحيح: [س.ص:٥]، حم(١٥/ ١٠/ ٢٣).

(٣) صحيح: [ص.د:٢٢١٠]، د(٢٥١٨/ ٢٠٩و٢١٠/ ٧).

الإيمان بالمهدي واجب

عَنْ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَوْ لم يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلاً مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا »[1].

تحدَّثْنَا عنْ أشْراطِ السَّاعةِ وتَغَيُّرِ الزَّمَن، وظُهورِ الشُّرورِ والفِتَن، وقلنا أَنَّ العاقبةَ ستكونُ للإسْلامِ وأهْلِه، وأَنَّ الإسْلامَ سَيظْهرُ على كُلِّ الأدْيان، وينتشرُ في أرْجَاءِ المعْمُورَة، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مدَرٍ ولا وَبَرٍ ولا حَجرٍ إلاَّ أدخلهُ الإسلام، بعزِّ عزيزٍ، أوْ بذُلِّ ذليل، وأَنَّ الخلافةَ ستعودُ للمسلمينَ وتكونُ عاصِمَتُها القُدس، فإنْ كانَ ذلكَ قريبًا فذلكَ الفَضْلُ منَ الله، وإلاَّ فإنَّهُ سيكونُ يومًا ما ولا بُدَّ، حتَّى لو لم يبقَ منَ الدُّنيا إلاَّ يومٌ واحدٌ لطوَّلَ اللهُ ذلكَ اليومَ حتَّى يتحقَّقَ فيه ذلكَ الموْعُود، على يدِ رجلٍ منْ آلِ البَيْتِ يُسمَّى محمَّدَ بنَ عَبْدِ الله، يُمَكِّنُ اللهُ له في الأرض، فيُخلِّصَ المسلمينَ من الذُّلِّ والهوان الذي أصابهم، ويملأَ الأرضَ قِسْطًا وعدلاً.

قالَ صاحبُ « عَوْنِ المعْبُودِ شرْحِ سُنَنِ أبي داود »:

« اعْلم أَنَّ المشهورَ بَيْنَ الكافَّةِ منْ أهلِ الإسلام على مَمَرِّ الأعْصارِ أَنَّهُ لا بُدَّ في آخرِ الزَّمانِ منْ ظُهورِ رجُلٍ منْ أهلِ البَيْتِ يُؤيِّدُ الدِّينَ، ويُظْهرُ العدْلَ، ويتَّبِعُهُ المسلمون، ويسْتَوْلي على الممالكِ الإسْلاميَّة، ويُسمَّى بالمهْدي، ويكونُ خروجُ الدَّجَّالِ وما بعده منْ أشراطِ السَّاعةِ الثَّابتةِ في الصَّحيحِ على أَثَره، وأَنَّ عيسى عليهِ السَّلامُ ينزلُ من بعدهِ فيقتلُ الدَّجَّالَ، أو ينزلُ معهُ فيساعِدهُ على قتْلِه، ويأتمُّ بالمهدي في صلاتِه.

---

(١) حسن صحيح: [ص.د:٣٦٠١]، د(٤٢٦٢/ ٣٦٩-٣٧١/ ١١)، ت(٢٣٣١و٢٣٣٢/ ٣٤٣/ ٣).

وقد أخرجَ أحاديثَ المهدي جماعةٌ من الأئمَّةِ منهم أبو داودَ، والترمذيُّ وابنُ ماجة، والبزَّارُ، والحاكمُ، والطَّبرانيُّ، وأبو يعْلَى الموصِليُّ، وأسْنَدُوها إلى جماعةٍ منَ الصَّحابةِ مثْلَ: عليٍّ، وابنِ عبَّاسٍ، وابنِ عمر، وطلحةَ، وعبدِ الله بنِ مسعود، وأبي هريرةَ، وأنسٍ، وأبي سعيدٍ الخدْري، وأمِّ حبيبةَ، وأمِّ سلمةَ وثوبانَ، وقُرَّةَ بن إياسٍ، وعليٍّ الهلاليِّ، وعبدِ الله بنِ الحارثِ بنِ جُزْءٍ، رضي الله عنهم أجمعين. وإسنادُ الأحاديثِ بيْنَ صحيحٍ وحَسَنٍ وضعيف»[1].

ومن هذه الأحاديث:

عَنْ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ لم يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ يَوْمٌ لَطَوَّلَ اللهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ حَتَّى يَبْعَثَ فِيهِ رَجُلاً مِنِّي أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَجَوْرًا».

وَعَنْ عَلِي رَضِي اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ لم يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إِلاَّ يَوْمٌ لَبَعَثَ اللهُ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَمْلَؤُهَا عَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا»[2].

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المَهْدِيُّ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ يُصْلِحهُ اللهُ فِي لَيْلَةٍ»[3]، قال ابنُ كثيرٍ: «أيْ يتوبُ عليْهِ ويُوَفِّقُهُ، ويُفَهِّمُهُ ويُرْشِدُه، بعدَ أنْ لم يكنْ كذلك»[4].

وَعَنْ أُمِّ سَلمةَ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «المَهْدِيُّ مِنْ عِتْرَتِي مِنْ وَلَدِ فَاطِمَةَ»[5].

(١) عون المعبود (٨٤/ ١١).

(٢) صحيح: [ص.د:٣٦٠٢]، د(٤٢٦٣/ ٣٧٢و٣٧٣/ ١١).

(٣) حسن: [ص.جه:٣٣٠٠]، جه(٤٠٨٥/ ١٣٦٧/ ٢).

(٤) النهاية في الفتن والملاحم (٢٦).

(٥) صحيح: [ص.د:٣٦٠٣]، د(٤٢٦٤/ ٣٧٣/ ١١)، جه(٤٠٨٦/ ١٣٦٨/ ٢).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَتُمْلأَنَّ الأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا، فَإِذَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا بَعَثَ اللهُ رَجُلاً مِنِّي، اسْمُهُ اسْمِي، وَاسْمُ أَبِيهِ اسْمُ أَبِي، فَيَمْلَؤُهَا عَدْلاً وَقِسْطًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا، فَلا تَمْنَعُ السَّمَاءُ شَيْئاً مِنْ قَطْرِهَا، وَلا الأَرْضُ شَيْئاً مِنْ نَبَاتِهَا، يَمْكُثُ فِيكُمْ سَبْعاً، أَوْ ثَمَانِياً، فَإِنْ أَكْثَرَ فَتِسْعاً»[1].

وَعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « يَكُونُ فِي أُمَّتِي المَهْدِيُّ إِنْ قُصِرَ فَسَبْعٌ وَإِلاَّ فَتِسْعٌ فَتَنْعَمُ فِيهِ أُمَّتِي نِعْمَةً لم يَنْعَمُوا مِثْلَهَا قَطُّ تُؤْتَى أُكُلَهَا وَلاَ تَدَّخِرُ مِنْهُمْ شَيْئًا وَالمالُ يَوْمَئِذٍ كُدُوسٌ فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ يَا مَهْدِيُّ أَعْطِنِي فَيَقُولُ خُذْ»[2].

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « المَهْدِيُّ مِنِّي أَجْلَى الجَبْهَةِ أَقْنَى الأَنْفِ يَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلاً كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا وَظُلْمًا يَمْلِكُ سَبْعَ سِنِينَ»[3].

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْثُو المالَ حَثْيًا لاَ يَعُدُّهُ عَدَدًا»[4].

قالَ الأَلْبَانِيُّ: «هُوَ المهْدِي المبَشَّرُ بخُروجهِ بيْنَ يَدَيْ نزُولِ عيسَى علَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلام، ويُصلِّي عيسى خلْفَهُ كما في حديثِ أبي سعيدٍ الخدْريِّ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: « مِنَّا الَّذِي يُصَلِّي عيسَى بنُ مَرْيَمَ خَلْفَهُ»[5] »[6].

فإِنْ قالَ قائلٌ: لم لم يَرِدْ ذِكْرُ المهْدِيِّ في القرآنِ الكريم؟

---

(١) صحيح: [ص.ج:٤٩٤٩]، بز(٣٣٢٥/ ١١٣و١١٤/ ٤)، طب(٦٨/ ٣٢/ ١٩)، طس(٨٣٢٥/ ٢١٧و٢١٨/ ٨).

(٢) حسن: [ص.جه:٣٢٩٩]، جه(٤٠٨٣/ ١٣٦٦/ ٢).

(٣) حسن: [ص.د:٣٦٠٤]، د(٤٢٦٥/ ٣٧٥/ ١١).

(٤) م(٢٩١٤/ ٢٢٣٥/ ٤).

(٥) صحيح: [ص.ج:٥٧٩٦]، وعزاه السيوطي لأبي نعيم في « كتاب المهدي».

(٦) هامش [ص.ج:٢١٧/ ٣].

فالجوابُ: قد جاءَ ذِكْرُ المهْديِّ في القرآنِ الكريم في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[الحشر]،وفي قولِهِ تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم]، ولذلك قالَ ﷺ: «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ»، فأَخْبَارُهُ ﷺ كلُّها حَقٌّ وصِدْقٌ، وَأَوَامِرُهُ واجبة، لقولِهِ تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور]، فإذا تبيَّنَ ذلكَ، وعُلم أنَّ النبيَّ ﷺ أخبرَ بظُهورِ المهْدِيِّ كان التَّصْديقُ بذلك واجبًا.

فإنْ قالَ قائلٌ: لكنَّهُ لم يُذْكَرْ في الصَّحِيحَيْن، ولو كانتْ أحاديثُهُ صحيحةً لخرَّجَها الشَّيْخان؟

فالجوابُ:

« إنَّ إعْراضَ البُخاريِّ ومُسْلم عنْ إخْراجِ أحاديثِ المهدِيِّ في صَحِيحَيْهما لا يدلُّ على عدَمِ ثُبوتِها عنْدَهُما، فكم منْ حديثٍ صحيحٍ عنْدَهُما ولم يُخرِّجاه، وقد قالَ البُخارِيُّ: لم أُخَرِّجْ في هذا الكتابِ إلاَّ صحيحًا، وما تركتُ منَ الصَّحيحِ أكثَر. وقال مُسْلم: ما أدْخَلْتُ في كتابي الجامعِ إلاَّ ما صحَّ، وتركتُ منَ الصَّحيحِ حتَّى لا يطُول.

ومع ذلكَ فقدْ جاءتِ الإشارةُ إلى المهدِيِّ في عِدَّةِ أحاديثَ في الصَّحِيحَيْنِ ومنْ هذهِ الأحاديث:

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: عَبَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي مَنَامِهِ[1]، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: صَنَعْتَ شَيْئًا فِي مَنَامِكَ لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ. فَقَالَ: الْعَجَبُ إِنَّ نَاسًا مِنْ أُمَّتِي يَؤُمُّونَ بِالْبَيْتِ بِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ لَجَأَ بِالْبَيْتِ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالْبَيْدَاءِ خُسِفَ بِهِمْ. فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ الطَّرِيقَ قَدْ يَجْمَعُ النَّاسَ! قَالَ: نَعَمْ. فِيهِمُ الْمُسْتَبْصِرُ وَالْمَجْبُورُ وَابْنُ السَّبِيلِ، يَهْلِكُونَ مَهْلَكًا وَاحِدًا، وَيَصْدُرُونَ

(١) أيْ اضطرب بجسمه، أو حرك أطرافه كمن أخذ شيئاً أو يدفعه، شرح مسلم النووي (٦و١٨/٧).

مَصَادِرَ شَتَّى، يَبْعَثُهُمُ اللهُ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»[١].

وقد روى البُخاريُّ حديثَ عائشةَ هذا بلفظ « يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»[٢].

ومنها: حديثُ أمِّ سَلمةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ كَارِهًا؟ قَالَ: يُخْسَفُ بِهِ مَعَهُمْ وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نِيَّتِهِ»[٣].

والخسْفُ المذْكُورُ في هذهِ الأحاديثِ لم يقَعْ إلى الآنَ، وسيقعُ في آخرِ الزَّمانِ إذا ظهرَ المهْدِيُّ ودَنا قِيامُ السَّاعة.

ومنها حديثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يَكُونُ فِي آخِرِ أُمَّتِي خَلِيفَةٌ يَحْثِي الْمَالَ حَثْيًا لاَ يَعُدُّهُ عَدَدًا»[٤]، وهذا الحديثُ الذي رواهُ مُسْلم موافقٌ للأحاديث المصرَّحةِ بأنَّ هذه الصفة صفة المهدي.

ومنها: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ»[٥].

قال الحافظُ في الفَتْحِ: « قالَ أبو الحسَنِ الأبَدِيُّ في مناقبِ الشَّافِعِيِّ: تواترَتِ الأخْبارُ بأَنَّ المهْديَّ منْ هذهِ الأمَّة، وأَنَّ عيسَى يُصَلِّي خَلْفَه»[٦].

---

(١) م(٢٨٨٤/ ٢٢١٠و٢٢١١/ ٤).

(٢) خ(٢١١٨/ ٣٣٨/ ٤).

(٣) م(٢٨٨٢/ ٢٢٠٨و٢٢٠٩/ ٤)

(٤) م(٢٩١٣/ ٢٢٣٤/ ٤).

(٥) متفق عليه: خ(٣٤٤٩/ ٤٩١/ ٦)، م(١٥٥-٢٤٤-/ ١٣٦/ ١).

(٦) فتح الباري (٤٩٣و٤٩٣/ ٦).

ومنها: حديثُ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « **لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ فَيَقُولُ: أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لاَ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الأُمَّةَ**»[1].

فإِنْ قالَ قائلٌ: هلاَّ وَصَفْتَهُ لنا فعَرَفْناه؟ فالجوابُ: نعم:

اسْمُهُ: مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ الله. وشُهْرَتُهُ: المهْدِيُّ. كُنْيَتُهُ أَبُو عَبْدِ الله. لَقَبُهُ: الجابِرُ: « لأَنَّهُ يَجْبُرُ قلوبَ أُمَّة محمَّدٍ ﷺ، ولأَنَّهُ يقْهرُ الجبَّارينَ والظَّالمينَ ويقْضي عليهم »[2].

نَسَبُه: منْ آلِ الْبَيْتِ، منْ أوْلادِ الحسنِ بنِ فاطمةَ بنْتِ رسولِ الله ﷺ. مَوْلِدُهُ: المدينةُ المنَوَّرَة. مُهَاجِرهُ: بيتُ المقْدِس. عُمُرُهُ وقْتَ ظُهورِه: أربعونَ سَنة. مُدَّةُ مُكْثِهِ في الأرْض: سَبْعُ سنينَ أوْ ثَمانٍ، وإِنْ أكثرَ فتِسْعٌ. طوله: مربوعٌ ليْسَ بالطَّويلِ ولا بالقَّصير. لَوْنُه: مُشْرَبٌ بحُمْرَة. صِفَتُه: أجْلَى الجبْهَة. أقْنَى الأنْف، أرَقُّ الحاجِبَيْن، كثُّ اللِّحيَة، برَّاقُ الثَّنَايَا أفْرَقُها.

خُروجُه: يخرجُ في آخرِ الزَّمانِ عندَ فسادِ النَّاسِ، وكَثْرةِ الفِتَن، وظُهورِ الجهْل، وتعاطِي الرِّبا وشُرْبِ الخمْرِ، وانْتِشَارِ الزِّنا. مُبايَعتُه: يُبايَعُ مُكْرَهًا بيْنَ الرُّكْنِ والمقام. علاماتُ ظُهورِه: «خَسْفٌ بالجيْشِ الَّذِي يَقْصُدُهُ، كَمَا في الأحاديثِ السَّابقة، ولعلَّ من أهمِّ علاماتِ ظهورِه انْحِسَارَ الفُراتِ عنْ جبلٍ منْ ذهبٍ كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**يُوشِكُ الْفُرَاتُ أَنْ يَحْسِرَ عَنْ كَنْزٍ مِنْ ذَهَبٍ فَمَنْ حَضَرَهُ فَلاَ يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا**»[3]، فلا يأخذْ منْهُ شيْئًا، فما هِيَ إلاَّ أيامٌ ويخرجُ المهْديُّ، يحْثُو المالَ حَثْيًا ولا يعدُّهُ عدًّا.

---

(١) م(١٥٦/ ١٣٧/ ١).

(٢) لوامع الأنوار البهية (٧٢/ ٢).

(٣) متفق عليه: (٧١١٩/ ٧٨/ ١٣)، م(٢٨٩٤-٣١-/ ٢٢٢٠/ ٤)، د(٤٢٩١/ ٤٣٦و٤٣٧/ ١١)، ت(٢٦٩٤/ ١٠١/ ٤).

سيرتُه: قال أهلُ العلم: يعملُ بسنَّةِ النَّبيِّ ﷺ، لا يوقِظُ نائماً، ولا يتركُ سنَّةً إلاَّ أقامها، ولا بدْعةً إلاَّ أماتها، يقومُ بالدِّينِ في آخرِ الزَّمان، كما قام به النبيُّ ﷺ أوَّله، يمْلِكُ الدُّنيا كلَّها كما ملَكَها ذو القرْنَيْن وسُلَيْمانُ بنُ داود، يملأُ الدُّنيا قِسْطًا وعَدْلاً، كما مُلِئَتْ ظُلْما وجَوْرًا، يحْثُو المالَ حَثْوًا ولا يعدُّه عدًّا، يقْسِمُ المالَ صِحَاحًا بالسَّوِيَّة، يملأُ قلوبَ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ غنًى، وتنْعمُ الأُمَّةُ في زمانِه نِعْمةً لم يسْمَعُوا بها قط، وتُرْسَلُ السَّماءُ عليهم مِدْرارًا، لا تدَّخِرُ منَ قَطْرِها، وتُؤْتِي الأرْضُ أُكلَها، لا تدَّخِرُ عنْهم شيئاً، تجري على يديْهِ الملاحِمُ، يستخْرِجُ الكُنوزَ ويفْتَحُ الحصون، ويأوي إليه النَّاسُ كما يأوي النَّحْلُ إلى يَعْسوبِه، حتى يكونَ النَّاسُ على مِثْلِ أمْرِهِمُ الأوَّل، ترْعَى الشَّاةُ والذِّئْبُ في زمانِه في مكانٍ واحد، ويلْعَبُ الصِّبْيانُ بالحيَّاتِ والعَقارب لا تضرُّهم شيْئاً، ويُرْفَعُ الرِّبا والزِّنا وشُرْبُ الخمر، وتُؤدَّى الأمانة، ويُهْلَكُ الأشْرار، يُطْفِئُ اللهُ به الفِتْنَةَ العَمْياء، وينْشُرُ بِهِ الأمنَ والأمان»[1]. فطُوبى لمنْ أدْرَكه وكان من أنْصاره، والويْلُ كُلُّ الويْلِ لمنْ خالفَه وعصَى أمْرَه.

وَهكذا ظهر لنا أنَّ خيْرًا عظيمًا قادِمٌ على المسْلمينَ بإذْنِ الله. فإنْ قال قائل: لقد بشَّرْتَنا وروّحْتَ عن نُفوسِنا وأذْهبْتَ عنْها اليَأْسَ، لكنا سَمِعْنا حديثًا عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: « **لاَ يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلاَّ الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ**»[2]، فكيف الجمْعُ بيْنَ الحديثِ وبيْنَ ما بشَّرْتَنا به من الخيْرِ العظيم؟ فالجواب: «ينْبغِي أَنْ يُفْهمَ هذا الحديثُ على ضَوْءِ الأحاديثِ المتقدِّمَة، فإنَّها تدلُّ على أنَّ هذا الحديثَ ليْسَ على عمُومه، بل هو من العامِّ المخْصوص، فلا يجوزُ إفْهامُ النَّاس أنَّه على عُمومِه فيقَعُوا في اليَأْسِ الَّذي لا يصِحُّ أَنْ يتَّصِفَ به المؤْمِنُ، ﴿ **إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِّ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**(٨٧)﴾[يوسف]»[3].

---

(١) لوامع الأنوار البهية (٧٢-٧٦/ ٢).

(٢) خ(٧٠٦٨/ ١٩و٢٠/ ١٣)، ت(٢٣٢٠/ ٣٣٣/ ٣).

(٣) السلسلة الصحيحة الألباني (١٠/ ١).

فإنْ قالَ قائِلٌ: هل وُلِدَ المهْدِيُّ أمْ لا؟ وهل سَننتَظِرُ كثيراً حتى يخْرُجَ المهْدِيُّ؟

فالجواب: لا يعْلم الغيْبَ إلاَّ الله، هل وُلِدَ المهْدِيُّ أمْ لا؟ وإذا كانَ موْجُودًا فكم بَقِيَ على ظُهوره؟ كلُّ ذلِكَ مِنَ الغَيْبِ الَّذِي يَجِبُ إمْسَاكُ اللِّسانِ عَنِ الخوْضِ فيه لأنَّ المهْدِيَّ نفْسَهُ بعد ميلاده لَنْ يعْرِفَ أنَّهُ المهْدِيُّ المنْتَظرُ إلاَّ بعْدَ مُبَايعةِ النَّاسِ له وهو كارِهُ، وهذا معنى قوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «يُصْلحهُ اللهُ فِي لَيْلَةٍ» كما قال اللهُ تعالى في حقِّ النَّبيِّ ﷺ قبْلَ الوَحْيِ: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ(٨٦) ﴾[القصص].

فإنْ قالَ قائِلٌ: وهل سَيبْقَى الوَضْعُ على ما هُوَ عَلَيْهِ حتَّى يخْرُجَ المهْدِيُّ؟

فالجوابُ: اللهُ أعْلم، لكنَّنا نُهينَا عن التَّواكُل، فلا يجوزُ القُعودُ والخلودُ إلى الأرْض، وادِّعاءُ أنَّه لَيْسَ في الإمْكانِ أحْسَنُ ممَّا كان، وعَلَيْنا أنْ نَنْتظِرَ المهْدِيَّ لِيُخلِّصَنا ممَّا نحنُ فيه، بل عَلَيْنا أنْ نسْعَى ونجْتَهِدَ لرَفْعِ الظُّلم وعَوْدةِ المسْلمينَ إلى دينهم، فإنْ كانَ فرجٌ قريبٌ قبلَ المهْدِيِّ فذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ الله، وإلاَّ فَحسْبُنَا أنَّنا بذَلْنا ما فِي وُسْعِنا وتوكلْنا على الله ربِّنا.

﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٥)﴾ [الممتحنة].

❑ ❑ ❑

المسيح الدجال

عَنْ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ»(١).

قال النَّوَوِيُّ: «المُرادُ أكْبَرُ فِتْنَةً وأعْظَمُ شَوْكَةً»(٢)، وقال القُرْطُبِيُّ: «إنَّما يعْنِي بذلكَ عِظَمَ فِتْنتهِ، وكِبَرَ مِحْنَتهِ، إذْ لَيْس بيْنَ يدَي السَّاعةِ أعْظَمُ ولا أكْبَرُ منْها»(٣).

النَّاسُ – بالنِّسْبَةِ للإيمانِ – ثلاثَةُ أقْسامٍ: مؤْمنُونَ، وكَافِرُونَ، ومُنَافِقُونَ، والإيمانُ في قلُوبِ المُؤْمنِينَ مُتَفَاوِتٌ، فمِنْهمُ القويُّ ومنْهمُ الضَّعيف، لذلك اقتَضَتْ حِكْمَةُ الله تعالى أَنْ يَبْتلِيَهم ﴿لِيَمِيزَ الله الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ(٣٧)﴾[الأنفال]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مَثَلاً(٢٦)﴾[البقرة]، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ(٦٠)﴾[الإسراء]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالمؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ(٣١)﴾[المدثر]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ الله ءَايَاتِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلم

---

(١) م(٢٩٤٦-١٢٧-/ ٢٢٦٧/ ٤).

(٢) شرح مسلم النووي (١٧/ ١٨).

(٣) المفهم (٢٩١/ ٧).

أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٤)﴾[الحج]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ(١٤٣)﴾[البقرة].

وقالَ تعالى في مُصَابِ المُسْلِمِينَ يوْمَ أُحُدٍ: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(١٤٠)وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(١٤١)﴾[آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ المؤْمِنِينَ(١٦٦)وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ(١٦٧)﴾[آل عمران].

وقالَ في يوْمِ الأحْزَابِ: ﴿وَلَمَّا رَأَى المؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا(٢٢)﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ المنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا(١٢)﴾[الأحزاب].

وقد بيَّنَ ربُّ العَالَمِينَ سُبْحانَهُ أَنَّ هذهِ سُنَّتُهُ في الأوَّلين، فقالَ تعالى: ﴿ألم(١)أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ(٢)وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ(٣)﴾[العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ(١٠)وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ المنَافِقِينَ(١١)﴾[العنكبوت].

فلا بد من وقوع الفتن: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ(٣٧)﴾[الأنفال]، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ(١٤١)﴾[آل عمران].

وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ مِنَ الْفِتَنِ قبْلَ وقُوعِها لِيَأْخُذوا حِذْرَهم منْها، فقال ﷺ : «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً، فَمِنَّا مَنْ يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ[2]، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ[3]، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ الصَّلاَةَ جَامِعَةً، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاَءٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا[4]، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»[5].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ قَالَ: كُنَّا قُعُودًا عِنْدَ رَسُولِ الله فَذَكَرَ الْفِتَنَ فَأَكْثَرَ فِي ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكَرَ فِتْنَةَ الأَحْلاَسِ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا فِتْنَةُ الأَحْلاَسِ؟ قَالَ: هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ[6]، ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاءِ[7] دَخَنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يَزْعُمُ أَنَّهُ مِنِّي وَلَيْسَ مِنِّي،

---

(١) م(١١٨/ ١١٠/ ١)، ت(٢٢٩١/ ٣٣٠/ ٣).

(٢) هو من المناضلة، وهي المراماة بالسهام.

(٣) هي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها.

(٤) يعني أنَّ الفتنة تجيء فيراها المؤمن عظيمة، فإذا جاءته أخرى رأى أنَّ الأولى كانت خفيفة بالنسبة إلى الأخرى، وهكذا.

(٥) م(١٨٤٤/ ١٤٧٢و١٤٧٣/ ٣)، ن(١٥٣/ ٧).

(٦) أيْ يفر بعضهم من بعض لِمَا بينهم من العداوة والمحاربة، والحرب بالتحريك نهب مال الإنسان وتركه لا شيء له. (عون المعبود [٣٠٩/ ١١]).

(٧) أيْ النعماء التي تسر الناس من الصحة والعافية من البلاء والوباء.

وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِي المتَّقُونَ، ثُمَّ يَصْطَلِحُ النَّاسُ عَلَى رَجُلٍ كَوَرِكٍ عَلَى ضِلَعٍ[1]، ثُمَّ فِتْنَةُ الدُّهَيْمَاءِ[2] لاَ تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلاَّ لَطَمَتْهُ لَطْمَةً، فَإِذَا قِيلَ انْقَضَتْ تَمَادَتْ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى فُسْطَاطَيْنِ فُسْطَاطِ إِيمَانٍ لاَ نِفَاقَ فِيهِ، وَفُسْطَاطِ نِفَاقٍ لاَ إِيمَانَ فِيهِ، فَإِذَا كَانَ ذَاكُمْ فَانْتَظِرُوا الدَّجَّالَ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ مِنْ غَدِهِ»[3].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ: أَيُّكُمْ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ؟ فَقَالَ قَوْمٌ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَجَارِهِ؟ قَالُوا: أَجَلْ، قَالَ: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصِّيَامُ وَالصَّدَقَةُ، وَلَكِنْ أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَذْكُرُ الْفِتَنَ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجَ الْبَحْرِ. قَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَسْكَتَ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: أَنَا، قَالَ: أَنْتَ لله أَبُوكَ. قَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[4].

وقد حَرِصَ كلُّ مَنْ جمعَ سُنَّةَ النَّبيِّ ﷺ مِنْ أصْحَابِ السَّنَنِ والمَسَانِيدِ على جَمْعِ أحَادِيثِ الفِتَنِ في كتابٍ مُسْتَقِلٍّ منْها سمَّوْهُ «كتابَ الفِتَنِ» تَجِدُ ذلِكَ في الصَّحِيحَيْنِ، والسُّنَنِ الأَرْبَعَةِ، ومُسْنَدِ أحمد، وغَيْرِهَا مِنْ كُتُبِ السُّنَّةِ، وأفْرَدَهَا بعْضُهم بكُتُبٍ مُسْتقِلَّة.

---

(١) قال الخطابي: هو مثل، ومعناه الأمر الذي لا يثبت ولا يستقيم، وذلك لأنَّ الضلع لا يقوم بالورك يريد أنَّ هذا الرجل غير خليق للملك ولا مستقل به. (عون المعبود [٣١٠/ ١١]).

(٢) أي الفتنة العظماء والطامة العمياء والتصغير فيها للذم.

(٣) صحيح: [ص.د:٣٥٦٨]، د(٤٢٢٤/ ٣٠٨-٣١١/ ١١).

(٤) متفق عليه: خ(٥٢٥/ ٨/ ٢)، م(١٤٤/ ١٢٨-١٣٠/ ١)، ت(٢٣٥٩/ ٣٥٧و٣٥٨/ ٣).

ومِنْ أعْظَمِ الفِتَنِ ضررًا، وأشدِّها خطرًا، فِتْنَةُ المَسِيح الدَّجال، ولذلِكَ قالَ النَّبيُّ ﷺ :
« مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ»[1].

قالَ النَّوَوِيُّ: «المُرادُ أكبَرُ فِتْنَةً وأعْظَمُ شَوْكَةً»[2]، وقال القُرْطُبِيُّ: « إِنَّمَا يعْنِي بذلِكَ عِظَمَ فِتْنَتِهِ، وكِبَرَ مِحْنَتِهِ، إذْ لَيْسَ بيْنَ يدَيِ السَّاعةِ أعْظَمُ ولا أكْبَرُ منْها»[3].

ولِعَظِيمِ ضرَرِهِ أشْفَقَ كلُّ نبيٍّ منْهُ على قَوْمِهِ وحذَّرهم منْه، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ : « مَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلاَّ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ»[4]، فلَمَّا لَمْ يَخْرُجْ وكان نبيُّنَا ﷺ خاتَمَ الأنْبِياء، وأُمَّتُه آخِرَ الأُمَمِ، وكان لا بُدَّ مِنْ خُروجِه فيهم، فقدْ أكْثرَ النَّبيُّ ﷺ من التَّحْذِيرِ منْه، ووَصَفَهُ بِمَا لَمْ يَصِفْهُ غيْرُه مِنَ الأنْبِيَاء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَلاَ أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عَنِ الدَّجَّالِ مَا حَدَّثَ بِهِ نَبِيٌّ قَوْمَهُ؟ إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّهُ يَجِيءُ مَعَهُ بِمِثَالِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَالَّتِي يَقُولُ إِنَّهَا الْجَنَّةُ هِيَ النَّارُ، وَإِنِّي أُنْذِرُكُمْ كَمَا أَنْذَرَ بِهِ نُوحٌ قَوْمَهُ»[5].

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الدَّجَّالِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لاَ تَعْقِلُوا، إِنَّ مَسِيحَ الدَّجَّالِ رَجُلٌ قَصِيرٌ أَفْحَجُ[6] جَعْدٌ أَعْوَرُ، مَطْمُوسُ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَاتِئَةٍ وَلاَ حَجْرَاءَ، فَإِنْ أُلْبِسَ عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ»[7].

---

(١) م(٢٩٤٦-١٢٧-/٢٢٦٧/٤).
(٢) شرح مسلم النووي (١٧/١٨).
(٣) المفهم (٢٩١/٧).
(٤) متفق عليه: خ(٧١٣١/٩١/١٣)، م(٢٩٣٣/٢٢٤٨/٤)، د(٤٢٩٤/٤٤٠/١١)، ت(٢٣٣٦/٣٤٤/٣).
(٥) متفق عليه: خ(٣٣٣٨/٣٧٠/٦)، م(٢٩٣٦/٢٢٥٠/٤).
(٦) أيْ متباعد ما بين الفخذين.
(٧) صحيح: [ص.د:٣٦٣٠]، د(٤٢٩٨/٤٤٣/١١).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ»[١]، وفي رواية «الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ»[٢].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بَيْنَ ظَهْرَانَيِ النَّاسِ المسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلاَ إِنَّ المسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ»[٣].

وهكذا اختلَفتِ الرِّوايَاتُ في صِفَةِ عَيْنِ الدَّجال، ففي روايةِ «الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى»، وفي روايةِ «أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى»، وفي روايةِ «مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ»، قال القاضي: «وجَمْعُ الرِّوايَتَيْنِ عنْدِي على تخْريجِ صَحيحِ الرِّوايَتَيْنِ هُوَ أَنْ تَكُونَ كلُّ واحدةٍ منْها عوْرَاءَ مِنْ وَجْهٍ ما، إذِ الْعَوَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ العَيْبُ، فالواحِدَةُ عوْرَاءُ بالحقيقةِ، وهي الَّتي وُصِفَتْ في الحديثِ بأَنَّها لَيْسَتْ حَجْرًا ولا ناتِئَةً، ومَمْسُوحةٌ ومَطْمُوسةٌ وطافِئَةٌ بالهَمْزِ، والأُخْرَى عَوْرَى لِعَيْبِها اللَّازِمِ لها لكَوْنِها جاحِظةً، أو كأَنَّها كَوْكَبٌ، أوْ كأَنَّها عِنَبةٌ طَافِيَةٌ بِغَيْرِ هَمْزٍ، فكلُّ واحدةٍ منْها يَصِحُّ منْها الْوَصْفُ بالْعَوَرِ لحقيقَةِ العُرْفِ والاستِعْمَالِ»[٤].

قال الحافِظُ في الفَتْحِ بعْدَ أَنْ نقلَ كلامَ القاضِي عِيَاضٍ: «وأَمَّا الظَّفْرَةُ فجائِزٌ أَنْ تكونَ في كِلاَ عَيْنَيْهِ، لأنَّه لا يُضَادُّ الطَّمْسَ ولا النُّتوءَ، وتكونَ الَّتي ذهبَ ضَوْؤُها هي المَطْمُوسةَ، والمَعِيبةَ مع بقاءِ ضَوْئِها هي البارِزَةَ»[٥]، وقال القُرطُبِيُّ بعد أَنْ ذكر ذلِكَ أيضاً: «وحاصِلُ ذلِكَ أَنْ يكونَ الدَّجالُ أعْمَى أوْ قريبًا منْه»[٦]، لأَنَّ إحْدَى عيْنَيْهِ مَمْسُوحَةٌ تمامًا،

(١) م(٢٩٣٤-١٠٥-/٢٢٤٩/ ٤).

(٢) م(٢٩٣٤/ ٢٢٤٨و٢٢٤٩/ ٤)، ومعنى (جفال الشعر) كبير الشعر.

(٣) متفق عليه: خ(٧١٢٣/ و٧١٢٧/ ٩٠/ ١٣)، م(١٦٩/ ٢٢٤٥/ ٤)، ت(٢٣٤٢/ ٣٤٩/ ٣).

(٤) إكمال المعلم (٤٧٨/ ٨).

(٥) فتح الباري (٩٨/ ١٣).

(٦) التذكرة في أحوال الموتى (٦٦٤).

والأُخْرَى علَيْها ظَفْرةٌ، تَرَى رُؤْيةً خفيفةً، ولذلِكَ سمُّيَ مَسِيحًا، وأَمَّا عِيسَى ابنُ مَرْيمَ فإنَّه سُمَّيَ مَسِيحًا لكوْنهِ كانَ يمْسَحُ ذَا الْعاهةِ فيبْرَأُ بإذْنِ الله»[1].

وقد ذكر الحافِظُ ابنُ حجَرٍ وغَيْرُه أَنَّ البَعْضَ سَمَّوُا الدَّجالَ المسيخَ بالخاء المُعْجَمة، وبعْضَهُم شدَّدَ السِّينَ فيه ليُفرِّقُوا بيْنَهُ وبيْنَ المَسِيحِ ابنِ مرْيَمَ، وهذا تَصْحِيفٌ وتَحْرِيفٌ[2].

«وأَمَّا تَسْمِيَتُهُ بالدَّجالِ، فالدَّجلُ هو الْكَذِبُ، والدَّجالُ هو كَثِيرُ الْكَذِبِ»[3].

وقد أخبرَ النَّبيُّ ﷺ بوَقْتِ خرُوجِ الدَّجالِ فقالَ: «**عُمْرَانُ بَيْتِ المقْدِسِ خَرَابُ يَثْرِبَ، وَخَرَابُ يَثْرِبَ خُرُوجُ الملحمَةِ، وَخُرُوجُ الملحمَةِ فَتْحُ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، وَفَتْحُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ خُرُوجُ الدَّجَّالِ**»[4].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ[5] فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ المدِينَةِ مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ، يَوْمَئِذٍ فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا [6]- مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ المسْلِمُونَ: لاَ وَالله لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ الله، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ لاَ يُفْتَنُونَ أَبَدًا، فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ، قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ، إِنَّ المسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ

---

(١) جامع الأصول (٣٣٩/ ١٠)، وفتح الباري (٣١٨/ ٢).

(٢) فتح الباري (٣١٨/ ٢و٩٤/ ١٣).

(٣) جامع الأصول (٣٣٨/ ١٠).

(٤) حسن:[ص.د:٣٦٠٩]، د(٤٢٧٣/ ٤٠٠/ ١١).

(٥) موضعان بحلب والشام.

(٦) قال النووي: (اختلف في ضبط هذا اللفظ (سَبَوْا) فروي بفتح السين والباء وضمها، كلاهما صواب، لأنَّهم سُبُوا أولاً، ثم سَبَوا الكفار، ومعناه أنَّ الروم يقولون للمسلمين لا نقاتلكم ولكن نقاتل الذين أسلموا منا)، شرح مسلم للنووي (٢١/ ١٨).

وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّامَ خَرَجَ. فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ الله ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الملح فِي الماءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لاَنْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ الله بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ»[1].

وَعَنْ يُسَيْرِ بْنِ جَابِرٍ قَالَ: هَاجَتْ رِيحٌ حَمْرَاءُ بِالْكُوفَةِ، فَجَاءَ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ هِجِّيرَى[2] إِلاَّ يَا عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ جَاءَتِ السَّاعَةُ. قَالَ: فَقَعَدَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: إِنَّ السَّاعَةَ لاَ تَقُومُ حَتَّى لاَ يُقْسَمَ مِيرَاثٌ وَلاَ يُفْرَحَ بِغَنِيمَةٍ، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا وَنَحَّاهَا نَحْوَ الشَّأْمِ، فَقَالَ: عَدُوٌّ يَجْمَعُونَ لأَهْلِ الإِسْلاَمِ[3]، وَيَجْمَعُ لَهُمْ أَهْلُ الإِسْلاَمِ. قُلْتُ: الرُّومَ تَعْنِي؟ قَالَ: نَعَمْ. وَتَكُونُ عِنْدَ ذَاكُمُ الْقِتَالِ رَدَّةٌ شَدِيدَةٌ، فَيَشْتَرِطُ المسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلموْتِ[4] لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ[5] هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ المسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلموْتِ، لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمُ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ، ثُمَّ يَشْتَرِطُ المسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلموْتِ لاَ تَرْجِعُ إِلاَّ غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا، فَيَفِيءُ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ، نَهَدَ[6] إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ، فَيَجْعَلُ الله الدَّبْرَةَ[7] عَلَيْهِمْ، فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً. لَمْ يُرَ مِثْلُهَا. حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ[8]،

---

(١) م(٢٨٩٧/ ٢٢٢١/ ٤).

(٢) أي شأنه ودأبه ذلك.

(٣) أي لقتالهم.

(٤) أي طائفة من الجيش تقدم للقتال.

(٥) أي يرجع.

(٦) أي نهض وتقدم.

(٧) أي الهزيمة.

(٨) أي نواحيهم.

فَمَا يُخَلِّفُهُمْ[١] حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا، فَيَتَعَادُّ بَنُو الأَبِ[٢] كَانُوا مِائَةً فَلاَ يَجِدُونَهُ بَقِيَ مِنْهُمْ إِلاَّ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ، فَبِأَيِّ غَنِيمَةٍ يُفْرَحُ أَوْ أَيُّ مِيرَاثٍ يُقَاسَمُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ سَمِعُوا بِبَأْسٍ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَجَاءَهُمُ الصَّرِيخُ: إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَلَفَهُمْ فِي ذَرَارِيِّهِمْ فَيَرْفُضُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَيُقْبِلُونَ فَيَبْعَثُونَ عَشَرَةَ فَوَارِسَ طَلِيعَةً، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : إِنِّي لأَعْرِفُ أَسْمَاءَهُمْ وَأَسْمَاءَ آبَائِهِمْ، وَأَلْوَانَ خُيُولِهِمْ، هُمْ خَيْرُ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، أَوْ مِنْ خَيْرِ فَوَارِسَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ»[٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « سَمِعْتُمْ بِمَدِينَةٍ جَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَرِّ وَجَانِبٌ مِنْهَا فِي الْبَحْرِ؟ قَالُوا نَعَمْ يَا رَسُولَ الله. قَالَ: لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَغْزُوَهَا سَبْعُونَ أَلْفًا مِنْ بَنِي إِسْحَقَ فَإِذَا جَاءُوهَا نَزَلُوا، فَلَمْ يُقَاتِلُوا بِسِلاَحٍ وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ. قَالُوا: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ، فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الآخَرُ، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّالِثَةَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَالله أَكْبَرُ، فَيُفَرَّجُ لَهُمْ فَيَدْخُلُوهَا فَيَغْنَمُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ المَغَانِمَ إِذْ جَاءَهُمُ الصَّرِيخُ فَقَالَ: إِنَّ الدَّجَّالَ قَدْ خَرَجَ فَيَتْرُكُونَ كُلَّ شَيْءٍ وَيَرْجِعُونَ»[٤].

وقد أخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ عن مكانِ خُروجِ الدَّجالِ فقال: « **الدَّجَّالُ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضٍ بِالمَشْرِقِ يُقَالُ لَهَا خُرَاسَانُ، يَتْبَعُهُ أَقْوَامٌ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ المَجَانُّ المطْرَقَةُ**»[٥].

وبيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَهُ همُ اليَهودُ فقال ﷺ: «**يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيْهِمُ الطَّيَالِسَةُ**»[٦].

---

(١) أي يجاوزهم.

(٢) أي يعدُّ بعضهم بعضًا.

(٣) م(٢٨٩٩/ ٢٢٢٣و٢٢٢٤/ ٤).

(٤) م(٢٩٢٠/ ٢٢٣٨/ ٤).

(٥) صحيح: [ص.ت:٢٢٣٧]، ت(٢٣٣٨/ ٣٤٥/ ٣)، جه(٤٠٧٢/ ١٣٥٣و١٣٥٤/ ٢).

(٦) م(٢٩٤٤/ ٢٢٦٦/ ٤).

ووصّى ﷺ مَنْ رأى الدَّجالَ أَنْ يهربَ مِنْهُ في الجبالِ مهْمَا كانَ قَوِيَّ الإيمانِ مخافةَ أَنْ تَضُرَّهُ فِتْنَتُه، فقال ﷺ : «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ، فَوَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»[1].

وبيَّن النَّبيُّ ﷺ مُدَّةَ مُكْثِ الدَّجالِ في الأَرْضِ بعْدَ خُرُوجِه فقال: « أَرْبَعُونَ يَوْمًا، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ، قُلْنَا يَا رَسُولَ الله، فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلاَةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: لاَ اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»[2]، يعني اقْدُرُوا كَمْ يكونُ بيْنَ كلِّ صلاتيْن ثمَّ صلوا، وهكذا حتى ينقضي ذلك اليوم.

والأربعون يومًا ليست كثيرةً، ومع ذلكَ يجوبُ الدَّجالَ فيها الأرْضَ وذلكَ بسَببِ مَا أعطاهُ اللهُ مِنْ سُرْعَةِ السَّيْر، كما قال ﷺ : وقد سألوه: « وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الأَرْضِ؟ قَالَ كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ. فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ. ثُمَّ يَأْتِي الْقَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ، لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا أَخْرِجِي كُنُوزَكِ فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ»[3].

وإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنَّ مَعَهُ ماءً ونارًا، فقال ﷺ : «فَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهَا النَّارُ فَمَاءٌ بَارِدٌ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَى النَّاسُ أَنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ فَنَارٌ تُحْرِقُ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَى أَنَّهَا نَارٌ، فَإِنَّهُ عَذْبٌ بَارِدٌ»[4].

(١) صحيح: [ص.د:٣٦٢٩]، د(٤٢٩٧/ ٤٤٢/ ١١).

(٢)،(٣) م(٢٩٣٧/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٤)، ت(٢٣٤١/ ٣٤٦-٣٤٩/ ٣)، د(٤٢٩٩/ ٤٤٥-٤٤٧/ ١١).

(٤) متفق عليه: خ(٣٤٥٠/ ٤٩٤/ ٦)، م(٢٩٣٤و٢٩٣٥/ ٢٢٥٠/ ٤)، د(٤٢٩٣/ ٤٣٨/ ١١).

وَعَنْ المغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: مَا سَأَلَ أَحَدُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الدَّجَّالِ أَكْثَرَ مَا سَأَلْتُهُ، وَإِنَّهُ قَالَ لِي مَا يَضُرُّكَ مِنْهُ، قُلْتُ: لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ مَعَهُ جَبَلَ خُبْزٍ وَنَهَرَ مَاءٍ، قَالَ: « هُوَ أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ ذَلِكَ»[1].

قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ: « هُوَ أَهْوَنُ علَى الله مِنْ ذلكَ: أيْ مِنْ أَنْ يجْعلَ مَا يخْلقُه علَى يَدهِ مُضِلاً للمُؤْمِنِينَ ومُشَكِّكًا لقُلوبِ المُوقِنِينَ، بلْ لِيَزْدَادَ الَّذين آمنُوا إيمَانًا ولِيَرْتابَ الَّذينَ فِي قُلوبِهِم مَرَضٌ والكافرون، لا أَنَّه لَيْسَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ ذلكَ»[2].

«وَإِنَّ مِنْ فِتْنَتِهِ أَنْ يَقُولَ لأَعْرَابِيٍّ أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتُ لَكَ أَبَاكَ وَأُمَّكَ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَبُّكَ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُ شَيْطَانَانِ فِي صُورَةِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَقُولاَنِ يَا بُنَيَّ اتَّبِعْهُ فَإِنَّهُ رَبُّكَ»[3].

وهكذا يعيثُ فِي الأَرْضِ فسادًا حَتَّى يأتِيَ مكَّةَ والمدينةَ فيجدَهُما محْرُوسَتَيْنِ بالملائكة، « لاَ يَأْتِيهِمَا مِنْ نَقْبٍ مِنْ نِقَابِهِمَا إِلاَّ لَقِيَتْهُ الملاَئِكَةُ بِالسُّيُوفِ صَلْتَةً حَتَّى يَنْزِلَ عِنْدَ الظُّرَيْبِ الأَحْمَرِ عِنْدَ مُنْقَطَعِ السَّبَخَةِ فَتَرْجُفُ المدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ فَلاَ يَبْقَى مُنَافِقٌ وَلاَ مُنَافِقَةٌ إِلاَّ خَرَجَ إِلَيْهِ، فَتَنْفِي الْخُبَثَ مِنْهَا كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الحدِيدِ»[4].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا حَدِيثًا طَوِيلاً عَنِ الدَّجَّالِ فَكَانَ فِيمَا حَدَّثَنَا قَالَ: «يَأْتِي وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخُلَ نِقَابَ المدِينَةِ، فَيَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ السِّبَاخِ الَّتِي تَلِي المدِينَةَ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ رَجُلٌ هُوَ خَيْرُ النَّاسِ -أَوْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ- فَيَقُولُ لَهُ أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَهُ: فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ أَتَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ لاَ، قَالَ: فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ حِينَ يُحْيِيهِ وَالله مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الآنَ، قَالَ: فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلاَ يُسَلَّطُ»[5].

(١) متفق عليه: خ(٧١٢٢/ ٨٩/ ١٣)، م(٢٩٣٩/ ٢٢٥٧و٢٢٥٨/ ٤).
(٢) إكمال المعلم (٤٩٢/ ٨).
(٣) صحيح: [ص.ج:٧٧٥٢]، جه(٤٠٧٧/ ١٣٥٩-١٣٦٣/ ٢).
(٤) متفق عليه: خ(١٨٨١/ ٩٥/ ٤)، م(٢٩٤٣/ ٢٢٦٥/ ٤)، ت(٢٣٤٣/ ٣٤٩و٣٥٠/ ٣).
(٥) متفق عليه: خ(٧١٣٢/ ١٠١/ ١٣)، م(٢٩٣٨/ ٢٢٥٦و٢٢٥٧/ ٤).

« قال الخطَّابيُّ: فإنْ قيلَ كيفَ يجوزُ أَنْ يُجْرِيَ اللهُ الآيَةَ على يَدِ الكافرِ؟ فإنَّ إحْيَاءَ المَوْتَى آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ آياتِ الأَنْبِيَاءِ، فكَيْفَ ينَالُها الدَّجالُ وهُوَ كذَّابٌ مُفْتَرٍ يدَّعِي الرُّبوبيَّة؟ فالجَوابُ: إنَّهُ على سبيلِ الفِتْنَةِ للْعِبادِ، إذْ كانَ عِنْدَهُم ما يدلُّ على أنّه مُبْطِلٌ غَيْرُ مُحِقٍّ في دَعْواهُ، وهُوَ أنَّهُ أعْوَرٌ مَكْتُوبٌ على جَبْهَتِهِ كافرٌ يقْرؤهُ كلُّ مُسْلمٍ، فدَعْواهُ دَاحِضَةٌ معَ وَسْمِ الْكُفْرِ ونَقْصِ الذَّاتِ والْقَدْر، إذْ لَوْ كانَ إلهًا لأزالَ ذلكَ عَنْ وَجْهِه، وآياتُ الأنْبياءِ سالِمَةٌ مِنَ المُعارَضةِ فلاَ يَشْتَبِهان.

قالَ الطَّبَرِيُّ: لا يجوزُ أَنْ تُعْطَى أعْلاَمُ الرُّسُلِ لأهْلِ الكذبِ والإفْكِ في الحالةِ الَّتِي لا سبيلَ لِمَنْ عاينَ ما أتي به فيها إلى الفَصْلِ بيْنَ المُحِقِّ والمُبْطِلِ، فأمَّا إذا كانَ لِمنْ عاينَ ذلِكَ السبيلُ إلى عِلم الصَّادقِ مِنْ الكاذبِ فَمَنْ ظَهَرَ ذلِكَ على يدهِ فلاَ يُنْكَرُ إعطاءُ الله ذلِكَ للكذَّابين، فهذَا بيانُ الَّذي أُعْطِيَهُ الدَّجالُ مِنْ ذلك فِتْنةً لمَنْ شاهَدَهُ ومِحْنَةً لِمَنْ عايَنه.

قال الحافظ: وفي الدَّجالِ مع ذلِكَ دِلاَلَةٌ بيِّنَةٌ لِمَنْ عقلَ على كَذِبه، لأنَّه ذُو أجْزَاءٍ مُؤلَّفة، وتأْثيرُ الصَّنْعةِ فيه ظاهِرٌ مع ظُهورِ الآفةِ بهِ مِنْ عَوَرِ عيْنَيْه، فإذا دعا النَّاسَ إلى أنَّهُ ربُّهم فأسْوَأُ حالِ مَنْ رآه من ذوي العُقولِ أَنْ يعْلَمَ أنَّهُ لَمْ يكُنْ لِيُسَوِّي خَلْقَ غَيْرِه ويَعْدِلَه ويُحَسِّنَه ولاَ يَدْفَعُ النَّقْصَ عَنْ نَفْسِه، فأقلُّ ما يجِبُ أَنْ يقول: يا مَنْ تَزْعُمُ أنَّهُ خالِقُ السَّماءِ والأرْضِ صَوِّرْ نَفْسَكَ وعَدِّلْها وأَزِلْ عَنْها العاهَةَ، فإنْ زَعَمْتَ أَنْ الرَّبَّ لا يُحْدِثُ في نَفْسِه شيْئًا فأَزِلْ ما هُوَ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْك»[1].

والمَكْتُوبُ بَيْنَ عيْنَيْه كَلِمَةُ (كافر)، كما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ ثُمَّ تَهَجَّاهَا ك ف ر يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ**»[2]، وفي روايةٍ: «**مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ**»[3].

---

(١) فتح الباري (١٣/١٠٣).

(٢) م(٢٩٣٣-١٠٣-/ ٢٢٤٨/ ٤).

(٣) م(٢٩٣٣-١٠٥-/ ٢٢٤٩/ ٤).

قَالَ النَّوَوِيُّ: «الصَّحيحُ الَّذِي عَلَيْه المحَقِّقُونَ أَنَّ هذه الكتابةَ على ظاهرِها وأَنَّها كتابةٌ حقيقيَّةٌ جعلَها اللهُ آيةً وعلامةً مِنْ جُملةِ العلاماتِ القاطعةِ بكُفْرِه وكَذِبهِ وإبْطَالِه، ويُظْهِرُها اللهُ تعالى لكلِّ مُسلمٍ كاتبٍ وغيْرِ كاتب، ويُخْفيها عَمَّنْ أرادَ شَقَاوتَهُ وفِتْنَته، ولا امْتِناعَ في ذلك»[1].

قال ابنُ العَرَبِيِّ: «هذا المكتوبُ بيانٌ منَ الله لكَذبِهِ ونَقْصِه، وأَنَّهُ مَفْضُوحٌ عِنْدَ خَلْقِهِ في وجْهِه، وقولُهُ «يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ» إخْبارٌ مِنَ النبيِّ ﷺ بالحقيقة، وهو أَنَّ الإدْراكَ في البَصرِ يَخْلُقهُ اللهُ لِلْعَبْدِ كيْفَ شاءَ ومتى شاء، فهذا يراهُ المُؤْمِنُ بعيْنِ بَصيرَتِه، ولا يراهُ الكافرُ ولا المَفْتُون، كما يرى المُؤْمِنُ بعيْنِ بَصيرَتِهِ الأدلَّةَ ولا يراها الكافر.

وقولُهُ: «يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ» أي يخْلقُ اللهُ له الإدْراكَ دُونَ تَعْليمٍ لأَنَّ ذلكَ زَمانُ خَرْقِ العاداتِ في هذا وغَيْرِه، ولذلك قالَ في رِوَايَةٍ أُخرى: «يَقْرَؤُهُ كُلُّ مَنْ كَرِهَ عَمَلَهُ»[2].

فإذا أُحيلَ بَيْنَ الدَّجَّالِ وبَيْنَ دُخُولِ مَكَّةَ والمدينةِ صرفَتِ الملائكةُ وَجْهَهُ نَحْوَ الشَّام، وهُنَاكَ يَهْلِكُ على يدِ عيسى ابن مرْيمَ عليْهِ السَّلام، كما قال النبيُّ ﷺ: «فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ المسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ فَلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ»، فَيَقْصِدُ بَيْتَ المَقْدِسِ فيأتيها صُبْحًا والمُسْلِمُونَ في الأقْصَى يُصَلُّون «وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ»[3] فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ، فَرَجَعَ ذَلِكَ الإِمَامُ يَنْكُصُ يَمْشِي الْقَهْقَرَى لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمْ فَصَلِّ،

---

(١) عارضة الأحوذي (٦٢و٦٣/ ٩).

(٢) م(٢٩٣٧/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٤)، ت(٢٣٤١/ ٣٤٦-٣٤٩/ ٣)، جه(٤٠٧٥/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٤).

(٣) وهو المهدي كما بيناه سابقًا صحيح مسلم بشرح النووي (٦٠/ ١٨).

فَإِنَّهَا لَـكَ أُقِيمَـتْ، فَيُصَـلِّي بِهِـمْ إِمَـامُهُـمْ، فَـإِذَا انْصَرَفَ قَـالَ عِيسَـى عَلَيْـهِ السَّـلاَم: افْتَحُـوا الْبَابَ فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ، مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ، كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ[1] فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الملح فِي الماءِ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا، وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَم: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ لُدِّ الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ فَيَهْزِمُ الله الْيَهُودَ، فَلاَ يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ الله يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَنْطَقَ الله ذَلِكَ الشَّيْءَ، لاَ حَجَرَ وَلاَ شَجَرَ وَلاَ حَائِطَ وَلاَ دَابَّةَ، إِلاَّ الْغَرْقَدَةَ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لاَ تَنْطِقُ، إِلاَّ قَالَ يَا عَبْدَ الله المسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ اقْتُلْهُ»[2].

وقدْ ظهرَ منْ تلْكَ الأحاديثِ أَنَّ تِكْنُولوجْيَا الحَرْبِ الحديثةِ حربِ الكُمْبيُوتَرِ والصَّواريخِ المُبَرْمجَةِ ونَحْوِها منَ الأَسْلِحَةِ الحديثَةِ وأَسْلِحَةِ الدَّمَارِ الشَّامِلِ، كلُّ ذلكَ سَيفْنَى ويزولُ وتعودُ الحرْبُ إلى ما كانتْ عليْهِ سابقًا قبلَ تِلْكَ النَّهْضَةِ الحَديثة، تعودُ الحرْبُ بِالسَّيْفِ والرُّمْحِ وجْهًا لوجْهٍ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾[الصف].

فإنْ قالَ قائِلٌ: لماذا لَمْ يُذْكَرِ الدَّجَّالُ صَراحَةً في القُرْآنِ الكريم؟

فالجواب: إِنَّه قدْ أُشيرَ إليْهِ في قوْلِهِ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾[الأنعام].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لَمْ ﴿ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ﴾ الآيَةَ: « الدَّجَّالُ وَالدَّابَّةُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ المغْرِبِ أَوْ مِنْ مَغْرِبِهَا»[3].

---

(١) أي نسيج.

(٢) صحيح: [ص.ج:٧٧٥٢]، جه(٤٠٧٧/١٣٥٩-١٣٦٣/ ٢).

(٣) م(١٥٨/١٣٨/ ١)، ت(٥٠٦٧/٣٢٩و٣٣٠/ ٤).

ثانياً: قدْ ذَكَرْتُ أَنَّ عيسى ابنَ مريمَ عليهِ السَّلامُ ينْزِلُ منَ السَّماءِ فَيقْتلُ الدَّجَّال، وقد ذكرَ القُرْآنُ الكريمُ نُزولَ عيسى واكْتَفَى بهِ عنْ ذِكْرِ الدَّجالِ على عادةِ العربِ في الاكْتِفَاءِ بِذِكْرِ أحَدِ الضِّدَّيْن، قال تعالى: ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**[١٥٧] **بَلْ رَفَعَهُ الله إِلَيْهِ وَكَانَ الله عَزِيزًا حَكِيمًا**[١٥٨] **وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**[١٥٩] ﴾[النساء].

ثالثاً: إِنَّه لم يُذْكَرْ بِصَريحِ اسِمهِ في القُرْآنِ احْتِقَارًا له، لأَنَّه واضِحُ الذَّمِّ ظَاهِرُ النَّقْصِ بالنِّسْبَةِ إلى المَقامِ الَّذي يَدَّعيهِ وهُوَ الرُّبُوبِيَّة، فتَركَ اللهُ ذِكْرَهُ والنَّصَّ علَيْهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عِبادهِ المُؤمنينَ أَنَّ مِثْلَ هذا لا يَهُدُّهُم ولا يزيدُهُم إلاَّ إيمانًا وتسليمًا لله ورسولِه، وتصديقًا بالحقِّ وردًّا للباطل، ولهذا يقولُ ذلكَ المُؤْمِنُ الذي يُسلَّطُ عليْهِ الدَّجَّالُ فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيه: «**فَيَقُولُ لَهُ أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَهُ، وَالله مَا كُنْتُ فِيكَ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الآنَ**»[١].

فإنْ قالَ قائلٌ: أَلَمْ يُرْشِدْنَا رسولُ الله ﷺ إلى ما يَعْصِمُنَا منْ فِتْنَةِ الدَّجَّال؟

فالجواب: لقد سَمِعْتَ آنفاً منْ وَصْفِهِ ﷺ إِيَّاهُ بما يدلُّ على نَقْصِهِ وعَجْزِهِ الحِسِّيِّ الَّذي يستحيلُ مَعهُ صِدْقُهُ فيما يدَّعيهِ منَ الرُّبُوبِيَّة، وهذا وحْدَهُ كافٍ، ومع ذلك فقدْ أمَرنا النبيُّ ﷺ أَنْ نَسْتَعِيذَ بالله منْ شَرِّ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ كُلَّ صلاةٍ، فقالَ ﷺ: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ المحْيَا وَالمَمَاتِ وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المسِيحِ الدَّجَّالِ**»[٢].

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْف عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»[٣].

---

(١) الفتن والملاحم (٨٤-٨٦).

(٢) متفق عليه: خ(١٣٧٧/ ٢٤١/ ٣)، م(٥٨٨/ ٤١٢/ ١)، د(٩٦٨/ ٢٧٣/ ٣)، ن(٥٨/ ٣)، جه(٩٠٩/ ٢٩٤/ ١).

(٣) م(٨٠٩/ ٥٥٥/ ١)، د(٤٣٠١/ ٤٥١/ ١١).

وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الدَّجَّالِ: «إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ، وَالله خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ، كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ»[1].

ومِمَّا يَعْصِمُ مِنْهُ الابْتِعَادُ عَنْهُ، لِما سبقَ منْ قوْلِهِ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ فَوَالله إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ أَوْ لِمَا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ»[2].

ومِمَّا يَعْصِمُ منَ الدَّجَّالِ سُكْنَى مكَّةَ والمَدينَة، لأَنَّ الدَّجَّال لا يدخلهُما كما سبق»[3].

❑ ❑ ❑

---

(١) م(٢٩٣٧/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٤)، ت(٢٣٤١/ ٣٤٦-٣٤٩/ ٣)، جه(٤٠٧٥/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٤)، د(٤٢٩٩/ ٤٤٥-٤٤٧/ ١١).

(٢) صحيح: [ص.د:٣٦٢٩]، د(٤٢٩٧/ ٤٤٢/ ١١).

(٣) الفتن والملاحم (٨٦،٨٧).

ابن صياد والجساسة

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ المنْكَدِرِ قَالَ: « رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله يَحْلِفُ بِالله أَنَّ ابْنَ الصَّائِدِ الدَّجَّالُ. قُلْتُ: تَحْلِفُ بِالله؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلم يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ ﷺ »[1].

تحدَّثْنا عَنْ وَصْفِ الدَّجالِ وفِتْنَتِه، وما جاءَ مِنَ الأحاديثِ الصَّحيحَةِ فِيه، وسَرِّ عَدمِ ذِكْرِه في القُرْآنِ الكريم. قالَ القَاضِي عِيَاضٌ: « وهذه الأحاديثُ الَّتِي أَدْخلَها مُسْلم فِي قِصَّةِ الدَّجالِ حُجَّةٌ لأَهْلِ الحقِّ فِي صِحَّةِ وجُودِه، وأَنَّهُ شَخْصٌ مُعَيَّنٌ، ابْتَلَى اللهُ بِهِ عبادَه، وأَقْدَرُه على أَشْياءَ مِنْ قُدْرتِه، لِيَتميَّزَ الخبيثُ مِنَ الطَّيب»[2].

وقد كانَ بالمدينةِ المنَّورةِ رجُلٌ أَشْبَهُ ما يكونُ بالدَّجالِ، حتَّى كانَ بعْضُ الصَّحابةِ يحْلِفُ بالله أَنَّهُ هُوَ، مِنْهم: عُمرُ، وابنُ عُمرَ، وجَابِرٌ، وكانَ يُقَالَ لِذلِكَ الرَّجُلِ ابنُ الصَّياد أو ابنُ الصَّائد. فمَنْ هُوَ ابنُ الصَّيادِ هذا؟ وهل هُوَ الدَّجالُ حقًّا؟ أمْ لا؟.

عَنْ سَالم بْنِ عَبْدِ الله أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخطَّابِ انْطَلَقَ مَعَ رَسُولِ ﷺ فِي رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدَهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ[3] بَنِي مَغَالَةَ، وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ يَوْمَئِذٍ الحلم، فَلم يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ رَسُولُ الله ﷺ ظَهْرَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لابْنِ صَيَّادٍ: «أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله فَرَفَضَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَقَالَ: آمَنْتُ بِالله وَبِرُسُلِهِ. ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: مَاذَا تَرَى؟ قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: يَأْتِينِي

---

(١) متفق عليه: خ(٧٣٥٥/ ٣٢٣/ ١٣)، م(٢٩٢٩/ ٢٢٤٣/ ٤)، د(٤٣٠٩/ ٤٨٣/ ١١).

(٢) إكمال المعلم (٤٧٤و٤٧٥/ ٨).

(٣) الحصن.

صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: خُلِّطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا. فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ: ذَرْنِي يَا رَسُولَ اللهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لم يَكُنْهُ فَلاَ خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ»(١).

وَقَالَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ: انْطَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ الأَنْصَارِيُّ إِلَى النَّخْلِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ صَيَّادٍ، حَتَّى إِذَا دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّخْلَ طَفِقَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ، وَهُوَ يَخْتِلُ أَنْ يَسْمَعَ مِن ابْنِ صَيَّادٍ شَيْئًا(٢)، قَبْلَ أَنْ يَرَاهُ ابْنُ صَيَّادٍ. فَرَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى فِرَاشٍ فِي قَطِيفَةٍ لَهُ فِيهَا زَمْزَمَةٌ(٣) فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيَّادٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَتَّقِي بِجُذُوعِ النَّخْلِ، فَقَالَتْ لابْنِ صَيَّادٍ: يَا صَافِ وَهُوَ اسْمُ ابْنِ صَيَّادٍ هَذَا مُحَمَّدٌ، فَثَارَ ابْنُ صَيَّادٍ(٤) فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ تَرَكَتْهُ بَيَّنَ(٥)»(٦)

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ صَائِدٍ وَأَخَذَتْنِي مِنْهُ ذَمَامَةٌ(٧): هَذَا عَذَرْتُ النَّاسَ. مَا لِي وَلَكُمْ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ. أَلَمْ يَقُلْ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ. وَقَدْ أَسْلمتُ، وَقَالَ: وَلاَ يُولَدُ لَهُ، وَقَدْ وُلِدَ لِي. وَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَقَدْ حَجَجْتُ. قَالَ: فَمَا زَالَ حَتَّى كَادَ

---

(١) متفق عليه: خ(١٣٥٤/ ٢١٨/ ٣)، م(٢٩٣٠/ ٢٢٤٤/ ٤)، د(٤٣٠٧/ ٤٧٨-٤٨٢/ ١١)، ت(٢٣٤٨/ ٣٥٢/ ٣).

(٢) أي يحاول أن يخدعه ويستغفله ليسمع منه شيئاً من كلامه، ويعلم هو والصحابة حاله في أنّه كاهن أم ساحر ونحوهما.

(٣) أي صوت خفي لا يفهم.

(٤) أي نهض من مضجعه وقام.

(٥) أي لو لم تخبره بنا لبين لنا من حاله ما نعرف به حقيقة أمره .

(٦) متفق عليه: خ(١٣٥٥/ ٢١٨/ ٣)، م(٢٩٣١/ ٢٢٤٤و٢٢٤٥/ ٤).

(٧) أي حياء وإشفاق من الذم واللوم.

أَنْ يَأْخُذَ فِيَّ قَوْلُهُ، ثمَّ فَقَالَ لَهُ: أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَعْلم الآنَ حَيْثُ هُوَ وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، قَالَ: وَقِيلَ لَهُ أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟ قَالَ: فَقَالَ لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ»[1].

وفي رواية عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ قَالَ: « خَرَجْنَا حُجَّاجًا أَوْ عُمَّارًا وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلاً فَتفَرَّقَ النَّاسُ وَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحْشَةً شَدِيدَةً مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ. قَالَ: وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي. فَقُلْتُ: إِنَّ الحرَّ شَدِيدٌ، فَلَوْ وَضَعْتَهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ، قَالَ فَفَعَلَ. قَالَ: فَرُفِعَتْ لَنَا غَنَمٌ. فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِعُسٍّ[2] فَقَالَ اشْرَبْ أَبَا سَعِيدٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ الحرَّ شَدِيدٌ وَاللَّبَنُ حَارٌّ مَا بِي إِلاَّ أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ عَنْ يَدِهِ، فَقَالَ أَبَا سَعِيدٍ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آخُذَ حَبْلاً فَأُعَلِّقَهُ بِشَجَرَةٍ ثُمَّ أَخْتَنِقَ مِمَّا يَقُولُ لِيَ النَّاسُ، يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَسْتَ مِنْ أَعْلم النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « هُوَ كَافِرٌ » وَأَنَا مُسْلم؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «هُوَ عَقِيمٌ لاَ يُولَدُ لَهُ» وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالمدِينَةِ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لاَ يَدْخُلُ المدِينَةَ وَلاَ مَكَّةَ» وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنَ المدِينَةِ وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ؟ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الخدْرِيُّ: حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَعْذِرَهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللهِ إِنِّي لأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ، وَأَيْنَ هُوَ الآنَ.. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ»[3].

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَقِيتُ ابْنُ صَيَّادٍ مَرَّتَيْنِ. قَالَ: فَلَقِيتُهُ فَقُلْتُ لِبَعْضِهِمْ هَلْ تحَدَّثُونَ أَنَّهُ هُوَ؟ قَالَ: لاَ وَاللهِ. قَالَ: قُلْتُ: كَذَبْتَنِي وَاللهِ، لَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُكُمْ أَنَّهُ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَكُونَ أَكْثَرَكُمْ مَالاً وَوَلَدًا. فَكَذَلِكَ هُوَ زَعَمُوا الْيَوْمَ. قَالَ فَتَحَدَّثْنَا ثُمَّ فَارَقْتُهُ. قَالَ: فَلَقِيتُهُ لَقْيَةً أُخْرَى. وَقَدْ نَفَرَتْ عَيْنُهُ. قَالَ: فَقُلْتُ: مَتَى فَعَلَتْ عَيْنُكَ مَا أَرَى؟ قَالَ: لاَ أَدْرِي.

---

(١) م(٢٩٢٧-٩٠-/ ٢٢٤٢/ ٤).

(٢) قدح كبير.

(٣) م(٢٩٢٧-٩١-/ ٢٢٤٢و٢٢٤٣/ ٤)، ت(٢٣٤٧/ ٣٥١و٣٥٢/ ٣).

قَالَ: قُلْتُ: لا تَدْرِي وَهِيَ فِي رَأْسِكَ؟ قَالَ إِنْ شَاءَ الله خَلَقَهَا فِي عَصَاكَ هَذِهِ. قَالَ: فَنَخَرَ كَأَشَدِّ نَخِيرِ حِمَارٍ سَمِعْتُ، قَالَ: فَزَعَمَ بَعْضُ أَصْحَابِي أَنِّي ضَرَبْتُهُ بِعَصًا كَانَتْ مَعِيَ حَتَّى تَكَسَّرَتْ وَأَمَّا أَنَا، فَوَالله مَا شَعَرْتُ. قَالَ: وَجَاءَ(١) حَتَّى دَخَلَ عَلَى أُمِّ المُؤْمِنِينَ(٢) فَحَدَّثَهَا فَقَالَتْ: مَا تُرِيدُ إِلَيْهِ؟ أَلَم تَعْلم أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَبْعَثُهُ عَلَى النَّاسِ غَضَبٌ يَغْضَبُهُ»(٣).

ومِنْ هذهِ الأَحاديثِ عَرفْنا أنَّ ابْنَ صيَّادٍ اسْمُهُ صَافٍ، وقَدْ يُقَالَ لَهُ ابْنُ صائِدٍ بلا مُبَالَغةٍ.

قال النَّوَوِيُّ: «قال العُلماءُ: وقِصَّتُهُ مُشْكِلَةٌ، وأَمْرُهُ مُشْتَبهٌ فِي أنّه هَلْ هُوَ المسيحُ الدَّجالُ أمْ غَيْرُه؟ ولا شَكَّ فِي أنَّهُ دجَّالٌ من الدَّجاجِلَة. قال العلماء: وظاهِرُ الأحاديثِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُوحَ إلَيْهِ أنَّهُ المسيحُ الدَّجالُ ولا غَيْرُه، وإنَّمَا أُوحِيَ إلَيْهِ بصفَاتِ الدَّجالِ، وكانَ في ابْنِ صيَّادٍ قَرَائِنُ مُحْتَملَة، فلذلكَ كانَ النَّبيُّ ﷺ لا يقْطَعُ بأَنَّهُ الدَّجالُ ولا غَيْره، ولهَذا قَالَ لعُمرَ رضِيَ اللهُ عَنْه «إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ» يعْنِي لأَنَّ الَّذي يقْتلُه هو المسيحُ ابنُ مَرْيَمَ كما سبقَ بيانُه، وأَمَّا احْتِجَاجُهُ بأَنَّهُ مُسْلم والدَّجالُ كافِرٌ، وبأَنَّهُ لا يُولَدُ للدَّجالِ وقَدْ وُلِدَ لَهُ هُو، وأَنَّهُ لا يَدْخلُ مكَّةَ والمدينةَ وأنَّ ابْنَ صيَّادٍ دخلَ المدينةَ وهُوَ مُتَوجِّهٌ إلى مكَّة، فلا دِلالةَ لهُ فيه، لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّمَا أَخْبرَ عن صِفاتِهِ وَقْتَ فِتْنَتِهِ وخُرُوجِهِ مِنَ الأرْضِ. ومِنَ اشْتِبَاهِ قِصَّتهِ وكَوْنِهِ أحدَ الدَّجاجِلَةِ الكذَّابينَ قولُه للنَّبيِّ ﷺ: «أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله»، ودَعْواهُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ صَادِقٌ وكَاذِبٌ، وأَنَّهُ يَرى عَرْشًا فوْقَ الماء، وأَنَّه لا يكْرَهُ أَنْ يكونَ هُوَ الدَّجال، وأَنَّهُ يَعْرِفُ مَوْضِعَه، وقَوْلُهُ إنِّي لأَعْرِفُهُ وأعْرِفُ مَوْلِدَه، وأيْنَ هُوَ الآن، وانْتِفَاخُهُ حتَّى ملأَ السِّكةَ، وأَمَّا إظْهارُهُ الإسْلامَ وحَجُّهُ وجِهَادُه وإقْلاعُه عمَّا كانَ عليْهِ فلَيْسَ بصريحٍ في أَنَّهُ غَيْرُ الدَّجال»(٤).

(١) يعني ابن عمر.

(٢) يعني حفصة أخته.

(٣) م(٢٩٣٢/ ٢٢٤٦و٢٢٤٧/ ٤).

(٤) شرح مسلم (٤٦-٤٨/ ١٨).

قال النَّوَوِيُّ: «فإنْ قِيلَ: لم لم يقْتُلِ النَّبِيُّ ﷺ ابنَ صيَّادٍ مَعَ أَنَّهُ ادَّعى بحَضْرتِه النُّبوَّة؟

فالجوابُ مِنْ وَجْهيْنِ ذَكَرَهما البَيْهَقيُّ وغيرُه:

الأوَّل: أنَّه كانَ غيرَ بالغ، واختارَه القَاضِي عِيَاض.

والثَّاني: أنَّهُ كانَ في أيَّام مُهادَنةِ مع اليَهودِ وحُلَفائِهم، وجزَمَ به الخطَّابِيُّ.

وقالَ الخطَّابِيُّ: وأمَّا امْتِحَانُ النَّبِيِّ ﷺ بما خبَّأه لهُ من آيةِ الدُّخانِ فلأنَّهُ كانَ يبْلُغُه ما يدَّعيهِ من الكِهَانةِ ويتَعاطاهُ من الكلام في الْغَيْب، فامْتَحَنهُ ليَعْلم حقيقةُ حالِهِ ويُظْهِرَ إبْطَالَ حالِهِ للصَّحابة، وأنَّهُ كاهنٌ ساحِرٌ يأتيهِ الشَّيطانُ فيُلْقِي على لسانهِ ما يُلْقيهِ إلى الكَهنةِ، فامْتَحنَهُ بإضْمَارِ قَوْلِ الله تعالى: ﴿ **فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ**(١٠) ﴾[الدخان]، «**إنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا**». **فَقَالَ: هُوَ الدُّخُّ**. (ولم يستطع أنْ يتم الكلمة على عادة الكهنة، حيث يُلْقِي إليهم الشَّيْطانُ ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِمَّا خطفَهُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ الشِّهاب)»[1].

ولذلِكَ قالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ**» أي لا تُجاوِزْ قَدْرَكَ وقَدْرَ أمْثَالِكَ مِنَ الكهنةِ الَّذين يَحْفَظُون مِنْ إلْقَاءِ الشَّيْطانِ كلمةً واحدةً مِنْ جُمْلَةٍ كثيرةٍ، بخِلافِ الأنْبيَاءِ، فإنَّهم يُوحِي اللهُ تعالى إلَيْهم مِنْ عِلم الْغَيْبِ ما يُوحِي فيكونُ واضِحًا كامِلاً وبخلافِ ما يُلْهِمُهُ اللهُ الأولياءَ مِنَ الكرامات. والله أعلم»[2].

قالَ الخطَّابِيُّ: «واخْتلفَ السَّلفُ في أمْرِهِ بعْدِ كِبَرِه، فرُوِيَ عَنْه أنَّه تابَ من ذلكَ القولِ وماتَ بالمدينة، ولَكِنْ يُعطِّلهُ ما رواه أبو داودَ في سُنَنِهِ بإسْنَادٍ صحيح عَنْ جَابِرٍ قَالَ: «**فَقَدْنَا ابْنَ صَيَّادٍ يَوْمَ الحرَّةِ**»[3].

---

(١) إكمال المعلم (٤٧٠ و٤٧١/٨).

(٢) شرح مسلم النووي (٤٨/١٨).

(٣) صحيح الإسناد: [ص.د:٣٦٤١]، د(٤٣١٠/٤٨٤/١١).

وقالَ البَيْهَقيُّ في البَعْثِ والنُّشور: « واخْتلَفَ النَّاسُ في أمْرِ ابْنِ صيَّادٍ اخْتِلافًا كثيرًا، هَلْ هُوَ الدَّجالُ أمْ لا؟ فَمَنْ ذَهبَ إلى أنَّهُ غَيْرُه احتجَّ بحديثِ تميمِ الدَّارِيِّ في قِصَّةِ الجسَّاسَةِ الَّذي ذَكرَه مُسْلم بَعْد هذا.

قال: ويجوزُ أَنْ تُوافِقَ صِفَةُ ابْنُ صيَّادٍ صِفَةَ الدَّجال كما ثبتَ في الصَّحيح: « **كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ وَلَيس هُوَ**»[١].

قال: وكانَ أمْرُ ابنِ صيَّادٍ فتنةً ابْتَلى اللهُ تعالى بها عبادَه فعصَمَ اللهُ تعالى مِنْها المؤْمِنينَ ووقاهُم شَرَّها.

قال: وليسَ في حديثِ جابرٍ أكْثرُ مِنْ سُكُوتِ النَّبيِّ ﷺ لقَوْلِ عمر، فيحتمل أنَّه ﷺ كان كالمتوقِّفِ في أمْرِه ثم جاءَه البيانُ أنَّهُ غَيْرُه كما صرَّح به في حديث تَميم.

«وقد صرَّح بأنَّهُ غَيْرُه القَاضِي عِيَاضٌ[٢]، وابنُ كثيرٍ في الفِتنِ والملاحم[٣]. فقال: الصَّحيحُ أنَّ الدَّجالَ غَيْرُ ابْنِ صيَّادٍ، وأنَّ ابْنَ صيَّادٍ دجَّالٌ مِنْ الدَّجاجِلَة، ثُمَّ تابَ بعْدَ ذلِكَ فأظْهَرَ إسْلامَهُ، واللهُ أعْلم بضميرِه وسِيرَته، وأمَّا الدَّجالُ الأكْبَرُ فَهُوَ المذْكُورُ في حديثِ فاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ الَّذي رَوَتْهُ عَنْ رسُولِ الله ﷺ عن تميمِ الدَّاريِّ، وفِيه قَصَّةُ الجسَّاسَةِ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لَهُ في الخروجِ في آخرِ الزَّمانِ بَعْدَ فَتْحِ مَدينةِ الرَّومِ المسَمَّاةِ بقُسْطَنْطِينيَّة، فيكُونُ بدْءُ ظُهورِه من أصْبَهَان، وينْصُرهُ مِنْ أهْلها سَبْعُون ألفَ يَهودِيٍّ علَيْهم الأسْلحةُ والتِّيجانُ وهي الطَّيالِسَةُ الخضْرَاء.

وكذلكَ رجَّحَ الحافظُ ابنُ حَجرٍ أنَّ ابْنَ صيَّادٍ لَيْسَ هُوَ الدَّجالَ الأكْبر، فقال: «وأقْربُ ما يُجْمَعُ بهِ بَيْنَ ما تضَمَّنَهُ حديثُ تميم وكَوْنِ ابنِ صيَّادٍ هُوَ الدَّجال:

---

(١) م(٢٩٣٧/ ٢٢٥٠/ ٤)، د(٤٢٩٩/ ٤٤٥/ ١١)، ت(٢٣٤١/ ٣٤٦/ ٣).

(٢) إكمال المعلم (٤٦٥/ ٨).

(٣) الفتن والملاحم ابن كثير (٥٤و٥٥و٨٨).

أَنَّ الدَّجالَ بعَيْنِهِ هُوَ الَّذي شاهَدهُ تميمٌ موثقًا، وأَمَّا ابنُ صيَّادٍ فشيْطَانٌ تَبَدَّى في صُوَرةِ الدَّجالِ فِي تِلكَ المدَّةِ إلى أنْ توجَّه إلى أصْبهان، فاسْتترَ مَعَ قرينهِ إلى أَنْ تجِيءَ المدَّةُ الَّتي قَدَّرَ اللهُ تعالى خُروجَهُ فيها»[1].

وقالَ الحافظُ في حَلِفِ عُمرَ عنْدَ النَّبِيِّ ﷺ علَى أَنَّ ابْنَ صيَّادٍ هُوَ الدَّجالُ فلم يُنْكِرْهُ النَّبِيُّ ﷺ : قالَ البَيْهقيُّ: «لَيْسَ في حديثِ جابرٍ أَكْثَرُ مِنْ سُكُوتِ النَّبِيِّ ﷺ على حَلِفِ عُمرَ، فيُحْتَملُ أَنْ يكونَ النَّبِيُّ ﷺ كانَ مُتوقِّفًا فِي أَمْرِهِ ثُمَّ جاءَهُ التَّثَبُّتُ مِنَ الله تعالى بأَنَّهُ غَيْرُه على ما تَقْتَضِيهِ قِصَّةُ تميمٍ الدَّارِيِّ، وبهِ يَتمسَّكُ مَنْ جَزمَ بأَنَّ الدَّجالَ غَيْرُ ابْنُ صيَّادٍ، وطريقُهُ أصحُّ، وتكونُ الصِّفَةُ الَّتي في ابْنِ صيَّادٍ وافَقَتْ ما فِي الدَّجالِ. وأَنَّ الَّذينَ كانُوا يَجْزِمُونَ بأَنَّهُ هُوَ الدَّجالُ لم يسْمَعُوا بقِصَّةِ تميمٍ، ولعلَّ عُمرَ لما سَمِعَها لم يَعُدْ إلى الحلِفِ المذْكُور»[2].

فَمَا هِيَ قِصَّةُ تَمِيمٍ هَذِهِ؟ أَوْ مَا هِيَ قِصَّةُ الجسَّاسة؟

عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ قَالَتْ: سَمِعْتُ نِدَاءَ المنَادِي مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ يُنَادِي: الصَّلاَةَ جَامِعَةً، فَخَرَجْتُ إِلَى المسْجِدِ فَصَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَكُنْتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلِي ظُهُورَ الْقَوْمِ، فَلما قَضَى رَسُولُ الله ﷺ صَلاَتَهُ جَلَسَ عَلَى المنْبَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقَالَ: «لِيَلْزَمْ كُلُّ إِنْسَانٍ مُصَلاَّهُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ لم جَمَعْتُكُمْ؟ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلم. قَالَ: إِنِّي وَالله مَا جَمَعْتُكُمْ لِرَغْبَةٍ وَلاَ لِرَهْبَةٍ، وَلَكِنْ جَمَعْتُكُمْ لأَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ كَانَ رَجُلاً نَصْرَانِيًّا، فَجَاءَ فَبَايَعَ وَأَسْلم، وَحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ مَسِيحِ الدَّجَّالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ مَعَ ثَلاَثِينَ رَجُلاً مِنْ لخمٍ وَجُذَامَ. فَلَعِبَ بِهِمُ الموْجُ شَهْرًا فِي الْبَحْرِ ثُمَّ أَرْفَئُوا[3] إِلَى

(١) فتح الباري (٣٢٨/١٣).

(٢) فتح الباري (٣٢٨/١٣).

(٣) أي التجأوا إليها.

جَزِيرَةٍ فِي الْبَحْرِ حَتَّى مَغْرِبِ الشَّمْسِ، فَجَلَسُوا فِي أَقْرُبِ السَّفِينَةِ[١] فَدَخَلُوا الجزيرَةَ، فَلَقِيَتْهُمْ دَابَّةٌ أَهْلَبُ[٢] كَثِيرُ الشَّعَرِ، لاَ يَدْرُونَ مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ، مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ. فَقَالُوا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ أَنَا الجسَّاسَةُ، قَالُوا وَمَا الجسَّاسَةُ؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ انْطَلِقُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ. قَالَ: لما سَمَّتْ لَنَا رَجُلاً فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سِرَاعًا حَتَّى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فِيهِ أَعْظَمُ إِنْسَانٍ رَأَيْنَاهُ قَطُّ خَلْقًا، وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا مَجْمُوعَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَيْنَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى كَعْبَيْهِ بِالحدِيدِ. قُلْنَا: وَيْلَكَ مَا أَنْتَ؟ قَالَ: قَدْ قَدَرْتُمْ عَلَى خَبَرِي، فَأَخْبِرُونِي مَا أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ أُنَاسٌ مِنَ الْعَرَبِ رَكِبْنَا فِي سَفِينَةٍ بَحْرِيَّةٍ فَصَادَفْنَا الْبَحْرَ حِينَ اغْتَلم[٣] فَلَعِبَ بِنَا الموْجُ شَهْرًا، ثُمَّ أَرْفَأْنَا إِلَى جَزِيرَتِكَ هَذِهِ، فَجَلَسْنَا فِي أَقْرُبِهَا فَدَخَلْنَا الجزِيرَةَ، فَلَقِيَتْنَا دَابَّةٌ أَهْلَبُ كَثِيرُ الشَّعَرِ لاَ يُدْرَى مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِهِ مِنْ كَثْرَةِ الشَّعَرِ، فَقُلْنَا: وَيْلَكِ مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الجسَّاسَةُ، قُلْنَا: وَمَا الجسَّاسَةُ؟ قَالَت: اعْمِدُوا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فِي الدَّيْرِ، فَإِنَّهُ إِلَى خَبَرِكُمْ بِالأَشْوَاقِ. فَأَقْبَلْنَا إِلَيْكَ سِرَاعًا وَفَزِعْنَا مِنْهَا وَلم نَأْمَنْ أَنْ تَكُونَ شَيْطَانَةً، فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَخْلِ بَيْسَانَ[٤]؟ قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: أَسْأَلُكُمْ عَنْ نَخْلِهَا هَلْ يُثْمِرُ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ لاَ تُثْمِرَ، قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ بُحَيْرَةِ الطَّبَرِيَّةِ[٥]؟ قُلْنَا: عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِيهَا مَاءٌ؟ قَالُوا: هِيَ كَثِيرَةُ الماءِ. قَالَ: أَمَا إِنَّ مَاءَهَا يُوشِكُ أَنْ

---

(١) الأقرب جمع قارب.

(٢) الأهلب غليظ الشعر كثيره.

(٣) أي هاج وجاوز حده المعتاد.

(٤) قرية بالشام.

(٥) بحيرة معروفة بالشام.

يَذْهَبَ. قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ عَيْنِ زُغَرَ[1]؟ قَالُوا؟ عَنْ أَيِّ شَأْنِهَا تَسْتَخْبِرُ؟ قَالَ: هَلْ فِي الْعَيْنِ مَاءٌ؟ وَهَلْ يَزْرَعُ أَهْلُهَا بِمَاءِ الْعَيْنِ؟ قُلْنَا لَهُ: نَعَمْ هِيَ كَثِيرَةُ الماءِ وَأَهْلُهَا يَزْرَعُونَ مِنْ مَائِهَا. قَالَ: أَخْبِرُونِي عَنْ نَبِيِّ الأُمِّيِّينَ مَا فَعَلَ؟ قَالُوا: قَدْ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَنَزَلَ يَثْرِبَ، قَالَ: أَقَاتَلَهُ الْعَرَبُ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: كَيْفَ صَنَعَ بِهِمْ؟ فَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى مَنْ يَلِيهِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَطَاعُوهُ، قَالَ لُهُمْ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنَّ ذَاكَ خَيْرٌ لَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ. وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي. إِنِّي أَنَا المسِيحُ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الخُرُوجِ فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الأَرْضِ فَلاَ أَدَعَ قَرْيَةً إلاَّ هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلما أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا، يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلاَئِكَةً يَحْرُسُونَهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي المنْبَرِ، هَذِهِ طَيْبَةُ هَذِهِ طَيْبَةُ هَذِهِ طَيْبَةُ يَعْنِي المدِينَةَ. أَلاَ هَلْ كُنْتُ حَدَّثْتُكُمْ ذَلِكَ؟ فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ. فَإِنَّهُ أَعْجَبَنِي حَدِيثُ تَمِيمٍ أَنَّهُ وَافَقَ الَّذِي كُنْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْهُ وَعَنِ المدِينَةِ وَمَكَّةَ، أَلاَ إِنَّهُ فِي بَحْرِ الشَّامِ أَوْ بَحْرِ الْيَمَنِ، لاَ بَلْ مِنْ قِبَلِ المشْرِقِ مَا هُوَ، مِنْ قِبَلِ المشْرِقِ، مَا هُوَ مِنْ قِبَلِ المشْرِقِ مَا هُوَ، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى المشْرِقِ. قَالَتْ فَاطِمَةُ: فَحَفِظْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ»[2].

وهكذا تبيَّن لنا أنَّ الدَّجالَ موْجُودٌ في جَزيرةٍ بالمشْرق، وأنَّ اللهَ تعالى قَيَّدَ يَدَيْهِ ورِجْلَيْه فلا يسْتطيعُ السَّيْرَ في البلادِ إلى أنْ يأذنَ اللهُ بخُروجِه، وأنَّهُ يَخْرُجُ بسَببِ غَضْبةٍ يغْضَبُها، فمِنْ شِدَّةِ غضَبِه تَنْفكُّ عَنْهُ القُيُود.

---

(١) بلدة معروفة بالشام.

(٢) م(٢٩٤٢/٢٢٦١-٢٢٦٤/٤).

ولِذلِكَ أنْكَرَتْ أُمُّ المؤمِنينَ حَفصَةُ علَى أخِيها عبْدِ الله بنِ عُمرَ ضَرْبَهُ لابْنِ صَيَّادٍ قائلَةً له: رَحِمَكَ اللهُ **«ما تُرِيدُ إليْهِ؟ ألَم تَعْلم أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قدْ قَالَ: « إنَّ أوَّلَ مَا يَبْعَثُهُ علَى النَّاسِ غَضَبٌ يَغْضَبُهُ»**.

وقَدْ عَرفْنَا أنَّهُ يَخْرُجُ في آخرِ الزَّمانِ بعْدَ ملحمةٍ كُبْرَى تكُونُ بيْنَ المسْلمينَ والرَّوم، وبعْدَ فَتْحِ مَدِينَةِ قُسْطَنْطِينيَّة، كما عَرفْنا فِتْنَتَهُ ومَا يعْصمُ مِنْ شَرِّه، فالإيمانُ بخُرُوجِهِ واجِبٌ وهُوَ مِنْ عَقيدَةِ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعة، خِلافًا لمنْ أنْكرَ أمْرَهُ وأبْطلَه مِنَ الخوارِجِ والجهْمِيَّةِ وبعْضِ المعْتَزِلَةِ، كما قَالَ القَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ الله[1].

❑ ❑ ❑

(١) إكمال المعلم (٨/٤٧٥).

مولد مريم

عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلاَّ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٣٦)﴾[آل عمران]»[1].

تحدَّثنا عن علامتيْن من علاماتِ السَّاعةِ الكبرى وهما ظهورُ المَهْدِي وخروجُ الدَّجال، وقد ورد أثْنَاءَ الحديثِ عَنْهما ذِكْرُ عيسى ابنِ مَرْيمَ وأَنَّهُ ينْزِلُ من السَّماء فيصلِّي خلْفَ المَهْدِي ثم يَقْتلُ الدَّجالَ، فكَيْفَ رُفِعَ إلى السَّماء؟ ولماذا رُفِعَ؟ وهذا يتطلَّبُ معْرِفَةَ سيرَته ونَشْأته، وذلكَ مُرْتَبِطٌ ارْتِبَاطًا وثيقًا بسيرةِ أُمِّهِ ونَشْأتِها، لِذلِكَ نُقدِّم بَيْنَ يدَي الحديثِ عن العلامةِ الثَّالثةِ مِنْ علاماتِ السَّاعةِ الكبرَى وهي نزُولُ عيسى ابنِ مَرْيمَ مِنْ السَّماء، نقدِّم بَيْنَ يدَيْها بالحديثِ عن ميلادِ مَرْيمَ أُمِّ عيسَى ونَشْأتِها وسيرَتِها، ثُمَّ بالحديثِ عن ميلادِ عيسَى ونَشْأته وسيرته، فنقولُ وبالله تعالى التَّوفِيق:

أعْدَى أعْداءِ الإنسانِ الشَّيطانُ، وعداوتُه -لعنَهُ اللهُ- ظاهِرَةٌ بيِّنَةٌ، بدأتْ مع أبينا آدمَ مِنْ حينِ خلقَه الله، وكذلكَ تبْدَأُ مع كلِّ موْلُودٍ مِنْ بني آدمَ مِنْ ساعةِ وِلادتِه، حيثُ يَنْخُسُ - لَعَنَه اللهُ- المَوْلُودَ ويَطْعَنُهُ فِي جَنْبِه «**فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ**» أي مِنَ الألمِ الذي أصابَهُ مِنْ مسِّ الشَّيْطان إيَّاه»[2].

« ولا يلْزَمُ مِنْ هذا النَّخْسِ إضْلاَلُ المَنْخُوسِ وإغْواؤُهُ فكم قد تعرَّضَ الشَّيْطَانُ للأنْبِيَاءِ والأوْلِياءِ بأنْواعِ الإفْسادِ والإغْواء، ومعَ ذلِكَ يعصمهم الله مِمَّا يرومُهُ الشَّيْطَان،

---

(١) متفق عليه: خ(٣٤٣١/ ٤٦٩/ ٦)، م(٢٣٦٦/ ١٨٣٨/ ٤).

(٢) فتح الباري (٤٧٠/ ٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء]. وقوله ﷺ: «مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ» ظاهِرٌ قَوِيٌّ في العُمومِ والإحاطَةِ، فأفادَ أَنَّ الشَّيْطانَ يَنْخسُ جميعَ وَلدِ آدمَ حتَّى الأنبياءَ والأَوْلياءَ إلاَّ مَرْيمَ وابْنَها، فقدْ حَفِظَهُما اللهُ تعالى مِنْ نَخْستِهِ تِلْكَ بِبَرَكةِ دَعْوةِ امرأةِ عِمْرانَ حينَ قَالَتْ: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران]»[1].

فَمَتَى كانَتْ هَذِه الدَّعْوَةُ وما سَبَبُها؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران].

(١) المفهم (١٧٧و١٧٨/٦).

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ: « يُخْبِرُ اللهُ تعالى أنّه اخْتَارَ هذه البُيوتَ على سائرِ أهْلِ الأرْض، فاصْطَفى آدمَ علَيْه السَّلام: خَلَقَهُ بيده، ونفخَ فيه من رُوحه، وأسْجَدَ له ملائكتَه، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء، وأسْكَنهُ الجَنَّةِ، ثم أهْبَطهُ مِنْها لِمَا في ذلكَ مِنَ الحِكْمة، واصْطَفَى نُوحًا علَيْه السَّلام، وجعلَه أوَّلَ رسُولٍ بعَثَهُ إلى أهْلِ الأرْض لَمَّا عَبَدَ النَّاسُ الأوْثانَ وأشْركُوا بالله ما لَمْ ينزِّلْ به سُلْطانًا، وانْتقَم له لَمَّا طالَتْ مُدَّتُه بَيْنَ ظهْرانَيْ قَوْمِه يدعُوهم إلى الله ليْلاً ونَهارًا، وسِرًّا وجِهَارًا، فلَمْ يَزِدْهم ذلكَ إلاَّ فِرَارًا، فدعا علَيْهم فأغْرقَهمُ اللهُ عَنْ آخرِهم، ولَمْ ينجُ مِنْهم إلاَّ مَنِ اتَّبَعَه على دينِهِ الَّذي بعثَهُ اللهُ به، واصْطَفَى آلَ إبراهيمَ ومَنْهم سيِّدُ البشَرِ خاتَمُ الأنْبِيَاءِ على الإطلاقِ محمَّدٍ ﷺ، وآلَ عِمْرانَ، والمرادُ بِهِ والدُ مرْيمَ بنْتِ عِمْرانَ أُمِّ عيسى ابنِ مَرْيمَ»[١].

ولم يَكُنْ هذَا الاصْطِفَاءُ خاصًّا بهؤلاءِ الرِّجالِ بل امتدَّ ليشملَ ذرَاريَّهم من الذُّكورِ والإناث، ولذلِكَ قال تعالى: ﴿ **ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ** ﴾ «وهو مَنْصُوبٌ على البدليَّةِ من الآلَيْنِ أوْ علَى الحاليَّةِ مِنْهما، أي اصْطفَى الآلَيْنِ حالَ كوْنِهما ذُرِّيَّةً متسلْسِلَة البَعْضِ مِنَ البَعْضِ في وِارَثةِ الاصْطفاء، ﴿ **وَاللهُ سَمِيعٌ** ﴾ لأقْوالِ العبادِ ﴿ **عَلِيمٌ** ﴾، بضمائرِهم وأفْعَالِهم، وإنَّمَا يصْطفِي مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يَعْلَمُ اسْتِقامَتهُ قوْلاً وفِعْلاً، ونظيرُه قولُهُ تعالى: ﴿ **اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**(١٢٤) ﴾[الأنعام]، وقولُهُ تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**(٩٠) ﴾[الأنبياء]»[٢].

« فَلَمَّا قرَّرَ عظمَةَ هذه البُيوت، ذكرَ قِصَّةَ مرْيمَ وابنِها عيسى عَلَيْهِ السَّلام، وكيف تَسَلْسَلاَ مِنْ هذهِ البُيوتِ الفاضِلَة، وكيف تنقلَّتْ بِهِمُ الأحْوَالُ مِنَ ابْتداءِ أمْرِهما إلى آخره، وأنَّ امرأةَ عِمْرانَ (وهِيَ حَنَّةُ بِنْتُ فَاقُوذَا أُمُّ مَرْيم، وعِمْرانُ هُوَ عِمْرانُ ابنُ ماتان، ولَيْسَ بِعِمْرانَ أبي مُوسى عَلَيْه السَّلام لأنَّ بيْنَهُما ألفًا وثمانمائة سنة) »[٣]، قالت متضرِّعةً إلى ربِّها

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٥٨/ ١).

(٢) محاسن التأويل (٨٦و٨٧/ ٤).

(٣) معالم التنزيل (٤٥٣/ ١).

متقرِّبةً إليه بهذه القُرْبَةِ الَّتي يُحِبُّها، والَّتي فيها تَعْظِيمُ بَيْتِه ومُلازَمةِ طاعَتِه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾»[1].

« والنَّذْرُ ما يُوجِبُهُ الإِنْسَانُ على نَفْسِه مِنَ القُرُباتِ، ومُحَرَّرًا أي عتيقًا خالِصًا لله، مفرَّغًا لعبادةِ الله ولِخِدْمَةِ بَيْتِهِ، لا أَشْغلُه بشيءٍ من الدُّنيا، وكُلُّ ما أُخْلِصَ فهو مُحَرَّر، يُقالَ: حرَّرْتُ العبْدَ إذا أعتَقْتَه وخلَّصْتَه من الرِّق»[2]. «ومِنْه تَحْرِيرُ الكتاب، وهو تَخْلِيصُهُ من الاضْطرابِ والفَساد، وروَى خُصَيْفٌ عن عِكْرمةَ ومُجاهِدٍ أَنَّ المحرَّرَ الخالِصُ لله عزَّ وجلَّ لا يشُوبُه شيْءٌ مِنْ أمْرِ الدُّنيا»[3]، ومع هذا الإخلاصِ تدْعُو اللهَ بالقَبُولِ فتقول: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ « أي فتقبَّل منِّي ما نَذْرتُ لكَ يا ربِّ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا أقولُ وأدْعُو ﴿الْعَلِيمُ﴾ لِمَا أنْوِي في نَفْسِي وأُريد، لا يخْفَى علَيْكَ سرُّ أمْرِي وعَلانِيَتُه.

وكانَ سببُ ذلكَ النَّذْرِ كمَا قالَ ابنُ إسحاق: تزوَّج زكريَّا وعِمْرانُ أُخْتَيْنِ، فكانَتْ أُمُّ يحْيى عِنْدَ زكريَّا، وكانَتْ أُمُّ مَرْيمَ عنْدَ عِمْرَانُ، فهلكَ عِمْرَانُ وأُمُّ مَرْيمَ حامِلٌ بِمرْيم، فَهِيَ جَنِينٌ في بطْنِها، وكانَتْ فيما يزْعُمونَ قد أُمْسِكَ عنْها الولَدُ حتَّى أسنَّت، وكانُوا أهْلَ بيْتٍ مِنَ الله جَلَّ ثناؤُه بمكان، فبَيْنَما هِيَ في ظِلِّ شَجرةٍ نظَرتْ إلى طائرٍ يُطْعِمُ فَرْخًا لَهُ، فتحرَّكَتْ نَفْسُها للولَد، فدَعَتِ اللهَ أَنْ يهبَ لها ولدًا، فحملَتْ بِمَرْيمَ وهلَكَ عِمْرَان، فلَمَّا عرَفَتْ أَنَّ في بطْنِهَا جنينًا جعَلَتْه لله نذيرة، والنَّذيرَةُ أَنْ تعبِّدَهُ لله، فتجعلَه حبسًا في الكنيسة، لا يُنْتَفعُ به بشيءٍ من أمورِ الدنيا»[4].

« وقِصَّةُ النَّذْر -هذه- تَكْشِفُ لنا عن قَلْبِ امْرأَةِ عِمْرَان -أُمِّ مَرْيم- وما يعْمُرُهُ مِنْ إيمانٍ، ومِنْ توجُّهٍ إلى ربِّها بأعزِّ ما تملك، وهو الجنينُ الَّذي تحمْلُهُ في بَطْنِها، خالِصًا لِرَبِّها،

---

(١) تيسير الكريم المنان (٣٧٥/ ١).

(٢) معالم التنزيل (٤٥٣/ ١).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦٦و٦٧/ ٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٥/ ٣).

محرَّرًا مِنْ كُلِّ قيْدٍ، ومِنْ كلِّ شِرْكٍ، ومن كلِّ حقٍّ لأحَدٍ غَيْرِ الله سُبْحَانُه، والتَّعْبِيرُ عن الخُلوصِ المُطْلَقِ بأنَّه تحرُّرٌ تعْبِيرٌ مُوحٍ، فما يتحرَّرُ حقًّا إلاَّ مَنْ يُخْلُصُ لله كُلُّه، ويفرُّ إلى الله بجُمْلَتِه، وينْجُو مِنَ العُبوديَّةِ لكلِّ أحدٍ، ولكلِّ شيءٍ، ولكلِّ قيمةٍ، فلا تكونُ عبوديتُه إلاَّ لله وحْدَه، فهذا هو التحرُّرُ الحقُّ، وما عداه عُبوديَّةٌ وإنْ تراءَتْ في صُورَةِ الحُرِّيَّة، وهذا الدُّعاءُ الخاشِعُ مِنَ امْرَأةِ عِمْرَانَ بأنْ يتقبَّلَ ربُّها مِنْها نَذْرَها- وهو فَلِذَةُ كَبِدِهَا- ينُمُّ عن ذلكَ الإسْلامِ الخالصِ لله، والتوجُّهِ إلَيْه كُلِيَّةً، والتحرُّرِ مِنْ كلِّ قَيْدٍ، والتجرُّدِ إلاَّ مِنَ ابْتِغَاءِ قُبولِه ورِضَاه: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ولكنَّها وضَعْتْها أُنْثَى ولَمْ تَضَعْهَا ذَكَرًا»[1].

« ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ قالوا: إنَّ هذا خَبرٌ لا يُقْصَدُ به الإخْبَارُ، بَلِ التَّحسُّرُ والتَّحزُّنُ والاعْتِذَار، فهو بمَعْنَى الإنْشَاءِ، وذلِكَ أنَّها نَذَرتْ تحْرِيرَ ما في بطْنِها لخِدْمَةِ بَيْتِ الله والانْقِطَاعِ لعِبَادتِه فيه، والأُنْثَى لا تَصْلُحُ لذلِكَ عادةً»[2].

«﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ ليْسَ المرادُ الردَّ عَلَيْها في إخْبَارِها بما هو سُبْحَانَهُ أعْلَمُ به كما يتراءَى من السِّياق، بل الجُمْلَةُ اعْتِرَاضِيَّةٌ سِيقَتْ لتَعْظيمِ المَوْلُودِ الَّذي وضَعَتْهُ وتَفْخِيمِ شَأْنِه والتَّجْهيلِ لها بقَدْرِه، أي واللهُ أعْلَمُ بالشَّيْءِ الَّذي وضَعَتْهُ وما علقَ به من عظائِمِ الأمُورِ ودقَائِقِ الأسْرَارِ ووَاضِحِ الآياتِ، وهي غَافِلةٌ عن ذلكَ كلِّه»[3].

واستمرَّتِ امْرَأةُ عِمْرَانَ في مُنَاجَاةِ ربِّها بعْدَ ما وضَعَتْ ما في بطْنِها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن (٥٧٨/ ١).

(٢) مختصر المنار (٣١٥/ ١).

(٣) روح المعاني (١٣٥/ ٣).

« وهذا الحديثُ على هذا النَّحْوِ - مِنَ امْرَأَةِ عِمْرَانَ - فِيه شَكْلٌ من المُنَاجَاةِ القريبَةِ، مُنَاجَاةِ مَنْ يَشْعُرُ أَنَّهُ مُنْفرِدٌ بربِّه، يُحَدِّثُه بما فِي نَفْسِه، وبمَا بيْنَ يَدَيْه، ويُقَدِّمُ له ما يَمْلِكُ تقديمًا مُباشِرًا لطيفًا، وهي الحالُ الَّتي يكونُ فيها هؤلاءِ العِبَادُ المُخْتَارونَ مع ربِّهم، حالُ الوُدِّ والقُرْبِ والمُباشَرةِ والمُنَاجَاةِ البسيطَةِ العِبَارة، التي لاَ تكلُّفَ فيها ولا تَعْقِيد، مُنَاجَاةِ مَنْ يحسُّ أَنَّهُ يُحدِّثُ قريبًا ودُودًا سميعًا مجيبًا»[1].

«وكانَ في هذا الكلامِ مِنْها نَوْعُ تضرُّعٍ وانْكِسَارٍ، فجبرَ اللهُ قَلْبَها، وتقبَّل نَذْرَها، وصارَتْ هذه الأُنْثَى أكْملَ وأتمَّ من كثيرٍ من الذُّكُور، بل مِنْ أكْثَرِهم، وحصلَ بها من المَقَاصِدِ أعْظَمُ ممَّا يَحْصُلُ بالذَّكر، ولهذا قال: ﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا** ﴾ أي رُبِّيَتْ تَرْبِيَةً عجيبةً، دينيَّةً، أخْلاقِيَّةً، أدبيَّةً، كَمُلَتْ بها أحوالُها، وصلَحتْ بها أقْوالُها وأفعالُها، ونَمَا فيها كمالُها، ويسَّرَ اللهُ لها زَكريَّا كافِلاً، وهذا مِنْ مِنَّةِ الله على الْعَبْد، أَنْ يجعلَ لهُ مَنْ يتولَّى تَرْبِيَتَه مِنَ الكامِلِينَ المُصْلِحِين»[2].

وكانَتْ كفَالةُ زكريَّا لها بتَقْدِيرِ الله حيْثُ اقْتَرَعَ الْقَوْمُ أيُّهم يكْفُلُ مرْيمَ فخرجَ سَهْمُ زكريَّا بإذْنِ الله فكفَلها. « قالَ ابنُ عبَّاسٍ: لَمَّا وضَعتْها خَشِيَتْ حنَّةُ أُمُّ مَرْيمَ أَنْ لا تُقْبَلَ الأُنْثَى محرَّرةً، فلفَّتْها في الخِرْقَةِ ووضَعتْها في بَيْتِ المَقْدسِ عنْدَ القُرَّاء، فتسَاهَمُوا عليْها لأنَّها كانَتْ بِنْتَ إمامِهم، فقال زكريَّا وهو رَأْسُ الأحْبارِ: أنا آخذُها وأنا أحقُّهم بها لأنَّ خالتَها عنْدِي - يعني أُمَّ يحْيَى - فقالَ القَوْمُ: بل نتسَاهم، فمَنْ خرجَ سهْمُه فهُوَ أحقُّ بها، فقرَعُوا ثلاثَ مرَّاتٍ أقْلامَهُم الَّتي كانُوا يكتبُون بها الوحْيَ ﴿ **أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ** ﴾ يعْنِي أيُّهم يقْبِضُها، فقرَعهم زكريا، وكانَتْ قُرْعَةُ أقْلامِهم أنَّهم جمَعُوها في مَوْضعٍ ثُمَّ غطُّوها، فقَالُوا لِبَعْضِ خَدَمِ بَيْتِ المَقْدسِ مِنَ الغِلمانِ الَّذين لم يبْلُغوا الحُلُمَ: أدْخِلْ يدَكَ فأخْرِجْ قلَمًا مِنْها، فأدْخلَ يدَه فأخْرجَ

(١) في ظلال القرآن (٥٧٩/ ١).

(٢) تيسير الكريم المنان (٣٧٦/ ١).

قلمَ زكريًا، فقالوا: لا نَرْضَى، ولكنْ نُلْقِي الأقْلاَمَ في الماءِ فمَنْ خرَجَ قَلَمُه في جَرْيةِ الماءِ ثُمَّ ارْتفعَ فهو يَكْفلُها، فألْقَوْا أقْلامَهم في نَهْرِ الأرْدُنِّ، فارتَفع قلَمُ زكريًا في جَرْيَةِ الماءِ، فقَالُوا نَقْترعُ الثَّالثةَ فمَنْ جرَى قَلَمُه معَ الماءِ فهو يكْفلُها، فألَقوْا أقْلامَهم فجَرَى قَلَمُ زكريًا مع الماءِ وارْتَفعتْ أقْلاَمُهم في جَرْيَةِ الماءِ فقَبَضَها زكريًا»[1].

«ثُمَّ إنَّ اللهَ تعالى أكْرمَ مرْيمَ وزكريًا حيْثُ يسَّر لمرْيمَ مِنَ الرِّزْقِ الحاصِلِ بلاَ كَدٍّ ولا تَعَبٍ، وإنَّما هو كَرامَةٌ أكْرَمها اللهُ به، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ وهو محَلُّ العَبَادةِ الَّذي أُفْرِدَتْ به ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ هنيئاً معدًّا»[2]. فوجدَ نفسَه مُنْدفِعًا إلى سُؤالها: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾؟ فلم تَزِدْ على أنْ قالتْ في خُشُوعِ المؤْمنِ وتواضُعهِ واعْترَافهِ بنِعْمةِ الله وفضْلهِ وتفْويضِ الأمرِ كلِّه إليْه: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وكان زكريًا شيْخًا كبيرًا، وامرأتُه عجوزًا عقيمًا، لم يُرْزَقْ منها الولد، فلَمَّا رأى هذه الصَّبيَّةَ الصَّالحةَ المباركةَ تُرْزَقُ بلا كَسْبٍ- وهو مِنْ خَوارِقِ العادات - وقعَ في قلْبهِ أنْ يُرْزقَ الولدَ بلا سبب، ﴿هُنَالِكَ﴾ من ذلكَ المكانِ وذلكَ الزَّمان، في مِحْرابِ مرْيمَ وبَعْدَ ما سمعَ منْها ﴿إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ وكانت الاستجابةُ الَّتي لا تتقيَّد بسنٍّ، ولا تتقيَّدُ بمألوفِ النَّاس، لأنَّها تَنْطَلِقُ مِنَ المشِيئةِ المُطلقَةِ الَّتي تفعلُ ما تريد ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لقد استُجيبَتِ الدَّعْوَةُ المُنْطَلِقَةُ من القَلْبِ الطَّاهر، الذي علَّق رجاءَهُ بمَنْ يَسْمَعُ الدُّعاء، ويمْلِكُ الإجابةَ حينَ شاء، وبشَّرتِ الملائكةُ زكريًا بمولودٍ ذكَرٍ اسْمُهُ معْرُوفٌ قبْلَ مَوْلِده «يحيى» وصِفَتُه معْروفَةٌ كذلك: سيدًا، كريمًا، وحَصُورًا يَحْصُرُ نَفْسَهُ عن الشَّهواتِ

---

(١) الدر المنثور (١٨١/ ٢).

(٢) تيسير الكريم المنان (٣٧٧/ ١).

ويمْلِكُ زمامَ نزَعاتِه من الانفلات، ومصدِّقًا بكلمةِ الله عيسى ابنِ مرْيمَ ومُؤْمِنًا به، ونبيًّا من الصالحين. وكانت الاستجابةُ مفاجأةً لزكريا، فراح يسأَلُ كيفَ تقعُ هذه الخارقة؟ كيفَ يكونُ منه الولدُ وهو الشَّيْخُ الكبير، الَّذي اشْتَعَل رأْسُه شيْبًا، وبلغ مِنَ الكِبَرِ عتيًّا، وكيف يكونُ من امرأتِه العجوزِ العقيمِ الَّتي لم تَلِدْ في صِبَاها وشبَابِها، ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فجاءَهُ الجوابُ في بساطةٍ ويُسْرٍ يردُّ الأمرَ إلى نِصَابه، ويردُّهُ إلى حقيقتِه الَّتي لا عُسْرَ في فَهْمِها ولا غرابةَ في كوْنها ﴿ قَالَ كَذَلِكَ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم]، ولكنَّ زكريا لشدَّةِ لَهْفَتِه، ودَهْشَةِ المُفَاجأةِ راحَ يطلُبُ إلى ربِّه أنْ يجعلَ له علامةً يطْمئِنُّ بها ويسْكنُ إليْها ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾»[1].

« فَمُنِعَ من الكلامِ في هذه المُدَّةِ فكان في هذا مناسَبةٌ لحصُولِ الولدِ منْ بَيْنِ الشَّيْخِ الكبيرِ والمرأةِ العاقرِ، وكَوْنُه لا يقْدِرُ على مُخاطَبةِ الآدميِّينَ ولسَانُهُ مُنْطَلِقٌ بذِكْرِ الله وتَسْبيحِه آيةٌ أخرى، فحينَئذٍ حصلَ له الفرَحُ والاسْتِبْشَارُ، وشكرَ الله، وأَكْثَرَ مِنَ الذِّكْرِ والتَّسبيحِ بالعشيِّ والإبكار، وكان هذا المولودُ من بركاتِ مرْيمَ بنْتِ عِمرانَ على زكريا، فإنَّ ما منَّ اللهُ به عليْها من ذلك الرِّزْقِ الهنيءِ الَّذي يَحْصُلُ بغَيْرِ حسابٍ ذَكَّرهُ وهيَّجَهُ على التضرُّعِ والسُّؤال، واللهُ تعالى هو المتفضِّلُ بالسَّببِ والمُسَبب، ولكنَّه يُقدِّرُ أموراً محْبُوبةً على يَدِ مَنْ يُحِبُّهُ ليرْفَعَ اللهُ قدْرَهُ ويُعْظِمَ أجْرَه»[2].

وكان دعاءُ زكريًّا ونداءُ الملائكةِ إيَّاه وتبْشِيرُها له، كانَ ذلكَ كلُّه بمثابةِ الجُمْلَةِ المُعْتَرِضَةِ في أصْلِ السِّياق، ومِنْ ثَمَّ عاد الحديثُ إلى مرْيمَ ونداءِ الملائكةِ لها ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ الله اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

---

(١) في ظلال القرآن (٥٨٠-٥٨٢/ ١) بتصرف واختصار.

(٢) تيسير الكريم المنان (٣٧٩و٣٨٠/ ١).

« أمَّا الاصْطِفَاءُ الأوَّلُ فهو أمور:

الأوَّل: أنَّه تعالى قَبِلَ تحريرَها مع كوْنِها أُنثى ولم يحْصُلْ ذلِكَ لغيْرِها.

الثاني: أنَّه تعالى فرَّغها لعبادتِه وخصَّها بأنواعِ اللُّطْفِ والهدَايَةِ والعِصْمَة.

الثالث: أنَّه كفَاها أمْرَ مَعيشَتِها، فكان يأتيها رِزْقُها من عنْد الله تعالى.

الرَّابع: أنَّه تعالى أسْمَعها كلامَ الملائكةِ شِفَاهًا ولم يتَّفِقْ ذلكَ لأنْثَى غيْرِها.

وأمَّا التَّطهيرُ ففيه وُجوهٌ:

الأوَّل: أنَّه تعالى طهَّرها عن الكُفْرِ والمَعْصِيَة.

والثَّاني: أنَّه طهَّرها عن مسيسِ الرِّجال.

والثَّالث: أنَّه طهَّرها مِنْ الأفْعالِ الذَّميمَة، والعادَاتِ القبيحة.

والرَّابع: أنَّه طهَّرها من مكائدِ اليَهُودِ وتُهَمِهِم وكذِبهم.

وأمَّا الاصْطِفَاءُ الثَّاني: فالمُرادُ أنَّه تعالى وهبَ لها عيسَى مِنْ غيْرِ أبٍ، وأنطقَ عيسى حالَ انْفِصالِهِ منْها حتَّى شَهِدَ بما يدلُّ على براءتِها. وجعلَها وابنَها آيةً للعالمين»[1].

ومِمَّا سَمِعَتْه مرْيمُ مِنَ الملائكة ﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ والقنُوتُ هو الطَّاعةُ المُطْلقَة، والعِبادَةُ العامَّة، كما قال تعالى: ﴿**وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ**﴾[الروم]، فأمرَها ربُّها بعُمومِ العبادةِ ثُمَّ خصَّ الصَّلاةَ بالذِّكْرِ، كما قالَ تعالى لموسى: ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**﴾[طه].

تِلْكَ هي نَشْأَةُ مرْيمَ وسيرتُها الذَّاتيَّةُ، ولم يشْهَدْها النَّبيُّ ﷺ ولم يكن في زمانها، فإخْبارُه بها على هذا النَّحْوِ أكْبَرُ شاهدٍ له بالرِّسالة، لأنَّه لا سبيلَ له إلى معْرفَةِ تلكَ الحقائقِ إلاَّ أنْ يكونَ وحْيًا أوْحاهُ اللهُ إليْه، ولذلكَ قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ**﴾[آل عمران].

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/٤٧).

وفي هذه القِصَّةِ فوائدُ ودروسٌ وعِبَرٌ :

منْها: اسْتِحْبابُ نَذْرِ بعْضِ الأَوْلادِ للقُرْآنِ الكريمِ والعِلم الشَّرْعيِّ، بحيْثُ يُفرَّغُ الولدُ لذلكَ تفرّغًا كاملاً، حتى يشِبَّ ويترعْرَعَ وقد غُذِّيَ بالقرآنِ الكريمِ والعِلمِ النَّافع، وحينَئِذٍ تنْتَفِعُ به أُمّتُه، ومِنْ قَبْلِها أبوهُ وأُمُّهُ اللذانِ نذَرَاهُ للقُرْآنِ الكريم وعلُومه.

ومنْها: أنَّ المُتقرِّبَ إلى الله بما يُحِبُّه مهْما كان مُخْلِصًا إلاَّ أنَّه غيْرُ جازمٍ بالقَبُول، فعَليْه معَ العَملِ أنْ يُلِحَّ على الله بالدُّعاء بالقَبُول كمَا فعَلت امرأةُ عِمْرَان: ﴿ **إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾، ومن قبلها إبراهيم وإسماعيل كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** (١٢٧) ﴾[البقرة].

ومنها: محَاولَةُ المُؤْمنِ والمُؤْمنَةِ الاجْتِهادَ في اسْتِشْعارِ حلاوَةِ مُناجاةِ الله عزَّ وجلَّ، وذلكَ بتَقْوِيَةِ الإيمانِ بأسْماءِ الله الحُسْنَى وصِفَاته العُلا، بحيْثُ يسْتَشْعِرُ المُؤْمِنُ قُرْبَ الله منْه، ومَعِيّتَهُ له، وسَمْعَهُ لأقْوالِه، وعِلمهُ بأفْعَالِه، ويُقَوِّى ذلكَ الخُشُوعُ في الصَّلاة، وتدبُّرُ ما يقْرَأُ فيها ولاسيَّما الفاتحة، فقد قالَ النَّبيُّ ﷺ : «**قَالَ الله تَعَالَى قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ الحمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قَالَ الله تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم ﴾ قَالَ الله تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1].

---

(١) م(٣٩٥/ ٢٩٦/ ١)، ط(١٨٥/ ٦٦و٦٧)، د(٨٠٦/ ٣٨/ ٣)، ت(٤٠٢٧/ ٢٩٦/ ٤)، جه(٣٧٨٤/ ١٢٤٣/ ٢).

فَعلى المُصَلي إذا قرأ الفاتحةَ أنْ يُقطِّعَها آيةً آية، وأنْ يَقِفَ على رأسِ كلِّ آية، ويُلْقِي سَمْعَهُ لربِّه، وكأنَّه يسْمَعُه يُجيبُه عَقِبَ كلِّ آيةٍ بما يُنَاسِبُها ممَّا جاء في الحديث، وإذا قَوِيَ ذلكَ الشُّعورُ في قَلْبِهِ وجدَ حلاوةَ الإيمان، وللمُناجَاةِ لذَّةً وصارتِ الصَّلاةُ قُرَّةَ عينه، كما كانَتْ قُرَّةَ عيْنِ النَّبيِّ ﷺ.

ومنْها: اليقينُ بأَنَّ اللهَ تعالى يسْتَجيبُ الدَّعواتِ ويقْضِي الحاجَات وإنِ انقطَعتِ الأسْباب، كما استجابَ لامرأةِ عِمْرانَ ولزكريَّا، فعلى المُسْلمِ أنْ يُلِحَّ على الله بالدُّعاءِ وأنْ يسْألَهُ ما شاءَ وإنْ كانتِ الأسْبَابُ مُنْقَطِعةً فـ﴿ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ومنْها: أنَّ الرَّجُلَ إذا سألَ الولدَ عليْه أنْ يقْطَعَ حظَّه من ذلكَ الولد، ليحرِّرَهُ للهِ خالصًا، وعليْه أنْ يدْعُوَ اللهَ للولدِ بالهُدَى والصَّلاح، وأنْ يكونَ عَوْنًا له على ذلكَ حتَّى ينْتَفِعَ به في الدُّنيا والآخرة.

ومنْها: أنَّ كراماتِ الأوْلياءِ حقٌّ، فقد رزَقَ اللهُ مرْيمَ رِزْقًا حسنًا من غيْرِ كَسْبٍ منْها ولا سبب، وكلَّمتْها الملائكة، ولكنَّ الوليَّ الحقَّ لا يُظْهِرُ ما خَفِيَ عن النَّاسِ ممَّا جرَى له من الكرامة، وإذا أظْهرهُمُ اللهُ عليْها تواضَع الوليُّ للهِ وردَّ الفَضْلَ إليْه كما فعلتْ مرْيَمُ عليها السلام.

ولكنْ مَنْ هو الوليُّ؟

الوليُّ هو كلُّ مؤْمِنٍ تقيّ، كما قال تعالى: ﴿ أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢)الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(٦٣)﴾ [يونس]، فكلُّ مؤْمِنٍ تقِيٍّ فهو للهِ وليٌّ، والوليُّ الحقُّ لا يطْلبُ الكرامةَ ولا يحْرِصُ عليها، وإذا جرَتْ له سِرًّا أخفاها، وإذا جرَتْ علانيةً ردَّ الفضْلَ فيها للهِ وحْدَهُ، ولكن قد تكونُ بعْضُ خَوارقِ العاداتِ على يَدِ بعْضِ العُصَاة، بل على يَدِ بعْضِ الكفَرةِ الفَجَرة، كما عرَفْنا من فِتْنةِ الدَّجال، وحينَئذٍ لا يُمْكِنُ أبدًا أنْ تكونَ كرامة، وإنَّما

هي فِتْنَةٌ ابتلَى اللهُ بها عبادَه، ولذلك « رُوِيَ عَنِ اللَّيْثِ بنِ سَعْدٍ أنّه قال: إذا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يمْشِي على الماءِ فلا تَغْتَرُّوا به حتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ على الكِتابِ والسُّنَّة، فبلغَ ذلكَ الشَّافِعيُّ فقال: لقد قَصَّرَ سَعْدٌ، بل إذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَمْشِي على الماءِ ويَطِيرُ في الهواءِ، فلا تَغْتَرُّوا بِهِ حتَّى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ على الكتابِ والسُّنَّة»[1].

ومنْها: « جوازُ تسْمَيةِ الإنسانِ سيِّدًا كما يجوزُ أَنْ يسَمَّى عزيزًا أو كريمًا، كما في الصحيح أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لبني قُرَيْظةَ حين جاءَ سَعْدُ بنُ معاذٍ: «**قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ**»[2]، وقال النَّبيُّ ﷺ في الحسَنِ بنِ عليٍّ: « **ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ**»[3]»[4].

وأمَّا قولُ النَّبيُّ ﷺ : «**السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»[5]، فإنَّما قالَهُ لأُناسٍ مدَحُوه فبالَغُوا في مدْحِه، وخافَ عليْهم الغُلوَّ فيه فنهاهم، **عَنْ أَبِي نَضْرَةَ عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ: قَالَ أَبِي انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْنَا أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: السَّيِّدُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً، فَقَالَ: قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»[6]، هذا مع قولِه ﷺ : « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ**»[7]، قالَه بتَواضُعٍ لا فَخْرٍ، فلَمَّا خاف ممَّنْ قالوا له يا سيِّدَنا الغُلُوَّ فيه نهاهم عنْه.

❑ ❑ ❑

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٥٧٣).

(٢) متفق عليه: خ(٣٨٠٤/ ١٢٣/ ٧)، م(١٧٦٨/ ١٣٨٨و١٣٨٩/ ٣).

(٣) خ(٣٧٤٦/ ٩٤/ ٧)، ت(٣٨٦٢/ ٣٢٣/ ٥)، ن(١٠٧/ ٣).

(٤) أحكام القرآن (٧٧/ ٤).

(٥)،(٦) صحيح: [ص.د:٤٠٢١]، د(٤٧٨٥/ ١٦١/ ١٣).

(٧) صحيح: [ص.ت:٣٦١٥]، ت(٣٦٩٣/ ٢٤٧/ ٥).

مولد عيسى عليه السلام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلاَّ يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ، غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٣٦) ﴾[آل عمران]»[1].

عَرفْنَا قِصَّةَ ميلادِ مريمَ ابْنَةِ عِمْرانَ ونَشْأتَها الإيمانِيَّةَ المباركةَ الزَّكِيَّة، كما عرفْنا قِصَّةَ ميلادِ يَحْيَى بنِ زَكريَّا وأنَّهُ كان من بركاتِ مريمَ عليْها السَّلام، حيْثُ أنَّ رِزْقَ الله الَّذي ساقَهُ إلَيْها بغيْرِ حسابٍ هُوَ الَّذي هيَّجَ في قَلْبِ زَكرِيَّا الطَّمع في الوَلَد، والرَّغْبةَ في طلَبِهِ منَ الله، كما قال تعالى: **﴿ كُلما دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا المِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله إِنَّ الله يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ(٣٨) فَنَادَتْهُ الملائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي المِحْرَابِ أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ أَنَّ الله يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلمةٍ مِنَ الله وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالحِينَ(٣٩) ﴾**

[آل عمران].

وكانَ ميلادُ يحْيَى تمهيداً لميلادِ عيسى، إذْ أنَّ ميلادَ يحْيَى منْ شَيْخٍ كبيرٍ وعَجُوزٍ عقيمٍ أمرٌ غريبٌ، مُخالِفٌ لِلْعَادةِ والمألُوف، فجَعلهُ الله تعالى كالتَّوْطِئةِ والتَّمْهيدِ لما هو أكبرُ وأعْظم، وهو خَلْقُ عيسى منْ مرْيمَ دونَ أنْ يمسَّها بَشَر.

ولذلكَ جمعَ الله بيْنَ الميلادَيْنِ في القُرْآنِ الكريم، في سورةِ آلِ عِمْرَانَ ومرْيمَ والأنْبِياء، فذكرَ الله تعالى في آلِ عِمْرانَ البِشَارةَ بِيَحْيَى عليه السلام، ثُمَّ البشارةَ بعيسَى عليه السلام، وذكرَ في سُورةِ مريمَ قِصَّةَ خَلْقِ يحْيى، ثُمَّ قِصَّةَ خَلْقِ عيسَى عليه السلام.

---

(١) متفق عليه: خ(٣٤٣١/ ٤٦٩/ ٦)، م(٢٣٦٦/ ١٨٣٨/ ٤).

قالَ تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ المقَرَّبِينَ(٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي المهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالحِينَ(٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالحكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ(٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الموْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٤٩) وَمُصَدِّقًا لما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ(٥٠) إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٥١) ﴾[آل عمران].

قالَ الطَّبَرِيُّ في قوْلِهِ تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلمةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ «يقولُ الله تعالى: وما كنتَ لدَيْهِم إذْ يختَصِمُونَ في مريمَ أيُّهم أحَقُّ بِها وَأوْلَى، وما كنتَ لَدَيْهِم أيْضاً ﴿ إِذْ قَالَتِ الملائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ ﴾ والتَّبْشيرُ إخْبارُ المرْءِ بما يسُرُّهُ منْ خَيْر، وقوْلهُ ﴿ بِكَلمةٍ مِنْهُ ﴾ يعني برسالةٍ منَ الله، وخَيْرٍ من عنْده، وهوَ منْ قولِ القائل: ألْقَى فلانٌ إليَّ كلمةً سرَّني بها، بمَعْنَى أخْبَرَني خبَراً فَرِحْتُ به، كما قالَ جلَّ ثناؤه ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ(١٧١) ﴾[النساء]، يعْنِي بُشْرَى الله مريمَ بعيسى ألْقاهَا إلَيْها، فتَأْويلُ الكلام: وما كنتَ يا نَبِيَّنا عنْدَ القوْمِ إذْ قالتِ الملائكةُ لمريمَ يا مريمُ إنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِبُشْرَى منْ عنْدِهِ وهيَ ولَدٌ لكِ، اسْمُهُ المسيحُ عيسَى ابنُ مرْيَم»(١).

فأعْلم الله تعالى مريمَ والنَّاسَ أجْمعينَ بِنَسبِ عيسَى وأنَّهُ مَنْسُوبٌ إلى أُمِّه، على خلافِ الْعَادَةِ حيثُ يُنْسَبَ الأَبْنَاءُ إلى آبائِهم، وعيسَى مَنْسُوبٌ إلى أُمِّه، فكانَ في البِشَارةِ إشارةٌ إلى خَلْقِهِ منْ غَيْرِ أَب»(٢).

---

(١) جامع البيان (٢٦٩/ ٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٥٥/ ٨).

وقد لُقِّبَ بالمسيح لأنَّهُ كانَ إذا مَسَحَ المريضَ بَرأَ بإذْنِ الله.

ومنْ صِفَاتِهِ عَلَيْهِ السَّلام كونُهُ ﴿ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، قال الآلوسي: «الْوَجيهُ ذو الجاهِ والشَّرفِ والقَدْر. وقيلَ الكريمُ على منْ يسْألُهُ فلا يُرَدُّ لكرَمِ وَجْههِ عنْدَه، خلافَ منْ يَبْذُلُ وَجْهَهُ لِلمسْألَةِ فَيُرَد، وَوَجَاهَتُهُ في الدُّنْيَا بالنُّبوَّةِ والتَّقَدُّمِ على النَّاس، وفي الآخرةِ بقَبُولِ شَفاعتِهِ وعُلُوِّ دَرجتِه. ثُمَّ هوَ يوْمَ الْقِيَامةِ عنْدَ الله منَ المقَرَّبين»[1].

«وهذه بِشَارةٌ لا يُشْبِهُهَا شيءٌ منَ البشَارات، ومنْ تمامِ هذهِ الْبِشَارةِ أنَّهُ ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ صَبِيًّا فيكونُ تكْليمُهُ آيةً من آياتِ الله، ورحْمةً منْهُ بأُمِّهِ وبالخلْق، ﴿وَ﴾ كذلكَ يُكلمهم ﴿كَهْلاً﴾ أيْ في حالِ كُهُولَتِه، وهذا تكليمُ النُّبوَّةِ والدَّعْوةِ والإرْشَاد، فكلامُهُ في المَهْدِ فيهِ آياتٌ وبراهينُ على صِدْقِهِ ونُبُوَّتِه وبراءةِ أُمِّهِ مِمَّا يُظَنُّ بها منَ الظُّنُونِ السَّيِّئة، وكلامُهُ في كُهولتِهِ فيهِ نَفْعٌ عظيمٌ للخلْق، وكونُهُ واسِطَةً بيْنَهم وبيْنَ ربِّهم في وَحْيِهِ وتَبْليغِ دينِهِ وشَرْعِه. ومعَ ذلكَ فَهُوَ ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الَّذينَ يُصْلح الله قلوبَهم بمَعْرِفَةِ وحْيِه، وألْسِنَتَهم بالثَّناءِ عليْهِ وذِكْرِه، وجوارِحَهم بطاعَتِهِ وخِدْمَتِه»[2].

وهكذا بشَّرَتِ الملائكةُ مريمَ بهذهِ الْبِشَارةِ الْعَظيمَة، فكيْفَ تلقَّتْ مريمَ هذهِ الْبِشَارة؟

«لقد تلقَّتْ مريمُ هذهِ البشارةَ كما يُمْكِنُ أن تَتلقَّاهَا فتاةٌ عَذْراءُ طاهِرَة، مُقَيَّدَةٌ بمألوفِ البشَر، وراحتْ تُنَاجي ربَّها، وتَتطلَّعُ إلى كشْفِ هذا اللُّغْزِ الَّذي يُحَيِّرُ عَقْلَ الإنْسان، ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران] وجاءها الجوابُ يردُّها إلى الحقيقةِ البسيطةِ الَّتي يغْفَلُ عنْها البشرُ بطولِ أُلْفَتِهم للأسْبابِ والمسبَّباتِ الظاهرة لِعلمهمُ القليلِ ومَألوفِهمُ المحْدود، ﴿قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[آل عمران].

(١) روح المعاني (١٦٢/ ٣).
(٢) تيسير الكريم المنان (٣٨٢/ ١).

وحينَ يُردُّ الأمرُ إلى هذهِ الحقيقةِ الأوَّليَّةِ يذهبُ العَجب، وتزولُ الحيْرة، ويطمئنُّ القلب، ويعودُ الإنسانُ على نفْسهِ يسألُها في عجبٍ: كيفَ عَجِبَتْ منْ هذا الأمرِ الواضحِ القريب؟»[1].

وصرَّح ههنا بقوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ولم يقلْ ﴿يفعل﴾ كما في قصَّةِ زكريا[2] وكلٌّ منْهما خلقٌ وفِعْل، لكنَّ لفظَ الفِعْلِ يُسْتعملُ كثيراً فيما يجْري على قانونِ الأسبابِ المعْرُوفة، ولفظَ الخلْقِ يُسْتعملُ في الإبْداعِ والإيجادِ ولَوْ بغيرِ ما يُعْرَفُ من الأسباب، فيُقالُ: خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، ولا يُقالُ: فعلَ السَّمواتِ والأرض، ولما كان إيجادُ يحيى منْ زَوْجيْنِ كإيجادِ سائرِ النَّاسِ عبَّر عنْهُ بالفِعْل، وإنْ كانَ فيه آيةٌ لزكريَّا، لأنَّ هذيْنِ الزَّوْجيْنِ لا يُولدُ لمثْلِهما عادة، وأمَّا إيجادُ عيسى فَهُوَ على غَيْرِ المعْهود في التَّوالُد، لأنَّهُ منْ أُمٍّ غيرِ زَوْجٍ في الظَّاهر، فكانَ بالأُمورِ المبْتَدأةِ بمحْضِ القُدْرةِ أشْبَه، والتَّعْبيرُ عنْهُ بالخلْقِ أَلْيَق، وإنْ كانَ لهُ سببٌ رُوحَانيٌّ جعلَ «أمر» بمعْنَى الزَّوْج، ولكنَّ هذا السَّببَ غَيْرُ مَعْهودٍ للنَّاسِ ولا معْروفٌ لهم، فمريمُ لا تَعْرفُه، ولكنَّها كانتْ مُؤْمِنَةً بالله، مُؤْمِنَةً بِقُدْرتِهِ على كلِّ شيء، ولذلكَ أحالَها في البِشَارةِ على مَشيئَتِهِ لِتَكُونَ مُؤْمِنَةً، فقال: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾أي إذا أرادَ شيْئًا، فالقضاءُ بِمَعْنَى الإرادَة، ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[3].

ومَضتِ الملائكةُ تُبشِّرُ مريمَ بصفاتِ ولدِهَا الَّذي سيكونُ منْها بلا أب:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[آل عمران] قال الرَّازي: «المرادُ منَ الكتابِ تَعْليمُ الخطِّ والكِتَابة، ثمَّ المرادُ منَ الحكْمةِ تَعْليمُ العُلومِ وتَهْذيبُ الأخْلاق، لأنَّ كمالَ الإنسانِ في أنْ يعرفَ الحقَّ لذاته، والخيْرَ لأجْلِ العملِ به، ومَجْمُوعهُما هوَ المسَمَّى بالحكْمَة، ثمَّ بعدَ أن صار عالما بالخطِّ والكتابةِ ومُحيطاً بالعُلومِ العَقْليَّةِ والشَّرْعِيَّةِ يُعلمهُ التَّوْراةَ.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٨٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٦٤).

(٣) مختصر المنار (١/ ٣٢٣).

وإنَّما أخَّرَ تَعْليمَ التَّوراةِ عنْ تعليمِ الخطِّ والحكْمَةِ، لأنَّ التَّوْراةَ كتابٌ إلهيٌّ، وفيهِ أسْرَارٌ عَظيمَة، والإنسانُ مَا لم يتعلم العُلومَ الكثيرةَ لا يُمكنُهُ أن يخُوضَ في البَحْثِ عنْ أسْرَارِ الكُتبِ الإلهيَّة، ثُمَّ قالَ في المرْتَبةِ الرَّابعةِ ﴿والإنجيلَ﴾.

وإنَّما أخَّرَ الإنْجِيلَ عنْ ذِكْرِ التَّوْرَاةِ لأنَّ منْ تعلم الخطَّ ثُمَّ تعلم عُلومَ الحقِّ، ثُمَّ أحاطَ بأسْرَارِ الكتابِ الَّذي أنْزَلَهُ الله تعالى على منْ قَبْلَهُ منَ الأنْبِيَاءِ فقدْ عَظُمَتْ درَجتُه في العِلم، فإذا أنزلَ الله تعالى عليْهِ بعْدَ ذلكَ كتاباً آخرَ وأوْقَفهُ على أسْرَارهِ فذلكَ هُوَ الغايةُ القُصْوَى، والمرْتَبةُ العُلْيَا في العِلم والفَهْمِ والإحَاطةِ بالأسْرَارِ العَقْليَّةِ والشَّرْعِيَّة، والاطِّلاعُ على الحكَمِ العُلْويَّةِ والسُّفْليَّة»(١).

واسْتَمرَّتِ الملائكةُ في تَبْشيرِ مريمَ بصفاتِ ولدِها: ﴿ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي: ويجْعلُهُ رسولاً إلى بني إسْرائيل، فيَدْعُوهم إلى الإيمانِ بالله وبمَا أُرْسِلَ به، ويُبرهنُ لهُمْ على صِدْقِهِ بقولِهِ: ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ والآيةُ هيَ المعْجِزَة، وهيَ الأمْرُ الخارِقُ للعادَة، يُظْهِرهُ الله على يدِ مُدَّعِ النُّبوَّةِ، تَصْديقاً لهُ في دَعْوَاه.

وكانَ من الآياتِ الَّتِي جاءَ بها عيسَى ما ذكَرهُ في قوْلِهِ: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ الله﴾.

والخلْقُ مَعْنَاهُ التَّقْديرُ والتَّصْوير، لا الإنْشَاءُ والاخْتِرَاع، ومنْهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخَالِقِينَ(١٤)﴾[المؤمنون].

أمَّا الخلْقُ بمَعْنَى الإنْشَاءِ والاخْتِرَاعِ فهذَا لله وَحْدَه، ولذلكَ خاطبَ الَّذينَ عبَدُوا غيْرَهُ بقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ(٤٠)﴾[فاطر].

---

(١) مفاتيح الغيب (٨/٥٩).

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (١٠) هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)﴾[لقمان].

ومنْ آياتِ عيسَى عليْهِ السَّلامُ ما ذكَرهُ في قَوْلِهِ: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ وهُوَ الَّذِي يُولَدُ أعْمَى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وهُوَ مَعْرُوف، ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾.

«قالَ كثيرٌ منَ العُلماءِ: بعثَ الله كلَّ نبيٍّ منَ الأنبياءِ بما يُناسِبُ أهلَ زمانِه، فكانَ الغالبُ على زمانِ موسى عليْهِ السَّلامُ السِّحْرَ وتعظيمَ السَّحرة، فبعثَهُ الله بمُعْجِزَاتٍ بهَرَتِ الأبْصَارَ، وحيَّرتْ كلَّ سحَّار، فلما اسْتَيْقَنُوا أنَّها منْ عنْدِ العَظيمِ الجبَّارِ انْقادُوا للإسْلامِ وصَارُوا منْ عبادِ الله الأبْرار.

وأمَّا عيسى عليْهِ السَّلامُ فبُعِثَ في زمنِ الأطِبَّاءِ وأصْحَابِ عِلم الطَّبيعَة، فجاءهم منَ الآياتِ بمَا لا سبيلَ لأحدٍ إليْه، إلاَّ أنْ يكونَ مؤيَّداً من الَّذي شرعَ الشَّريعَة، فمِنْ أينَ للطَّبيبِ القُدْرَةُ على إحْيَاءِ الجمادِ، أوْ على مُدَاواةِ الأكْمَهِ والأبْرَصِ، وبَعْثِ منْ هوَ في قبْرِهِ رهينٌ إلى يَوْمِ التَّنَاد.

وكذلكَ محمدٌ ﷺ بُعِثَ في زمنِ الفُصَحاءِ والبُلَغاءِ وتَجاريدِ الشُّعَراء، فأتاهُمْ بكتابٍ منَ الله عزَّ وجلَّ، فلَوِ اجْتَمعَتِ الإنْسُ والجنُّ على أنْ يأْتُوا بمثْلِهِ أوْ بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ، أو بسُورةٍ منْ مِثْلِهِ لم يَسْتَطِيعُوا أبداً، ولوْ كانَ بعْضُهم لبعْضٍ ظهيرًا، وما ذاك إلاَّ أنَّ كلامَ الله عزَّ وجلَّ لا يُشْبِهُ كلامَ الخلْقِ أبدًا.

ومنْ مُعْجِزَاتِهِ عليهِ السَّلامُ الإخْبَارُ ببَعْضِ المغيَّبات، كما قالَ: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: أُخْبرُكم بمَا أكل أحدُكمُ الآنَ وما هُوَ مُدَّخرٌ لهُ في بَيْتِهِ لغدٍ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الَّذي جِئتُكم بهِ ﴿لَآيَةً لَكُمْ﴾ على صِدْقي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: مُؤيِّدَها ومُبيِّناً لها ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ معَ مُحافَظتي على

شريعةِ التَّوراة ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: بحُجَّةٍ ودلالةٍ على صِدْقي فيما أقولُ لكم ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ(٥٠) إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فأنا وأنتم سواءٌ في العُبُوديَّةِ والخضوعِ والاسْتِكانَةِ إليْهِ سُبْحانه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٥١)﴾[آل عمران]»(١).

وهكذا بشَّرتِ الملائكةُ مريمَ بهذا الولدِ المبارك، فكيفَ كان حَمْلُهُ وَوَضْعُه؟ هذا ما قصَّهُ الله تعالى علَيْنا في السُّورَةِ الَّتي أفردَها لها في القُرْآنِ الكريم، وسمَّاها باسْمِها سُورةِ مريم.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا(١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا(١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا(١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا(١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا(٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا(٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا(٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا(٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا(٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا(٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا(٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ(٣٤) مَا كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٣٥) وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٣٦)﴾[مريم].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٦٤و٣٦٥/ ١).

ويُلاحظُ أنَّ هذهِ الآياتِ قد قُسِّمَتْ ثلاثةَ أقْسام:

الأوَّلُ: لِلحديثِ عنْ حَمْلِه.

الثَّاني: عنْ وَضْعِه.

الثَّالِثُ: عنْ مُواجَهتِها قَوْمَها.

أمَّا الأوَّلُ فَمُفادُ آياتِهِ: أنَّ الله تعالى لما أرادَ تحقيقَ البُشرى وخلْقَ عيسى ابنِ مريمَ هيَّئَ الأسبابَ، وجعلَ لمريمَ حاجةً في الخروجِ منَ المحْراب، فـ ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي: اعْتَزلتْهُم وابْتعَدتْ عنْهم شَرْقِيَّ الدَّارِ أو شَرْقِيَّ بيتِ المقْدِس، ثمَّ ﴿ٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ لئلاَّ يراها أحد، وذلكَ زيادةٌ في التحفُّظِ والتستُّر، ومع ذلكَ فُوجِئَتْ برجلٍ سَوِيٍّ، ذي مَنْظَرٍ بهيٍّ، قدِ اقْتحمَ عليْهَا خَلْوتَها، فأَصَابَها منَ الذُّعْرِ والقَلقِ ما يُمكنُ أن يُصيبَ مثلَها منَ العذَارى الطَّاهراتِ المحْصَنات، وظنَّتْ بذلكَ الرَّجُلِ ظنَّ السَّوْء، ولم تجِدْ أحداً أقربَ إليْها من ربِّها الَّذي شاهدتْ من قبلُ لُطفَهُ وإحْسانَهُ إلَيْها، فلجأتْ إلى الله تَسْتَعيذُ بِهِ من شرِّ ذلكَ الرَّجُل، كما أعاذَتْها أُمُّها منْ قبلُ منَ الشَّيْطانِ الرَّجيم، ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾، ثمَّ خَوَّفَتِ الرَّجُلَ منَ الله، وذكَّرَتْهُ بتَقْواه، فقالَتْ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فارْجِعْ منْ حيثُ جئتَ، ولا تمسَّني بسُوء، فعَلمتْ أنَّ التَّقِيَّ ذو نُهْيَة، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ(٢٠١)﴾[الأعراف] ومما لا شكَّ فيهِ أنَّ جبريلَ منْ أشدِّ خَلْقِ الله خشيةً لله، ولا بُدَّ أنَّهُ انتفضَ من هذه التَّذْكِرَةِ انْتِفَاضةَ المتَّقين، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، ولكنَّهُ وجدَ نفْسَهُ مُضْطرًا أنْ يقولَ لها: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الَّذي استعذْتِ به، كما قالَ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريلُ عليه السَّلام، سُمِّيَ بالرُّوحِ في أكثرَ من آيةٍ في القرآنِ الكريم، لأنَّهُ أمينُ الوَحْيِ الَّذي هُوَ روحُ الأرْوَاح، فسُمِّي الحامِلُ باسْمِ المحْمُول، ولا شكَّ أنَّها قدِ اطمأنَّتْ شيئاً ما بعدَ سَماعِها قولَه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ ولا سيَّما ولها طولُ أُلفةٍ في سَماعِ كلامِهِ ومُخاطَبَتِهِ إيَّاها قبلَ ذلك، إلاَّ أنَّها ما كادَتْ تَطْمئِنُ حتَّى عادَ إليْهَا القلقُ مرَّةً ثانيةً حينَ سَمِعَتْهُ يقولُ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

« فقد تكونُ حيلةَ فاتكٍ يستغلُ طيبتَها، ويُصارحُها بما يخدشُ سَمْعَ الفتاةِ الخجُول، وهو أنَّهُ يريدُ أنْ يهبَ لها غُلامًا، وهُما في خَلْوَةٍ، لكنَّها تجْمَعُ قُواهَا وتَتهالَكُ نفسَها وتسألهُ بشجاعةٍ وصَراحةٍ: كيفَ؟ ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بحلالٍ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ويَبْدُو منْ سُؤالِها أنَّها لم يكنْ بِتَصَوُّرِها حتَّى هذهِ اللحظةِ وسيلةٌ أُخرَى للولادةِ إلاَّ الوسيلةُ المعْهُودة، وهذا هو الطبيعيُّ بحُكْمِ التَّصَوُّرِ البَشَرِيِّ، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي الحالُ والوصفُ كما ذكرتِ أنَّكِ طاهرةٌ مطهَّرةٌ منْ مسِّ الرِّجالِ في الحلالِ والحرام، ولكنْ ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فهذا الأمرُ الخارقُ للعادةِ، الَّذي لا تتصوَّرُ مريمُ وُقوعَهُ، هيِّنٌ على الله، فأمامَ القُدرةِ الإلهيَّةِ الَّتي تقولُ للشَّيْءِ كن فيَكون، كلُّ شيءٍ هيِّن، سواءٌ جرتِ السُّنَّةُ المعْهُودةُ به أو جرتْ بغيْره»[1].

«ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِلنَّاسِ﴾ أي دلالةً وعلامةً للناسِ على قُدرةِ بارئِهم وخالقِهم الَّذي نوَّعَ في خَلْقِهم، فخلق أباهم آدمَ منْ غيْرِ ذكرٍ ولا أُنثى، وخلقَ حوَّاءَ منْ ذكرٍ بلا أُنثى، وخلقَ بقيَّةَ الذُّريَّةِ منْ ذكرٍ وأُنثى، إلاَّ عيسى فإنَّهُ أوْجدَهُ من أُنثى بلا ذكَر، فتمَّتِ القِسْمَةُ الرُّباعيَّةُ الدَّالَّةُ على كمالِ قُدرتِهِ وعَظيمِ سُلْطانِه، فلا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سواه»[2].

وقولُهُ تعالى:﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ «أي: ولِنَجْعلَهُ رحمةً منَّا به، وبوالدتِه، وبالنَّاس. أمَّا رحْمةُ الله بِهِ فلما خصَّهُ بوحْيِه، ومنَّ عليْهِ بمَا منَّ بِهِ على أُولِي العَزْمِ منَ الرُّسل. وأمَّا رحمتُهُ بوالدتِهِ فلما حصلَ لها منَ الفَخْرِ والثَّناءِ الحسَنِ والمنافعِ العَظيمَة. وأمَّا رحمتُهُ بالنَّاسِ فإنَّ أكبرَ نِعَمِ الله علَيْهم أن بعثَ فيهم رسُولاً يتْلُو عليْهِم آياتِهِ ويُزكِّيهم ويُعلمهمُ الكتابَ والحكْمَة، فيؤمنونَ بِهِ ويُطيعُونَه، وتحصلُ لهم سعادةُ الدُّنيا والآخرة.

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٤٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/١١٥).

وقولُه تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ أي: وكانَ وجودُ عيسى عليْهِ السَّلامُ على هذه الحالةِ قضاءً سابقاً قضاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ، فلا بُدَّ منْ نُفُوذِهِ ووقُوعِه»[1]، وكأنَّها اطْمَأنَّتْ وسكَنَتْ ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ فنفخ جبريلُ فيها، فسَرَتِ النَّفخةُ إلى الرَّحِمِ فحملَتْ به.

«وقدِ اختلفَ المفسِّرونَ في مُدَّةِ حَمْلِه، فالمشْهورُ عن الجمهورِ أنَّها حملتْ به تسعةَ أشْهُرٍ كما تَحْمِلُ النِّساءُ بأولادِهنَّ، بدليلِ أنَّ اللهَ تعالى ذَكرَ مدَائحَها في هذا المَوْضِعِ، فلو كانتْ عادتُها في مدَّةِ حَمْلِها بخلافِ عاداتِ النِّسَاءِ لكانَ ذلكَ أوْلى بالذِّكْرِ»[2].

ولهذا لما ظَهرَتْ مَخَايِلُ الحمْلِ بها، وكان معَها في المسْجدِ رجلٌ صالح من قراباتِها يخدُمُ معها بيتَ المقْدس، يُقالُ لهُ يوسفُ النَّجار، فلما رأى ثِقَلَ بَطْنِها وكِبَرَه، أنكرَ ذلكَ منْ أمْرِها، ثمَّ صرفَهُ ما يعلم من براءَتِها ونزَاهتِها، ودينِها وعِبَادتِها، ثمَّ تأمَّلَ ما هيَ فيهِ فجعلَ أمرُها يجوسُ في فِكْرِهِ لا يستطيعُ صرْفَهُ عن نفْسِه، فحملَ نفْسَهُ على أنْ عرَّضَ لها في القَوْل.

فقالَ: يا مريمُ إنِّي سائلُكِ عن أمرٍ فلا تعْجَلي عليّ. قالتْ: وما هُوَ؟ قال: هلْ يكونُ شجرٌ من غيْرِ حبٍّ؟ وهلْ يكونُ زرْعٌ من غيْرِ بذْر؟ وهلْ يكونُ ولدٌ منْ غيْرِ أب؟ ففهِمَتْ ما أشارَ إليْه.

فقالتْ: نعم. أمَّا قولُكَ: هلْ يكونُ شجرٌ من غيْرِ حبٍّ؟ وهلْ يكونُ زرْعٌ من غيْرِ بذر؟ فإنَّ اللهَ خلقَ الشجرَ والزَّرعَ أوَّلَ ما خلقَهُما من غيْرِ حَبٍّ ولا بذر. وأمَّا قولُكَ: وهلْ يكونُ ولدٌ منْ غيْرِ أب؟ فإنَّ اللهَ تعالى خلقَ آدمَ منْ غيْرِ أبٍ ولا أُمٍّ، فصدَّقها وسلم لها حالَها»[3].

---

(١) تيسير الكريم المنان (٩٨و٩٩/ ٥).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٠٣/ ٢١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (١١٦/ ٣).

«فلم تزَلْ على ذلكَ حتَّى ضرَبَها الطَّلْقُ، فنُودِيَتْ أنِ اخرُجِي منَ المحْرَابِ فخَرَجَتْ»[(١)].

وهكذا تمَّ الحمْلُ وانقضتْ مُدَّته، وخرجَتْ لِوَضْعِه: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي: ابْتعَدتْ إلى أقْصَى مكانٍ يُمْكِنُها الوُصولُ إليْه، والمشْهُورُ أنَّهُ بيتُ لحم، ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ أي: ألجأهـا الألم ووجَعُ الطَّلْقِ واضطرَّها إلى جِذْعِ نَخْلَةٍ يابسةٍ تَسْتَنِدُ إليْها « وهيَ تُعَاني منَ الآلام الجسديَّةِ بجانبِ الآلامِ النَّفسِيَّة، وهيَ وحيدةٌ فريدةٌ، تُعَاني حَيْرَةَ العَذْراءِ في أوَّلِ مَخَاضٍ، ولا عِلم لها بشَيء، ولا مُعِينَ لها في شَيء»[(٢)].

وإذا بها تتمنَّى الموتَ قبلَ أنْ يكونَ منْها ما كان: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ تَعْنِي شَيْئاً حقيراً ينساهُ أهلُهُ فلا يَهْتمُّونَ ولا يَبْحَثُونَ عنْهُ لحقَارته، وإذا بِصَوْتٍ عذْبٍ نديٍّ على خلافِ العادةِ يُناديها لِيُؤنسَ وحْشَتها ويُذْهبَ رَوْعتَها، ويَرْبطَ على قلْبِها، ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

وقدِ اختلفَ المفَسِّرون في هذا المنادِي: هلْ هُوَ جبريلُ أمْ عيسى؟ والرَّاجِحُ أنَّهُ عيسى، لأنَّهُ أقربُ مذْكورٍ، والضَّمائرُ المذكورَةُ في السِّياقِ كلُّها عائدةٌ عليْه: فحملتْهُ، فانْتبذَتْ بهِ، فنادَاها، ثمَّ إنَّهُ أرْشَدها إلى الصَّمتِ عندَ مُواجَهةِ النَّاسِ والإشارةِ إليْهِ هُوَ ليُكلمهم، فاقْتَضتِ الحكْمَةُ أن تسمعَ كلامَهُ هِيَ أوَّلاً لتطمئنَّ إلى قُدْرتِهِ على الكلامِ عنْدَ مُواجَهةِ القَوْم، وتثِقَ بدِفَاعِهِ عنْها، وهذا هُوَ ما وعدَها الله به، وبشَّرتْها بهِ الملائكةُ: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾.

(١) الدر المنثور (١٩٧/١).

(٢) في ظلال القرآن (٤٣٣/٥).

«سُبْحانَ الله! طفلٌ وُلِدَ اللحظةَ يُناديها منْ تحتِها، يُطَمْئِنُ قلبَها ويَصِلُها بربِّها، ويُرْشِدُها إلى طَعامِهَا وشَرابِها، ويدلُّها على حُجَّتِها وبرُهانِها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ فلم ينْسَكِ ولم يتْرُكْكِ، بلْ أجْرَى لكِ تحتَ قَدميْكِ جدْوَلاً سارياً، الأرجحُ أنَّه جرَى لِلحظتِهِ منْ يُنْبُوعٍ أو تدفَّقَ منْ مسيلِ ماءٍ في الجبلِ، وهذه النَّخْلةُ الَّتي تَسْتَنِدِينَ إلَيْها هُزِّيها فتُسَاقِطْ عليْكِ رُطباً، فهذا طعامٌ وذاكَ شرابٌ، والطَّعامُ الحلْوُ مناسِبٌ للنُّفَساء، والرُّطبُ والتَّمْرُ منْ أجْودِ طعامِ النُّفَساء، ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ هنيئاً ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ واطْمَئِني قلْباً، فأمَّا إذا واجَهْتِ أحداً فأعْلِنِيهِ بطريقةٍ غيرِ الكلامِ أنَّكِ ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ عن حديثِ النَّاس، وانْقَطعْتِ إليْهِ لِلعِبَادة، ولا تُجِيبي أحداً عن سُؤال»[1].

وإنَّما لم تُؤمَرْ بمُخاطبَتِهم في نَفْيِ ذلكَ عنْ نَفْسِهَا لأنَّ الناسَ لا يُصدِّقونَها ولا فيه فائدة، وليكونَ تبرئتُها بكلامِ عيسى في المهْدِ أعظمَ شاهدٍ على براءَتِها، فإنَّ إتيانَ المرأةِ بولدٍ منْ دونِ زَوْجٍ ودَعْواها أنَّهُ من غيْرِ أحَدٍ، منْ أكْبَرِ الدَّعاوَى الَّتي لوْ أُقِيمَ عليْها عدَّةٌ منَ الشُّهُودِ لم تُصَدَّقْ بذلك، فَجُعِلَتْ بيِّنَةُ هذا الخارقِ للعادةِ منْ جنْسِه، وهُوَ كلامُ عيسى في حالِ صِغَرِه جدًّا»[2].

وانْطَلقتْ مريمُ واثقةَ الخطى، مُطْمَئِنَّةَ القَلْبِ، غَيْرَ عَابِئَةٍ بمُواجَهَةِ قَوْمِهَا، بمَا لم يَألَفُوه، ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ فلم يُطِيقُوا صَبْرًا حتَّى ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ «أيْ مُنْكرًا عظيمًا، يَعْنُونَ بهِ الزِّنَا، لأنَّ ولدَ الزِّنَا كالشَّيْءِ المفْتَرَى المخْتَلَق، لأنَّ الزانيةَ تدَّعِي إلحاقَهُ بمنْ ليس أباه، ولذلكَ كانَ فيما أخذَ النَّبيُّ ﷺ على النِّساءِ: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾[الممتحنة]، ثمَّ زادُوا في الإنْكارِ فقالُوا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ وليسَ المرادُ به هارونَ أخا موسى بنِ عِمْرانَ، وإنَّما هو رجلٌ صالح منْ بني إسْرائيلَ كانُوا يُشبِّهون

(١) في ظلال القرآن (٤٣٣/ ٥).
(٢) تيسير الكريم المنان (١٠١/ ٥).

به الصالحين، وإطلاقُ اسمِ الأخِ على النَّظيرِ المشَابِهِ مَعْروفٌ في القُرْآن، ومنْهُ قوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ [الزخرف].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء]، والدَّليلُ على أنَّهُ ليْسَ هارونَ أخا موسى ما رواه مسلم عَنِ المغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: لما قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا: إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ يَا أُخْتَ هَارُونَ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا، فَلَما قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالحِينَ قَبْلَهُم»[1].

وقولهمْ ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ يعْنُونَ: كانَ أبواكِ عَفِيفَيْنِ لا يَفْعلانِ الفَاحشةَ، فما بالُكِ أنتِ تَرْتكبينَها؟»[2] فالْتَزَمتْ بوَصِيَّتِهِ عليْهِ السَّلامُ ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكلم الْيَوْمَ إِنْسِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أنْ سلُوه، ﴿ قَالُوا ﴾ مُتعجِّبينَ ﴿كَيْفَ نُكلم مَنْ كَانَ فِي المهْدِ صَبِيًّا﴾ وظنُّوا أنَّها تَسْخرُ مِنْهُم، فحينئذٍ تكلم عيسى مُبَرِّئاً أُمَّهُ منَ الافْتِرَاء: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ﴾، وهيَ أعظمُ حقٍّ لله على العبْدِ بعدَ التَّوْحيد، ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ وهيَ أعظمُ حقوقِ العبيد، وأنْ أقومَ بهذا الواجبِ ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي جعلني برًّا بها ﴿وَلم يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

وأخطرُ الأيَّامِ على الإنْسَانِ يوْمُ الميلاد، ويوْمُ الوَفَاةِ، ويوْمُ البعث، وقد سلم الله عيسى عندَ ولادتِهِ منْ شرِّ الشَّيْطانِ الرَّجِيم، وسلمهُ يوْمَ مَوْتِهِ منَ الْفِتَن، وسلمهُ يوْمَ الْبَعْثِ منَ الأهْوَال.

---

(١) م(٢١٣٥/ ١٦٨٥/ ٣).

(٢) أضواء البيان (٢٧٠-٢٧٢/ ٤) بتصرف واختصار.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ عبدُ الله ورسُولُه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فكيفَ جعلوهُ ولدًا لله ﴿مَا كَانَ لله﴾ أَنْ ﴿يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، وهذهِ كالجمْلَةِ المعْترِضَةِ بيْنَ كلامِ عيسى عليْهِ السَّلام، ثمَّ تجيءُ آخِرُ كلمةٍ منْهُ، ﴿وَإِنَّ الله رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وهيَ نَفْسُ الكَلمةِ الَّتي حكَتْهَا الملائكةُ في تَبْشِيرِها أُمَّهُ به، فـ ﴿الحمْدُ لله الَّذِي لم يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلم يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الملْكِ وَلم يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

❑ ❑ ❑

كرامات الأولياء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي المَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ، عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِدًا فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ! فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي؟! فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ! فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي؟! فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ فَانْصَرَفَتْ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ! فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أُمِّي وَصَلاَتِي؟! فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاَتِهِ، فَقَالَتِ: اللهمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ المومِسَاتِ، فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ لَكُمْ؟ قَالَ: فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَوْمَعَتِهِ فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا فَحَمَلَتْ فَلَمَّا وَلَدَتْ، قَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهَذِهِ الْبَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ، فَقَالَ: أَيْنَ الصَّبِيُّ فَجَاءُوا بِهِ، فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلاَمُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلاَنٌ الرَّاعِي، قَالَ: فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: لاَ أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ فَفَعَلُوا، وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللهمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ، قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فَمِهِ فَجَعَلَ يَمُصُّهَا، قَالَ: وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ الله

وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللهمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا فَتَرَكَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا فَقَالَ: اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهُنَاكَ تَرَاجَعَا الحدِيثَ، فَقَالَتْ: حَلْقَى مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ فَقُلْتُ اللهمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ فَقُلْتَ اللهمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ زَنَيْتِ سَرَقْتِ، فَقُلْتُ: اللهمَّ لاَ تَجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتَ اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، قَالَ: إِنَّ ذَاكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ اللهمَّ لاَ تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ لَهَا زَنَيْتِ وَلَمْ تَزْنِ وَسَرَقْتِ وَلَمْ تَسْرِقْ فَقُلْتُ اللهمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا»[1].

عرفنا من فتنة الدجال أنَّ معه جنة وناراً، وأنّه ينادي على السماء أمطري فتمطر، وينادي على الأرض أخرجي نباتك وكنوزك فتخرج نباتها وكنوزها، وأنّه يقتل رجلاً ثم يحييه، وهذه أشياء من خوارق العادات لا يقدر على مثلها البشر، ظهرت على يد رجل كذاب أعور العينين، مكتوب بين عينيه كافر.

كما عرفنا من سيرة مريم عليها السلام أنَّ الله تعالى كان يأيتها برزقها من السماء، وأنَّ الملائكة كانت تكلمها مشافهة، وأنَّها لمَّا ولدت عيسى في مكان بعيد لا أنيس فيه ولا جليس، أجرى الله تعالى لها نهراً، وأنبت لها من النخلة اليابسة تمراً، وأنطق لها عيسى مولودها يطمئنها ويهدئ من رَوْعها، لتعلم أنَّها في رعاية ربها، وهذه أيضاً من خوارق العادات التي ظهرت على يد مريم عليها السلام، وهي الصديقة القانتة العابدة الصالحة.

كما عرفنا من سيرة عيسى ابن مريم عليه السلام أنّه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، وكان يخبر الرجل بما يأكل في حينه، وبما ادخره له أهله لغده، وهذه أيضاً من خوارق العادات أظهرها الله على يد عيسى عليه السلام وهو رسول الله.

(١) متفق عليه: خ(٣٤٣٦/ ٤٧٦/ ٦) مختصراً، م(٢٥٥٠-٨-/ ١٩٧٦-١٩٧٨/ ٤) واللفظ له.

فتبيَّن من ذلك أنَّ الخارقَ قد يظهر على يدِ رسولِ الله، وقد يظهرُ على يد وليِّ الله، وقد يظهر على يد عدوِّ الله. ويُسمَّى الأمرُ الخارقُ للعادة آية، ولذلك قال عيسى عليه السلام: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

ولما جاء محمدٌ ﷺ بالهدى ودين الحقِّ أنكر قومُه رسالته، وقالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ[٥]﴾[الأنبياء].

فكان مستقرًّا عندهم أنَّ كلَّ مَن أُرسل قبله ﷺ جاء قومَه بآية، وهو كذلك، كما قال ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَى الله إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

وقد فرَّقوا بين الخارق الذي يظهرُ على يد النبيِّ وبين مَا يظهر على يد الوليِّ بتسميةِ الأوَّلِ مُعجزةً، والثاني كرامة.

« قال الفيروز أبادي: المعجزةُ مختصَّةٌ بالنبيِّ دائمًا، ووقتُ إظهارها مُردَّدٌ بين الجواز والوجوب، وتُقرن بالتحدّي، وتحصل بالدعاء، ولا تكون ثمرةَ المعاملات المرضية، ولا يمكن تحصيلُها بالكسب والجهد، وأمَّا الكرامةُ فموقوفةٌ على الوليّ، وكتمانها واجب، وإن أراد إظهارَها وإشاعتَها زالت وبطلت»[٢].

وقد انتهت المعجزاتُ بوفاة خاتَم النَّبيّين ﷺ وبقيت معجزتُه الكبرى وهي القرآنُ الكريم شاهدةً بصدقه إلى يوم الدّين، أمَّا الكرامةُ فالله تعالى يُجريها متى شاء، على يد من شاء من أوليائه لحكمةٍ يعلمها، قد تكون تأييدًا للوليِّ نفسه، أو إظهارًا لشرفه، وقد تكون لغير ذلك.

فمن هو الوليُّ؟ وما هي الكرامة؟

---

(١) متفق عليه: خ(٤٩٨١/ ٣/ ٩)، م(١٥٢/ ١٣٤/ ١).

(٢) بصائر ذوي التمييز (٦٦/ ١)، كذا في" السيرة النبوية العطرة" (٢٢٥).

«الوليُّ مأخوذٌ من الولْي، بمعنى القرب والدُّنو، يقال: تباعد بعد ولْي، أي قُرب. والمرادُ بهم خُلَّصُ المؤمنين لقربهم الروحانيِّ منه سبحانه، ويُفسَّر الوليُّ بالمُحبِّ، وبين المعنيَيْن تلازم»(١)، «فوليُّ كلِّ شيءٍ هو القريب منه في اللُّغة. ووليُّ الله من كان قريبًا منه بالصفةِ التي وصفها الله، أي الإيمان والتقوى، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ(٦٣)﴾[يونس] »(٢)، فكلُّ مؤمنٍ تقيٍّ فهو لله وليٌّ، ولما كان الإيمانُ والتقوى متفاوتيْن كان الأولياء متفاوتِينَ في الولاية والقرب، فأعلاهم درجةً المتنافسون في الطاعات، المتسابقون إلى الخيرات، القائمون بالواجبات والمستحبات، التاركون للمحرَّمات والمكروهات، وكلَّما قصَّر الوليُّ في ذلك نزلت درجته.

وأمَّا الكرامةُ «فهي الاسمُ من كرُم، والجمعُ كرامات، وهي ما يُكرم الربُّ تبارك وتعالى به عبادَه من أنواع الإفضالات»(٣). والمرادُ بها عند الإطلاق «أمرٌ خارقٌ للعادة، يظهر على يدِ عبدٍ ظاهرِ الصلاح، ملتزمٍ لمتابعة نبيٍّ كُلِّف بشريعته، مصحوبٍ بصحيح الاعتقادِ والعمل الصالح، علِم بها أو لم يعلم»(٤).

والتَّصديقُ بكرامات الأولياء من عقيدة أهل السنَّة والجماعة، كما قال الإمام الطحاويُّ: « ولا نُفضِّل أحدًا من الأولياء على أحدٍ من الأنبياء عليهم السلام، ونقولُ نبيٌّ واحدٌ أفضلُ من جميع الأولياء، ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصحَّ عن الثقات من رواياتهم»(٥).

(١) روح المعاني (١١/١٤٦).

(٢) الإسلام والتصوف. د/ مصطفى عبد الرازق (٤٩).

(٣) عقيدة المؤمن (١٣٥).

(٤) تحفة المريد على جوهرة التوحيد (١٨٠).

(٥) العقيدة الطحاوية - تعليق الألباني (٥٨و٥٩).

وقال الشيخُ صدِّيق حسن خان: « ومن أصول السنَّةِ التَّصديقُ بكرامات الأولياء، وما يُجري الله على أيديهم من خوارق وعادات، في أنواع العلومِ والمكاشفاتِ والتأثيرات، كالمأثور عن سلف الأمَّةِ وأئمَّتها، وسالف الأممِ في سورة الكهف، وسورةِ مريمَ، وغيرهما، وعن صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين وسائر قرون الأمة، وهي موجودةٌ فيهم إلى يوم الدِّين »[1].

ومن الكرامات التي ظهرت على يد الصالحين من الأمم السابقين ما ذكرناه مما أكرم الله به مريمَ عليها السلام.

ومنها كلامُ صاحبِ جُريج، الذي رمته به تلك البغيُّ، فبرَّأه الله مما قالوا، حيث توضَّأ وصلى ودعا الله، ثمَّ أتى الغلامَ فطعن في بطنه، وقال: من أبوك؟ فأنطق الله تعالى الغلامَ، فقال: فلانٌ الرَّاعي.

ومنها استجابةُ الله تعالى دُعاءَ أُمِّ جُريج، حيث قالت: اللهمَّ لا تُمِتْه حتى ينظرَ في وجوه المومسات، فأصابتْه الدعوة.

ومنها كلامُ الطفلِ مع أُمِّه حين رأت رجلاً ذا هيبةٍ وأُبَّهةٍ وعظمة، فتمنَّت أن يكون ابنُها مثلَه، شأنها في ذلك شأنُ سائر النِّساء بل والرجال الذين يُحبُّون الدُّنيا ويتطلَّعون إليها، ويتمنَّوْن أن يُدْرِكَ أبناؤهم منها ما فاتهم، كما قال تعالى عن قارون: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**[79]﴾[القصص].

فهذا شأنُ الأمهات والآباء غالباً مع الأبناء، أنهم يُربُّونهم على حُبِّ الدُّنيا والحرصِ عليها، وعلى مناصبها الزَّائفة، ودرجاتها الفانية، وقلَّ من يتمنى أو يُمنِّي ابنَه أن يكون كأبي حنيفةَ أو مالكٍ أو الشافعي أو أحمد.

---

(١) قطف الثمر (١٠٥).

فلما قالت المرأةُ : اللهمَّ اجعل ابني مثلَه، ترك الولدُ ثديَها، وقال: اللهمَّ لا تجعلني مثلَه، ثمَّ عاد يرضع، فمروا بجاريةٍ يضربونها، ويقولون: زنيْتِ سرَقتِ، فقالت الأمُّ، اللهمَّ لا تجعل ابني مثلَها، فترك الرضاع وقال: اللهمَّ اجعلني مثلَها، فلَمَّا سمعت منه هذا الكلامَ البليغ الذي لم تجرِ العادةُ به سألتْه واستفهمته، فأخبرها أنَّ الرجل كان جبَّارًا، فلما تمنت أن يكون مثلَه قال: اللهمَّ لا تجعلني مثلَه، ولما تبرَّأت من الجارية وقالت: اللهمَّ لا تجعل ابني مثلها وكانت بريئةً قال: اللهمَّ اجعلني مثلَها.

ومن الكرامات التي أجراها الله تعالى على يدِ بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ما جاء في هذه الأحاديث:

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: شَكَا أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِي الله عَنْه فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لاَ يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ! إِنَّ هَؤُلاَءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لاَ تُحْسِنُ تُصَلِّي! قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَالله فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلاَةَ رَسُولِ الله ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلاَةَ الْعِشَاءِ فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ. قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ. فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلاً أَوْ رِجَالاً إِلَى الْكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلاَّ سَأَلَ عَنْهُ وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ، يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ، قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لاَ يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلاَ يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلاَ يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ. قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَالله لأَدْعُوَنَّ بِثَلاَثٍ: «اللهمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ. قَالَ عَبْدُ الملِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ»[1].

(١) خ(٧٥٥/ ٢٣٦/ ٢).

وَعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَرْوَى بِنْتَ أُوَيْسٍ ادَّعَتْ عَلَى سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ أَنَّهُ أَخَذَ شَيْئًا مِنْ أَرْضِهَا، فَخَاصَمَتْهُ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أَرْضِهَا شَيْئًا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟قَالَ: وَمَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ» فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ: لاَ أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هَذَا. فَقَالَ: اللهمَّ إِنْ كَانَتْ كَاذِبَةً فَعَمِّ بَصَرَهَا وَاقْتُلْهَا فِي أَرْضِهَا. قَالَ: فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا، ثُمَّ بَيْنَا هِيَ تَمْشِي فِي أَرْضِهَا إِذْ وَقَعَتْ فِي حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ»(١).

وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ «أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ فِي لَيْلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ المِصْبَاحَيْنِ يُضِيئَانِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَلَمَّا افْتَرَقَا صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أَتَى أَهْلَهُ»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ»(٣).

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «مَا سَمِعْتُ عُمَرَ لِشَيْءٍ قَطُّ يَقُولُ إِنِّي لأَظُنُّهُ كَذَا إِلاَّ كَانَ كَمَا يَظُنُّ»(٤).

وَعَنْ نَافِعٍ: «أَنَّ عُمَرَ بَعَثَ سَرِيَّةً، فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً يُقَالُ لَهُ سَارِيَة، فَبَيْنَمَا عُمَرُ يَخْطُبُ يَوْمَ الجُمُعَةِ فَقَالَ: يَا سَارِيَةُ الجَبَلَ! يَا سَارِيَةُ الجَبَلَ! فَوَجَدُوا سَارِيَةَ قَدْ انْحَازَ إِلَى الجَبَلِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ يَوْمَ الجُمُعَةِ وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ شَهْرٍ»(٥).

---

(١) متفق عليه: خ(٣١٩٨/ ٢٩٣/ ٦) مقتصراً على المرفوع فقط، م(١٦١٠/ ١٢٣٠و١٢٣١/ ٣).

(٢) خ(٤٦٥/ ٥٥٧/ ١).

(٣) متفق عليه: خ(٣٦٨٩/ ٤٢/ ٧)، م (٢٣٩٨/ ١٨٦٤/ ٤).

(٤) خ(٣٨٦٦/ ١٧٧/ ٧).

(٥) حسن: [س.ص:١١١٠]، وانظر تحقيق القول فيه هناك.

فهذه أمثلةٌ لما وقع من الكرامات في السابقين وأوائلِ هذه الأمّة الصالحين. «ومن تمام القول أن نذكرَ أنَّ الولايةَ التي يكون بها الإنسانُ وليًّا ليست وقفًا على أفرادٍ مخصوصين في الأمّة، ولا حِكْرًا على أصحابِ الأضرحة والمقامات، وإنَّما تكون ثمرةً للمعاملاتِ المرضيَّة، وتحصلُ بالكسبِ والجهد، ولا تبلغُ درجةَ المعجزة، ولا يُرادُ بها التَّحدي، وقد تكون للوليِّ كراماتٌ عِدَّة كما تكون للنبيِّ معجزاتٌ عِدَّةٌ كذلك، والنَّبيُّ يُؤمرُ بإظهار معجزاته لأنَّها من الوحي خلافًا للوليِّ، فهو بقصد إظهارها يُعاقبُ بحرمانها، أمَّا إن ظهرت من غير قصْدٍ فيكون لله حكمةٌ في ظهورها، وعلى صاحبها أن لا يغترَّ بظهورها، فربُّما كان ذلك ابتلاءً من الله له، فيوقع نفسَه في مهلكةِ الحرمان»[1].

فعلى الوليِّ الصادق أن يشغلَ نفسَه بما يُرضي مولاه لا بما يهواه من الكرامة، ولذلك « قال أبو علي الجوزجاني: كن طالبًا للاستقامةِ لا طالبًا للكرامة، فإنَّ نفسَك منجبلةٌ على طلب الكرامة، وربُّك يطلبُ منك الاستقامة.

قال الشيخ السهروردي في عوارفه: وهذا الذي ذكره أصلٌ عظيمٌ في الباب، وسِرٌّ غفل عن حقيقته كثيرٌ من أهل السلوكِ والطُّلاب، وذلك أنَّ المجتهدين والمتعبِّدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين وما مُنِحوا من الكراماتِ وخوارقِ العادات، فما زالت نفُوسهم تتطلَّع إلى شيءٍ من ذلك، ويُحِبُّون أن يُرزقوا شيئًا من ذلك، ولعلَّ أحدَهم يبقى منكسِرَ القلب مُتَّهِمًا لنفسه في صحَّة عمله حيثُ لم يُكاشف بشيءٍ من ذلك، ولو علموا سرَّ ذلك لهان عليهم الأمر، فسبيلُ الصادقِ مُطالبةُ النفسِ بالاستقامة فهي كلُّ الكرامة»[2]، أكرمهم فوفَّقهم، وهان عليه أعداؤه فخذلهم، إذا منَّ الله عليك بالاستقامة فقد أعطاك أعظمَ كرامة، فلا تشغل البالَ بخوارقِ العادات، لأنَّها كما تظهرُ على يد الأولياء والصالحين قد تظهرُ على يد الدَّجالين

(١) السيرة النبوية العطرة (٢٢٥و٢٢٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٢٠و٣٢١/ ١١) باختصار.

المُضلِّين، ولذلك قال الشافعيُّ: إذا رأيْتَ أحدًا سار على الماء، أو طار في الهواء، فلا تغترَّ به حتى تزن عملَه بميزان الكتاب والسنَّة»[1].

«فليس مُجرَّ صدور مثل هذه الأشياء بالذي يدلُّ على إيمان الذي صدرت منه، فضلاً عن أن تدلَّ على ولايته، ولذلك يقول العلماء: إنَّ الخارقَ للعادة إن صدر من مسلمٍ فهو كرامة، و إلاَّ فهو فتنةٌ واستدراج، ويضربون على هذا مثلاً بالخوارق التي تقع على يد الدَّجال الأكبر في آخر الزمان، كقوله للسماء أمطري فتمطر، وللأرض أنبتي نباتك فتنبت، وغير ذلك مما جاءت به الأحاديث الصحيحة»[2].

قال الإمامُ أبو الفرج الجوزي: «كلَّما قلَّ علمُ الإنسانِ كثُر تمكُّنُ إبليس منه، وكلَّما كثُر العلمُ قلَّ تمكُّنُ إبليس منه. ومن العُبَّاد من يرى ضوْءًا أو نورًا في السماء فإن كان رمضانُ قال: رأيتُ ليلةَ القدر، وإن كان في غيره قال: قد فُتحت لي أبوابُ السماء، وقد يتفق له الشيءُ الذي يطلبُه فيظنُّ ذلك كرامة، وربَّما كان اتِّفاقًا، وربَّما كان اختبارًا، وربَّما كان من خدع إبليس، وكم اغترَّ قومٌ بما يُشبه الكرامات، وقد لبَّس إبليسُ على قومٍ من المتأخرين فوضعوا حكاياتٍ في كرامات الأولياء ليشيدوا بزعمهم أمرَ القوم، والحقُّ لا يحتاج إلى تشييدٍ بباطل، فكشف الله تعالى أمرهم بعلماء النقل»[3].

ومما يجبُ التَّنبيهُ عليه: أنَّ أولياء الله الصالحين تجبُ محبَّتُهم ومودَّتُهم، وتحرمُ عداوتُهم وأذيَّتُهم، وهذا هو منهجُ الوسطية والاعتدال الذي عليه أهلُ الإسلام، فمن عاداهم وآذاهم فقد ضلَّ سواء السبيل، وأُنذر بالحرب من ربِّ العالمين، كما في الحديث القُدُسيِّ أنَّ الله تعالى قال: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»[4].

---

(١) التصوف بين الحق والخلق (١٠٥).

(٢) س.ص (١٠٣/ ١).

(٣) تلبيس إبليس (٣٧٨-٣٨٤) باختصار وتصرف.

(٤) خ(٦٥٠٢/ ٣٤/ ١١).

ومن أفرط في حُبِّ الصالحين ومودَّتهم حتى غلا فيهم وأخرجهم عن منزلتهم التي أنزلهموها الله عزَّ وجلَّ، وهي منزلةُ العبوديَّة، فدعاهم من دون الله، أو استغاث بهم في الشَّدة، أو سألهم تفريجَ الكُربة، أو نذر لهم وذبح، فقد خرج من الإسلام، وأولياء الله من فعله بُرآء، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ(٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ(٦)﴾[الأحقاف].

وقال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ(١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(١٤)﴾[فاطر].

فاعرفوا للأولياء قدرَهم، وأنزلوهم منزلتهم، بلا غلوٍ ولا تقصير، ولا إفراطٍ ولا تفريط، وكونوا كما وصفكم الله «أُمَّةً وَسَطًا» تفوزوا بخيري الدُّنيا والآخرة.

❑ ❑ ❑

نزول عيسى ابن مريم من السماء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلاً، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا(١٥٩) ﴾[النساء]»[1].

عرفنا قصة ميلاد مريم ابنة عمران ونشأتها وسيرتها الذاتية، كما عرفنا كيف ولدت المسيح عيسى ابن مريم، وكيف واجهها قومها بالإنكار وقد أقبلت عليهم بعيسى تحمله: ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا(٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا(٢٨) ﴾[مريم]، يعنون فكيف وقعت أنت فيما لم يكن منهما وجئت بهذا الولد وتجرأت على مواجهة الملأ فبرأها الله مما قالوا على لسان مولودها، ولم تجر العادة بكلام مثله، وكان آية لقومه على براءة أمه، وأنَّ لها ولولدها شأناً لا يعلمونه، ومع ذلك فإنَّ القوم أصروا واستكبروا استكباراً، حتى إنَّهم لَّما جاءهم عيسى بالبينات من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله كذبوه و﴿ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ(٦) ﴾[الصف]، ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ(٥٢) ﴾[آل عمران]، من بعد ما رأوا الآيات« التي لا تتهيأ لبشر، والتي تشهد بأنَّ الله وراءها، وأنَّ قوة الله تؤيدها، وتؤيد من جاءت على يده»[2]، « وفي هذا من العبر والتسلية للنبي ﷺ ما فيه، وأنَّ الآيات الكونية وإنْ كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان ولا مفضية إليه حتماً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ(٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ

(١) متفق عليه: خ(٣٤٤٨/ ٤٩٠و٤٩١/ ٦)، م(١٥٥/ ١٣٥و١٣٦/ ١).

(٢) في ظلال القرآن (٥٩٣/ ١).

﴿حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧)﴾[يونس]، وقال تعالى:﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾[يونس]، فالآيات وخوارق العادات لا تستلزم إيمان من رآها، وإنَّما الإيمان متوقف بعد فضل الله على استعداد الإنسان المدعو، وحسن بيان الداعي، ولذلك كان من أمر عيسى عليه السلام أنَّه لَّما أحس من قومه الكفر ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ (٥٢)﴾[آل عمران]»(١)، « من أنصاري إلى دينِ الله ودعوته ومنهجه وشريعته، من أنصاري إلى الله لأبلِّغَ إليه وأُؤدِّيَ عنه؟ إنَّه لا بُدَّ لكلِّ صاحبِ عقيدةٍ ودعوةٍ مِن أنصارٍ ينهضون معه، ويحملون دعوته،ويُحامون دونها، ويُبلِّغونها إلى مَن يليهم، ويقومون بعده عليها»(٢)، ولذلك لَّما استعصت قريشٌ على رسول الله ﷺ أخذ يعرضُ نفسَه على القبائلِ «في مواسم الحجِّ وهو يقول: «مَن رجلٌ يؤويني حتى أُبلِّغَ كلامَ ربِّي؟ فإنَّ قُريْشًا قد منعوني أن أُبلِّغَ كلامَ ربِّي؟! حتى وجدَ الأنصارَ فآووْه ونصروه، وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسودِ والأحمر، رضي الله عنهم وأرضاهم. وهكذا عيسى ابنُ مريم عليه السلام انتدب له طائفةٌ من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه، واتَّبعوا النورَ الذي أُنزلَ معه، ولهذا قال الله تعالى مُخبِرًا عنهم: ﴿قَالَ الحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾»(٣) «أي أنصارُ دينه وشرعه والدَّاعي إليه ﴿ءَامَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)﴾ [آل عمران]، فلما ذكروا أنَّهم أنصارُ الله ذكروا مُستندَ هذه النسبةِ وهو الإيمان بالله، واستدعوا من عيسى أن يشهدَ بإسلامهم، وذلك على سبيلِ التَّثبيت لإيمانهم، لأنَّ انقيادَ الجوارحِ تابعٌ لانقياد القلب وتصديقه، والرُّسلُ تشهدُ يومَ القيامةِ لقومهم وعليهم»(٤)، «ثُمَّ اتَّجهوا إلى ربِّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)﴾[آل عمران]، وفي هذا التَّوجُّه لعقد البيْعة مع الله مباشرةً لفتةٌ ذاتُ قيمة، إنَّ عهدَ المؤمنِ هو ابتداءً مع ربِّه، ومتى قام الرَّسولُ بإبلاغه فقد انتهت مُهمَّةُ الرسول،

(١) مختصر المنار (٣٢٦/ ١) بزيادة.

(٢) في ظلال القرآن (٥٩٣/ ١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٦٥/ ١).

(٤) البحر المحيط (٤٧١/ ٢).

ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ(١١١)﴾[التوبة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(١٠)﴾[الفتح]، وفي هذا التَّوجُّه أيضًا تعهُّدٌ لله باتِّباع الرسول، فليس الأمرُ مُجرَّد عقيدةٍ في الضَّمير، ولكنَّه اتِّباعٌ لمنهج، الاقتداءُ فيه بالرسول، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣١)﴾[آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(١٥٦)الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ(١٥٧)﴾[الأعراف]»(١).

وهكذا أيَّد الله تعالى عبدَه ورسولَه عيسى ابنَ مريم بطائفةٍ من المؤمنين، أمَّا الملأ من بني إسرائيلَ وهم اليهودُ فقد أصرُّوا على قذف أُمِّه بالزنا، ورمْيِهِ هو بالكذبِ والشَّعوذة، ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا(٢٢)﴾[نوح] « ووشَوا به إلى ملِكِ ذلك الزمانِ وكان كافرًا، أنَّ هناك رجلاً يُضلُّ الناس، ويصدَّهم عن طاعة الملك، ويُفسد الرَّعايا، ويُفرِّق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلَّدوه في رقابهم، حتى استثاروا غضبَ الملك، فبعث في طلبه مَن يأخذه ويصلبه»(٢) ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ الله وَالله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٥٤)﴾[آل عمران]، « لقد أرادوا صلبَ عيسى عليه السلام وقتلَه، وأراد الله أن يتوفَّاه وأن يرفعَه إليه، وأن يُطهِّرَه من مُخالطةِ الذين كفروا والبقاءِ بينهم»(٣) ﴿إِذْ قَالَ الله يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ(٥٥)﴾ [آل عمران]، « والمراد بالوفاةِ هنا النَّوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٦٠)﴾[الأنعام] .

(١) في ظلال القرآن (٥٩٣/ ١) بتصرف وزيادة.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٦٥/ ١).

(٣) في ظلال القرآن (٥٩٥/ ١).

وقال تعالى: ﴿الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)﴾[الزمر]، ولذا كان رسولُ الله ﷺ يقولُ إذا قام من النَّوم «الحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[١]، «فعيسى عليه السلام حيٌّ في السَّماء الثانيةِ كما صرَّح بذلك النَّبيُّ ﷺ في حديث المعراج»[٢] حيث قال: «ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَقِيلَ مَنْ أَنْتَ قَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ قَالَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِابْنَي الخَالَةِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمَا فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ»[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا (٥٥)﴾[آل عمران] «يعني منظِّفك منهم»[٤] ومخلِّصُك «من مكرهم وخُبْثِ صُحبتهم»[٥]، «لأنَّ صُحبةَ الأشرارِ وخُلطةَ الفُجارِ تتنزَّلُ منزلةَ الدَّنسِ في الثَّوب، فكنى عن إخْراجه منهم وتخْليصه بالتَّطهير، وأتى باللفظ الظاهر لا بالضمير وهو الذين كفروا إشارةً إلى علَّةِ الدَّنس والنَّجس وهو الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَسٌ (٢٨)﴾[التوبة]، وقال النبيُّ ﷺ: «إِنَّ المُؤْمِنَ لاَ يَنْجُسُ»[٦]، فجعل علَّةَ تطهيره الإيمان»[٧].

«وقد دلَّتْ هذه الآيةُ بظاهرها على أنَّ الله تعالى فوقَ سماواته، لقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ الله إِلَيْهِ (١٥٨)﴾ [النساء]، وقوله عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ (٥٠)﴾[النحل]،

---

(١) خ(٦٣١٢/ ١١٣/ ١١)، ت(٣٤٧٧/ ١٤٦/ ٥)، د(٥٠٢٨/ ٣٩١/ ١٣)، جه(٣٨٨٠/ ١٢٧٧/ ٢).

(٢) روح المعاني (١٢/ ٦).

(٣) متفق عليه: خ(٣٤٣٠/ ٤٦٧/ ٦)، م(١٦٢/ ١٤٥/ ١).

(٤) جامع البيان (٢٩٢/ ٣).

(٥) محاسن التأويل (١٠٨/ ٤).

(٦) متفق عليه: خ(٢٨٥/ ٣٩١/ ١)، م(٣٧١/ ٢٨٢/ ١)، ن(١٤٥و١٤٦/ ١).

(٧) البحر المحيط (٤٧٣/ ٢).

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ(٥)﴾[السجدة]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ(١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ(١٧)﴾[الملك] ، وهو مذهبُ السلف قاطبةً، أنَّ الله في السَّماء، مسْتوٍ على عرْشه، بائنٌ من خلقه»[١] .

وكأنَّ عيسى عليه السلام لما اطمأنَّ على نفسه ومصيره، أراد أن يطمئنَّ على حواريّيه وأنصاره، حيث أنَّ «ذوي الهمم العوالي أشدُّ التفاتًا إلى ما يكون عليه خُلفاؤهم من بعدهم، فبشَّره الله تعالى بها بشَّره، فقال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ(٥٥)﴾ [آل عمران] ، «يعني جلَّ ثناؤه: وجاعلُ الذين اتَّبعوك على منهاجك وملَّتك من الإسلام وفطْرته فوق الذين جحدوا نُبوَّتك، وخالفوا بسبيلهم جميعَ أهل الملل، فكذَّبوا بما جئت به، وصدّوا عن الإقرار به، فمصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم»[٢] ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ(٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٥٧)﴾[آل عمران] .

وهكذا طمأن الله عيسى على نفسه، وأنَّ القومَ الذين أرادوا قتلَه لن يصلوا إليه، وطمْأنه أيضًا على أتباعه بأنَّه جاعلُهم فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. وجاء الطَّلَبُ فحاصروا عيسى عليه السلام ومن معه في المنزل الذي هو فيه، «فلما أحسَّ بهم وأنَّه لا محالةَ من دخولهم عليه أو خروجه إليهم قال لأصحابه: أيُّكم يُلقى عليه شبَهي وهو رفيقي في الجنَّة؟ فانتدب لذلك شابٌ منهم، فكأنَّه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانيةً وثالثةً، وكلُّ ذلك لا ينتدبُ إلاَّ ذلك الشَّاب، فقال: أنتَ هو، وألقى الله عليه شبَهَ عيسى

(١) محاسن التأويل (١٠٨و١٠٩/ ٤).

(٢) جامع البيان (٢٩٣/ ٣).

حتى كأنَّه هو، وفُتحت رُوزنةٌ من سقف البيْت ، وأخذت عيسى عليه السلام سِنةٌ من النَّوم فرُفع إلى السَّماء وهو كذلك، فلما رُفع خرج أولئك النَّفرُ، فلما رأى أولئك ذلك الشَّابَّ ظنوا أنَّه عيسى فأخذوه في الليلِ وصلبوه، ووضعوا الشَّوكَ على رأسه، وأظهر اليهودُ أنَّهم سعوا في صلبه، وتبجَّحوا بذلك، وقالوا : ﴿إِنَّا قَتَلْنَا المسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ الله (١٥٧)﴾[النساء]، فردَّ الله عليهم قولَهم وكذَّبهم، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ (١٥٧)﴾[النساء] أي: رأوا شبهَه فظنُّوه إياه، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلم إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(١٥٧)﴾ أي: وما قتلوه مُتيقِّنين أنَّه هو، بل شاكِّين مُتوهِّمين: ﴿بَلْ رَفَعَهُ الله إِلَيْهِ وَكَانَ الله عَزِيزًا﴾ أي: منيعَ الجناب، لا يُرامُ جنابُه، ولا يُضامُ من لاذ ببابه ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع ما يقدِّره ويقضيه من الأمور التي يخلُقها.

ومنها ما كان من خلْق عيسى بلا أب، ومحاولة اليهود قتله، ورفعه إلى السماء، ولله الحكمةُ البالغة، والحُجَّةُ الدَّمغة، والسُّلطانُ العظيم، والأمر القديم.

ثمَّ أخبر سبحانه عن نزولِ عيسى عليه السلام من السَّماء قبل يوم القيامة ليستوفيَ أجلَه الذي كتب الله له، ثمَّ يموتُ الموتةَ التي كتبها الله على العباد، فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ (١٥٩)﴾[النساء]، قال الحسن: قبل موت عيسى، والله إنَّه لحيٌّ الآن عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا أجمعون»[1].

وقد جعل الله تعالى نزولَ عيسى علامةً من علامات الساعة، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلم لِلسَّاعَةِ(٦١)﴾[الزخرف]، «قال ابنُ عباس: هو خروج عيسى ابن مريم ﷺ قبل يوم القيامة. قال ابنُ كثير: ويؤيِّد هذا القراءةُ الأخرى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ﴾ أي: أمارةٌ ودليلٌ على وقوع الساعة. قال مجاهد: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلم لِلسَّاعَةِ﴾ أي: آيةٌ للساعةِ خروجُ عيسى ابن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة، وهكذا روي عن أبي هريرةَ وابن عباسٍ وأبي العالية ومالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥٧٤-٤٧٧/ ١) بتصرف واختصار.

وقد تواترت الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ أنّه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلاً وحكمًا مُقسطًا»[1]، وقد روى كلٌّ من الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وابنُ ماجه هذه الأحاديثَ وترجموا لها: باب نزول عيسى عليه السلام.

« قال ابنُ عطية: وأجمعت الأمّةُ على ما تضمَّنه الحديثُ المتواترُ من أنَّ عيسى في السَّماء حيٌّ، وأنّه ينزلُ في آخر الزَّمانِ فيقتلُ الخنزير، ويكسر الصليب، ويقتلُ الدَّجال، ويفيضُ العدل، وتظهر به الملَّة، ملّةُ محمدٍ ﷺ، ويحجُّ البيتَ ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعين سنة»[2].

وقال القرطبيُّ: « وقد تضمَّنت تلك الأحاديثُ أنَّ عيسى عليه السلام ينزل ويقتل الدَّجال، وهو مذهبُ أهل السنَّة، والذي دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ﴾ ، والأحاديثُ الكثيرةُ الصحيحةُ المنتشرة ، وليس في العقل ما يُحيل ذلك ولا يردُّه، فيجبُ الإيمانُ به والتصديقُ بكلِّ ذلك، ولا نُبالي بمن خالف ذلك من المبتدعة، ولا حُجَّة لهم في اعتمادهم في نفي ذلك على التمسُّك بقوله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب:٤٠]، وبما ورد في السنَّة من أنّه لا نبيَّ بعده، ولا رسول، ولا بإجماع المسلمين على ذلك، ولا على أنَّ شرعَه لا يُنسخ، وهذا ثابتٌ إلى يوم القيامة، لأنّا نقول بموجب ذلك كلِّه، لأنَّ عيسى عليه السلام إنّما ينزل لقتل الدَّجال، ولإحياء شريعةِ محمدٍ ﷺ، وليعملَ بأحكامها، وليقيمَ العدلَ على مُقتضاها، وليقهر الكفار، وليُظهرَ للنصارى ضلالتهم ويتبرَّأ من إفكهم، فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، ويأتم بإمام هذه الأمّة، كما قال ﷺ «**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ**»[3] وقال ﷺ: « **لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ لاَ، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الأُمَّةَ**»[4]، والحاصلُ أنّه لم يأتِ برسالةٍ مستقلّة،

(١) المصدر السابق (١٣٢و١٣٣/ ٤).

(٢) البحر المحيط (٤٧٣/ ٢).

(٣) متفق عليه: خ(٣٤٤٩/ ٤٩١/ ٦)، م(١٥٥-٢٤٤-/ ١٣٦/ ١).

(٤) م(١٥٦/ ١٣٧/ ١).

ولا شريعةٍ مبتدأة، وإنَّما يأتي عاضدًا لهذه الشريعة، وملتزمًا أحكامَها، غيرَ مُغيِّرٍ لشيءٍ منها، والمنفي بالأدلَّة إنَّما هو رسولٌ يزعم أنَّه قد جاء بشرْعٍ مبتدإٍ، أو برسالةٍ مستقلَّة، فمن ادَّعى ذلك كان كاذبًا كافرًا»[1]، والحكمةُ في ذلك- والله أعلم- «أنَّ موسى عليه السلام إن كان قد أيَّده الله تعالى بأنبياءَ كانوا يُجدِّدون دينه زمانًا طويلاً، فالنبيُّ الذي ينسخ شريعةَ موسى وهو عيسى عليهما السلام هو الذي يؤيِّد الله به هذا النبيَّ العربيَّ في تجديد شريعته، وتمهيد أمره، والذَّودِ عن دينه، ويكون من أمَّته بعد أن كان صاحبَ شريعةٍ مستقلَّة، وأتباعٍ مستكثرة، ولله تعالى الحكمةُ الباهرة، والحُجَّةُ البالغة»[2].

هذا، وإنَّ النبيَّ ﷺ قد حمَّل من رأى عيسى عليه السلام مِن أمَّته أن يُبلِّغَه السلام، فقال ﷺ: «**مَنْ أَدْرَكَ مِنْكُمْ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ فَلْيُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ**»[3]، فما هي صفاتُه الخِلْقيَّةُ حتى يعرفَه من يراه؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ، يَعْنِي عِيسَى، وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوه، رَجُلٌ مَرْبُوعٌ، إِلَى الحمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، بَيْنَ مُمَصَّرَتَيْنِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ»[4].

ومتى ينزل عيسى عليه السلام؟ ينزلُ آخرَ الزَّمانِ بعد ظهور الدَّجال.

وأين ينزل؟

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَنْزِلُ المسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ المنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ»[5]، ثمَّ يتوجَّه نحوَ بيت المقدس ليصلي،

---

(١) المفهم (٢٩٢و٢٩٣/ ٧).

(٢) محاسن التأويل (٦٢٢/ ٥).

(٣) حسن: [ص.ج:٥٨٧٧]، ك(٥٤٥/ ٤).

(٤) صحيح: [ص.د:٣٦٣٥]، د(٤٣٠٢/ ٤٥٣-٤٥٦/ ١١). ومعنى مربوع: أي متوسط القامة ليس بالطويل ولا بالقصير. ومعنى ممصرتين: ثوبين ملونين بصفرة ليست مشبعة.

(٥) م(٢٩٣٧/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٤)، ت(٢٣٤١/ ٣٤٦-٣٤٩/ ٣)، جه(٤٠٧٥/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٢).

« فَبَيْنَمَا إِمَامُهُمْ قَدْ تَقَدَّمَ يُصَلِّي بِهِمُ الصُّبْحَ، إِذْ نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الصُّبْحَ فَرَجَعَ ذَلِكَ الإِمَامُ يَنْكُصُ يَمْشِي الْقَهْقَرَى لِيَتَقَدَّمَ عِيسَى يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَيَضَعُ عِيسَى يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهِ. ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: تَقَدَّمْ فَصَلِّ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ فَيُصَلِّي بِهِمْ إِمَامُهُمْ فَإِذَا انْصَرَفَ، قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمِ: افْتَحُوا الْبَابَ، فَيُفْتَحُ وَوَرَاءَهُ الدَّجَّالُ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ يَهُودِيٍّ كُلُّهُمْ ذُو سَيْفٍ مُحَلًّى وَسَاجٍ، فَإِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ الدَّجَّالُ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الملح فِي الماءِ، وَيَنْطَلِقُ هَارِبًا وَيَقُولُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلاَمِ: إِنَّ لِي فِيكَ ضَرْبَةً لَنْ تَسْبِقَنِي بِهَا، فَيُدْرِكُهُ عِنْدَ بَابِ اللُّدِّ الشَّرْقِيِّ فَيَقْتُلُهُ، فَيَهْزِمُ الله الْيَهُودَ فَلاَ يَبْقَى شَيْءٌ مِمَّا خَلَقَ الله يَتَوَارَى بِهِ يَهُودِيٌّ إِلاَّ أَنْطَقَ الله ذَلِكَ الشَّيْءَ لاَ حَجَرَ وَلاَ شَجَرَ وَلاَ حَائِطَ وَلاَ دَابَّةَ إِلاَّ الْغَرْقَدَةَ فَإِنَّهَا مِنْ شَجَرِهِمْ لاَ تَنْطِقُ، إِلاَّ قَالَ يَا عَبْدَ الله المُسْلِمَ هَذَا يَهُودِيٌّ فَتَعَالَ اقْتُلْهُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « وَإِنَّ أَيَّامَهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً السَّنَةُ كَنِصْفِ السَّنَةِ وَالسَّنَةُ كَالشَّهْرِ وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ وَآخِرُ أَيَّامِهِ كَالشَّرَرَةِ، يُصْبِحُ أَحَدُكُمْ عَلَى بَابِ المَدِينَةِ فَلاَ يَبْلُغُ بَابَهَا الآخَرَ حَتَّى يُمْسِيَ، فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ الله! كَيْفَ نُصَلِّي فِي تِلْكَ الأَيَّامِ الْقِصَارِ؟ قَالَ: تَقْدُرُونَ فِيهَا الصَّلاَةَ، كَمَا فَيَكُونُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمِ فِي أُمَّتِي حَكَمًا عَدْلًا وَإِمَامًا مُقْسِطًا، يَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَذْبَحُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَتْرُكُ الصَّدَقَةَ، فَلاَ يُسْعَى عَلَى شَاةٍ وَلاَ بَعِيرٍ، وَتُرْفَعُ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَتُنْزَعُ حُمَةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَةٍ حَتَّى يُدْخِلَ الْوَلِيدُ يَدَهُ فِي الْحَيَّةِ فَلاَ تَضُرَّهُ، وَتُفِرَّ الْوَلِيدَةُ الأَسَدَ فَلاَ يَضُرُّهَا، وَيَكُونَ الذِّئْبُ فِي الْغَنَمِ كَأَنَّهُ كَلْبُهَا، وَتُمْلأُ الأَرْضُ مِنَ السِّلْمِ كَمَا يُمْلأُ الإِنَاءُ مِنَ الماءِ، وَتَكُونُ الْكَلِمَةُ وَاحِدَةً فَلاَ يُعْبَدُ إِلاَّ الله وَتَضَعُ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا، وَتُسْلَبُ قُرَيْشٌ مُلْكَهَا وَتَكُونُ الأَرْضُ كَفَاثُورِ الْفِضَّةِ تُنْبِتُ نَبَاتَهَا بِعَهْدِ آدَمَ حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الْقِطْفِ مِنَ الْعِنَبِ فَيُشْبِعَهُمْ، وَيَجْتَمِعَ النَّفَرُ عَلَى الرُّمَّانَةِ فَتُشْبِعَهُمْ، وَيَكُونَ الثَّوْرُ بِكَذَا وَكَذَا مِنَ المَالِ وَتَكُونَ الْفَرَسُ بِالدُّرَيْهِمَاتِ »[1].

---

(۱) صحيح: [ص.ج:۷۷۵۲]، جه[٤٠٧٧/ ١٣٥٩-١٣٦٣/ ٢].

فما أحسنَ تلك الأيَّامَ وما أطيبها! ولذلك قال ﷺ: « طُوبَى لِعَيْشٍ بَعْدَ المسِيحِ، يُؤْذَنُ لِلسَّمَاءِ فِي الْقَطْرِ، وَيُؤْذَنُ لِلأَرْضِ فِي النَّبَاتِ، حَتَّى لَوْ بَذَرْتَ حَبَّكَ عَلَى الصَّفَا لَنَبَتَ وَحَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ عَلَى الأَسَدِ فَلاَ يَضُرُّه، وَيَطَأُ عَلَى الحيَّةِ فَلاَ تَضُرُّه، وَلاَ تَشَاحَّ وَلاَ تَحَاسُدَ وَلاَ تَبَاغُضَ»[1].

كم يمكثُ عيسى في الأرض بعد نزوله؟

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « يَمْكُثُ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتَوَفَّى فَيُصَلِّي عَلَيْهِ المسْلِمُونَ»[2].

ولن يموتَ حتى يحجَّ البيت أو يعتمر، كما قال ﷺ:

« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُهِلَّنَّ ابْنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرَّوْحَاءِ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا أَوْ لَيَثْنِيَنَّهُمَا»[3].

قال الحافظُ ابن كثير« ذكر القرطبيُّ في آخر كتابه التذكرة: وتكون وفاتُه بالمدينة النَّبويَّة فيصلى عليه هنالك، ويُدفن بالحُجرةِ النَّبويَّة. وقد ذكر ذلك الحافظ أبو القاسم بن عساكر »[4].

قلت: وقد رُويتْ في ذلك أحاديثُ ضعيفة، فالله تعالى أعلم.

❏ ❏ ❏

---

(١) صحيح: [ص.ج:١ ٣٨٤]، وقال الشيخ في "س.ص:١٩٢٦" : "رواه أبو بكر الأنباري في حديثه (ج١ ورقة٦/ ١-٢)، ومن طريقه رواه الديلمي (٢/ ١٦١)، وابن المحب في "صفات رب العالمين" (٤٢٧/ ١).

(٢) صحيح: [ص.د:٣٦٣٥]، د(٤٣٠٢/ ٤٥٣-٤٥٦/ ١١).

(٣) م(١٢٥٢/ ٩١٥/ ٢).

(٤) الفتن والملاحم (٩٩).

خروج يأجوج ومأجوج

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَقُولُ اللهُ: «يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟! قَالَ: أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ»[1].

العلامةُ الرابعةُ من علامات الساعةِ الكبرى خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، كما في الحديثِ عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: «اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»[2].

وقد جاء ذكرُ يأجوجَ ومأجوجَ في القرآن الكريمِ مقترنًا بقرب الساعةِ والنَّفخِ في الصُّور، قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)﴾.

وقال تعالى في سورةِ الكهف حكايةً عن ذي القرنيْن أنَّه بعد ما فرغ من بناء السَّدِّ: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (98) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99)﴾.

---

(1) متفق عليه: خ(٦٥٣٠/ ٣٨٨/ ١١و٤٧٤١/ ٤٤١/ ٨)، م(٢٢٢/ ٢٠١/ ١).

(2) م(٢٩٠١/ ٢٢٢٥/ ٤)، د(٤٢٨٩/ ٤٢٦/ ١١)، ت(٢٢٧٤/ ٣٢٣/ ٣)، جه(٤٠٤١/ ٣٤١/ ٢) مختصرا.

«فخروجُهم علامةٌ من علامات السَّاعةِ الكبرى، وهو ثابتٌ بالكتابِ والسنَّةِ وإجماعِ الأمَّة»(١)، ولكن لا بُدَّ من التعرُّف على السَّدِّ وسببِ بنائه وصفتِهِ وموقفهم منه.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾ [الكهف].

«كان أهلُ الكتاب أو المشركون سألوا رسولَ الله ﷺ عن قصَّةِ ذي القرنيْن، فأمره الله أن يقول: ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ فيه نبأٌ مفيد، وخطابٌ عجيب، أي سأتلو عليكم من أحواله ما يُتذكَّرُ به ويكونُ عبرةً، و أمَّا ما سوى ذلك من أحواله فلن أتلوَه عليكم»(٢).

(١) لوامع الأنوار البهية (٢/ ١١٤).

(٢) تيسير الكريم المنان (٥/ ٧٣).

« لأنَّه ليس في القرآن شيءٌ من التاريخ من حيثُ هو قصصٌ وأخبار، وإنَّما هي الآياتُ والعِبر، والأحكامُ والآدابُ تتجلى في سياقِ الواقع، ولذا يجبُ صرْفُ العنايةِ إلى وجوهِ تلك الفوائدِ والثَّمرات، وما يُستنبطُ من تلك الآيات »[1].

«وقد اختلفوا في سببِ تسميتِه بذي القرنيْن: فقال الزُّهري: لأنَّه بلغ قرْنَي الشمس: مشرقَها ومغربَها. وقيل: لأنَّه ملَك الرومَ وفارس. وقيل: لأنَّه كانت له ذؤابتان (أي ضفيرتان) حسنتان»[2] « والضَّفائرُ تسمَّى قرونًا، ومنه قولُ أُمِّ عطيَّةَ في صفةِ غسلهنَّ بنتَ رسول الله ﷺ « **فَضَفَرْنَا شَعْرَهَا ثَلاثَةَ قُرُون** »[3]»[4]

« واختلفو أيضًا في نُبوَّته: والأكثرونَ على أنَّه كان ملِكًا عادلاً صالحا»[5] ولم يكُ نبيًّا، لأنَّ النُّبوَّةَ لا تثبتُ لُمعيَّنٍ إلاَّ بنصٍّ صريحٍ في القرآنِ الكريمِ أو صحيح السنَّة، وقد قال النبيُّ ﷺ : « **مَا أَدْرِي ذَا الْقَرْنَيْنِ أَنَبِيًّا كَانَ أَمْ لاَ** »[6]، فهو إذَنْ عبْدٌ من عباد الله الصَّالحين، مكَّن الله له في الأرض، وآتاه من أسبابِ التَّمكينِ كلَّ ما يحتاجُ إليهِ مثلُهُ من الملوك، وأنَّه رضيَ الله عنه اهتمَّ بهذه الأسباب واعتنى بها واتَّبعها، حتى بلغ من العلوِّ والمجدِ والكمالِ مبلغًا، وجاب البلادَ وأخضعها له شرقًا وغربًا، وكانت له ثلاثُ رحلات:

قال تعالى في أولاهنَّ: ﴿ **حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ** ﴾ « ومغربُ الشَّمسِ هو المكانُ الذي يرى الرَّائي أنَّ الشَّمسَ تغربُ عنده وراء الأُفق، وهو يختلفُ بالنسبةِ للمواضع، فبعضُ المواضع يرى الرَّائي فيها أنَّ الشَّمسَ تغربُ خلْفَ جبل، وفي بعض المواضع يرى أنَّها تغربُ

---

(١) محاسن التأويل (٨٧/ ١١).

(٢) معالم التنزيل (٥٩٣/ ٣).

(٣) متفق عليه: خ(١٢٦٢/ ١٣٣/ ٣)، م(/ ٦٤٧/ ٢)، ت(٩٩٥/ ٢٢٩و٢٣٠/ ٢)، د(٣١٢٨/ ٤١٩/ ٨)، ن(٢٨/ ٤)، جه(١٤٥٩/ ٤٦٩/ ١).

(٤) فتح الباري (٣٨٣/ ٦).

(٥) معالم التنزيل (٥٩٣/ ٣).

(٦) صحيح: [ص.ج: ٥٤٠٠]، ك(٣٦/ ١)، هق(٣٢٩/ ٨).

في الماء، كما في المحيطات الواسعةِ والبحار، وفي بعضِ المواضعِ يرى أنَّها تغربُ في الرِّمالِ إذا كان في صحراءَ مكشوفةٍ على مدِّ البصر. والظَّاهرُ من النَّصِّ أنَّ ذا القرنيْن غرَّب حتى وصل إلى نُقطةٍ على شاطئ المحيطِ الأطلسي- وكان يُسمَّى بحْرَ الظلماتِ، ويُظنُّ أنَّ اليابسةَ تنتهي عنده- فرأى الشَّمْسَ تغرُبُ فيه. والأرجحُ أنَّهُ كان عندَ مصبِّ أحدِ الأنهار، حيثُ تكثرُ الأعشابُ ويتجمَّعُ حولها طينٌ لزجٌ هو الحمأ، وتوجدُ البِرَكُ وكأنَّها عيونُ الماء، فرأى الشَّمْسَ تغربُ هناك، ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ «والحمأُ: الطينُ الأسود، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ(٢٦)﴾[الحجر]، وقرأ جماعةٌ من القرَّاء: في عيْنٍ حاميةٍ، أي ذاتِ ماءٍ حار. قال الطبريُّ: وهما قراءتان مستفيضتان، ولكلِ واحدةٍ منهما وجْهٌ صحيحٌ ومعنىً مفهوم، وذلك أنَّه جائزٌ أن تكونَ الشَّمْسُ تغربُ في عيْنٍ حارَّةٍ ذاتِ حمأةٍ، فيكونُ القارئ: في عيْنٍ حاميةٍ واصِفَها بصفتها التي هي لها، وهي الحرارة، ويكون القارئ: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ واصفَها بصفتها التي هي بها وهي أنَّها ذات حمأة»[1]، وكان عندَ هذه العيْنِ قوْمٌ كافرون فسلَّط الله ذا القرْنيْن عليهم، ومكَّنه منهم، وخيَّره فيهم: ﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ «بالقتلِ وغيْره ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بالعفو»[2] «فكان عند ذي القرْنيْن من السِّياسةِ الشَّرْعيَّةِ ما استحقَّ به المدحَ والثناء، لتوْفيقِ الله له لذلك، فقال: سأجْعلُهم قسْمَين: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ نفسَه بالكفرِ والإصْرارِ عليه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي تحْصلُ له العُقوبتان: عُقوبةُ الدُّنيا وعُقوبةُ الآخرة، ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ﴾ بالله ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ﴾ عند ربِّه ﴿جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ وهي الجنَّة ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي: وسنُحسِنُ إليه، ونلْطُفُ به، ونُيسِّرُ له المعاملة. وهذا يدلُّ على كوْنِ ذا القرْنيْن من الملوكِ الصَّالحين، والأوْلياءِ العالمينَ العادلين، حيثُ وافقَ مرْضاةَ الله في معاملةِ كلِّ أحد

(١) جامع البيان (١١و١٢/ ١٦).

(٢) محاسن التأويل (٨٤/ ١١).

بما يليقُ بحاله»[١] «وقوْلُهُ هذا يجبُ أن يكونَ مادَّةَ دُستورٍ يحكمُ بها الأفرادُ والجماعات، لصِدْقها وإجابيَّتِها وموافقتِها لحكمِ الله تعالى ورضاه، ومن الأسفِ أن يُعكسَ هذا القولُ السَّديدُ والحُكمُ الرَّشيدُ، فيُصبحَ أهلُ الظلمِ مُكرمين، وأهلُ الإيمانِ والاستقامةِ مُهانين»[٢].

وعاد ذو القرنيْنِ من أقصى الغربِ قاصدًا أقصى الشَّرْق، معْتمدًا في ذلك على ما سخَّر الله له من الأسباب: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أي المكانَ الذي يُخيَّلُ للرائي أنَّ الشَّمْسَ تطلُعُ من ورائه ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾.

«قال قتادة والحسن: لم يكن بينهم وبين الشَّمْسِ سِتْر، وذلك أنَّهم كانوا في مكانٍ لا يستقرُّ عليه بناء، فكانوا يكونون في أسْرابٍ لهم حتى إذا زالت الشَّمسُ عنهم خرجوا إلى معاشهم وحروثهم. فمكَّنه الله منهم، وخيَّره فيهم، كما فعل معه بأهل الغرب، ولذلك قال: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كما حكم في القومِ الذين هم عند مغربِ الشَّمسِ كذلك حكم في الذين هم عند مطلعها، والله معه حيثما توجَّه بعلمِهِ وإحاطته، ولذلك قال: ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾»[٣].

ثمَّ انطلق ذو القرنيْن آخِذًا بالأسبابِ المسخَّرةِ له ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ «قال المفسِّرون: ذهب مُتوجِّهًا من المشرقِ قاصدًا للشمال فوصل إلى ما بين السَّدَّيْن، وهما سدَّانِ كانا معْروفيْن في ذلك الزَّمان، سدَّانِ من سلاسل الجبال، المتصلة يمنةً ويسرة، حتى تتصلَ بالبحار، بيْن يأْجوجَ ومأْجوجَ وبيْن النَّاس، فوجد من دونِ السَّدَّيْن ﴿ قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾[٣] لعُجْمَةِ ألسنتِهم، واستعجامِ أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنيْن من الأسبابِ العلمية ما فقَّه به ألسنةَ أولئك القوم وفقَّههم وراجعوه وراجعهم، فاشتكوْا إليه ضررَ يأجوجَ ومأجوج، وهما أُمَّتانِ عظيمتان من بني آدم،

---

(١) تيسير الكريم المنان (٧٤و٧٥/ ٥).

(٢) أيسر التفاسير (٦٧٢/ ٢).

(٣) معالم التنزيل (٥٩٥/ ٣) بتصرف.

كما في حديث أبي سعيد قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ الله: «يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سَكْرَى وَمَا هُمْ بِسَكْرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ الله شَدِيدٌ﴾ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟! قَالَ: أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا وَمِنْكُمْ رَجُلٌ»[1].

وفي الحديث «إشارةٌ إلى كثرتِهم، وأَنَّ هذه الأُمَّةَ بالنِّسْبَةِ إليهم نحوُ عُشْرِ عُشْرِ العُشْر»[2]، وهم قومٌ كفَّارٌ ظالمون ولذلك قال أولئك القومُ لذي القرنيْن ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ بالقَتْلِ والسَّلْبِ والنَّهْبِ وغيْرِ ذلك ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي جُعْلاً من أموالنا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾؟ ودلَّ ذلك على عدمِ اقتدارهم بأنفسِهم على بناء السَّدّ، وأنَّهم لَمَّا رأوا ما عليه ذو القرنيْن وما هو فيه من العددِ والعُدَّةِ عرفوا اقتدارَه على ما عجزوا عنه، فبذلوا من أموالهم ليفعلَ ذلك، وذكروا السَّببَ الدَّاعيَ وهوإفسادُ يأجوجَ ومأجوجَ في الأرض»[3].

ولكنَّ عبادَ الله الصَّالحينَ لا تتعلَّقُ نفوسُهم بالدُّنيا ولا تتشوَّف إليها، ولذلك« ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ ممَّا جعلتموه لي ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ معناه أنِّي لا أريدُ منكم المال، بل ﴿أَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي سدًّا، قالوا: وما تلك القوة؟ قال: فعلة وصُنَّاع يُحسنون البناءَ والعمل، وأعينوني بآلة؟ قالوا: وما تلك الآلة؟ قال: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَالحَدِيدِ﴾ أي قطعَ الحديدِ، فأتوْه بها وبالحطب، فجعل بعضَها على بعض، فلم يزل يجعل الحديدَ على الحطب والحطبَ على الحديد ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي الجبلين، أي سوَّى بيْن أطْرافهما ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ يعني في النار، ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ كلَّه،

---

(١) متفق عليه: خ(٦٥٣٠/ ٣٨٨/ ١١و٤٧٤١/ ٤٤١/ ٨)، م(٢٢٢/ ٢٠١/ ١).

(٢) فتح الباري (٣٨٦/ ٦).

(٣) تيسير الكريم (٧٦و٧٧/ ٥).

أي صار الحديدُ نارًا ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي أَصُبُّ عليه النُّحاسَ المُذاب، قالوا إنَّه جعل الفحْمَ والحطبَ في خلالِ زُبر الحديد، فجعلت النَّارُ تأكلُ الحطبَ ويصيرُ النُّحاسُ مكانَ الحطب، حتى لزم الحديدُ النُّحاس»[1» وقد استُخدِمت هذه الطريقةَ حديثًا في تقويةِ الحديد، فوُجدَ أنَّ إضافةَ نِسبةٍ من النُّحاسِ إليه تُضاعفُ مُقاومتَه وصلابته، وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنيْن، وسجَّله في كتابه الخالد سبقًا للعلمِ البشريِّ الحديث بقرونٍ لا يعلمها إلاَّ الله. وبذلك التحم الحاجزان، وأُغلق الطريقُ على يأجوجَ ومأجوج ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوه ويتسوَّروه ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ فيَنفُذوا منه، وتعذَّر عليهم أن يُهاجموا أولئك القومَ الضِّعافَ المتخلِّفينَ، فأَمِنوا واطمأنُّوا. ونظر ذو القرْنيْن إلى العملِ الضَّخمِ -أو إلى السَّدِّ العالي المنيع الحصين- الذي بناه، فلم يأخذْه البطرُ والغرور، ولم تُسكِرْه نَشْوَةُ القوَّةِ والعلم، ولكنَّه ذكر الله فشكرَه، وردَّ إليه العملَ الصَّالحَ الذي وفَّقهُ إليه، وتبرَّأ من حوْلِهِ وقُوَّته إلى حولِ الله وقُوَّته، وفوَّضَ إليه الأمرَ من قبلُ ومن بعد، وأعلن ما يُؤمنُ به من أنَّ الجبالَ والحواجزَ والسُّدودَ ستُدكُّ كلُّها قبل يومِ القيامة، فتعودُ الأرضُ سطحًا أجردَ مستويًا: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾»[2]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا (١٠٧)﴾[طه].

وهكذا رحِمَ الله تعالى الخلائقَ من شرِّ يأجوجَ ومأجوجَ بحبْسِهم وراءَ هذا السَّدِّ إلى أجلٍ مسمّىً، وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّهم منذُ ذلك التاريخ وهم ينقبون في السَّدِّ لمحاولةِ الخُروج، وأنَّ الله يحولُ بينهم وبين ما يشتهونَ حتى ينتهي ذلك الأجلُ المعلوم.

---

(١) معالم التنزيل (٣/٥٩٩).

(٢) في ظلال القرآن (٥/٤١٢).

عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ رَضِي الله عَنْها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ :فَقُلْتُ يَا رَسُولَ الله أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ يَحْفِرُونَ كُلَّ يَوْمٍ، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمُ: ارْجِعُوا فَسَنَحْفِرُهُ غَدًا، فَيُعِيدُهُ الله أَشَدَّ مَا كَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ مُدَّتُهُمْ وَأَرَادَ الله أَنْ يَبْعَثَهُمْ عَلَى النَّاسِ حَفَرُوا، حَتَّى إِذَا كَادُوا يَرَوْنَ شُعَاعَ الشَّمْسِ قَالَ الَّذِي عَلَيْهِمُ: ارْجِعُوا فَسَتَحْفِرُونَهُ غَدًا إِنْ شَاءَ الله تَعَالَى، وَاسْتَثْنَوْا، فَيَعُودُونَ إِلَيْهِ وَهُوَ كَهَيْئَتِهِ حِينَ تَرَكُوهُ فَيَحْفِرُونَهُ وَيَخْرُجُونَ عَلَى النَّاسِ، فَيُنْشِفُونَ الْمَاءَ، وَيَتَحَصَّنُ النَّاسُ مِنْهُمْ فِي حُصُونِهِمْ، فَيَرْمُونَ بِسِهَامِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتَرْجِعُ عَلَيْهَا الدَّمُ الَّذِي اجْفَظَّ فَيَقُولُونَ: قَهَرْنَا أَهْلَ الْأَرْضِ وَعَلَوْنَا أَهْلَ السَّمَاءِ، فَيَبْعَثُ الله نَغَفًا فِي أَقْفَائِهِمْ فَيَقْتُلُهُمْ بِهَا. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ دَوَابَّ الْأَرْضِ لَتَسْمَنُ وَتَشْكَرُ شَكَرًا مِنْ لُحُومِهِمْ»(٢).

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ خروجَهم هذا سيكونُ بعد نزولِ عيسى عليه السلام من السَّماءِ وقتْلِهِ الدَّجال، فقال ﷺ «يَنْزِلُ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلاَ يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلاَّ مَاتَ وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ، ثُمَّ يَأْتِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ الله مِنَ الدَّجالِ فَيَمْسَحُ عَنْ وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بِدَرَجَاتِهِمْ فِي الْجَنَّةِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى الله إِلَى عِيسَى: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ،

---

(١) متفق عليه: خ(٣٣٤٦/ ٣٨١/ ٦)، م(٢٨٨٠/ ٢٢٠٨/ ٤)، ت(٢٢٨٢/ ٣٢٥/ ٣).

(٢) صحيح: [ص.ت:٣١٥٣]، ت(٥١٦٠/ ٣٧٤و٣٧٥/ ٤)، جه(٤٠٨٠/ ١٣٦٤و١٣٦٥/ ٢).

ومعنى: اجفظَّ: أي امتلأ، والمعنى أن السهام تعود عليهم ممتلئة بالدم زيادة في فتنتهم.

وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، فَيُرْسِلُ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ وَرُدِّي بَرَكَتَكِ فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْبَقَرِ لَتَكْفِي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الْغَنَمِ لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاسِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»[1].

بقي أن يُقال: أينَ هذا السَّدُّ؟ وهل هو معروفٌ لنا أم لا؟

والجواب: أنَّ الله تعالى حين أمر رسولَه ﷺ أن يُجيبَ السَّائلين عن ذي القرنيْنِ قال له: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف:٨٣]، وما لا ذكر فيه ولا فائدة سكت عنه، فلو كان في تعيين مكان السد فائدة لعينه الله تعالى لرسوله ﷺ، ثم إِنَّه قد ذكر بعض الرحالة والمؤرخين أنهم رأوا هذا السد، ولكن لَمَّا كنا لا نعبأ برؤيتهم وإِنْ ثبتت لإيماننا الجازم بما أخبر الله ضربنا

---

(١) م(٢٩٣٧/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٤)، ت(٢٣٤١/ ٣٤٦-٣٤٩/ ٣)، جه(٤٠٧٥/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٢).

ومعنى: لا يدان: لا قدرة، النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم، فرسى: قتلى، زهمهم: دسمهم، البخت: جِمالٌ طوالُ الأعناق، الزلفة: المرآة، الرسل: اللبن، اللقحة: القريبة العهد بالولادة، يتهارجون: يجامع الرجال النساء علانية بحضرة الناس، كما يفعل الحمير.

صفحاً عمَّا تناقلته بعض الكتب من ذكر ذلك، ولكنا نزيح شبهة ترد على ألسنة الملحدين وغيرهم، وهي قولهم « لو كان يأجوج ومأجوج وراء السد إلى الآن، لأطلع عليهم الناس لتطور طرق المواصلات، والأقمار الصناعية التي تصور الصغير والدقيق؟ ولم يعثر عليهم المسافرون ولم يصورهم المصورون؟ والجواب إنَّ الجهل بالشيء لا يستلزم عدمه، وعدم الرؤية لا يستلزم عدم الوجود، فقد دخل بنو إسرائيل التيه فكانوا فيه أربعين سنة، وهم في فراسخ قليلة من الأرض يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه، لأنَّهم لو اجتمعوا بالناس لبينوا لهم الطريق ولخرجوا من التيه، ولَمَّا كان الله تعالى قد قدر لهم في التيه أجلاً مسمى فقد حال بينهم وبين الناس حتى ينتهي ذلك الأجل، وكذلك الأمر في يأجوج ومأجوج، لَمَّا جعل الله خروجهم قبيل الساعة، وبعد نزول عيسى عليه السلام، فقد حال بينهم وبين الناس إلى ذلك الأجل ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا(٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا(٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا(١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا(١٠١) ﴾[الكهف]»[١].

❑ ❑ ❑

(١) أضواء البيان (١٨٥و١٨٦/ ٤).

الدخـــان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[1].

يقول الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**(١٢٨) ﴾[التوبة]، ومن حِرْصهِ ﷺ على أُمَّتهِ لم يتركْ خيراً ينفعُهم إلاَّ دلَّهم عليْه، ولم يتركْ شرًّا يضرُّهم إلاَّ حذَّرهم منه، وفي هذا الحديثِ يأمرُ ﷺ المؤمنينَ بالمُبادرةِ إلى الخيراتِ وفعلِ الطَّاعاتِ قبل أَنْ ينشغلوا عنها أو يُحالَ بيْنهم وبيْنها، « والمُبادرةُ ضدُّ التَّواني والكسل، وقد أمر الله بها فقال: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**(٤٨) ﴾[المائدة]: أي اسْبقوا إليها، وهو أبلغُ من سابقوا، فالاستباقُ معناه أَنَّ الإنسانَ يسبق إلى الخيْر، ويكونُ من أوَّلِ النَّاسِ فيه، ومن ذلك المسابقةُ في الصُّفوفِ في الصلاة، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»**[2] **«وَرَأَى رَسُولَ الله ﷺ فِي أَصْحَابِهِ تَأَخُّرًا فَقَالَ لَهُمْ: تَقَدَّمُوا فَأْتَمُّوا بِي، وَلْيَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَلاَ يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ الله»**[3] وهكذا يُفوِّتُ التَّواني والكسلُ على الإنسانِ خيرًا كثيرًا، فينبغي للمؤمنِ أن يُسارعَ في الخيرات، كلَّما ذُكِرَ له شيءٌ من الخيرِ بادرَ إليه دون توانٍ أو كسلٍ، فإنَّه قد تفوتُه الفُرصةُ أو يُبتلى بالعجزِ عما كان قادرًا عليه، ولذلك قال ﷺ « **مَنْ أَرَادَ الحجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ المرِيضُ وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ**

---

(١) م(٢٩٤٧/ ٢٢٦٧/ ٤).

(٢) م(٤٤٠/ ٣٢٦/ ١)، د(٦٦٤/ ٣٧٤/ ٢)، ت(٢٢٤/ ١٤٣/ ١)، ن(٩٣/ ٢)، جه(١٠٠٠/ ٣١٩/ ١).

(٣) م(٤٣٨/ ٣٢٥/ ١)، د(٦٦٦/ ٣٧٥/ ٢)، ن(٨٣/ ٢)، جه(٩٧٨/ ٣١٣/ ١).

وَتَعْرِضُ الحاجَةُ»[1] وقال ﷺ : « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[2]، « أي سابقوا بالأعمالِ الصَّالحة، واغتنموا التمكُّنَ منها قبلَ أن يُحالَ بيْنكم وبينها بداهيَةٍ من هذه الدَّواهي المذكورة، فيفوت العملُ للمانع، أو بعدمِ منفعته لعدمِ القبول»[3].

وقد ذكر النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ ستًّا من علامات السَّاعةِ الكبرى، منها الدُّخان، «قال العلماء: آيةُ الدُّخانِ ثابتةٌ بالكتابِ والسنَّة، أمَّا الكتابُ فقولُه سُبحانه وتعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ[4] ﴾ [الدخان] قال عليٌّ وابنُ عباسٍ وأبو هريرة وابنُ عمر رضي الله عنهم، والحسن وابن أبي مُليكة وزيْدُ بن علي رحمهم الله تعالى: هو دُخانٌ قبل قيامِ السَّاعةِ يدخلُ في أسْماعِ الكُفَّار والمنافقين، ويعتري المؤمنَ منه كهيئةِ الزُّكام، وتكونُ الأرضُ كلُّها كبيْتٍ أُوقِدَ فيه، ولم يأتِ بعدُ، وهو آت.

وأمَّا السنَّةُ فأخرجَ مسلمٌ من حديثِ حُذيفةَ بن أسيد قال: « اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالمشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالمغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»[5]، وأخرج أيضًا من حديث أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: « بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ

---

(١) حسن: [ص.جه:٢٣٣١]، جه(٢٨٨٣/ ٩٦٢/ ٢)، د(١٧١٦/ ١٥٧/ ٥) الجملة الأولى فقط.

(٢) شرح رياض الصالحين (٧-٩/ ٣) بتصرف.

(٣) سبق في الصفحة السابقة.

(٤) المفهم (٣٠٨/ ٧).

(٥) سبق مرارًا.

الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[1] »[2].

«وفي الصَّحيحيْن أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لابنِ صيَّاد «إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا؟ فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ: هُوَ الدُّخُّ. فَقَالَ: اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ»[3]، قال ابنُ عمر: وخبَّأ له رسولُ الله ﷺ: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(١٠) ﴾[الدخان]، وهذا فيه إشعارٌ بأنَّه من المنتظرِ المرتقب.

وروى الطبرانيُّ بإسنادٍ جيِّدٍ عن أبي مالكٍ الأشعريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: « إِنَّ رَبَّكُمْ أَنْذَرَكُمْ ثَلَاثَةً: الدُّخَان، يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَالزَّكْمَة، وَيَأْخُذُ الْكَافِرَ فَيَنْتَفِخُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ كُلِّ مَسْمَعٍ مِنْه، وَالثَّانِيَةُ الدَّابَّة، والثَّالِثَةُ الدَّجَّال».

وعن عليٍّ قال: لم تمضِ آيةُ الدُّخانِ بعد، يأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزُّكام، وينتفخُ الكافرُ حتى ينفذ، وعن ابنِ عمرَ قال: يخرجُ الدُّخانُ فيأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزُّكام، ويدخلُ في مسامعِ الكافرِ والمنافقِ حتى يكونَ كالرَّأسِ الحنيذ-أي المشوي على الرَّضف-.

وعن ابنِ أبي مُليْكةَ قال: غدوْتُ على ابنِ عبَّاسٍ ذات يومٍ فقال: ما نمتُ اللَّيلةَ حتى أصبحت، قلْتُ: لمَ؟ قال: قالوا طلع الكوكبُ ذو الذَّنب، فخشيتُ أن يكونَ الدُّخانُ قد طرق، فما نمتُ حتى أصبحت. قال ابنُ كثير: وهذا إسنادٌ صحيح إلى ابنِ عبَّاسٍ حبْرِ الأمَّةِ وترْجُمانِ القرآن، وهكذا قولُ من وافقه من الصحابةِ والتَّابعين، رضي الله عنهم أجمعين، مع الأحاديثِ المرفوعةِ من الصِّحاحِ والحسانِ وغيرها التي أوْردوها، مما فيه مقنعٌ ودلالةٌ ظاهرةٌ على أنَّ آيةَ الدُّخانِ من الآياتِ المنتظرَة، مع أنَّهُ ظاهرُ القرآنِ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(١٠) ﴾[الدخان] أي: بيِّنٌ واضح يراه كلُّ أحد.

---

(١) م(٢٩٤٧/٢٢٦٧/٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١٢٩/٢).

(٣) متفق عليه: خ(١٣٥٤/٢١٨/٣)، م(٢٩٣٠/ ٢٢٤٤/ ٤)، د(٤٣٠٧/٤٧٨-٤٨٢/ ١١)، ت(٢٣٤٨/ ٣٥٢/ ٣).

وقد خالف في ذلك ابنُ مسعودٍ وجماعة، وقالوا: إنَّ الدُّخانَ قد مضى، والمرادُ به ما تخيَّلهُ أهلُ مكَّةَ من شدَّةِ الجوعِ والجهدِ حين دعا عليهم النبيُّ ﷺ أن يجْعلَها عليهم سنينَ كسنيِّ يوسف، ففي الصحيحيْن وغيرِهما:

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ يُحَدِّثُ فِي كِنْدَةَ فَقَالَ: يَجِيءُ دُخَانٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ بِأَسْمَاعِ الْمُنَافِقِينَ وَأَبْصَارِهِمْ، يَأْخُذُ الْمُؤْمِنَ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ، فَفَزِعْنَا، فَأَتَيْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَغَضِبَ فَجَلَسَ، فَقَالَ: مَنْ عَلِمَ فَلْيَقُلْ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلْ اللهُ أَعْلَمُ فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ لاَ أَعْلَمُ، فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ وَإِنَّ قُرَيْشًا أَبْطَئُوا عَنِ الإِسْلاَمِ فَدَعَا عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: اللهمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ، فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَتَّى هَلَكُوا فِيهَا وَأَكَلُوا الْمَيْتَةَ وَالْعِظَامَ، وَيَرَى الرَّجُلُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ فَجَاءَهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! جِئْتَ تَأْمُرُنَا بِصِلَةِ الرَّحِمِ، وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللهَ فَقَرَأَ ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿عَائِدُونَ﴾ أَفَيُكْشَفُ عَنْهُمْ عَذَابُ الآخِرَةِ إِذَا جَاءَ، ثُمَّ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ و﴿لِزَامًا ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿ الم غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ إِلَى ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ وَالرُّومُ قَدْ مَضَى»[1]. وقد وافق ابنَ مسعودٍ على تفسير الآيةِ بهذا، وأنَّ الدُّخانَ قد مضى جماعةٌ من السَّلف كمجاهدٍ وأبي العالية والنَّخعي والضحَّاك وعطيةُ العوفي، واختاره ابنُ جرير»[2]

قال الرازي « وقولهم هذا يقتضي صرْفَ اللفظِ عن حقيقتِه إلى المجاز، وذلك لا يجوزُ إلاَّ عندَ قيام دليلٍ يدُلُّ على أنَّ حمْلَهُ على حقيقته ممتنع، والقومُ لم يذكروا الدَّليلَ، فكان المصيرُ إلى ما ذكروه مُشْكلاً جدّاً. فإنْ قالوا: الدَّليلُ على أنَّ المرادَ ما ذكرناه أنَّه تعالى حكى عنهم أنَّهم يقولون: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ[12] ﴾[الدخان] ، وهذا إذا حملناه على القحطِ

(١) متفق عليه: خ(٤٧٧٤/ ٥١١/ ٨)، م(٢٧٩٨/ ٢١٥٥و٢١٥٦/ ٤)، ت(٣٣٠٧/ ٥٦و٥٧/ ٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٣٨و١٣٩/ ٤) بتصرف واختصار.

الذي وقع بمكةَ استقام، فإنَّه نُقل أنَّ القحطَ لما اشتدَّ بمكةَ مشى أبو سُفيانَ إلى النبيِّ ﷺ وناشده بالله والرَّحم، ووعده أنَّه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البليَّةَ أنْ يؤمنوا به، فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شِركهم. أمَّا إذا حملناه على أنَّ المرادَ منه ظهورُ علامةٍ من علاماتِ القيامة لا يُمكنهم أن يقولوا: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(١٢) ﴾[الدخان]، ولم يصحَّ أيضًا أن يُقال لهم: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥) ﴾[الدخان].

والجوابُ: لِمَ لا يجوزُ أن يكونَ ظهورُ هذه العلامةِ جاريًا مجرى ظهورِ سائرِ علامات القيامة في أنَّه لا يوجبُ انقطاعَ التَّكليف، فتحدثُ هذه الحالةُ، ثُمَّ إنَّ الناسَ يخافونَ جدًّا فيتضرَّعون، فإذا زالت تلك الواقعةُ عادوا إلى الكفرِ والفسق، وإذا كان هذا محتملاً فقد سقط ما قلتموه. ثمَّ إنَّ قولَ الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾[الدخان] يقتضي وجودَ دُخانٍ تأتي به السَّماء، وما ذكرتموه من الظلمةِ الحاصلةِ في العينِ بسببِ شدَّةِ الجوع فذاك ليس بدُخانٍ أتتْ به السَّماء، فكان حملُ لفظِ الآيةِ على هذا الوجْهِ عُدولاً عن الظَّاهر لا لدليلٍ منفصل، وهو لا يجوز. وقد وصف الله تعالى ذلك الدُّخان بكونه مُبينًا، والحالةُ التي ذكرتموها ليست كذلك، لأنَّها عارضةٌ تعرضُ لبعضهم في أدْمِغَتهم، ومثلُ هذا لا يُوصفُ بكونه دُخانًا مُبينًا، كما وصف الله تعالى ذلك الدُّخانَ بأنَّه يغشى النَّاس، وهذا إنَّما يصدُقُ إذا وصل ذلك الدُّخانُ إليهم واتَّصل بهم، والحالُ التي ذكرتموها لا توصف بأنَّها تغشى النَّاسَ إلاَّ على سبيلِ المجاز، وقد ذكرنا أنَّ العدولَ من الحقيقةِ إلى المجازِ لا يجوزُ إلاَّ لدليلٍ منفصل»[1].

وقال ابنُ كثير: «وما قالهُ ابنُ مسعودٍ خلافُ ظاهرِ القرآن، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(١٠) ﴾[الدخان] أي بيِّنٌ واضح، يراه كلُّ أحد، وعلى ما فسَّر به ابنُ مسعودٍ إنَّما هو خيالٌ رأَوْه في أعْيُنِهم من شدَّة الجوع والجهد، وهكذا قوله تعالى: ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أي يتغشَّاهم ويُعميهم، ولو كان أمْرًا خياليًّا يخصُّ أهلَ مكةَ المشركينَ

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٤٣و٢٤٤/ ٢٧).

لما قيل فيه ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يُقالُ لهم ذلك تقْريعًا وتوْبيخًا، كقوْلِهِ عزَّ وجل: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا(١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(١٤) ﴾ [الطور] أو يقولُ بعضُهم لبعضٍ ذلك.

وقوْله سبحانه: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذابَ الله وعقابَه سائلينَ رفْعَه وكشْفهُ عنهم، كقوْلِهِ جلَّت عظمتُه: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(٤٤) ﴾ [إبراهيم]، وهكذا قال جلَّ وعلا ههنا: ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(١٤) ﴾ [الدخان]، يقولُ: كيف لهم بالتَّذكرةِ وقد أرسلْنا إليهم رسولاً بيِّنَ الرسالةِ والنِّذارة، ومع هذا تولَّوا عنْهُ وما وافقوه، بل كذَّبوه ﴿ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴾، وهذا كقولِهِ جلَّتْ عظمتُه: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا(٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى(٢٣) ﴾ [الفجر] وكقولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ(٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ(٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ(٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ(٥٤) ﴾ [سبأ].

وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥) ﴾ [الدخان]، يحتملُ معْنييْن:

أحدُهما: أنَّهُ تعالى يقول: ولو كشفنا عنكم العذابَ ورجعْناكم إلى دارِ الدُّنْيا لعُدْتم إلى ما كنتم فيه من الكُفْرِ والتَّكْذيب، كقوْله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(٧٥) ﴾ [المؤمنون]، وكقوْلِهِ جلَّتْ عظمتُه: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨) ﴾ [الأنعام].

والثَّاني: أن يكون المُرادُ إنَّا مؤخِّروا العذابَ عنكم قليلاً بعد انعقادِ أسبابه وحصولِهِ إليكم وأنتم مستمرُّون فيما أنتم فيه من الطُّغيانِ والضلال، ولا يلزمُ من الكشفِ عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ(٩٨) ﴾[يونس]، ولم يكنِ العذابُ باشرهم واتَّصل بهم، بل كان قد انعقد سببُه عليهم، ولا يلزمُ أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كُفرهم ثمَّ عادوا إليه، قال الله تعالى إخْبارًا عن شُعيْبٍ عليه السلام أنَّه قال لقومه حين قالوا: ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى الله كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا(٨٩) ﴾ [الأعراف]، وشُعيْبٌ عليه السلام لم يكن قطُّ على ملَّتِهم وطريقتِهم. وقال قتادة: إنَّكم عائدونَ إلى عذابِ الله.

وقولُه عزَّ وجل: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ(١٦) ﴾[الدخان]، فسَّر ذلك ابنُ مسعودٍ بيومِ بدْرٍ وهو محتمل، والظَّاهرُ أنَّ ذلك يومُ القيامة وإنْ كان يومُ بدْرٍ يومَ بطْشة، فعن عكرمةَ قال: قال ابنُ عبَّاسٍ: قال ابنُ مسعود: البطْشةُ الكبرى يومُ بدْر، وأنا أقول هي يومُ القيامة. قال ابنُ كثير: وهذا إسنادٌ صحيح عنه، وبه يقول الحسنُ البصريُّ وعكرمةُ على أصحِّ الروايتيْن عنه. والله أعلم»[١].

وهكذا تبيَّن لنا أنَّ الدُّخانَ من علامات الساعةِ المنتظرة، وقد أمرنا النبيُّ ﷺ بالمبادرةِ بالعمل الصالحِ قبلَ أن تجيء، فيا عبادَ الله! اغتنموا حياتَكم ولا يغرَّنَّكمْ إمْهالُ ربِّكم، فإنَّ الله برحمتِه يُمْهلُ الفسقةَ والعُصاةَ، والكفرةَ والظَّلمةَ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا(١١٣) ﴾[طه]، فمن أفاقَ من غفلتِه، وانتبهَ من رقْدته، وأنابَ إلى ربِّه وأسلمَ له، وآمن به وعمل صالحًا، فهنيئًا له، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى(٨٢) ﴾[طه]، ومن غرَّتْهُ الحياةُ الدُّنْيا وغرَّه بالله الغرورُ، فطال أملُه، وقسا قلبُه، وساء عملُه، فالويْلُ كلُّ الويلِ له.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٣٩و١٤٠/ ٤).

قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)﴾[مريم].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥)﴾[إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ الله وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ المتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلمتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾[الزمر].

فالعَوْدَةَ العوْدة، والصُّلحَ الصُّلح، والتَّوْبَةَ التَّوْبة، و«بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1]، ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعًا أَيُّهَا المؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾[النور]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي الله النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨)﴾[التحريم].

❑ ❑ ❑

---

(١) م(١١٨/ ١١٠/ ١)، ت(٢٢٩١/ ٣٣٠/ ٣).

هدم الكعبة ورفع القرآن

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنَ النَّاسِ الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله فَنَحْنُ نَقُولُهَا. فَقَالَ لَهُ صِلَةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَهُمْ لاَ يَدْرُونَ مَا صَلاَةٌ وَلاَ صِيَامٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ رَدَّهَا عَلَيْهِ ثَلاَثًا كُلَّ ذَلِكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ فَقَالَ: يَا صِلَةُ تُنْجِيهِمْ مِنَ النَّارِ، ثَلاَثًا»[1].

كان النَّاسُ في جاهليَّةٍ وشرّ، فأراد الله تعالى أن يرحَمَهم فبعثَ محمدًا ﷺ بالهدى ودينِ الحق، وأنزلَ عليه الكتابَ بالحقِّ ليُخْرجَ النَّاسَ من الظُّلماتِ إلى النُّور، فقام ﷺ بواجبِ الدَّعوةِ خيْرَ قيام، ولبث في قومه عشْرَ سنينَ فما آمنَ معه إلاَّ قليل.

ثمَّ أذِنَ الله لرسوله في الهجْرةِ إلى المدينةِ فآوتْهُ الأنصارُ هو ومن آمن معهُ وعزَّروه ونصروه، فرمتْهمُ العربُ عنْ قوْسٍ واحدة، ولكنَّ الله الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقِّ ليُظْهرَه على الدِّينِ كلِّهِ صدق وعْده، ونصر عبْده، وأعزَّ جُنْدَه، وهزمَ الأحْزابَ وحْده، ومكَّن لرسولِهِ والمؤمنينَ دينَهمُ الذي ارتضى لهم، ومكَّنهم من مكَّةَ التي أُخْرِجوا منها ففتحوها، ثُمَّ بعث رسولُ الله ﷺ أبا بكْرٍ أميرًا على الحجِّ في العامِ التالي لفتْحِ مكة، وأمرهُ أن يُنادي في النَّاس: **«أَنْ لاَ يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلاَ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»**[2].

---

(١) صحيح: [ص.جه:٣٢٧٣]، جه(٤٠٤٩/ ١٣٤٤/ ٢)، ك(٤٧٣/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٣٦٩/ ٤٧٧/ ١)، م(١٣٤٧/ ٩٨٢/ ٢)، د(١٩٣٠/ ٤٢١/ ٥)، ن(٢٣٤/ ٥).

فلمَّا خلُصَ البيْتُ للمسْلمينَ وخلا من المشركينَ خرجَ رسولُ الله ﷺ في العامِ العاشرِ حاجًّا، وجاءهُ النَّاسُ من كلِّ فجٍّ عميقٍ ليأخذوا عنه مناسكَهم، فلما كان ﷺ بعرفةَ أنْزل الله عليه قوْلَه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾.

وقد روي ابنُ جريرٍ عن هارونَ بنِ عنترةَ عن أبيهِ قال: «لما نزلت هذه الآيةُ وذلكَ يومَ الحجِّ الأكبرِ بكى عمرُ فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: ما يُبكيكَ؟ فقال: أبكاني أنَّا كنَّا في زيادةٍ من دينِنا، فأمَّا إذا أُكملَ فإنَّه لم يكملْ شيءٌ إلاَّ نقص، فقال: صدقت»[1].

قال ابنُ كثير« ويشْهدُ لهذا المعنى الحديثُ الثَّابتُ«**بَدَأَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**»[2]»[3].

قال القاضي عِياض:« روى ابنُ أبي أوْس عن مالكٍ أنَّ معناه:في المدينة، وأنَّ الإسلامَ بدأ بها غريبًا ويعودُ إليها. وظاهرُ الحديثِ العموم، وأنَّ الإسلامَ بدأ في آحادٍ من النَّاسِ وقلَّةٍ ثمَّ انتشرَ وظهر، ثمَّ سيلحقهُ النَّقصُ والاختلافُ حتى لا يبقى-أيضًا-إلاَّ في آحادٍ وقلَّةٍ غريبًا كما بدأ»[4].

وفي حديثِ حُذيْفةَ المذكورِ إخْبارٌ من النبيِّ ﷺ بانمحاء الدِّينِ من النُفوسِ حتى لا يبْقى إلاَّ أثرُه، حيثُ قال ﷺ:« **يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ**» قال الرَّاغبُ:« يُقال: درس الدَّارُ، معناه بقي أثرُها، وبقاءُ الأثرِ يقتضي انمحاءَهُ في نفسه، فلذلك فُسِّر الدُّروسُ بالانمحاء»[5].

(١) جامع البيان (٨٠/ ٦).
(٢) م(١٤٥/ ١٣٠/ ١).
(٣) تفسير القرآن العظيم(١٣/ ٢).
(٤) إكمال المعلم (٤٥٦/ ١).
(٥) المفردات (١٦٧).

وقال ابنُ منظور: « قال أبو الهيثم: درسَ الأثرُ يدرسُ دروسًا، ودرَسته الرِّيحُ تدْرُسه درْسًا، أي محَته، ومن ذلك: درسْتُ الثَّوْبَ أدْرسُه درْسًا، فهو مدْروس، أي أخْلَقْتُه، ومنه قيل للثَّوْبِ الخَلِق: دريس»[1]. « والوَشْيُ في الثِّيابِ معروف، وهو اختلاطُ الألوان»[2].

فمعنى الحديث: أنَّ الإسلامَ مع مرِّ الأيَّامِ يضعُفُ في نفوسِ المسْلمينَ حتى يشتدَّ ضعْفُهُ في نهايةِ الأمرِ إلى درجةِ ضياعِ أحْكامهِ وغيابِ فرائضه، مع بقاءِ أصْله وهو لا إلهَ إلاَّ الله في طوائفَ من النَّاسِ وترْتدُّ طوائف، وذلك لا يكونُ إلاَّ في آخرِ الزَّمانِ، وبعدَ انتشارِ الإسلامِ في جميعِ أرْجاءِ المعْمورةِ وسِيادتهِ عليها، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ[33] ﴾[التوبة].

وقال النبيُّ ﷺ « **لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَار، وَلاَ يَتْرُكُ الله بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ الله هَذَا الدِّين، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيل، عِزًّا يُعِزُّ الله بِهِ الإِسْلاَمَ وَأَهْلَه، وَذُلاًّ يُذِلُّ بِهِ الكُفْر** »[3].

ولذلك تكفَّل الله تعالى لهذا الدِّينِ بالحفظِ حتى يبلُغَ ما قدَّر الله لهُ أن يبْلغ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[9] ﴾[الحجر]، ومن أسْبابِ ذلك قيامُ الأئمَّةِ المُجْتهدينَ في كلِّ قرْنٍ من الزَّمانِ بتجديدِ ما اندرسَ من الإسلام، كما قال النبيُّ ﷺ: « **إِنَّ الله يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا** »[4]، « والمرادُ منَ التَّجْديدِ إحْياءُ ما اندرسَ من العمل بالكتابِ والسنَّة، والأمْرُ بمقتضاهما، وإماتةُ ما ظهر من البدعِ والمحدثات. وإنَّما كان التَّجْديدُ على رأْسِ كلِّ مئة سنةٍ لانْخرامِ العُلماءِ فيه غالبًا، وانْدِراسِ السُّننِ وظُهورِ البدع، فيُحتاجُ حينئذٍ إلى تجْديدِ الدِّين، فيأتي الله تعالى من الخَلفِ بعِوَضٍ من السَّلفِ يُبيِّنُ السنَّةَ من البدْعة، ويُكثِّرُ العلم، ويُعِزُّ أهلَه، ويُقْمِعُ البدْعةَ ويُكسِّرُ أهلَها.

---

(١) لسان العرب (٦/٧٩).

(٢) المصدر السابق (٥/٣٩٢).

(٣) صحيح: [س.ص:٣]، حب(١٦٣١و١٦٣٢/ ٣٩٣و٣٩٤).

(٤) صحيح: [ص.د:٣٦٠٦]، د(٤٢٧٠/ ٣٨٥و٣٨٦/ ١١).

ومعنى ذلك أنَّ المُجدِّدَ لا بُدَّ أن يكونَ عالمًا بالعلومِ الدِّينيَّة، وأن يكونَ عزْمُهُ وهِمَّتُهُ آناء اللَّيْلِ والنَّهارِ إحْياء السُّنَنِ ونشْرَها، ونصرَ صاحبِها، وإماتَةَ البدعِ ومُحْدَثاتِ الأمورِ ومحْوَها، وكسْرَ أهلها، باللِّسانِ أوِ التَّصنيفِ أوِ التَّدْريسِ أوْ نحْوِ ذلك»[1].

«ولا يلْزمُ إن يكونَ المبعوثُ على رأسِ المائةِ رجُلاً واحدًا، وإنَّما قد يكونُ واحدًا، وقد يكونُ أكثرَ منه، فإنَّ لفْظةَ «مَنْ» تقعُ على الواحدِ والجمْعِ، وكذلك لا يلْزمُ منه أن يكونَ أراد بالمبعوثِ الفُقهاءَ خاصَّةً، فإنَّ انتفاعَ الأُمَّةِ بالفُقهاءِ وإنْ كان نفْعًا عامًّا في أمورِ الدِّينِ فإنَّ انتفاعَهم بغيرهم أيضًا كثير، مثْل أولي الأمْر، وأصحابِ الحديث، والقرَّاءِ والوُعَّاظِ والزُّهَّاد، فإنَّ كلَّ قوْمٍ ينفعونَ بفنٍّ لا ينفعُ به الآخر، إذِ الأصْلُ في حِفْظِ الدِّينِ قانونُ السِّياسة، وبثُّ العدْلِ والتناصُفُ الذي بهِ تُحْقنُ الدِّماء، ويُتمكَّنُ من قوانينِ الشَّرْع، وذا وظيفةُ أولي الأمْر، وكذلك أصْحابُ الحديث ينفعونَ بضبْطِ الأحاديثِ التي هي أدِلَّةُ الشَّرْع، والقُرَّاءُ ينفعونَ بحفظِ القراءاتِ وضبْطِ الرِّوايات، والزُّهَّادُ ينفعونَ بالمواعظِ والحثِّ على لزُومِ التَّقْوى والزُّهْدِ في الدُّنيا، فكلُّ واحدٍ ينفعُ بما لا ينْفعُ به الآخر»[2].

«وقد اتَّفقوا على أنَّ من المُجدِّدينَ على رأسِ المائةِ الأولى عُمرُ بنُ عبدِ العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، وعلى رأسِ المائةِ الثَّانيةِ الإمامُ الشَّافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ»[3].

وتكلَّموا عن المجدِّدينَ الماضين، وأنَّ الله لا يزالُ يعُمُّ الأمَّةَ بفضلهِ ببعْثِ المجدِّدين إلى قُبيْلِ يومِ الدِّين، وأنَّ آخرَهم عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام، وقد صنَّف السُّيوطيُّ في ذلك أُرْجوزةً سمَّاها «تُحفةَ المهتدين بأخْبار المجدِّدين» عدَّ فيها المجدِّدينَ حتى القرْنِ الذي هو فيه القرْنِ التاسعِ الهجريِّ، ثمَّ قال:

---

(١) عون المعبود (٣٩١/ ١١) بتصرف.

(٢) جامع الأصول (٣٢٠و٣٢١/ ١١).

(٣) عون المعبود (٣٨٧/ ١١).

وآخـــرُ المئـــيْنِ فيمـــا يأتـــي عيســـى نبـــيُّ الله ذو الآيـــاتِ
يُجــدِّدُ الــدِّينَ لهــذه الأمــة وفي الصَّــلاةِ بعضُــنا قــدْ أمَّــه
مُقـــرِّرًا لشرْعِنَـــا ويحكـــمُ بحُكْمنـــا إذ في السَّـــماءِ يُعلـــمُ
وبعْـــدَهُ لمْ يبـــقَ مـــن مُجـــدِّدِ ويُرْفـعُ القـرْآنُ مثـلَ مـا بُـدي
وتكْثُـــرُ الأشْرارُ والإضـــاعة مـــن رفْعـــهِ إلى قيـــامِ السَّـــاعة [١]

وهكذا عدَّ -رحمه الله- عيسى ابنَ مريمَ آخرَ المجدِّدين، وذلك أنَّه عليه السلامُ حينَ ينْزِلُ من السَّماءِ لا ينْزِلُ نبيًّا كما كان قبلَ رفْعه، وإنَّما ينْزِلُ ليُجدِّدَ لمحمدٍ ﷺ ما اندرسَ من شريعتِه، كما سبق بيانُه، وبعد وفاتِه عليه السلام **«يَدْرُسُ الإِسْلاَمُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ»** ولا يجدَ من يُجدِّده **«حَتَّى لاَ يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلاَ صَلاَةٌ وَلاَ نُسُكٌ وَلاَ صَدَقَةٌ»**[٢]، فإذا عُطِّلتْ هذه الشَّعائرُ وهُجرَ بيْتُ الله الحرامُ فلمْ يُزَرْ لحجٍّ أوْ عُمْرة، كما قال ﷺ **« لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُحَجَّ الْبَيْتُ»**[٢]، فيومئذٍ يخْرجُ رجلٌ من الحبشةِ فيغزو الكعبةَ وينقضها حجرًا حجرًا، كما قال ﷺ: **« يُخَرِّبُ الْكَعْبَةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ»**[٣]، وقال ﷺ: **«اتْرُكُوا الحَبَشَةَ مَا تَرَكُوكُمْ فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَخْرِجُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ إِلاَّ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحَبَشَةِ»**[٤] وهذه هي العلامةُ السَّادسةُ من علاماتِ السَّاعةِ الكبرى، وقد بوَّب البُخاريُّ لها بقوله (بابُ هدْمِ الكعبة)، قال الحافظُ ابنُ حجرٍ: «يعني في آخرِ الزَّمان»[٥].

---

(١) عون المعبود (٣٩٣و٣٩٤/ ١١).

(٢) خ تعليقا(١٥٩٣/ ٤٥٤/ ٣)، وقال الألباني في مختصر البخاري (٢٦٢/ ٣٨٠/ ١): وصله أحمد بسند صحيح.

(٣) متفق عليه: خ(١٥٩٦/ ٤٦٠/ ٣)، م(٢٩٠٩/ ٢٢٣٢/ ٤)، ن(٢١٦/ ٥).

(٤) حسن: [ص.د:٣٦٢٠]، د(٤٢٨٧/ ٤٢٣/ ١١).

(٥) فتح الباري (٤٦٠/ ٣).

وقد وصف النبيُّ ﷺ ذلك الرجلَ الذي يُخرِّبُ الكعبةَ بقوله: «**كَأَنِّي بِهِ أَسْوَدَ أَفْحَجَ يَقْلَعُهَا حَجَرًا حَجَرًا**»[1]، فهو إذنْ: رجلٌ حبشيٌّ، أسود، أفحج أي: متباعدُ مابيْن القدمين، ذو سُوَيْقتيْن يعني أنَّ ساقيْه رفيعتان.

والذي ينْظرُ في تاريخِ الكعبةِ يرى أنَّ الله حفِظها في الجاهليَّةِ من أصحابِ الفيل، وكذلك يحفظُها في آخرِ الزَّمانِ من أعداءِ الدِّين، كما قال ﷺ «**يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ الله! كَيْفَ يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ**»[2]، وكأنَّ حِفْظَ الكعبةِ من حِفْظِ الدِّين، فإذا ضاعَ الدِّينُ لم يعُدْ في حِفْظِ الكعبةِ فائدة، فيُمكِّنُ الله ذاك الرجلَ من هدْمها. نعوذُ بالله أنْ يُدْرِكَنا ذلك اليوم.

وإذا بلغَ الشرُّ هذا المبلغَ وفسد النَّاسُ إلى هذا الحدِّ، حدِّ تعطيلِهمُ الشَّريعةَ وهدْمهمُ الكعبةَ بلا نكيرٍ فمعنى ذلك أنَّهم لم يعودوا يُعظِّمونَ حُرماتِ الله، ولا يُعظِّمونَ شعائرَ الله، ولا يعملونَ بكتابِ الله، ولا يُحِلُّون حلالَه، ولا يُحرِّمونَ حرامَه، فلا تبقى لبقائهِ بينَهم فائدة، فـ«**يُسْرَى عَلَى كِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلاَ يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ**»، فيُصبحُ الناسُ والصُّحفُ بيضاءُ لا شيءَ فيها، وما هي إلاَّ أيَّامٌ قليلةٌ ويُرْفعُ القرْآنُ أيضًا من صدورِ الحفظة، حتى إنَّ الحافظيْنِ ليلْتقيانِ فيسْألُ أحدُهما الأخرَ عن حِفْظهِ فيقول: لا أدْري، كنتُ أحْفظُ شيئًا لا أدْري ما هو[3]، «وفي الحديثِ إشارةٌ إلى عظمةِ القرْآنِ الكريم، وأنَّ وجودَه بيْن المسلمينَ هو السَّببُ لبقاء دينهم ورُسوخِ بُنْيانه، وما ذاك إلاَّ بتدارُسِهِ وتدبُّرِه وتفهُّمِهِ والعملِ به، ولذلك تعهدَ الله تبارك وتعالى بحفظهِ ما حفظهُ أهلُه، فإذا ضيَّعوهُ رفعه»[4]، وهذه هي العلامةُ السَّابعةُ من علاماتِ السَّاعةِ الكبرى.

---

(١) خ(١٥٩٥/ ٣٠٢/ ٣).

(٢) خ(٢١١٨/ ٣٣٨/ ٤).

(٣) لوامع الأنوار البهية (١٣٢/ ٢).

(٤) س.ص (١٢٨/ ١).

فيا معْشرَ المسلمينَ حُجُّوا قبلَ أن لا تحُجُّوا، و« مَنْ أَرَادَ الحجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ المرِيضُ وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ وَتَعْرِضُ الحاجَةُ»[1]، و« تَابِعُوا بَيْنَ الحجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الحدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلَيْسَ لِلحجَّةِ المبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ»[2]، و«مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[3]، فحجُّوا واستلموا الحجرَ الأسْودَ، فقد قال فيه النبيُّ ﷺ «لَيَأْتِيَنَّ هَذَا الحجَرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ يَشْهَدُ عَلَى مَنْ يَسْتَلِمُهُ بِحَقٍّ»[4]، حجُّوا واعتمروا ولا يغيبنَّ أحدُكم عن البيتِ أكثرَ من خمْسِ سنين، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إِنَّ الله يَقُولُ: إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ لَهُ جِسْمَه، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ في المعيشَة، تَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لاَ يَفِدُ إِلَيَّ لَمحْرُوم»[5].

فحُجُّوا قبلَ أن لا تحُجوا، ومتِّعوا أنفسَكم بالبيتِ قبلَ أن يُهدم، واقرءوا القُرآنَ ومتِّعوا أنفُسَكم به قبلَ أن يُسرى عليهِ فلا تجدوا منه آيةً ولا حرْفًا. اقْرءوا القرآنَ فإنَّ قراءةَ القرآنِ قُرْبةٌ من أعْظَم القُرب، وعبادةٌ من أجلِّ العبادات، يُعطي الله عليها من الأجْرِ والثَّوابِ ما لا يُعطي على غيرِها، وقد بيَّن النبيُّ ﷺ كثرةَ هذا الأجْرِ بقوله: « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالحسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ولاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»[6]، فاقرءوا القرآنَ واتَّبعوه لعلَّكم تُرحمون، واهتدوا بهدْيِهِ تهتدوا، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ[9] ﴾[الإسراء]، في كلِّ أمْرٍ من الأمور، وفي كلِّ شأْنٍ من الشئون،

---

(١) حسن: [ص.جه:٢٣٣١]، جه(٢٨٨٣/ ٩٦٢/ ٢)، د(١٧١٦/ ١٥٧/ ٥) الجملة الأولى فقط.

(٢) حسن صحيح: [ص.ت:٨١٠]، ت(٨٠٧/ ١٥٣/ ٢)، ن(١١٥/ ٥)، جه(٢٨٨٧/ ٩٦٤/ ٢) دون الجملة الأخيرة.

(٣) متفق عليه: خ(١٥٢١/ ٣٨٢/ ٣)، م(١٣٥٠/ ٩٨٣/ ٢)، ت(٨٠٨/ ١٥٣/ ٢)، ن(١١٤/ ٥)، جه(٢٨٨٩/ ٩٦٤/ ٢).

(٤) صحيح: [ص.جه: ٢٣٨٢]، جه(٢٩٤٤/ ٩٨٢/ ٢).

(٥) صحيح: [س.ص:١٦٦٢]، حب(٩٦٠/ ٢٣٩)، هق(٢٦٢/ ٥).

(٦) صحيح: [ص.ت:٢٩١٠]، ت(٣٠٧٥/ ٢٤٨/ ٤).

لا يهدي للتي هي أقوم في مسألةٍ دونَ مسألة، ولا يهدي للتي هي أقوم في قضيَّةٍ دون قضيَّة، وإنَّما لكلِّ قضيَّةٍ حلٌّ في القرآن، ولكلِّ مُشكلةٍ حلٌّ في القرآن، به انحلَّتْ مشاكلُ الأوَّلين، وبه تُحلُّ مشاكلُ الآخرين، به استُنْقِذَتِ البشريَّةُ من ظُلماتِ الجاهليَّة، وبهِ تُستنقذُ اليومَ أيضًا، إذا قام أهلُ القرآنِ بواجبهم فقرءوه وأقرءوه، وتعلَّموهُ وعلَّموه، فاقرءوا القرآنَ يا أُمَّةَ القرآن، وتعلَّموا القرآنَ يا أُمة القرآن، وعلموا القرآن يا أُمة القرآن، فـ «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[1]، و «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ**»[2]، واحفظوا القرآن ما استطعتم فإنَّه «**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا**»[3].

❑ ❑ ❑

(١) خ(٥٠٢٧/ ٧٤/ ٩)، ت(٣٠٧١/ ٢٤٦/ ٤)، د(١٤٣٩/ ٣٢٥/ ٤).

(٢) م(٨٠٤/ ٣٣٨/ ٤).

(٣) حسن صحيح: [ص.ت:٢٩١٤]، ت(٣٠٨١/ ٢٥٠/ ٤)، د(١٤٥١/ ٣٣٨/ ٤).

طلوع الشمس من مغربها

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: « كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ! أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلم. قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لها، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لها، يُقَالُ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لمسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨) ﴾[يس]»[1].

إنَّ لهذا الكوْنِ إلهًا، سميعًا بصيرًا، لطيفًا خبيرًا، عليمًا قديرًا، لهُ الأسْماءُ الحسنى والصِّفاتُ العُلا، وقد احْتجبَ عن خلْقهِ بحجابٍ من نور، رحْمةً بهم، ولو كشفهُ لأحْرقتْ سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليهِ بصرُه من خلْقه، وقد أمر الخلْقَ بعبادتِه، وأقامَ لهمُ الأدلَّةَ على وحْدانيَّته، بحيثُ يعرفونهُ بها، فيؤمنونَ بالغيْبِ دونَ أن يروْه.

ودلائلُ التَّوحيدِ كثيرة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلمونَ(٢٢) ﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ(١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٦٤) ﴾[البقرة].

ومن دلائلِ التَّوحيدِ الشَّمْسُ والقمر، وما ينتجُ عنْهما من ليلٍ ونهار، قال تعالى:

---

(١) متفق عليه: خ(٣١٩٩/ ٢٩٧/ ٦)، م(١٥٩/ ١٣٨و١٣٩/ ١)، ت(٣٢٨٠/ ٤٢/ ٥).

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤)﴾[الأعراف]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ(٥)إِنَّ فِي اخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ(٦)﴾[يونس]، وقال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ(٣٢)وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(٣٣)وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ(٣٤)﴾[إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(١٠)يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١١)وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٢)﴾[النحل]،وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(٣٧)﴾[فصلت]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ(٣٧)وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨)وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ(٣٩)لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(٤٠)﴾[يس].

قال ابنُ كثير: «يقول تعالى: ومن الدِّلالةِ لهم على قدْرتِهِ تبارك وتعالى العظيمةِ خَلْقُ اللَّيلِ والنَّهار، هذا بظلامهِ وهذا بضيائه، وجَعْلُهُما يتعاقبان، ويجيءُ هذا فيذْهبُ هذا، ويذْهبُ هذا فيجيءُ هذا، كما قال تعالى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾[الأعراف]، ولهذا قال عزَّ وجلَّ هاهنا: ﴿وَءَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أي نصْرِمهُ منه فيذْهبُ فيُقْبِلُ

اللَّيل، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمونَ ﴾ كما جاء في الحديث: «إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ»(١).

وقوْلُه جلَّ جلالُه: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ في معنى المستقرِّ قولان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ مسْتقرُّها المكاني وهو تحتَ العرشِ ممَّا يلي الأرضَ في ذلك الجانب، وهي أينَما كانت فهي تحتَ العرْشِ وجميعُ المخْلوقات، لأنَّه سقفُها، وهو قُبَّةٌ ذاتُ قوائم تحْملُه الملائكة، وهو فوْقَ العالم ممَّا يلي رؤوسَ النَّاس، فالشَّمسُ إذا كانت في قُبَّةِ الفلكِ وقْتَ الظَّهيرَةِ تكونُ أقْربَ ما تكونُ إلى العرْش، فإذا استدارت في فلكها الرَّابع إلى مُقابلةِ هذا المقام وهو وقْتُ نصْفِ اللَّيلِ صارتْ أبْعدَ ما تكونُ من العرْش، فحينئذٍ تسْجدُ وتستأْذنُ في الطُّلوعِ، كما جاءتْ بذلك الأحاديث:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي المسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ! أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلم. قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ(٣٨)﴾[يس]»

وعَنْهُ قَالَ: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ قَالَ: مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ»(٢).

والقولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بمستقرِّها هو منتهى سيْرها وهو يومُ القيامة، يبْطلُ سيْرُها، وتسكنُ حركتُها، وتُكوَّر، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا هو مُسْتقرُّها الزَّماني، كما قال قتادة: ﴿ لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي لوقتِها ولأجلٍ لا تعدوه»(٣)، فهي تشْرقُ وتغْربُ بانتظامٍ وفقَ تقديرِ

(١) متفق عليه: خ(١٩٥٤/ ١٩٦/ ٤)، م(١١٠٠/ ٧٧٢/ ٢)، د(٢٣٣٤/ ٤٧٨/ ٦)، ت(٦٩٤/ ١٠٣/ ٢).

(٢) متفق عليه: خ(٤٨٠٣/ ٥٤١/ ٨)، م(١٥٩-٢٥١/ ١٣٩/ ١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥٧١و٥٧٢/ ٣).

العزيزِ العليم، لا يسْتطيعُ أحدٌ أن يُغيِّرَ هذا النِّظَامَ أبدًا، وإذا غيَّرَهُ الله تعالى لا يسْتطيعُ أحدٌ أن يردَّه أبدًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ(٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٧٣)﴾[القصص]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ الله الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ الله يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٢٥٨)﴾[البقرة]، « وكان النُّمرودُ طلب من إبراهيمَ دليلاً على وجودِ الرَّبِّ الذي يدْعو إليه، فقال إبراهيمُ ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أي إنَّما الدَّليلُ على وجودِهِ حدوثُ هذه الأشياءِ المشاهدةِ بعد عدمِها، وعدمُها بعد وجودِها، وهذا دليلٌ على وجودِ الفاعلِ المختارِ ضرورةً، لأنَّها لم تحْدُث بنفسِها، فلا بُدَّ لها من موجدٍ أوْجدها، وهو الرَّبُّ الذي أدْعو إلى عبادته وحده لا شريك له، فعند ذلك قال النُّمرودُ: ﴿ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أراد أن يدَّعي لنفسِهِ هذا المقامَ عِنادًا ومُكابرةً، ويوهمُ أنَّه فاعلُ ذلك، فقال لهُ إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ الله يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ أي إذا كنتَ كما تدَّعي من أنَّكَ تُحْيي وتُميتُ، فالذي يُحْيي ويُميتُ هو الذي يتصرَّفُ في الوجودِ في خلْقِ ذرَّاته، وتسخيرِ كواكبِهِ وحركاته، فهذه الشَّمسُ تبدو كلَّ يومٍ من المشرقِ فإنْ كنتَ إلهًا كما تدَّعي تُحْيي وتُميتُ فأْتِ بها من المغرب، فلما علم عجْزَهُ وانقطاعَهُ، وأنَّهُ لا يقدرُ على المكابرةِ في هذا المقامِ بُهِتَ، أي أُخْرِسَ فلا يتكلم، وقامتْ عليه الحجَّة، ﴿وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي لا يلهمهم حُجَّةً ولا بُرْهانًا، بل ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(١٦)﴾[الشورى][1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣١٣/ ١).

وهكذا تجري ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ[٥] ﴾[الرحمن]، « أي يجْريانِ متعاقبيْنِ بحسابٍ مُقنَّنٍ لا يختلفُ ولا يضطَّرب»[١] حتى يأتيَ وعْدُ الله، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى[٢] ﴾[الرعد].

فإذا جاء أجلُها ذهبتْ فسجدتْ تحْتَ العرْشِ ثمَّ استأذنتْ ربَّها في الطُّلوعِ فلا يأذَنُ لها، ويأمرها أن تطْلُعَ من مغْربِها فتطْلعُ كما أمرها ربُّها، وهذه هي العلامةُ الثَّامنةُ من علاماتِ الساعةِ الكبرى.

«قال العلماءُ رحمهمُ الله تعالى: طُلوعُ الشَّمْسِ من مغْربها ثابتٌ بالسنَّةِ الصحيحة والأخبارِ الصريحة، بل وبالكتابِ المنزلِ على النبيِّ المرسل، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الملاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ[١٥٨] ﴾[الأنعام]، وقد أجمعَ المفسِّرونَ أو جُمهورُهم على أنَّها طلوعُ الشَّمْسِ من مغربها»[٢].

وقد ورد في طلوعِ الشَّمْسِ من مغربها عدَّةُ أحاديث:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ حَدِيثًا لم أَنْسَهُ بَعْدُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول: « إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا»[٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[٤].

---

(١) المصدر السابق (٤/٢٧٠).

(٢) لوامع الأنوار البهية (٢/١٣٣).

(٣) م(٢٩٤١/ ٢٢٦٠/ ٤).

(٤) م(٢٩٤٧/ ٢٢٦٧/ ٤).

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ الله عَلَيْهِ»[1].

وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ ﴿لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لم تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾[الأنعام]»[2].

وَعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ قِبَلِ مَغْرِبِ الشَّمْسِ بَابًا مَفْتُوحًا عَرْضُهُ سَبْعُونَ سَنَةً فَلَا يَزَالُ ذَلِكَ الْبَابُ مَفْتُوحًا لِلتَّوْبَةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ نَحْوِهِ فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ نَحْوِهِ لم يَنْفَعْ نَفْسًا إِيمَانُهَا لم تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا»[3].

«وحاصلُ المقصودِ من الآياتِ الكريمةِ والأحاديثِ الشّريفةِ أنَّ من لم يكن إيمانهُ متحقِّقًا إذا طلعتِ الشَّمْسُ من مغربها لم ينفعْهُ تجْديدُ الإيمان، ولم ينْفعْهُ برٌّ ولا إحسان، لأنّه فقد الإيمانَ الذي هو الأساسُ لما عداه من الأعمال، ولا ينفعهُ الإيمانُ الحادثُ لأنّهُ إيمانٌ المضطر، وقد قال تعالى عن قوْم: ﴿ فَلما رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِالله وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ(٨٤)فَلم يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لما رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ الله الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(٨٥)﴾[غافر]، وأمَّا من تحقَّقَ اتِّصافهُ بالإيمانِ الشّرْعيِّ من قبلِ ذلك الوقتِ واستمرَّ إيمانهُ إلى طلوعِ الشَّمْسِ من مغْربها فهو لا يخْلو من إحْدى ثلاث: إمَّا أن يكونَ مؤمنًا مُقيمًا على المعاصي لم يكسِبْ في إيمانهِ خيرًا، أو مؤمنًا مُخْلطًا، أو مؤمنًا تائبًا عن المعاصي كاسِبًا في إيمانهِ خيْرًا ما استطاع:

---

(١) م(٢٧٠٣/٢٠٧٦/٤).

(٢) متفق عليه: خ(٦٥٠٦/ ٣٥٢/ ١١)، م(١٥٧/ ١٣٧/ ١)، د(٤٢٩٠/ ٤٣٥/ ١١).

(٣) حسن: [ص.جه:٣٢٨٩]، جه(٤٠٧٠/ ١٣٥٣/ ٢)، ت(٣٦٠٢/ ٢٠٥و٢٠٦/ ٥) ضمن حديث طويل.

فالأوَّلُ: ينفعهُ الإيمانُ السَّابقُ المجرَّدُ عن الأعمالِ لأصْلِ النجاة، فلا يُخلَّدُ في النارِ وإنْ دخلَها بذُنوبه، فالإيمانُ السَّابقُ ينفعُه، وينفعُه الإيمانُ يومئذٍ أيْضًا لأنَّهُ نورٌ على نور، ولكن لا تنفعُهُ التوْبةُ من المعاصي ولا تُقْبلُ منه حسنةٌ يعْملُها بعدَ ذلك.

والثَّاني: ينفعُهُ إيمانُهُ السَّابقُ لأصْلِ نجاتِهِ، وينفعُهُ ما قدَّمهُ من الحسناتِ لدرجاتِه، وينفعُهُ إيمانُ يومئذٍ لأنَّهُ نورٌ على نور، ولكن لا تنفعُهُ التَّوْبةُ من التَّخْليطِ ولا حسنَةٌ يعملُها بعد ذلك ما لم يكن عمِلَها من قبلُ واستمرَّ على عملِها، من نحْوِ صلاةٍ وقراءةٍ وذِكْر.

والثَّالِثُ: ينفعُهُ إيمانُهُ السَّابقُ لأجْلِ نجاتِهِ، وتنْفعُهُ أعمالُه السَّابقةُ الصَّالحةُ لدرجاتِه، وينفعُهُ إيمانُهُ ذلك اليوْمِ أيضًا، وينفعُهُ ما يعملُهُ بعْدَ ذلك من الحسناتِ التي سبق منهُ أمثالُها. وهذا التَّفصيلُ مما دلَّتْ عليهِ الآيةُ الكريمةُ وبيَّنَتْهُ الأحاديثُ الواردةُ في تفسيرِها»[1].

فالله الله عبادَ الله! بادروا بالطَّاعات، واسْتبقوا الخيْرات، وإيَّاكم والتَّأنِّي، وإيَّاكم والتَّسويف، فيوشكُ الشَّمْسُ أن تغرُبَ ثمَّ تَسْتأْذِنُ ربَّها في الشُّروقِ فلا يأْذَنُ لها، فتطْلُعُ من حيثُ غربت، وحينئذٍ يُغْلقُ بابُ التَّوْبة، وتفوتُ الفُرْصة، وتعْظُمُ الحسْرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِموا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ الله وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١)﴾ [الزمر].

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١٣٣ و١٣٤/ ٢).

وفي حديثِ أبي ذرٍّ من الفوائد:

أنَّ للشَّمْسِ إدراكًا وفهْمًا، وأنَّها تتكلم وتنْطق، وأنَّها تسْمعُ وتُطيعُ لربِّها، وتسيرُ بأمْرِهِ لها، فتسْتأذِنُ كلَّ يوْمٍ في الشُّروقِ فيأْذنُ لها فتطلُعُ على النَّاس، فإذا كان الأجلُ الذي سمَّاهُ الله لها اسْتأذنتْ فلم يأْذنْ لها، فأطاعتْ وطلعتْ من حيْثُ غربت، ولا غرابةَ في ذلك كلِّه، فقد قال تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ(١١) ﴾[فصلت].

وقال تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ(٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٥) ﴾[الانشقاق].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً(٧٢) ﴾[الأحزاب].

ومن الفوائد: أنَّ الشَّمْسَ تسْجدُ لله إجْلالاً وتعْظيمًا، وليستْ وحْدَها في هذه العبادة، وإنَّما هي واحدةٌ من مجْموعةِ الكائناتِ التي تُسبِّحُ بحمْدِ ربِّها وتسْجدُ له، كما قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(٤٤) ﴾[الإسراء].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ(٤١) ﴾[النور].

وقال تعالى: ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ(٦) ﴾[الرحمن].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ(١٨) ﴾[الحج].

قال ابنُ كثير: «يُخبِرُ تعالى أنَّهُ المستحِقُّ للعبادةِ وحْده لا شريكَ له، فإنَّه يسْجدُ لعظمتِهِ كلُّ شيءٍ طوْعًا وكرْهًا، وسُجودُ كلِّ شيءٍ مما يختصُّ به، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ(٤٨)﴾[النحل]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي من الملائكةِ في أقْطارِ السموات، والحيواناتِ في جميعِ الجهاتِ من الإنسِ والجنِّ والدَّوابِّ والطَّيْر، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، وخصَّ الشَّمْسَ والقمرَ والنُّجومَ بالذِّكْرِ لأنَّها قد عُبِدَتْ من دونِ الله، فبيَّنَ أنَّها تسْجدُ لخالقِها، وأنَّها مربوبةٌ مُسخَّرة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا للهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(٣٧)﴾[فصلت].

وقال أبو العالية: ما في السماءِ نجْمٌ ولا شمْسٌ ولا قمرٌ إلاَّ يقعُ لله ساجدًا حينَ يغيب، ثمَّ لا ينصرفُ حتى يُؤْذَنَ له، فيأخذُ ذاتَ اليمينِ حتى يرجعَ إلى مطْلعه. قال ابنُ كثير: وأمَّا الجبالُ والشَّجرُ فسُجودُهما بفيْءِ ظلالِهما عنِ اليمينِ والشَّمائل.

وعن ابنِ عبَّاسٍ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ كَأَنِّي أُصَلِّي إِلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ، فَقَرَأْتُ السَّجْدَةَ فَسَجَدْتُ، فَسَجَدَتِ الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا تَقُولُ: اللهمَّ احْطُطْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاكْتُبْ لِي بِهَا أَجْرًا، وَاجْعَلْهَا لِي عِنْدَكَ ذُخْرًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ مِثْلَ الَّذِي أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عَنْ قَوْلِ الشَّجَرَةِ»(١)

وهكذا تسْجدُ الجماداتُ والحيواناتُ لفاطرِ الأرضِ والسموات ويأبى كثيرٌ من الناس، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ(٤٨)﴾[المرسلات]، وقد أخْبر سُبحانهُ أنَّهم سيندمونَ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ(٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ(٤٣)﴾[القلم].

---

(١) صحيح: [ص.جه:٨٦٥]، جه(١٠٥٣/ ٣٣٤/ ١)، ت(٥٧٦/ ٤٦/ ٢)، وانظر تفسير القرآن العظيم (٢١١/ ٣).

فالله الله عبادَ الله! ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ(٧٧)﴾[الحج] فلذلك خلقكم، كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)﴾[الذاريات].

وقد وعد العابدينَ بجنَّةٍ عرضُها السمواتُ والأرض، وتوعَّد المسْتكْبِرينَ بالعذاب المهين، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٦٠)﴾[غافر].

وقال تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لله وَلاَ الملاَئِكَةُ المقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا(١٧٢)فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا(١٧٣)﴾[النساء].

فاللهمَّ أعنَّا على ذِكْرِكَ وشُكْرِكَ وحُسْنِ عبادتك

آميـن

❑ ❑ ❑

خروج الدابة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لم تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ»[1].

تحدَّثْنا عن طُلوع الشَّمْسِ من مَغْربها، وعن بابِ التَّوْبةِ الذي فتحَهُ الله لعبادهِ فلا يُغْلَقُ إلاَّ إذا طلعتِ الشَّمْسُ من مغربها، فإذا طلعتْ ورآها النَّاسُ آمنُوا أجْمَعُون، وذلك حينَ لا ينْفَعُ نفساً إيمانُها لم تكنْ آمنتْ من قبلُ أو كسبتْ في إيمانِها خَيْراً.

وقد عدَّ النبيُّ ﷺ من علاماتِ السَّاعةِ الكُبْرى الدَّجالَ والدَّابَّة، أمَّا الدَّجَّالُ فقد مضى ذِكْرُه، وأمَّا الدَّابَّةُ « فخروجُها ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّة، أمَّا الكتابُ فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ(٨٢) ﴾[النمل]»[2].

قال القُرْطبِيُّ: « اخْتُلِفَ في معنى وَقْعِ القَوْلِ وفي الدَّابَّة، فقيل: معنى ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ وجبَ الغضبُ عليهم، قالهُ قتادة.

وقال مُجاهد: أي حقَّ القوْلُ عليهم أنَّهم لا يؤمنون.

وقال ابنُ عمرَ وأبو سعيدٍ الخدْريِّ رضي الله عنهما: إذا لم يأمروا بالمعروفِ وينْهوْا عن المنكرِ وجبَ السَّخطُ عليهم.

وقال ابنُ مسعودٍ: وقْعُ القوْلِ يكونُ بموتِ العلماء، وذهابِ العلم، ورفْعِ القرآن، وقال: أكْثروا من زيارة هذا البيتِ من قبلِ أنْ يُرْفعَ وينسى النَّاسُ مكانَه، وأكْثروا

---

(١) م(١٥٨/١٣٨/١)، ت(٥٠٦٧/٣٢٩و٣٣٠/٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١٤٦/٢).

تلاوةَ القرآنِ من قبلِ أنْ يُرفع، قالوا: يا أبا عبدِ الرحمنِ! هذه المصاحفُ تُرْفعُ، فكيف بما في صُدورِ الرجال؟ قال: فيُصْبحونَ فيقولونَ كنَّا نتكلم بكلامٍ، ونقولُ قوْلاً، فيرجعونَ إلى شِعْرِ الجاهليةِ وأحاديثِ الجاهليَّة، وذلك حين يقعُ القولُ عليهم.

وقالتْ حفْصةُ بنتُ سيرين: سألْتُ أبا العاليةِ عن قوْلِ الله تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ(٨٢) ﴾[النمل]، فقال: أوْحى الله إلى نوحٍ: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ ءَامَنَ(٣٦) ﴾[هود]، قالت: وكأنَّما كان على وجْهي غطاءٌ فكُشِف.

قال النَّحاس: وهذا من حُسْنِ الجواب، لأنَّ الناسَ ممتحَنُونَ ومؤخَّرونَ لأنَّ فيهم مؤمنينَ وصالحين، ومن قد علم الله عزَّ وجلَّ أنَّهُ سيؤمنُ ويتوب، فلهذا أُمْهلوا، فإذا زالَ هذا وجبَ القولُ عليهم فصاروا كقومِ نوح حينَ قال الله تعالى: ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ ءَامَنَ(٣٦) ﴾[هود].

واختُلِفَ في تعْيينِ هذه الدَّابَّةِ وصفتِها، ومن أيْنَ تخرجُ اختلافًا كثيرًا»[1]، قال الفخْرُ الرَّازي: «ولا دِلالةَ في الكتابِ على شيءٍ من هذه الأمور، فإنْ صحَّ الخبرُ فيهِ عن رسولِ الله ﷺ قُبِل، وإلاَّ لم يُلتفتْ إليه»[2].

قُلْتُ: قد صحَّتِ الأحاديثُ في الإعلامِ بخروجِها دونَ صِفتِها:

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: «اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٤و٢٣٥/ ١٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١٨/ ٢٤).

وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ. أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[2].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا»[3].

قال ابنُ كثير: «معنى قولِه ﷺ «إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجًا» أي أوَّلُ الآياتِ التي ليست مألوفةً، وإن كان الدَّجَّالُ ونُزولُ عيسى عليه السلام من السَّماءِ قبلَ ذلك، وكذلك خروجُ يأجوجَ ومأجوج، وكلُّ ذلكَ أمورٌ مألوفة، لأنَّ مُشاهدتَهُ ومُشاهدةَ أمثالِه مألوف، فأمَّا خروجُ الدَّابَّةِ على شكْلٍ غريبٍ غيرِ مألوف، ومُخاطبتُها النَّاسَ ووسْمُها إيَّاهم بالإيمانِ أو الكفْرِ فأمْرٌ خارجٌ عن مجاري العادات، وذلك أوَّلُ الآياتِ الأرْضيَّة، كما أنَّ طُلوعَ الشَّمْسِ من مغْربِها على خلافِ عادتِها المألوفةِ أوَّلُ الآياتِ السَّماوية»[4].

ومما يُرجِّحُ سبقَ الشَّمْسِ الدَّابَّةَ قولُ النبيِّ ﷺ: «تَخْرُجُ الدَّابَّةُ فَتَسِمُ النَّاسَ عَلَى خَرَاطِيمِهِمْ، ثُمَّ يُعَمَّرُونَ فِيكُمْ، حَتَّى يَشْتَرِيَ الرَّجُلُ الدَّابَّةَ، فَيُقَالُ: مِمَّنِ اشْتَرَيْتَ؟ فَيَقُولُ: مِنَ الرَّجُلِ المُخَطَّمِ»[5].

ووجْهُ التَّرْجيح من هذا الحديثِ أنَّهُ بعد طُلوعِ الشَّمْسِ من مغْربِها يُغْلَقُ بابُ التَّوْبةِ فلا يُقبلُ إيمانٌ بعد كُفر، ولا توْبةٌ من معْصية، فتخْرجُ الدَّابَّةُ بعدَ ذلك فتسِمُ الكفَّارَ على خراطيمهم يعني على أُنوفِهم، فتتْرُكُ في وجوههم علامةً يُعْرفُ بها كُفرُهم، وتُكلمهم:

---

(١)،(٢)،(٣) سبق كثيرا.

(٤) الفتن والملاحم (١٠٩).

(٥) صحيح: [ص.ج:٢٩٢٤]، حم(٢٤٧/٩٦/٢٤).

﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ(٨٢)﴾[النمل]، ويطولُ بالنَّاسِ الزَّمانُ، حتى يتبايعون في الأسْواقِ فيقولُ الكافرُ: بعْ يامؤمن، ويقولُ المؤمنُ: اشْترِ يا كافر، حتى إنَّ الرَّجلَ ليُسْألُ: ممن اشْتريْت؟ فيقول: من فلانٍ المعلم.

وليْسَ عجبًا أن تُكلم الدَّابَّةُ النَّاس، فإنَّهُ إذا اقتربَ السَّاعةُ تغيَّرتِ السُّننُ الكوْنيَّة، وخرجتْ عن المألوفِ منها وقد ثبت كلام الجمادات والحيوانات مع النبي ﷺ وغيره من الناس:

عَنْ أَبِي سَعِيدِ الخدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلم السِّبَاعُ الإِنْسَ، وَحَتَّى تُكَلم الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَتُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: « صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لم نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلحرْثِ. فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ الله! بَقَرَةٌ تَكَلم! فَقَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثَمَّ. وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ فَطَلَبَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي! فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ؟ يَوْمَ لاَ رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي، فَقَالَ النَّاسُ. سُبْحَانَ الله! ذِئْبٌ يَتَكَلم! قَالَ: فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثَمَّ»(٢).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلم عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ»(٣).

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢١٨١]، ت(٢٢٧١/ ٣٢٢/ ٣).

(٢) خ(٣٤٧١/ ٥١٢/ ٦)، ت(٣٧٧٨/ ٢٨٦/ ٥).

(٣) م(٢٢٧٧/ ١٧٨٢/ ٤)، ت(٣٧٠٣/ ٢٥٢و٢٥٣/ ٥).

وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ: جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ حَزِينٌ قَدْ خُضِّبَ بِالدِّمَاءِ، قَدْ ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: فَعَلَ بِي هَؤُلاَءِ وَفَعَلُوا. قَالَ: أَتُحِبُّ أَنْ أُرِيَكَ آيَةً؟ قَالَ: نَعَمْ، أَرِنِي فَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةٍ مِنْ وَرَاءِ الْوَادِي قَالَ: ادْعُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ، فَدَعَاهَا فَجَاءَتْ تَمْشِي حَتَّى قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ. قَالَ: قُلْ لَهَا فَلْتَرْجِعْ، فَقَالَ لَهَا فَرَجَعَتْ حَتَّى عَادَتْ إِلَى مَكَانِهَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ حَسْبِي»[1].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: بِمَ أَعْرِفُ أَنَّكَ نَبِيٌّ؟ قَالَ: إِنْ دَعَوْتُ هَذَا الْعِذْقَ مِنْ هَذِهِ النَّخْلَةِ، أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله؟ فَدَعَاهُ رَسُولُ الله ﷺ فَجَعَلَ يَنْزِلُ مِنَ النَّخْلَةِ حَتَّى سَقَطَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قَالَ: ارْجِعْ فَعَادَ»[2].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِالله رَضِي الله عَنْهَا «أَنَّ امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ قَالَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ يَا رَسُولَ الله! أَلاَ أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ؟ فَإِنَّ لِي غُلاَمًا نَجَّارًا. قَالَ: إِنْ شِئْتِ. قَالَ: فَعَمِلَتْ لَهُ الْمِنْبَرَ فَلَما كَانَ يَوْمُ الجمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا فَضَمَّهَا إِلَيْهِ فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ. قَالَ: بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ»[3].

وَعَنْ جَابِرِ بنِ عَبْدِ الله قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى نَزَلْنَا وَادِيًا أَفْيَحَ، فَذَهَبَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْضِي حَاجَتَهُ فَاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ مِنْ مَاءٍ فَنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَم يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِهِ، فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِئِ الْوَادِي، فَانْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا،

---

(١) صحيح: [ص.جه:٣٢٥٤]، جه(٤٠٢٨/ ١٣٣٦/ ٢).

(٢) صحيح: [ص.ت:٣٦٢٨]، ت(٣٧٠٧/ ٢٥٤/ ٥).

(٣) خ(٢٠٩٥/ ٣١٩/ ٤)، ن(١٠٢/ ٣).

فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ الله، فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ، حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ الأُخْرَى، فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا فَقَالَ: انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ الله فَانْقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا لأَمَ بَيْنَهُمَا يَعْنِي جَمَعَهُمَا فَقَالَ: الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ الله، فَالْتَأَمَتَا. قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ مَخَافَةَ أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ الله ﷺ بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ، فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي، فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ الله ﷺ مُقْبِلاً، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى سَاقٍ»[1].

وهكذا ثبتَ بما لا يدعُ مجالاً للشَّكِّ صِحَّةُ كلام الجماداتِ والحيوانات، فلا غرابةَ إذنْ في كلامِ الدَّابَّةِ التي تخْرجُ آخرَ الزَّمانِ ﴿ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ(٨٢) ﴾[النمل].

وتسِمُ الكافرَ على أنْفِهِ فيُعْرفُ من بيْنِ النَّاس، حتى يُقالَ للرَّجُلِ ممَّنِ اشْتريْتَ؟ فيقول: من الرَّجُلِ المخطَّم، وهذه هي العلامةُ التَّاسِعةُ من علاماتِ السَّاعةِ الكُبْرى، فإذا تميَّز المؤمنونَ أرسلَ الله تعالى ريحًا طيِّبةً باردةً فقبضتْ روحَ كلِّ عبدٍ مؤمن، وهذه هي العلامةُ العاشرةُ من علاماتِ السَّاعةِ الكُبرى، ويبْقى في الأرْضِ شرارُ أهلها عليهم تقومُ السَّاعة، كما صرَّحَتْ بذلكَ الأحاديثُ عنِ النبيِّ ﷺ:

ففي حديثِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعان[2] في وصْفِ الدَّجَّالِ ونُزولِ عيسى بنِ مريمَ من السَّماءِ وخُروجِ يأجوجَ ومأجوجَ وإهلاكِ الله لهم، قال ﷺ: « ثُمَّ يُرْسِلُ الله مَطَرًا لاَ يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ الْعِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ حَتَّى أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ

(١) م(٣٠١٢و٣٠١٣/٢٣٠٦-٢٣٠٩/٤).

(٢) سبق مراراً.

الإبل لتكفي الفِئام من النَّاس، واللِّقحة من البَقر لتكفي القَبيلة مِن النَّاس، واللِّقحة مِن الغَنم لتكفي الفَخِذ مِن النَّاس، فَبَيْنَما هُم كذلِكَ إذ بَعَثَ الله رِيحًا طَيِّبَة فتأخُذُهُم تحت آباطِهِم فَتَقْبِض رُوح كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسلم، ويَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ يَتَهارَجُونَ فِيها تَهارُجَ الحُمُرِ فَعَلَيْهِم تَقُومُ السَّاعَةُ».

وعَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ لا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا، فَيَبْعَثُ الله عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ ابْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ فَلا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلاَّ قَبَضَتْهُ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ دَخَلَ فِي كَبِدِ جَبَلٍ لَدَخَلَتْهُ عَلَيْهِ حَتَّى تَقْبِضَهُ، فَيَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ فِي خِفَّةِ الطَّيْرِ وَأَحْلامِ السِّبَاعِ، لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَقُولُ: أَلا تَسْتَجِيبُونَ؟ فَيَقُولُونَ فَمَا تَأْمُرُنَا؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ دَارٌّ رِزْقُهُمْ، حَسَنٌ عَيْشُهُمْ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ»[1].

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ المَهْرِيِّ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ وَعِنْدَهُ عَبْدُ الله بْنُ عَمْرِو بْنِ العَاصِ فَقَالَ عَبْدُ الله: لا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ الخَلْقِ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ، لا يَدْعُونَ الله بِشَيْءٍ إِلاَّ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: يَا عُقْبَةُ اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ الله! فَقَالَ عُقْبَةُ: هُوَ أَعْلَم، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ الله قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ. فَقَالَ عَبْدُ الله أَجَلْ. ثُمَّ يَبْعَثُ الله رِيحًا كَرِيحِ المِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الحَرِيرِ فَلا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الإِيمَانِ إِلاَّ قَبَضَتْهُ ثُمَّ يَبْقَى

(١) م(٢٩٤٠/٢٢٥٨و٢٢٥٩/٤).

شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ»[١].

وَعَنْ عَبْدِ الله عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ»[٢].

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ الله الله»[٣].

وفي روايةٍ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لاَ يُقَالَ فِي الأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله»[٤].

نسْأَلُ الله السَّلامةَ والعافية

❑ ❑ ❑

---

(١) م(١٩٢٤/ ١٤٢٤و١٥٢٥/ ٣).

(٢) م(٢٩٤٩/ ٢٢٦٨/ ٤).

(٣) م(١٤٨/ ١٣١/ ١).

(٤) إسناده صحيح على شرط مسلم: حم(١٣٨٣٣/ ٣٣٢/ ٢١) الأرنؤوط.

وجوب التوبة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»[1].

فرغنا من ذِكرِ أشراطِ السَّاعة، وعرفْنا أنَّ من آخرِها طُلوعُ الشَّمْسِ من مغْربها، فإذا طلعتْ فقد أُغلِقَ بابُ التَّوْبة، فلا ينْفعُ الكافرَ إيمانُه، ولا العاصيَ توْبتُه، كما قال تعالى:﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الملاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ(١٥٨)﴾[الأنعام]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ فَذَلِكَ حِينَ ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾»[2].

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ».

وفي هذا الحديثِ دعْوةٌ إلى المبادرةِ بالتَّوْبةِ واغتنامِ الفُرْصةِ والبابُ مفتوحٌ قبلَ إنْ يُغْلقَ فلا يُفْتحُ أبدًا، « والتَّوْبةُ لُغةً: مصدر قولكَ: تابَ يتوب، وهو مأخوذٌ من مادةِ (تَ وَ بَ) التي تدُلُ على الرُّجوعِ، يُقال: تابَ من ذنْبه، أي رجعَ عنْه، توْبةً ومتابًا. والوصْفُ منه تائب، والتَّوْبُ: ترْكُ الذَّنْبِ على أجملِ الوُجوه، وهو أبْلغُ وجوهِ الاعتذار، فإنَّ الاعتذارَ على ثلاثةِ أوْجُه: إمَّا أنْ يقولَ المُعْتذرُ: لم أفعل، أوْ يقول: فعلْتُ لأجْلِ كذا، أوْ يقول: فعلْتُ وأسأْتُ وقد أقْلعْت، ولا رابعَ لذلك، وهذا الأخيرُ هو التَّوْبة»[3].

(١) م(٤/٢٠٧٦/٢٧٠٣).
(٢) سبق قريبًا.
(٣) نضرة النعيم (٤/١٢٦٩).

فمن أساءَ فيما بيْنهُ وبيْنَ الله ثمَّ تابَ وأنابَ فقد اعْتذرَ إلى من يقبلُ العُذْر، فتابَ الله عليهِ وعفا عنْه، ومن أصرَّ على الإساءةِ ولم يعْتذرْ منها في الدُّنْيا فقد حقَّتْ عليهِ كلمةُ العذاب: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)﴾[غافر].

وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾[الروم].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧)﴾[التحريم]

«أي: قد ذهب وقْتُ الاعتذارِ وزالَ نفْعُه، فلم يبْقَ إلاَّ الجزاءُ على الأعْمال، وأنتم لم تُقدِّموا إلاَّ الكُفْرَ بالله، والتَّكْذيبَ بآياتِه، ومُحاربةَ رُسلِهِ وأوْليائه»[1].

«وقدْ عُرِّفتِ التَّوْبةُ في الشَّرْعِ بعِدَّةِ تعْريفات، والمدْلولُ الشَّرْعيُّ للتَّوْبةِ قريبٌ من المدْلولِ اللُّغويِّ»[2].

ومن أجْمعِ التَّعْريفاتِ قوْلُ الحافظِ ابنِ حجر: «التَّوْبةُ في الشَّرْع: ترْكُ الذَّنبِ لقُبحه، والنَّدمُ على فِعْله، والعزْمُ على عدمِ العوْد، وردُّ المظلمةِ إنْ كانتْ أوْ طلبُ البراءةِ من صاحبها، وهي أبْلغُ ضروبِ الاعتذار»[3].

ولَمَّا كان العبْدُ لا ينفكُّ عن ذنْبٍ يقْترفُه، علِمه أو جهِله، كان لزامًا عليه أن لا ينْفكَّ عن التَّوْبةِ، ولذلكَ قال ابنُ القيِّم: «منْزِلةُ التَّوْبةِ أوَّلُ المنازل، وأوْسطُها، وآخِرُها، فلا تُفارقُ العبدَ السَّالك، ولا يزالُ فيهِ إلى المماتِ، وإنِ ارْتحلَ إلى منْزِلٍ آخرَ ارْتحلَ به، واسْتَصْحبَهُ معهُ ونزلَ به، فالتَّوْبةُ هي بدايةُ العبْدِ ونهايتُه، وحاجتُهُ إليها في النِّهايةِ ضروريَّة، كما أنَّ حاجتَهُ إليْها في البدايةِ كذلك.

(١) تيسير الكريم المنان (٧/٤٢٣).

(٢) التوبة وظيفة العمر (١٠).

(٣) فتح الباري (١١/١٠٣).

وقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)﴾[النور]، وهذه الآيةُ في سورةٍ مدنيَّة، خاطب الله بها أهْلَ الإيمانِ وخيارَ خلْقهِ أن يتوبوا إليهِ بعد إيمانهم وصبرِهم وهجْرتهم وجِهادِهم، ثمَّ علَّقَ الفلاحَ بالتَّوْبةِ تعليقَ السَّببِ بسببِه، وأتى بأداةِ «لعلَّ» المُشْعرةِ بالتَّرجِّي، إيذانًا بأنَّكم إذا تُبتُم كنتُم على رجاءِ الفلاح، فلا يرْجو الفلاحَ إلاَّ التَّائبون، جعلنا الله منهم، ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)﴾[الحجرات].

فقسم الله تعالى العبادَ إلى تائبٍ وظالم، وما ثَمَّ قسمٌ ثالثٌ البتَّة، وأوْقع اسْمَ «الظَّالم» على من لم يتب، ولا أظْلمَ منه، لجهْلهِ بربِّهِ وبحقِّه، وبعَيْبِ نفسهِ وآفاتِ أعمالِه، فإنَّ الإنسانَ كلَّما عرفَ ربَّهُ عظَّمهُ وعظَّم حقَّه، ورأى أنَّ ما يقومُ بهِ من حقِّ الله دونَ دونَ ما وجبَ لهُ عليه، فهو كثيرُ الاستغْفارِ دائمُ التَّوْبة.

ولما كان النبيُّ ﷺ أعْرفَ الخلْقِ بالله وحُقوقهِ وعظمتهِ وما يسْتحقُّه من العبوديَّة، كان ﷺ أقْومَهم بالعُبوديَّةِ وحُقوقِها، وأكْثرَهم اسْتِغْفارًا وتوْبة، ففي الصحيحِ عنه ﷺ أنَّهُ قال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[1].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، مِائَةَ مَرَّةٍ»[2].

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللهمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ»[3] »[4].

---

(١) م(٢٧٠٢-٤٢-/ ٢٠٧٥/ ٤).

(٢) صحيح: [ص.جه: ٣٠٧٥]، جه(٣٨١٤/ ١٢٥٣/ ٢)، د(١٥٠٢/ ٣٧٩/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ(٨١٧/ ٢٩٩/ ٢)، م(٤٨٤/ ٣٥٠/ ١)، د(٨٦٣/ ١٣٠/ ٣)، ن(٢١٩/ ٢)، جه(٨٨٩/ ٢٨٧/ ١).

(٤) تهذيب مدارج السالكين (١٢١).

ولَمَّا كان الصَّحابةُ أعْلَمَ النَّاسِ بالله بعْدَ رسولِ الله ﷺ فقد كانوا أكْثرَ الخلْقِ عِبادةً لله، وألْزمَهم للتَّوْبةِ والاستِغْفار، كما حكى الله عنهم أنَّهم ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(١٨) ﴾[الذاريات]، وقال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ(١٧) ﴾[آل عمران]، فهم يسْتغْفرونَ الله لما يشْعرونَ بهِ من التَّقْصيرِ في حقِّه مع قيامِهم بالواجباتِ وترْكهِمُ المُحرَّمات، وهذا أمْرٌ لا يفْطِنُ لهُ إلاَّ الصَّادقون، «وكثيرٌ من النَّاسِ لا يسْتحْضِرُ عندَ التَّوْبةِ إلاَّ بعْضَ المعاصي المُتَّصِفاتِ بالفاحشَةِ أوْ مُقدِّماتِها، أوْ بعْضَ الظُّلم باللِّسانِ أو اليد، وقد يكونُ ما تركهُ من المأمورِ الذي يجِبُ عليهِ في باطنِهِ وظاهرِهِ من شُعَبِ الإيمانِ وحقائقِهِ أعْظمَ ضررًا عليهِ ممَّا فعلهُ من بعْضِ الفواحش، فإنَّ ما أمرَ الله به منْ حقائقِ الإيمانِ التي يصيرُ بها العبْدُ من المؤمنينَ حقًّا أعْظمُ نفْعًا من نفْعِ ترْكِ بعْضِ الذُّنوبِ الظَّاهرة، كحُبِّ الله ورسولِه، فإنَّ هذا أعْظمُ الحسناتِ الفِعْليَّة»[١]، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمون ﴿ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ(١٢٦) ﴾[التوبة].

وكثيرٌ من النَّاسِ غرَّتْهمُ الحياةُ الدُّنيا وغرَّهم بالله الغرور، « فهم يُدْركونَ أخْطاءهم، ويعْلمونَ حُرْمةَ ما يقعونَ فيه، ولكنَّهم يؤجِّلونَ التَّوْبة، ويُسوِّفونَ فيها، فمنهم من يُؤخِّرها إلى أنْ يتخرَّج، ومنهم من يُؤخِّرها إلى أن يتزوَّج، ومنهم من يُؤخِّرها إلى أن يُحالَ على المعاش، وهذا خطأٌ عظيم، لأنَّ التَّوْبةَ واجبةٌ على الفوْر، وأوامرُ الله ورسولِهِ لا تؤخَّر، بل تجبُ المُبادرةُ بها فوْرًا مالم يقم دليلٌ على جوازِ تأخيرها، فتأخيرُ التَّوْبةِ ذنْبٌ يحْتاجُ إلى توْبة»[٢].

قال الغزاليُّ: « أمَّا وُجوبُها على الفوْرِ فلا يُستَرابُ فيه، إذْ معرفةُ كونِ المعاصي مُهلِكاتٌ من نفْسِ الإيمان، وهو واجبٌ على الفوْر»[٣].

(١) مجموع الفتاوى (٣٢٩/١٠).

(٢) التوبة وظيفة العمر (٤٣).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٧).

وقال ابنُ القيِّم: « المُبادرةُ إلى التَّوْبةِ من الذَّنْبِ فرْضٌ على الفوْر، ولا يجوزُ تأخيرُها، فمتى أخَّرها عصى بالتَّأخير، فإذا تابَ منَ الذَّنْبِ بقيَ عليهِ توْبةٌ أخرى، وهي توْبتُهُ من تأخيرِ التَّوْبة، وقلَّ أن تخْطُرَ هذهِ ببالِ التَّائب، بل عنْدهُ إذا تابَ من الذَّنْبِ لم يبقَ عليهِ شيءٌ أخر، وقد بقيَ عليهِ التَّوْبةُ من تأخيرِ التَّوْبة»[1].

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران]، « أي: إذا صدر منهم ذنبٌ أتْبعوهُ بالتَّوْبةِ والاستغْفار، كما في الحديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَبْدًا أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِره، فَقَالَ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا قَالَ: أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[2].

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ ثُمَّ يُصَلِّي ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلاَّ غَفَرَ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ [آل عمران]»[3]، أي: تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب، ولم يستمرُّوا على المعصية ويُصرُّوا عليها غيرَ مُقلِعينَ عنها، ولو تكرَّر منهم الذَنبُ تابوا منه»[4].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾[النساء].

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (١٥٧).

(٢) متفق عليه: خ(٧٥٠٧/ ٤٦٦/ ١٣)، م(٢٧٥٨/ ٢١١٢/ ٤).

(٣) حسن: [ص.ت:٣٠٠٦]، ت(٤٠٩٢/ ٢٩٦/ ٤)، جه(١٣٩٥/ ٤٤٦/ ١).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤٠٦و٤٠٧/ ١).

قال ابنُ رجب: « عملُ السُّوءِ إذا انفردَ يدْخلُ فيه جميعُ السَّيِّئاتِ صغيرُها وكبيرُها، والمُرادُ بالجهالةِ الإقْدامُ على السُّوءِ وإنْ علِمَ صاحبُهُ أنَّهُ سوء، فإنَّ كلَّ من عصى الله فهو جاهل، وكلُّ من أطاعهُ فهو عالم، كما قيلَ: كفى بخشْيةِ الله عِلما، وكفى بالاغترارِ بالله جهْلاً. وأمَّا التَّوْبةُ من قريبٍ فالجمْهورُ على أنَّ المُرادَ بها التَّوْبةُ قبلَ الموْت، فالعُمرُ كلُّهُ قريب، ومن تابَ قبلَ الموْتِ فقد تابَ من قريب، ومن ماتَ ولم يتُبْ فقد بَعُد كلَّ البُعْد»[1].

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤) ﴾[سبأ].

قال ابنُ كثير: « يقولُ تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى ﴾ يا نبيَّنا إذْ فزعَ هؤلاءِ المُكذِّبونَ يوْمَ القيامةِ ﴿ فَلَا فَوْتَ ﴾: أي لا مفرَّ لهم ولا وَزَرَ لهم ولا ملْجأ ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لم يُمكَّنوا أنْ يُمعِنوا في الهرب، بل أُخِذوا من أوَّلِ وهْلة، ﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي: يومَ القيامة ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا (٤٧) ﴾[النور] ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي كيف لهم تعاطي الإيمانِ وقد بعُدوا عن محلِّ قبولِهِ منهم، ولكن بعدَ مصيرِهم إلى الدَّارِ الآخرةِ لا سبيلَ لهم إلى قبولِ الإيمان، كما لا سبيلَ إلى حُصولِ الشَّيءِ لمن يتناولُهُ من بعيد، ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ قال السُّدِّيُّ: وهي التَّوْبة»[2]،« وعن عِكرمةَ في قوْله تعالى: ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾، قال: إذا قيل لهم توبوا قالوا سوْف»[3]، وقد قيلَ « إنَّ أكثرَ صِياحِ أهلِ النَّارِ: واحسْرتاهُ من سوْف»[4].

(١) لطائف المعارف (٣٨٠و٣٨١) باختصار.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥٤٤و٥٤٥/ ٣) باختصار.

(٣) التوبة وظيفة العمر (٤٤).

(٤) مختصر منهاج القاصدين (٢٦٧).

فعلى من كانَ يحْذرُ الآخرةَ ويرْجو رحْمةَ ربِّه أن يُبادرَ بالتَّوْبةِ والإنابة، وأن لا يغْترَّ بإمْهالِ الله، فإنَّ الإمْهالَ ليسَ إهْمالاً، وإنَّما هو لإقامةِ الحُجَّة، فإن بادرَ العبْدُ بالتَّوْبةِ واغتنمَ حياتَهُ قبلَ موْتِه تابَ الله عليه، وإن سوَّف وأهْمل، وتأنَّى وتأخَّر، حيلَ بيْنهُ وبيْنَ ما يتمنَّى، قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا(٥٨) ﴾[الكهف].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ «إِنَّ الله لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. قَالَ ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢) ﴾[هود]»(١).

وقد أمر الله تعالى عبادَه باغتنامِ الأوْقاتِ والمُبادرة بالخيراتِ قبلَ الفوات، فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) ﴾[الأنفال]، فمن تمكَّن من الخيرِ ثمَّ تركهُ لم يُمكِّنْهُ الله منه بعد ذلكَ عُقوبةً له على تركِهِ وهو متمكِّنٌ منه، كما قال تعالى:﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ(١١٠) ﴾[الأنعام].

فيا عبادَ الله! توبوا إلى الله واستغفروه، فإنَّ التَّوْبةَ هي سببُ سعادةِ الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى الله جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣١) ﴾[النور]، والفلاحُ هو الفوْزُ والنَّجاح، وذلك من أكبرِ أسبابِ السَّعادةِ في الدُّنيا والآخرة.

توبوا إلى الله واستغفروه يُؤْتِكم ربُّكم في الدُّنيا ما تشتهونَ من المالِ والولد، كما حكى سُبحانه عن نوحٍ عليه السلام أنَّهُ قال لقومه: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(١٢) ﴾[نوح].

---

(١) متفق عليه: خ(٤٦٨٦/ ٣٥٤/ ٨)، م(٢٥٨٣/ ١٩٩٧/ ٤)، ت(٥١١٠/ ٣٥١/ ٤)، جه(٤٠١٨/ ١٣٣٢/ ٢).

توبوا إلى الله واستغفروه يُمدِدْكم ربُّكم بالصحَّةِ والعافية، والقوَّةِ الماديَّة، كما حكى سُبحانه عن هودٍ عليه السلام أنَّهُ قال لقوْمه: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ(٥٢) ﴾[هود].

توبوا إلى الله واستغفروه يُحِبَّكُمُ الله ويغفرْ لكم ذُنوبكم، كما حكى تعالى عن شُعيْبٍ عليه السلام أنَّ قال لقوْمه: ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ(٩٠) ﴾[هود] «أي لمن تابَ وأناب، يرْحمُهُ فيغْفرُ له، ويتقبَّلُ توْبتَه ويُحِبُّه»(١)، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المتَطَهِّرِينَ(٢٢٢) ﴾[البقرة]

توبوا إلى الله واستغفروه يمحو خطاياكم ويُبدِّلْ سيِّئاتِكم حسنات، كما قال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا(٧٠) ﴾[الفرقان].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ لَوْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ. قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ الله! قَالَ: الَّذِينَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»(٢).

توبوا إلى الله واستغفروه يُدْخِلْكُمُ الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِي الله النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٨) ﴾[التحريم].

واعلموا عبادَ الله! «أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٣).

---

(١) تيسير الكريم المنان (٣/ ٤٥١).

(٢) حسن: [س.ص:٢١٧٧]، ك(٢٥٢/ ٤).

(٣) م(٢٧٥٩/ ٢١١٣/ ٤).

وفي الحديثِ القُدُسِيِّ أنَّ الله تعالى قال: « **يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»[1]، وهذا ترْغيبٌ عظيمٌ من الله تعالى لعباده المسْرفينَ الذينَ يُخطئونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، يُرغِّبُهم ربُّهم في التَّوْبةِ ويَعِدُهم أن يغْفرَ لهم، فلا تقْنطوا من رحْمةِ الله، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**(٥٣)﴾[الزمر]، فمهْما عظُم الذَّنْبُ فعفْوُ الله أعْظم، فبادروا بالتَّوْبةِ ولا يفتتنَكمُ الشَّيْطانُ باليأسِ ﴿ **إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**(٨٧)﴾[يوسف].

هذا، « وإنَّ من الأخْطاءِ الشَّائعةِ أنَّهُ إذا تحدَّثَ مُتحدِّثٌ عن التَّوبةِ تبادرَ إلى الذِّهْنِ توْبةُ الأفْرادِ فحسْب، أمَّا توْبةُ الأُمَّةِ بعامَّةٍ فقلَّ أن تخْطُرَ ببالٍ، وهذا من الأخطاءِ في بابِ التَّوْبةِ، ذلك أنَّ سُنَّتَهُ عزَّ وجلَّ في الأفرادِ وهي مغفرتُهُ للتائبينَ وعفْوُهُ عن المُذْنبين، هيَ هيَ سُنَّتُهُ سُبحانهُ في الأممِ والشُّعوب، فالأمَّةُ التي تضلُّ الطَّريقَ وتنْحرفُ عن سواء السَّبيل، ثمَّ تعودُ إلى طريقِ الرَّشادِ وتصْدُقُ في التَّوْبةِ والإنابةِ إلى ربِّ العباد، يفْتحِ الله لها، ويرْفعُ من شأْنها، ويُعيدُها إلى عزَّتِها ومجْدِها، ويُنقذها من وهْدتِها التي انحدرتْ إليها، ويُنجيها من الخُطوبِ التي تُحيطُ بها، نتيجةَ الذُّنوبِ التي ارْتكبتْها، والمُنكراتِ التي أشاعتْها، من ربًا ومُجون، وتبرُّجٍ وسُفور، وفسْقٍ وشِرْك، وبدعٍ ما أنْزلَ الله بها من سُلطان، ونحْوِ ذلكَ ممَّا هو مؤْذِنٌ بالعقُوبةِ وحُلولِ اللعْنة. فإذا تابتْ إلى ربِّها متَّعها الله بالحياةِ السعيدة، وجعلَ لها الصَّوْلةَ والدَّولة، ورزقها الأمْنَ والأمان، ومكَّنَ لها في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**(٥٥)﴾[النور].

---

(١) م(٢٥٧٧/١٩٩٤/٤).

وأكْبرُ دليلٍ على أهمِّيَةِ توْبةِ الأمَّةِ توْبةً جماعيَّةً قوْلُهُ تعالى: ﴿ **فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الحيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**(٩٨) ﴾[يونس]، ومعْنى الآيةِ -كما يقولُ المفسِّرون-: أنَّ قوْمَ يونُسَ عليه السلام لَمَّا أظلَّهمُ العذابُ وظنّوا أنَّهُ قد دنا منهم، وأنَّهم فقدوا يُونُسَ، قذفَ الله في قلوبهمُ التَّوْبة، وفرَّقوا بيْنَ كلِّ أنثى وولدِها، وعجُّوا إلى الله أربعينَ ليلة، أي رفعوا أصْواتهم بالتلبيةِ والدُّعاء، فلمَّا علِمَ الله منهم صِدْقَ التَّوْبةِ كشف عنهم العذاب وقال: ﴿ **وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**(٩٨) ﴾[يونس]، أي لم نُعاملْهم بالعُقوبة، فاسْتمْتعوا بالحياةِ الدُّنيا إلى حينِ مماتِهم وقْتَ انتِهاءِ أعْمارهم.

فما أحوجَ أمَّتنا اليوْمَ أن تعُجَّ إلى الله مُنيبةً تائبةً ليرْضى عنها ويرْفعَ عنها ما هي فيهِ من الذِّلَّةِ والمهانةِ والتَّبعيَّةِ لأعْدائها»[1].

إنَّ ممَّا يجبُ أن لا يغيبَ عن عاقلٍ أنَّ سُننَ الله لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّل، ولا تُحابي ولا تُجامل، فما نزلَ بقوْمٍ بلاءٌ إلاَّ بذَنْب، ولا رُفِعَ عنْ قوْمٍ بلاءٌ إلاَّ بتوْبة، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**(١١) ﴾[الرعد]، فإذا كانوا على ما يُحبُّ الله ثمَّ انتقلوا عنهُ إلى ما يكْره، انتقلَ الله بهم عمَّا يُحبونَ إلى ما يكْرهون، وإذا كانوا على ما يكرهُ ثمَّ انتقلوا عنهُ إلى ما يُحبُ، انتقلَ الله بهم عمَّا يكْرهونَ إلى ما يُحبُّون، ﴿ **إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**(٧) ﴾[الإسراء].

نسألُ الله أن يُردَّ المسلمينَ إلى دينهِ ردًا جميلاً، ﴿ **وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ**(٤) **بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ**(٥) **وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**(٦) ﴾[الروم].

❑ ❑ ❑

---

(١) التوبة وظيفة العمر (٦٢و٦٣).

وجوب الإيمان باليوم الآخر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِي جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ** »[1].

تحدَّثْنا عن أشْراطِ السَّاعة، وعرفْنا أنَّ من آخرِها ريحًا طيِّبةً باردةً يبْعثُها الله تعالى من قِبَلِ الشَّامِ تقْبضُ روحَ كلِّ عبْدٍ مؤمنٍ، ويبْقى في الأرضِ شرارُ أهْلها عليهم تقومُ السَّاعة.

فكيْفَ تقومُ السَّاعة، وماذا يصْحبُها من الأهْوال والكُروب، وماذا يمونُ بعد خروجِ النَّاسِ ﴿ **مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**(٤٣) ﴾[المعارج]، وما هي المنازلُ التي ينزِلونها حتى يتبوَّأَ أهلُ الجنَّةِ منازلَهم في الجنَّة، وأهلُ النَّارِ منازلَهم في النَّار؟ إذ أنَّ كلَّ هذا ممَّا يجبُ على المسلمِ الاهتِمامُ بهِ واعتِقادُهُ ليلْقى الله مُسْتعِدًّا للقائه، فيفوزَ برضوانِ الله والجنَّة.

ولكن قبلَ أن نأْخُذَ في سرْدِ الوقائع والأحْداثِ التي تكونُ من الموْتِ إلى نِهايةِ المطاف، ينبغي أوَّلاً أن نتكلَّمَ عن الإيمانِ باليوْمِ الآخرِ، ومنزلتهِ في الدِّين، وأثرِهِ في سُلوكِ الفرْدِ والمجتمع.

فنقولُ وبالله التَّوْفيق: إنَّ الإيمانَ باليوْمِ الآخرِ من أهمِّ أرْكانِ الإيمانِ بعدَ الإيمانِ بالله عزَّ وجل، فأرْكانُ الإيمانِ ستَّةٌ كما هو معْلومٌ من الدِّينِ بالضَّرورة، وهي كما عدَّها النبيُّ ﷺ : « **أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ** »[2]، لكنَّ أهمَّها بعدَ الإيمانِ بالله عزَّ وجلَّ الإيمانُ باليوْمِ الآخر، ولذلكَ قدَّمه الله في الذِّكْرِ على ما سواه،

(١) متفق عليه: خ(٦٠١٨/ ٤٤٥/ ١٠)، م(٤٧/ ٦٨/ ١)، د(٥١٣٢/ ٦٢/ ١٤).

(٢) م(٨/ ٣٦/ ١)، ت(٢٧٣٨/ ١١٩-١٢١/ ٤)، د(٤٦٧٠/ ٤٥٩-٤٦٤/ ١٢)، جه(٦٣/ ٢٤و٢٥/ ١).

فقال: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالملائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(١٧٧) ﴾[البقرة].

وكثيراً ما يُقْرنُ الله تعالى الإيمانَ باليَوْمِ الآخرِ بالإيمانِ بالله تعالى في القرآنِ الكريم، وقد تكرَّرَ ذلكَ في سورة البقرةِ وحدها في خمسةِ مواضع: قال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالملائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ(١٧٧) ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ(٦٢) ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ وَالمطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(٢٢٨) ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالمعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(٢٣٢) ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(٢٦٤) ﴾[البقرة].

فالإيمانُ باليوْمِ الآخرِ من أهمِّ أركانِ الإيمانِ بعدَ الإيمانِ بالله عزَّ وجلَّ، وما جادل المُشركونَ في شيءٍ ممَّا دعاهمُ النبيُّ ﷺ إلى الإيمانِ بهِ كما جادلوا في الإيمانِ بالله واليوْمِ الآخر، أمَّا جدالُهم في الإيمانِ بالله وحْده فقد كانوا ألِفوا تعدُّدَ الآلهة، فلما قال لهم النبيُّ ﷺ: ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾، اتَّهموهُ بالجُنون، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ(٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ(٣٦) ﴾[الصافات].

وكذلكَ اتَّهموهُ بالجُنونِ لَمَّا قال لهم إنَّكم إلى الله راجعون، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ(٧) أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ(٨) ﴾[سبأ].

وأخذوا يُثيرونَ الشُّبهاتِ حوْلَ البعْثِ بعْدَ الموت: ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ(٣) ﴾[ق].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَؤُلاَءِ لَيَقُولُونَ(٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ(٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣٦) ﴾[الدخان].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٥) قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٢٦) ﴾ [الجاثية].

وبالغوا في الإنكارِ إلى درجةِ القسَمِ على أن لا يُبْعثوا، كما قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ(٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ(٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٤٠) ﴾[النحل].

فلمَّا أقْسموا أن لنْ يُبْعثوا أقْسمَ الله أنَّهُ باعِثُهم لا محالة، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا(٦٦) أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا(٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا(٦٨) ﴾[مريم].

وأمر رسولَهُ أن يُقْسِمَ بربِّه على أنَّ البعْثَ حقٌّ، فقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ(٥٣) ﴾[يونس].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ (٣) ﴾[سبأ].

وقال تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾[التغابن].

فمن كذَّبَ الله ورسولَهُ بعدَ ذلك القسمِ المتكرِّرِ فهو كافرٌ خالدٌ مُخلَّدٌ في النارِ أبدًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾[الرعد].

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) ﴾[الفرقان].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ﴾[الإسراء].

ولمَّا كان الله تعالى يُحبُّ العُذْرَ فقدْ أكْثَرَ من ذكرِ الأدلَّةِ والبراهينِ على إمكانِ البعْثِ، وأنَّ الله يُحْيي الموْتَى ويبْعثُ من في القبور: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ (٤٢) ﴾[الأنفال].

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾[يس].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ «أَنَّ العَاصِ بْنَ وَائِلٍ أَخَذَ عَظْمًا مِنَ الْبَطْحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: أَيُحْيِي الله هَذَا الْعَظْمَ بَعْدَ مَا رَمَّ؟ فَقَالَ ﷺ: نَعَمْ، يُمِيتُكَ ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ، وَنَزَلَتِ الآيَاتُ مِنْ آخِرِ يس»(١).

فأنكرَ الله تعالى على ذلكَ الكافرِ كُفْرَهُ بالبعْثِ بعدَ الموْت، وذكَرهُ بدليلَيْنِ من دلائلِ إمكانِ البعث:

الأوَّل: أنَّ الله خلقَ الإنسانَ أوَّلَ مرَّةٍ من سُلالةٍ من ماءٍ مهين، فلن يَعْجزَ عن إعادةِ عِظامهِ وهي رميم.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فمن تذكَّرَ النَّشأةَ الأولى آمنَ بالثَّانية، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾[الواقعة].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠)﴾[القيامة].

فمن أنشأَ أوَّلَ مرَّةٍ قادرٌ -بلا شكٍ- أن يُنْشئ النَّشْأَةَ الآخِرة، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)﴾[الروم].

---

(١) صحيح: الصحيح المسند من أسباب النزول [١٢٩]، ك(٢/٤٢٩).

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلمٍ شَيْئًا(٥)﴾[الحج].

وقد بيَّن الله تعالى أطوارَ خلقِ الإنسانِ من بدايتِهِ إلى نهايته، وجعلَ البعْثَ بعدَ الموْتِ أخرَ الأطوار، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ(١٢)ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(١٣)ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءاخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ(١٥)ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ(١٦)﴾[المؤمنون].

عَنْ بُسْرِ بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ قَالَ: بَزَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَفِّهِ، ثُمَّ وَضَعَ أُصْبُعَهُ السَّبَّابَةَ وَقَالَ: «يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: أَنَّى تُعْجِزُنِي ابْنَ آدَمَ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، فَإِذَا بَلَغَتْ نَفْسُكَ هَذِهِ - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ - قُلْتَ أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ»(١).

الدَّليلُ الثَّاني: أنَّ الله خلقَ السَّمواتِ والأرضَ وهما أكبرُ من خلقِ النَّاس، فمن قدرَ على خَلْقِهما فلن يعْجزَ عن إعادةِ الإنسانِ بعدَ موته.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾.

وقد تكرَّرَ هذا الدَّليلُ في مواضع، منها قولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الموْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٣)﴾[الأحقاف].

---

(١) حسن: [ص.جه:٢١٨٨]، جه(٢٧٠٧/٩٠٣/٢)، ك(٥٠٢/٢).

وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا(٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا(٩٩) ﴾[الإسراء].

فهذانِ دليلانِ من أدلَّةِ إمكانِ البعْث.

الدليلُ الثَّالث: إحْياءُ الأرضِ الميْتَةِ بعد موْتها دليلٌ على إمكانِ إحْياءِ النَّاسِ بعد موْتهم.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الموْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩) ﴾ [فصلت].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الموْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ(٧) ﴾[الحج].

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(١١) ﴾[الزخرف].

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحصِيدِ(٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ(١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الخُرُوجُ(١١) ﴾[ق].

الدليلُ الرَّابع: أنَّ الإنسانَ يموتُ ويحْيى في اليوْمِ الواحدِ أكثرَ من مرَّة، فإنَّهُ إذا نامَ مات، وإذا استيْقظَ فقد بُعِث، وهذا دليلٌ على إمكانِ البعْثِ الأكْبرِ بعد الموْت الأكْبر.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٦٠) ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(٤٢)﴾[الزمر].

ولذلك «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ قَالَ: بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا. وَإِذَا قَامَ قَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»(١).

فهذهِ أَرْبعةُ أدلَّةٍ كلُّها تدلُّ على إمكانِ البعث: ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ(٧)﴾ [التغابن].

ثمَّ إنَّ البعثَ بعد الموتِ قد وقع في هذه الحياةِ الدُّنيا مرَّات، ذكرها الله تعالى في سورةِ البقرة، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ(٥٥)ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(٥٦)﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ(٧٢)فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(٧٣)﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ(٢٤٣)﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٥٩)﴾[البقرة].

---

(١) خ(٦٣١٢/ ١١٣/ ١١)، ت(٣٤٧٧/ ١٤٦/ ٥)، د(٥٠٢٨/ ٣٩١/ ١٣)، جه(٣٨٨٠/ ١٢٧٧/ ٢) مقتصرا على دعاء الاستيقاظ فقط.

ثمَّ إنَّ من المشهورِ من مُعْجزاتِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السلام أنَّهُ كانَ يُحيي الموْتى بإذْنِ الله، فلا غرابةَ إذنْ في أنْ يُحْيي الله الموتَى يوْمَ القيامة: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى(٣١)﴾[النجم]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(٧)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(٨)﴾[الزلزلة].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ: فَإِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ وَاذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَالله لَئِنْ قَدَرَ الله عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَأَمَرَ الله الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ؟ قَالَ مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، فَغَفَرَ لَهُ»(١).

وصدق الله العظيم حيثُ قال: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ(٣)بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ(٤)﴾[القيامة].

هذا، وإنَّ للإيمانِ باليوْمِ الآخرِ تأثيرًا عظيمًا في سُلوكيَّاتِ الإنْسان، فالذي يُؤمنُ بالله واليوْمِ الآخرِ مُحْسِنٌ فيما بيْنهُ وبيْنَ الله، ومُحْسِنٌ فيما بيْنَهُ وبيْنَ النَّاس طمعًا فيما وعدَ الله به المُحْسنين، حيْثُ قال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٦)﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(١٥)ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(١٦)كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١٧)وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(١٨)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالمحْرُومِ(١٩)﴾[الذاريات].

فمن إحْسانِهم فيما بيْنَهم وبيْن الله قيامُ الليل طمعًا في رحْمةِ الله وخوْفًا من عذابه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ(٩)﴾[الزمر].

---

(١) متفق عليه: خ(٧٥٠٦/ ٤٦٦/ ١٣)، م(٢٧٥٦/ ٢١٠٩/ ٤).

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(١) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا(٢) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(٣) ﴾[الفرقان].

ومن إحْسانهم فيما بيْنهم وبيْنَ النَّاس إيتاءُ الزكاة، وإطْعامُ الطَّعام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا(٤) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ الله يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا(٥) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا(٦) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا(٧) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا(٨) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا(١٠) فَوَقَاهُمُ الله شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا(١١) ﴾ [الإنسان].

وقد كان النبيُّ ﷺ يسْتثيرُ اسْتِجابةَ أصْحابهِ لما يدعوهم إليْهِ من الخير بتذْكيرهم بالله واليومِ الآخِر، فكان يقول: « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ»(١).

قال الحافظُ ابنُ حجر: «المرادُ بقوْلِهِ«يؤمن» الإيمانُ الكامل، وخصَّهُ بالله واليومِ الآخِر إشارةً إلى المبدأِ والمعاد، أي من آمن بالله الذي خلقهُ، وآمن بأنَّهُ سيُجازيه بعملِهِ فلْيفعل الخصالَ المذْكورات»(٢).

أمَّا الذي لا يؤمنُ بالله واليومِ الآخِر فمُسيءٌ فيما بيْنهُ وبيْنَ الله، ومُسيءٌ فيما بيْنهُ وبيْن النَّاس، لأنَّهُ غيْرُ مؤمنٍ بالحسابِ والجزاء، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(٢) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ(٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ(٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ(٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ(٧) ﴾[الماعون].

---

(١) سبق أول الموضوع.

(٢) فتح الباري (١٠/٤٤٦).

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ(٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ(٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ(٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ(٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨) ﴾ [المدثر].

فالإيمانُ باليوْمِ الآخرِ هو الذي يُعينُ على الاسْتجابةِ لرسولِ الله فيما يدعو إليه، والذي لا يؤمنُ بالله واليوم الآخرِ لا يسْتجيبُ لرسولِ الله فيما يدْعوهُ إليْه، بل يهْربُ منهُ ويفرُّ، كما قال تعالى لرسولِهِ ﷺ : ﴿ عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ(٤٣) لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَالله عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ(٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ(٤٥) ﴾[التوبة].

والإيمانُ بالله واليومِ الآخِرِ هو الذي يحْمِلُ صاحِبَهُ على التَّأسِّي برسولِ الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو الله وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ الله كَثِيرًا(٢١) ﴾[الأحزاب].

والإيمانُ بالله واليومِ الآخرِ يحملُ على إخْلاصِ العملِ لله، وعدمُ الإيمانِ بالله واليومِ الآخرِ يحْملُ على النِّفاقِ والرِّياءِ، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي الله وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ(١٣٩) ﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً(١٤٢) ﴾[النساء].

والشَّاهدُ أنَّ الإيمانَ بالله واليومِ الآخرِ أكبرُ ما يُعينُ الإنسانَ على كبْحِ جِماحِ نفسِهِ وامتلاكِ زِمامِ هواه، ولذلكَ كان عُمرُ يقول: لوْلا القيامةُ لكان غيْرُ ما ترونْ، وقد أنكر الله تعالى على المُطفِّفينَ الذين يبْخسون النَّاسَ أشْياءَهم ثمَّ قال: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾ [المطففين].

فيا عبادَ الله! اعلموا أنَّكم ميِّتون، وبعْدَ المَوْتِ مبْعُوثون، وبأعْمالِكم مجْزيون، ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ [الكهف].

❑ ❑ ❑

الموت وسكراته

عَنْ هَانِئٍ مَوْلَى عُثْمَانَ قَالَ: كَانَ عُثْمَانُ إِذَا وَقَفَ عَلَى قَبْرٍ بَكَى حَتَّى يَبُلَّ لحيَتَهُ، فَقِيلَ لَهُ: تُذْكَرُ الجنَّةُ وَالنَّارُ فَلاَ تَبْكِي وَتَبْكِي مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « إِنَّ القَبْرَ أَوَّلُ مَنْزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ نَجا مِنْهُ فَما بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لم يَنْجُ مِنْهُ فَما بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ. وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلاَّ القَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ»[1].

تحدَّثْنا عن وُجوبِ الإيمانِ باليوْمِ الآخرِ وأثرِهِ في سلُوكِ الفرْدِ والمجْتمع، فما معنى الإيمانِ باليوْمِ الآخر؟

« معْناهُ بصورةٍ إجْماليَّة: الإيمانُ بكلِّ ما أخْبرَ بِهِ الله عزَّ وجلَّ في كتابِه، وأخْبرَ بِهِ رسُولُهُ ﷺ ممَّا يكونُ بعْدَ الموْت، من فِتنةِ القبْر، وعذابِهِ ونعيمِه، والبعثِ، والحشْر، والصُّحف، والحساب، والميزان، والحوْض، والصِّراط، والشَّفاعة، والجنَّة، والنَّار، وما أعدَّ الله لأهْلِهما جميعًا»[2].

قال الإمامُ الطَّحاويُّ: « ونُؤمنُ بمَلكِ الموْتِ الموكَّلِ بقبضِ أرواحِ العالمين، وبعذابِ القبْرِ لمنْ كان لهُ أهلاً، وسُؤالِ مُنْكرٍ ونكيرٍ في قبرِهِ عن ربِّهِ ودينِهِ ونبيِّه، على ما جاءتْ بِهِ الأخْبارُ عن رسولِ الله ﷺ وعنِ الصَّحابةِ رِضْوانُ الله عليهم أجْمعين. والقبْرُ روْضةٌ من رِياضِ الجنَّة، أوْ حُفْرةٌ من حُفرِ النِّيران. ونُؤمنُ بالبعْثِ وجزاءِ الأعْمالِ يوْمَ القيامة، والعرْضِ والحساب، وقراءةِ الكتاب، والثَّوابِ والعقاب، والصِّراطِ والميزان، والجنَّةُ والنَّارُ مخلوقتان، لا تفْنيانِ أبدًا ولا تبيدان، وأنَّ الله تعالى خلقَ الجنَّةَ والنَّارَ وخلقَ لهما أهْلاً، فمنْ شاء منهم إلى الجنَّةِ فضْلاً منه، ومن شاء منهم إلى النَّارِ عدْلاً منه»[3].

---

(١) حسن: [ص.ت:٢٣٠٨]، ت(٢٤١٠/٣٧٩/٣)، جه(٤٢٦٧/١٤٢٦/٢).

(٢) الإيمان. نعيم ياسين (١١١).

(٣) العقيدة الطحاوية. تعليق الألباني (٥٠و٥١).

وقال الحكميُّ:

وبالمعادِ أيْقنْ بلا تردُّدِ ... ولا ادِّعاءِ علم بوقْتِ الموعدِ
لكنَّنا نُؤمنُ من غيْرِ امترا ... بكلِّ ما قدْ صحَّ عنْ خيْرِ الورى
من ذِكْرِ آياتٍ تكونُ قبلَها ... وهي علاماتٌ وأشْراطٌ لها
ويدْخلُ الإيمانُ بالموْتِ وما ... من بعدهِ على العبادِ حُتِّما
وأنَّ كُلاًّ مُقْعدٌ مسْئولُ ... ما الرَّبُّ ما الدِّينُ وما الرَّسولُ
وعنْدَ ذا يُثبِّتُ المهيْمنُ ... بثابتِ القوْلِ الذينَ آمنوا
ويُوقنُ المرْتابُ عنْدَ ذلك ... بأنَّما مورْدُه المهالك »[١].

فمن أوَّلِ ما يجبُ الإيمانُ به من اليوْمِ الآخرِ الإيمانُ بالموْتِ وسكراتِه، إنهُ هو المفْضي بالعبْدِ إلى منازلِ الآخرة، وهو السَّاعةُ الصُّغْرى.

« فساعةُ كلِّ إنْسانٍ موْتُه، وهي المشارُ إليْها بقوْلِهِ تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ(٣١) ﴾[الأنعام]، ومعْلومٌ أنَّ هذهِ الحسْرةَ تنالُ الإنْسانَ عنْدَ موْته»[٢].

« والإيمانُ بالموْتِ يتناولُ أُمورًا:

منها: تحتُّمهُ على من كان في الدُّنْيا من أهْلِ الأرضِ والسموات، من الإنسِ والجنِّ والملائكةِ وغيْرِهم من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(٢٧) ﴾[الرحمن].

(١) معارج القبول (٨٢و٩٩و١٠٧/ ٢).
(٢) المفردات (٢٤٨).

وقال لنبيِّه ﷺ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ[٣٠] ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ[٣١] ﴾[الزمر].

وقال لهُ أيضًا: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ[٣٤] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ[٣٥] ﴾[الأنبياء].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ[١١] ﴾[السجدة].

وفي الصَّحيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: « أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»[١].

ومنها: أنَّ كلاً لهُ اجلٌ محدود، وأمدٌ ممْدود، ينْتهي إليْه، لا يتجاوزُهُ ولا يقْصُرُ عنه، وقدْ علم الله تعالى جميعَ ذلكَ بعلمهِ الذي هو صِفتُه، وجرى القلم بأمْرِهِ يوْمَ خلقه، ثمَّ كتبهُ الملكُ على كلِّ أحدٍ وهو في بطْنِ أُمِّهِ بأمْرِ ربِّهِ عزَّ وجلَّ عنْدَ تخْليقِ النُّطْفة، في أيِّ مكانٍ يكونُ وفي أيِّ زمان، فلا يُزادُ فيه ولا يُنْقصُ منه، ولا يُغيَّرُ ولا يُبدَّلُ عمَّا سبقَ بهِ عِلمِ الله تعالى، وجرى بهِ قضاؤه وقدرُه، وأنَّ كلَّ إنْسانٍ ماتَ أوْ قُتِل، أوْ حُرقَ أوْ غرَق، أوْ بأيِّ حتْفٍ هلكَ بأجلِه، لم يسْتأْخرْ عنهُ ولم يسْتقْدِمْ طرْفةَ عيْن، وأنَّ ذلكَ السَّببَ الذي كانَ فيهِ حتْفُهُ هو الذي قدَّرهُ الله تعالى عليْه، وقضاهُ وأمْضاه، ولم يكُنْ لهُ بُدٌّ منه، ولا محيصَ عنه، ولا فِكاكَ ولا خلاص، وأنَّى؟ وكيفَ؟ وإلى أينَ؟ ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ[٣] ﴾[ص].

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلاً[١٤٥] ﴾[آل عمران].

وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ[٧٨] ﴾[النساء].

(١) خ(٧٣٨٣/ ٣٦٨و٣٦٩/ ١٣).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِالله غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُل إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لله يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلنَا هَاهُنَا قُل لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ القَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ(١٥٤) ﴾[آل عمران].

وقال تعالى: ﴿ قُل إِنَّ المَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٨) ﴾[الجمعة].

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ(٣٤) ﴾[الأعراف].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ(٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى الله مَوْلاَهُمُ الحَقِّ أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ(٦٢) ﴾[الأنعام].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ(١١) ﴾[فاطر].

وَعَنْ عَبْدِ الله قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ المصْدُوقُ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ الله مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعٍ: بِرِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَشَقِيٌّ، أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالله إِنَّ أَحَدَكُمْ أَوِ الرَّجُلَ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ ذِرَاعَيْنِ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»(١).

---

(١) متفق عليه: خ(٦٥٩٤/ ٤٧٧/ ١١)، م(٢٦٤٣/ ٢٠٧٦/ ٤)، ت(٢٢٢٠/ ٣٠٢/ ٣)، د(٤٦٨٣/ ٤٧٤/ ١٢)، جه(٧٦/ ٢٩/ ١).

ومنها: الإيمانُ بأنَّ ذلكَ الأجلَ المحْتومَ، والحدَّ المرْسومَ لانْتهاءِ كلِّ عمْرٍ إليْه، لا اطِّلاعَ لنا عليه، ولا عِلم لنا به، وأنَّ ذلكَ من مفاتيحِ الغيْبِ التي اسْتأثرَ الله تعالى بعلمها عن جميعِ الخلق، فلا يعْلمها إلاَّ هو، كما قال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلمهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلم مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلمهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٥٩) ﴾[الأنعام].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلم السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلم مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ(٣٤) ﴾[لقمان].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِي الله عَنْهمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ، لاَ يَعْلمهَا إِلاَّ الله: لاَ يَعْلم مَا فِي غَدٍ إِلاَّ الله، وَلاَ يَعْلم مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلاَّ الله، وَلاَ يَعْلم مَتَى يَأْتِي المطَرُ أَحَدٌ إِلاَّ الله، وَلاَ تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلاَ يَعْلم مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ الله»[١].

ومنها: ذِكْرُ العبْدِ الموْتَ وجعْلُهُ على بالِه، إذْ أنَّهُ الحائلُ بيْنَ العبْدِ وآمالِه، وهو المفْضي بهِ إلى أعْمالِه، وإلى الحسَنِ والقبيحِ من أقْوالِهِ وأفْعالِه، وإلى الجزاءِ الأوْفى من الحكَمِ العَدْلِ في شرْعِهِ وقدَرِه، وقضائِهِ ووَعْدِهِ ووعيدِه، فلا يُعاقبُ أحدًا بذنْبِ غيْرِه، ولا يهْضِمُهُ ذرَّةً من حَسَنِ أعْمالِه. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ يَعْنِي الموْتَ»[٢].

« قال العلماء: هذا كلامٌ مُخْتصرٌ وجيز، قدْ جمعَ التَّذْكرة، وأبْلغَ في الموْعظة، فإنَّ منْ ذكرَ الموْتَ حقيقةَ ذِكْرِهِ نغَّص عليهِ لذَّتَهُ الحاضِرة، ومنعهُ من تمنِّيها في المستقْبل، وزهَّدهُ فيما كان فيهِ يُؤمِّل، ولكنَّ النُفوسَ الرَّاكدة، والقُلوبَ الغافلة، تحْتاجُ إلى تطْويلِ الوُعَّاظ، وتزْويقِ الألفاظ، وإلاَّ ففي قوْلِهِ عليه السلام «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ يَعْنِي الموْتَ»، مع قوْلِهِ تعالى:

(١) خ(٤٦٩٧/ ٣٧٥/ ٨).

(٢) حسن صحيح: [ص.ت:٢٣٠٧]، ت(٢٤٠٩/ ٣٧٨و٣٧٩/ ٣)، جه(٤٢٥٨/ ١٤٢٢/ ٢)، ن(٤/ ٤).

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ(١٨٥)﴾ [آل عمران]، ما يكْفي السَّامعَ لهُ، ويشغلُ النَّاظرَ فيه، وكانَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ كثيرًا ما يتمثَّلُ بهذهِ الأبْيات:

لا شيءَ مِمَّا ترى تبقى بشاشتُهُ ... يبْقى الإلهُ ويفْنى المالُ والولدُ
لم تُغْنِ عن هُرْمُزٍ يوْمًا خزائنُهُ ... والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خلدوا
ولا سُليْمانُ إذْ تجْري الرِّياحُ لهُ ... والإنْسُ والجنُّ فيما بيْنها تردُ
أيْنَ الملوكُ التي كانتْ لعزَّتِها ... منْ كلِّ أوْبٍ إليْها وافدٌ يفِدُ
حوْضٌ هنالكَ موْرودٌ بلا كذبٍ ... لا بُدَّ منْ وِرْدِهِ يوْمًا كما وردوا »[١].

ومنها: وهو المقْصودُ الأعْظمُ التَّأهُّبُ لهُ قبْلَ نُزوله، والاسْتِعدادُ لما بعْدهُ قبْلَ حُصوله، والمبادرةُ بالعملِ الصَّالحِ والسَّعْيِ النَّافعِ قبلَ دُهومِ البلاءِ وحُلولِه، إذْ هو الفيْصلُ بينَ هذهِ الدَّارِ وبيْنَ دارِ القرار، وهو الفيْصلُ بيْنَ ساعةِ العملِ والجزاءِ عليه، والحدُّ الفارقُ بيْنَ أوانِ تقْديمِ الزَّادِ والقُدومِ عليه، إذْ ليسَ بعْدهُ لأحدٍ مُسْتعْتبٌ ولا اعْتذار، ولا زيادةٌ في الحسناتِ ولا نقْصٌ من السَّيِّئات، ولا حيلةٌ ولا افتداء، ولا دِرْهمٌ ولا دينار، ولا مقْعدٌ ولا منْزلٌ إلاَّ القبْر، وهو إمَّا روْضةٌ من رِياضِ الجنَّةِ أوْ حُفْرةٌ من حُفَرِ النَّار، إلى يوْمِ البعْثِ والجزاء، وجمْعِ الأوَّلينَ والآخرين، وأهلِ السمواتِ والأرَضين، في الموْقفِ الطَّويلِ بيْنَ يديْ القويِّ المتين: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(٦)﴾[المطففين]، الحكمِ العليم، المقسِطِ العدْلِ الحكيم، الذي لا يحيفُ ولا يجور، ولا يظْلم مثْقالَ ذرَّة: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٦)﴾[هود]، ثمَّ إمَّا نعيمٌ مُقيمٌ في جنَّاتِ النَّعيم، وإمَّا عذابٌ أليمٌ في نارِ الجحيم، فلكلِّ ظاعنٍ مقرٌّ، ولكلِّ نبأٍ مسْتقر، وسوْف تعلمون، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٠٠)﴾[المؤمنون].

(١) التذكرة (٨).

وهذا سُؤالهمُ الرَّجْعةَ عند الاحتضار، وكذلكَ يسْألونَ الرَّجْعةَ إذا وُقِفوا على ربِّهم للسُّؤال، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ المجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَل صَالحا إِنَّا مُوقِنُونَ(١٢) وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣) فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الخلدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٤)﴾[السجدة].

وكذلكَ يسْألونَ الرَّجْعةَ إذا وُقِفوا على النَّار، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنِينَ(٢٧) بَل بَدَا لهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لما نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(٢٨)﴾[الأنعام].

وكذلك يسْألون الرَّجْعةَ وهم في غمراتِ الجحيم وعذابها الأليم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَل صَالحا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلم نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالمينَ مِنْ نَصِيرٍ(٣٧)﴾[فاطر].

وقال تعالى: ﴿هَل يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحقِّ فَهَل لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(٥٣)﴾[الأعراف].

وعن ابنِ عبَّاسٍ قال: من كانَ لهُ مالٌ يُبلِّغُهُ حجَّ بيْتِ ربِّه، أوْ تجبُ عليهِ فيهِ زكاةٌ فلم يفْعل سألَ الرَّجْعةَ قبلَ الموْت. فقال رجُلٌ: يا ابنَ عبَّاسٍ! اتَّقِ الله، فإنَّما يسألُ الرَّجْعةَ الكُفَّار. فقال ابنُ عبَّاسٍ: سأتْلو عليكَ بذلكَ قرْآنًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخاسِرُونَ(٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالحِينَ(١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ الله نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١١)﴾[المنافقون].

وقال قتادةُ في قوْلِهِ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩)﴾[المؤمنون]، قال: كان العلاءُ بنُ زيادٍ يقول: لِيُنْزِلَنَّ أحدُكمْ نفسَهُ أنّهُ قدْ حضرهُ الموْتُ فاسْتقالَ ربَّهُ فأقاله، فليعْمل بطاعةِ الله تعالى.

وقال قتادة: والله ما تمنَّى إلاَّ أنْ يرْجِعَ فيعْملَ بطاعةِ الله، فانْظروا أُمْنيَةَ الكافرِ المفرِّط، فاعْملوا بها، ولا حوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله.

لذلكَ أمر رسولُ الله ﷺ بالمبادرةِ بالأعْمالِ الصَّالحةِ فقال: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا أَوِ الدُّخَانَ أَوِ الدَّجَّالَ أَوِ الدَّابَّةَ أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ العَامَّةِ»(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي الله عَنْهمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ»(٢).

وَعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: حَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ»(٣)، يعْني أنَّ هذه الخمْسَ: أيَّامَ الشَّباب، والصِّحة، والغنى، والفراغ، والحياة، هيَ أيَّامُ العملِ والتأهُّبِ والاستعْدادِ والاستكْثارِ من الزَّاد، فمنْ فاتهُ العملُ فيها لم يُدْرِكْهُ عنْدَ مجيءِ أضْدادِها، ولا ينْفعُهُ التَّمنِّي للأعْمال، بعدَ التَّفْريطِ والإهْمال، في زمنِ الفُرْصةِ والإهْمال، فإنَّ بعدَ كلِّ شبابٍ هَرمًا، وبعدَ كلِّ صحَّةٍ سَقَمًا، وبعدَ كلِّ غنىً فقْرًا، وبعدَ كلِّ فراغٍ شُغْلاً، وبعدَ كلِّ حياةٍ موْتًا، فمنْ فرَّطَ في العملِ أيَّامَ الشَّبابِ لم يُدْركْهُ في أيَّامِ الهرَم، ومن فرَّطَ فيهِ في أوْقاتِ الصِّحةِ لم يُدْرِكْهُ في أوْقاتِ السَّقم،

(١) سبق كثيراً.

(٢) خ(٦٤١٢/٢٢٩/١١)، ت(٢٤٠٥/٣٧٧)، جه(٤١٧٠/١٣٩٦/٢).

(٣) صحيح: [ص.ج:١٠٨٨]، ك(٣٠٦/٤).

ومن فرَّطَ فيهِ في حالةِ الغنى لم يُدْرِكْهُ في حالةِ الفقْر، ومن فرَّطَ فيهِ في ساعةِ الفراغِ لم يُدْرِكْهُ عنْدَ مجيءِ الشَّواغل، ومن فرَّطَ في العملِ في زمنِ الحياةِ لم يُدْرِكْهُ بعدَ المات، فعنْدَ ذلكَ يتمنَّى الرُّجوعَ وقد فات، ويطْلُبُ الكرَّةَ وهيهات، وحيلَ بيْنَهُ وبيْنَ ذلك، وعظُمتْ حَسَراتُهُ حينَ لا مدْفعَ للحسرات.

ولقدْ حثَّنا الله عزَّ وجلَّ في كتابهِ أعْظمَ الحثِّ، وحضَّنا أشدَّ الحضِّ على اغتنامِ الفُرصِ في زمنِ المهلة، فقال تعالى في مُحْكمِ كتابه، داعيًا عبادَهُ إلى بابه، فيا منْ يسْمعُ صريحَ خطابه! تدبَّرْ وتأمَّل لطيفَ عِتابه: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣)وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلموا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ(٥٤)وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ(٥٥)أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ الله وَإِنْ كُنْتُ لمنَ السَّاخِرِينَ(٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ الله هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ المتَّقِينَ(٥٧)أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى العَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ المحْسِنِينَ(٥٨)بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ(٥٩)﴾[الزمر]، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ القَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ الله يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ(٤٣)مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالحا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ(٤٤)﴾[الروم]»[1].

هذهِ هي الأمورُ التي تدْخلُ في الإيمانِ بالموْت.

أمَّا أهْوالهُ وسكراتُهُ فقدْ قال الله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الموْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ(١٩)﴾[ق].

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الماءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَيَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله! إِنَّ لِلموْتِ سَكَرَاتٍ»[2].

---

(١) معارج القبول (٩٩-١٠٧/ ٢) باختصار.

(٢) خ(٤٤٤٩/ ٤٤/ ١١).

وقد بيَّنَ الله تعالى في كتابهِ صِفةَ مجيءِ الموْتِ بسكراتِهِ فقال: ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ (٢٨) وَالتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ (٣٠) ﴾ [القيامة].

وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ المقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ (٩٠) فَسَلاَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ المكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ (٩٦) ﴾ [الواقعة].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا حُضِرَ المؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ، إِلَى رَوْحِ اللهِ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ المسْكِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الأَرْضِ؟! فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ المؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلاَنٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلاَنٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الهَاوِيَةِ. وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلاَئِكَةُ العَذَابِ بِمِسْحٍ، فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ، إِلَى عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الأَرْضِ فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ؟! حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الكُفَّارِ»(١).

فتصوَّرْ نفْسكَ أيُّها الإنسانُ على فِراشِ الموْت، وتخيَّل أيَّ النداءِ ستسْمع؟! هل سيُقالُ لنفْسِك: «اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ، إِلَى رَوْحِ اللهِ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ»، أوْ يُقالُ لها: «اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ، إِلَى عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

(١) صحيح: [ص.ن:١٨٣٢]، ن(٨و٩/ ٤).

«وتفكَّرْ يا مغْرُورُ في الموتِ وسكَراتِه، وصُعوبةِ كأْسِهِ ومرارتِه، فيا لَلموْتِ من وعْدٍ ما أصْدقه! ومن حاكمٍ ما أعْدله! كفى بالموْتِ مُفزِّعًا لِلقُلوب، ومُبَكِّيًا لِلعُيون، ومُفرِّقًا لِلجماعات، وهاذِمًا لِلَّذَّات، وقاطِعًا لِلأُمْنِيات.

فهل تفكَّرْتَ يابْنَ آدمَ في يوْمِ مصْرعِك، وانتِقالِكَ من موْضِعك، إذا نُقِلتَ من سَعَةٍ إلى ضيق، وخانكَ الصَّاحِبُ والرَّفيق، وهَجرَكَ الأخُ والصَّديق، وأُخِذْتَ من فِراشِكَ وغِطائكَ إلى غَرر، وغطُّوكَ بعْدَ لينِ لحافِها بِتُرابٍ ومَدر! فيا جامِعَ المال، والمجْتهِدَ في البُنْيان، ليْسَ لكَ من مالِكَ إلاَّ الأكْفان، بل هي لِلخرابِ والذَّهاب، وجِسْمُكَ لِلتُّراب! فأيْنَ الذي جمعْتَهُ من المال، فهل أنْقذكَ من الأهْوال؟! كلاَّ، بل تركْتَهُ لمنْ لا يحْمدُك، وقدِمْتَ بأوْزارِكَ على من لا يعْذُرُك»[1].

فتفكرْ يا مغْرُورُ في قِصَرِ عُمُرِكَ واقْترابِ أجلِك، وقصِّرْ من أملِك، وَ«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لمرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لموْتِكَ[2].

وقد أخْرجَ البُخاريُّ هذا الحديثَ في كتابِ الرِّقاقِ من صحيحِه، ثمَّ عقَّبَ عليْهِ بقولِه: «بَاب فِي الأَمَلِ وَطُولِهِ وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلمونَ﴾ وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلاَ حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلاَ عَمَلٌ»[3].

---

(١) التذكرة (٩و١٠).

(٢) خ(٦٤١٦/ ٢٣٣/ ١١)، ت(٢٤٣٥/ ٣٨٨/ ٣).

(٣) خ تعليقًا (٢٣٥/ ١١).

« لقدْ آنَ لِلنّائِمِ أنْ يسْتَيْقِظَ من نوْمِه، وحانَ لِلغافلِ أنْ ينْتبِهَ من غفْلتِهِ قبْلَ هُجومِ الموتِ بمرارةِ كأْسِه، وقبْلَ سُكونِ حركاتِه، وخُمودِ أنفاسِه، ورِحْلتهِ إلى قبْرِه، ومقامِهِ بيْنَ أرْماسِه.

عن عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنّهُ كتبَ إلى أُناسٍ من أصْحابِهِ يُوصيهم، فكان ممّا أوْصاهم به:

أمّا بعد: فإنّي أُوصيكم بتقْوى الله العظيم، والمراقبةِ له، واتّخِذوا التّقْوى والورَعَ زادًا، فإنّكم في دارٍ عمّا قريبٍ تنقلِبُ بأهْلها، والله في عرَصاتِ القيامةِ وأهْوالها يسْألكم عن الفتيلِ والنّقير، فالله الله عبادَ الله! اذْكروا الموْتَ الذي لا بُدَّ منه، واسْمعوا قوْلَ الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ(١٨٥) ﴾[آل عمران]، وقوْلَهُ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(٢٦) ﴾[الرحمن]، وقوْلَه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ(٢٧) ﴾[محمد]، فقد بلغني -والله أعلم- أنّهم يُضْربونَ بسياطٍ من نار»[1].

نسْألُ الله السّلامةَ والعافية

❏ ❏ ❏

(١) التذكرة (١٩و٢٠).

عذاب القبر ونعيمه

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي حَائِطٍ لِبَنِي النَّجَّارِ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ وَنَحْنُ مَعَهُ، إِذْ حَادَتْ بِهِ فَكَادَتْ تُلْقِيهِ، وَإِذَا أَقْبُرٌ سِتَّةٌ أَوْ خَمْسَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ، فَقَالَ: مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الأَقْبُرِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا. قَالَ: فَمَتَى مَاتَ هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: مَاتُوا فِي الإِشْرَاكِ. فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ النَّارِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِالله مِنْ عَذَابِ النَّارِ، فَقَالَ: تَعَوَّذُوا بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، قَالَ: تَعَوَّذُوا بِالله مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالُوا: نَعُوذُ بِالله مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، قَالَ: تَعَوَّذُوا بِالله مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ، قَالُوا: نَعُوذُ بِالله مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ»[1].

« القبْرُ واحِدُ القُبورِ في الكثْرة، وأَقْبُرٌ في القلّة، ويُقالُ لِلمدْفنِ مقْبرةٌ، وقد جاء في التّنْزيل: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾[عبس]، أي: جعلَ لهُ قبْرًا يُوارَى فيهِ إكْرامًا لـه، ولم يجْعلْهُ ممّا يُلْقَى على وجْهِ الأرضِ تأكلُهُ الطَّيْرُ والعوافي»[2].

فإذا تحقّقَ الموْتُ وجبتِ المُبادرةُ بتجْهيزه، كما قال ﷺ: «أَسْرِعُوا بِالْجَنَازَةِ فَإِنْ تَكُ صَالِحَةً فَخَيْرٌ تُقَدِّمُونَهَا وَإِنْ يَكُ سِوَى ذَلِكَ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ»[3].

وقد أخْبرَنا رسُولُ الله ﷺ أَنَّهُ لنْ تموتَ نفْسٌ حتى تُبشَّرَ بما لها عندَ الله.

---

(١) م(٢٨٦٧/ ٢٢٠٠/ ٤).

(٢) التذكرة (٨٨و٨٩).

(٣) متفق عليه: خ(١٣١٥/ ١٨٢/ ٣)، م(٩٤٤/ ٦٥١/ ٢)، د(٣١٦٥/ ٤٦٩/ ٨)، ت(١٠٢٠/ ٢٤٠/ ٢)، ن(٤٢/ ٤).

عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ الله كَرِهَ الله لِقَاءَهُ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّا لَنَكْرَهُ المَوْتَ! قَالَ: « لَيْسَ ذَاكِ، وَلَكِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ الله وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ الله وَأَحَبَّ الله لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ الله وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ الله وَكَرِهَ الله لِقَاءَهُ»[1].

ولذلك يَحرِصُ المؤمنُ على الإسْراعِ به، ويتمنَّى الكافِرُ أن لا يذْهبوا به، كما في الحديثِ **عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « إِذَا وُضِعَتِ الْجِنَازَةُ وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا! أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا، يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلاَّ الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ»**[2].

فإذا انْتهوْا بهِ إلى القبْرِ ألحدوه، ثـمَّ أسْـلموهُ في تلْـكَ الحُفْـرةِ المُظْلمـةِ الموحِشَـة، فِراشُـهُ التُّراب، وجليسُهُ الدُّود، وأنيسُهُ العمل، **عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ»**[3].

وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ**»[4]، يعْني إذا انصرفوا، فأوَّلُ ما يلْقاهُ منَ القبْرِ أنَّهُ يضُمُّهُ ضمَّةً شديدةً، تخْتلِفُ منها أضْلاعُه، وتَنْقطِعُ منها أوْصالُه، ولا ينجو منْ هذه الضَّمَّةِ أحَد،لا مَلِكٌ ولا وزير، ولا غنيٌّ ولا فقير، ولا عظيمٌ ولا حقير،

---

(١) متفق عليه: خ(٦٥٠٧/ ٣٥٧/ ١١) ضمن حديث عبادة بن الصامت، م(٢٦٨٤و٢٧٨٥/ ٢٠٦٥و٢٠٦٦/ ٤)، ت(١٠٧٣/ ٢٦٥/ ٢)، ن(١٠/ ٤)، جه(٤٢٦٤/ ١٤٢٥/ ٢).

(٢) خ(١٣١٤/ ١٨١و١٨٢/ ٣)، ن(٤١/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ(٦٥١٤/ ٣٦٢/ ١١)، م(٢٩٦٠/ ٢٢٧٣/ ٤)، ت(٢٤٨٥/ ١٧و١٨/ ٤).

(٤) متفق عليه: خ(١٣٣٨/ ٢٠٥/ ٣)، م(٢٨٧٠/ ٢٢٠٠/ ٤).

ولا كبيرٌ ولا صغير، ولا برٌّ ولا فاجر، ولا صالحٌ ولا طالح.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ الْعَرْشُ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ الملاَئِكَةِ، لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ»(١).

ثمَّ يأتي الميِّتَ مَلَكانِ أسْودانِ أزْرقان، يُقالُ لأحدِهما المُنْكر، وللآخرِ النَّكير، سُمِّيا بذلكَ لأنَّ خلْقَهما غريبٌ عجيب، لا يَسُرُّ النَّاظرين، ولكَ أنْ تتخيَّلَ مدى الذُّعْرِ والرُّعْبِ الذي سيُصيبُ الميِّتَ وهو في قبْرِه وحيدًا فريدًا، في ظُلمةٍ أشدَّ من ظُلمةِ الليْلِ البهيم، وهو لا يمْلِكُ دفْعًا، ولا يستطيعُ هربًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا قُبِرَ الميِّتُ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا المنْكَرُ وَالآخَرُ النَّكِيرُ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ مَا كَانَ يَقُولُ، هُوَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ فَقُلْتُ مِثْلَهُ لاَ أَدْرِي، فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلأَرْضِ الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلاعُهُ، فَلاَ يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»(٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: إِنَّ نَبِيَّ الله ﷺ دَخَلَ نَخْلاً لِبَنِي النَّجَّارِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فَفَزِعَ، فَقَالَ: مَنْ أَصْحَابُ هَذِهِ الْقُبُورِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله! نَاسٌ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ: تَعَوَّذُوا

---

(١) صحيح: [ص.ن:٢٠٥٤]، ن(١٠٠و١٠١/٤).

(٢) حسن: [ص.ت:١٠٧١]، ت(١٠٧٧/٢٦٧/٢).

بِالله مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ. قَالُوا: وَمِمَّ ذَاكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: إِنَّ المؤْمِنَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَعْبُدُ؟ فَإِنِ الله هَدَاهُ قَالَ: كُنْتُ أَعْبُدُ الله. فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ. فَمَا يُسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ غَيْرِهَا. فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى بَيْتٍ كَانَ لَهُ فِي النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا بَيْتُكَ كَانَ لَكَ فِي النَّارِ وَلَكِنَّ الله عَصَمَكَ وَرَحِمَكَ فَأَبْدَلَكَ بِهِ بَيْتًا فِي الجَنَّةِ. فَيَقُولُ: دَعُونِي حَتَّى أَذْهَبَ فَأُبَشِّرَ أَهْلِي! فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ. وَإِنَّ الكَافِرَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ أَتَاهُ مَلَكٌ، فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَعْبُدُ؟ فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي. فَيُقَالُ لَهُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ. فَيُقَالُ لَهُ: فَمَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيَضْرِبُهُ بِمِطْرَاقٍ مِنْ حَدِيدٍ بَيْنَ أُذُنَيْهِ فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا الخَلْقُ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ»(١).

وهكذا يتمُّ سؤالُ القبْرِ بعدَ الفراغِ من الدَّفْنِ مُباشرةً، ولذلكَ «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ»(٢).

فإذا فُرِغَ من السُّؤالِ رأى الميِّتُ ما أُعِدَّ لهُ من نعيمِ الجنَّةِ أوْ عذابِ النَّارِ: عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ يُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ الله إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٣).

قال الإمامُ ابنُ أبي العِزِّ في شرْحِ الطَّحاويَّة: «وقد تواترتِ الأخبارُ عن رسولِ الله ﷺ في ثُبوتِ عذابِ القبْرِ ونعيمِهِ لمن كان لذلكَ أهْلاً، وسُؤالِ المَلَكيْن، فيجِبُ اعْتقادُ ثُبوتِ ذلكَ والإيمانُ به، ولا يُتكلَّمُ في كيْفيتِه، إذْ ليْسَ لِلْعقْلِ وقُوفٌ على كيْفيَتِه، لِكوْنِهِ لا عهْدَ لهُ بهِ في

(١) صحيح: [ص.د:٣٩٧٧]، د(٤٧٢٥/ ٨٦-٨٨/ ١٣).

(٢) صحيح: [ص.د:٢٧٥٨]، د(٣٢٠٥/ ٤١و٤٢/ ٩).

(٣) متفق عليه: خ(١٣٧٩/ ٢٤٣/ ٣)، م(٢٨٦٦/ ٢١٩٩/ ٤)، ت(١٠٧٨/ ٢٦٧و٢٦٨/ ٢).

هذهِ الدَّار، والشَّرْعُ لا يأتي بما تُحيلُهُ العقول، ولكنَّهُ قد يأتي بما تحارُ فيهِ العقول، فإنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إلى الجسدِ ليْسَ على الوَجْهِ المعْهودِ في الدُّنيا، بل تُعادُ الرُّوحُ إليْهِ إعادةً غيرَ الإعادةِ المألوفةِ في الدُّنيا، فالرُّوحُ لها بالبدنِ خمْسةُ أنْواعٍ من التَّعلُّق، مُتغايرةُ الأحْكام:

أحدُها: تعلُّقها بهِ في بطْنِ الأُمِّ جنينًا.

الثَّاني: تعلُّقها بهِ بعدَ خُروجِهِ إلى وجْهِ الأرْض.

الثَّالث: تعلُّقها بهِ في حالِ النَّوْم، فلها تعلُّقٌ بهِ من وجْه، ومُفارقةٌ من وجْه.

الرَّابع: تعلُّقها به في البرْزخ، فإنَّها وإنْ فارقتْهُ وتجرَّدتْ عنْهُ فإنَّها لم تُفارِقْهُ فراقًا كُلِّيًّا بحيثُ لا يبْقى لها إليهِ التفاتٌ البتة، بل هي مُتَّصلةٌ بهِ اتِّصالاً لا يُوجبُ حياةَ البدنِ إلى يوْمِ القيامة.

الخامس: تعلُّقها به يوْمَ بعْثِ الأجْساد، وهو أكْملُ أنْواعِ تعلُّقِها بالبدن، ولا نِسْبةَ لما قبْلهُ من أنْواعِ التَّعلُّقِ إليه،إذْ هو تعلُّقٌ لا يقْبلُ البدنُ معهُ موْتًا ولا نوْمًا ولا فسادًا، فالنَّوْمُ أخو الموْت. فمن تأمَّلَ هذا انْزاحَ عنْهُ إشْكالاتٌ كثيرة.

وليْسَ السُّؤالُ في القبْرِ لِلرُّوحِ وحْدها، ولا لِلْبدَنِ وحْده، وإنَّما السُّؤالُ لِلرُّوحِ والبدنِ معًا، وكذلكَ عذابُ القبْرِ ونعيمُهُ يكونُ لِلنَّفْسِ والبدنِ جميعًا، باتِّفاقِ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعة، تنْعمُ النَّفْسُ وتُعذَّبُ مفردةً عنِ البدنِ ومُتَّصِلةً به.

قال: واعْلمْ أنَّ عذابَ القبْرِ هو عذابُ البرْزخ، فكلُّ من ماتَ وهو مُسْتحِقٌّ للعذابِ نالهُ نصيبُهُ منه، قُبِرَ أوْ لمْ يُقبر، أكلتْهُ السِّباعُ أوِ احترقَ حتى صار رمادًا ونُسِفَ في الهواء، أوْ صُلِبَ أوْ غرقَ في البحْر، وصل إلى روحِهِ وبدنِهِ من العذابِ ما يصلُ إلى المقْبور.

وما وردَ من إجلاسِهِ واختلافِ أضْلاعِهِ ونحْوِ ذلكَ فيجبُ أنْ يُفْهمَ عنِ الرسولِ ﷺ

مرادُهُ من غيْرِ غلوٍّ ولا تقْصير، فلا يُحمَّلُ كلامُهُ ما لا يحْتمِلُه، ولا يُقْصَرُ بهِ عن مُؤداهِ وما قصدهُ من الهُدى والبيان، فكم حصلَ بإهْمالِ ذلكَ والعُدولِ عنهُ من الضَّلالِ والعُدولِ عن الصَّوابِ ما لا يعْلمُهُ إلاَّ الله.

والحاصلُ أنَّ الدُّورَ ثلاث: دارُ الدُّنْيا، ودارُ البرْزخ، ودارُ القرار.

وقد جعلَ الله لكلِّ دارٍ أحْكامًا تخُصُّها، وركّبَ هذا الإنْسانَ من بدنٍ ونفْس، وجعلَ أحْكامَ الدُّنيا على الأبْدانِ، والأرْواحُ تبعٌ لها، وجعلَ أحْكامَ البرْزخِ على الأرْواحِ والأجْسادُ تبعٌ لها، فإذا جاء يوْمُ الحشْرِ صار الحُكْمُ والنَّعيمُ والعذابُ على الأرْواحِ والأجْسادِ جميعًا.

فإذا تأمَّلْتَ هذا المعنى حقَّ التأمُّلِ ظهرَ لكَ كوْنُ القبْرِ روضةً من رِياضِ الجنَّةِ أوْ حُفْرةً من حُفَرِ النَّارِ مُطابقٌ للعقل، وأنَّهُ حقٌّ لا مِرْيةَ فيه، وبذلكَ يتميَّزُ المؤمنونَ بالغيْبِ من غيْرِهم.

ويجبُ أنْ يُعْلمَ أنَّ النَّارَ التي في القبْرِ والنَّعيمَ ليْسَ من جنْسِ نارِ الدُّنيا ولا نعيمها، وإنْ كان الله تعالى يحْمي عليه التُّرابَ والحجارةَ التي فوْقَهُ وتحْتَهُ حتى يكونَ أعْظمَ حرًّا من جمْرِ الدُّنيا، ولوْ مسَّهُ أهْلُ الدُّنيا لم يحُسُّوا بها، وأعْجبُ من هذا أنَّ الرَّجُليْنِ يُدْفنُ أحدُهما إلى جنْبِ صاحبِهِ، وهذا في حُفْرةٍ من النَّار، وهذا في روْضةٍ من رِياضِ الجنَّة، لا يصِلُ من هذا إلى جارهِ شيءٌ من حرِّ ناره، ولا من هذا إلى جارهِ شيءٌ من نعيمه، وقُدْرةُ الله أوْسعُ من ذلكَ وأعْجب، ولكنَّ النُّفوسَ مولعةٌ بالتَّكْذيبِ بما لم تُحِطْ بهِ عِلما، وقد أرانا الله تعاليفي هذهِ الدَّارِ من عجائبِ قُدْرتهِ ما هو أبلغُ من هذا بكثير، وإذا شاء الله أن يُطْلِعَ على ذلكَ بعْضَ عبادِهِ أطْلعه، وغيَّبهُ عن غيْره، ولوْ أطْلعَ الله عليذلكَ العبادَ كلَّهم لزالتِ حِكْمةُ التَّكْليفِ والإيمانِ بالغيْب، ولما تدافنَ النَّاس، كما في الصحيحِ **عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَوْلاَ أَنْ لاَ تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»**[1] »[2].

---

(١)،(٢) م(٢٨٦٨/ ٢٢٠٠/ ٤)، ن(٢٠١٠/ ٤). وانظر «شرح الطحاوية»(٤٥٠-٤٥٣).

قالَ القُرْطبيُّ: «وامتناعُ التدافُنِ لوْ سُمِعَ عذابُ القبْرِ يحتمِلُ أن يكونَ سببُهُ غَلَبَةُ الخوْفِ عندَ سماعِه، فيغْلبُ الخوْفُ على الحيِّ، فلا يقْدِر على قُرْبِ القبْرِ للدَّفن، أوْ يهلِكُ الحيُّ عندَ سماعِه، إذْ لا يُطاقُ سماعُ شيءٍ من عذابِ الله في هذهِ الدَّار.

ألا ترى أنَّهُ إذا سمِعَ النَّاسُ صعْقةَ الرَّعْدِ القاصف، أو الزَّلازِلِ الهائلة هلكَ كثيرٌ من الناس! وأينَ صعقةُ الرَّعْدِ من صيْحةِ الذي تضْربهُ الملائكةُ بمطارقَ من حديد، التي يسْمعُها كلُّ من يليهِ إلاَّ الثَّقليْن، وقد قال ﷺ: «وَلَوْ سَمِعَهَا إِنْسَانٌ لَصَعِقَ»»[1].

فإنْ قيلَ: أوَ لم يُذْكرْ عذابُ القبْرِ في القرآنِ الكريم؟

فالجوابُ: بلى، ذُكرَ عذابُ القبْرِ في القُرآنِ الكريمِ في مواضِعَ كثيرة:

منها قولُه تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ**[٢٧]﴾[إبراهيم].

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾»[2].

وقال تعالى عن قوْمِ نوح: ﴿**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا**[٢٥]﴾[نوح].

---

(١) المفهم (٧/١٤٦).

(٢) متفق عليه: خ(١٣٦٩/٣/٢٣١)، م(٢٨٧١/٤/٢٢٠١)، ت(٥١٢٦/٤/٣٥٨)، د(٤٧٢٤/١٣/٨٥)، جه(٤٢٦٩/٢/١٤٢٧).

قال الآلوسيُّ: «هيَ نارُ البرْزخ، والمرادُ عذابُ القبْر، ومن ماتَ في ماءٍ أوْ نـارٍ أوْ أكلتْهُ السِّباعُ أوِ الطَّيْرُ -مثلاً- أصابهُ ما يُصيبُ المقْبورَ من العذاب»[1].

وقال الرَّازي: «تمسَّكَ أصْحابُنا في إثْباتِ عذابِ القبْرِ بهذهِ الآية، وذلكَ من وجهيْن:

الأوَّل: أنَّ الفـاءَ في قوْلـهِ ﴿ **فَأُدْخِلُوا نَارًا** ﴾ تـدلُّ عـلى أنَّ حصـلتْ تلْـكَ الحالـةُ عقِـبَ الإغْراق، فلا يُمْكنُ حمْلُها على عذابِ الآخرة، وإلاَّ بطلتْ دِلالةُ هذهِ الفاء.

الثَّاني: أنَّهُ قال: ﴿ **فَأُدْخِلُوا** ﴾ على سبيلِ الإخْبارِ عنِ الماضي، وهذا إنَّما يصْدقُ لـوْ وقـعَ ذلك»[2].

وقال تعـالى عـن آلِ فرْعـوْن: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾[غافر].

قال القُرْطبيّ: «الجمهورُ على أنَّ هذا العرْضَ في البرْزخ. واحتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر بقوله تعالى: ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا** ﴾[غافر]، مادامت الدنيا.

كذلك قال مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألاَ تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾[غافر].

عَنْ ابنِ عُمرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُه بالْغَدَاةِ والعَشِيِّ إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ وإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ،

(١) روح المعاني (٩٨/٢٩).

(٢) مفاتيح الغيب (١٤٥/٢٩).

فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حتَّى يَبْعَثَكَ الله إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَة»[(١)]».

ولقد هدّدَ الله تعالى مُشْرِكِي مَكَّةَ بعَذابِ يَوْمِ القِيَامةِ ثُمَّ تَوَعَّدهم بعذابِ القَبْرِ قَبْلَه فقال لنَبيِّه ﷺ: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ(٤٥)يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ(٤٦)وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(٤٧)﴾[الطور].

«عن قَتَادة أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ كانَ يقُولُ: إنَّكم لتَجِدُونَ عذابَ القَبْرِ في كتابِ الله ثُمَّ يقرأُ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨)فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ(٢٩)﴾[النحل].

قال ابنُ كثيرٍ: «يُخْبرُ تعالى عنْ حالِ المُشْركينَ الظَّالمينَ أنفُسَهم عنْدَ احْتِضارهم ومجيءِ الملائكةِ إليْهم لِقبْضِ أرْواحهم الخبيثَة ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أيْ: أظْهروا السَّمْعَ والطَّاعةَ والانْقِيادَ قائلينَ ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾.

فقالَ الله مُكذِّبًا لهم في قيلِهم ذلكَ ﴿ بَلَى إِنَّ الله عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٢٨)فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى المتَكَبِّرِينَ(٢٩)﴾ أيْ: بئْسَ المقيلُ والمقامُ والمكانُ منْ دارِ هوانٍ لمنْ كانَ مُتكبِّرًا عن آياتِ الله واتِّباعِ رُسلِه، وهم يدْخلونَ جهنَّمَ من يوْمِ مماتِهم بأرْواحِهم، وينالُ أجْسادهم في قبورِها من حرِّها وسَمومِها، فإذا كانَ يوْمُ القِيامةِ سُلِكتْ أرْواحُهم في أجْسادِهم وخُلِّدوا في نارِ جهنَّم ﴿ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا(٣٦) ﴾ [فاطر].

(١) متفق عليه: خ(١٣٧٩/ ٢٤٣/ ٣)، م(٢٨٦٦/ ٢١٩٩/ ٤)، ت(١٠٧٨/ ٢٦٧و٢٦٨/ ٢).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣١٩/ ١٥).
(٣) جامع البيان (٣٧/ ٢٧).

كما قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(٤٦) ﴾ [غافر]»(١).

وهكذا تظاهرتْ نُصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ على إثْباتِ سُؤالِ القبْرِ وفِتْنتِهِ، ونعيمِهِ وعذابِهِ، وعلى ذلكَ أجمعَ أئِمَّةُ السُّنَّةِ، ولم يُنْكِرْهُ إلاَّ المُبْتَدِعة.

فإنْ قيلَ: وهلْ عذابُ القبْرِ دائمٌ أم مُنْقطِعٌ؟

فالجوابُ: « أنَّ عذابَ القبْرِ نوْعان: منْهُ ما هو دائم، وذلكَ جزاءُ الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(٤٦) ﴾ [غافر]».

وفي حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ في قصَّةِ الكافرينَ قال النبيُّ ﷺ: « ثُمَّ يُفْتحُ لهُ بابٌ إلى النَّارِ، فينْظرُ إلى مقْعدِهِ فيها حتى تقومَ السَّاعة».

والنَّوْعُ الثَّاني ما يكونُ مُدَّةً ثُمَّ ينْقطع، وهو عذابُ بعْضِ العُصاةِ الَّذينَ خفَّتْ جرائمُهم، فيُعذَّبُ بحسَبِ جُرْمِهِ، ثُمَّ يُخفَّفُ عنْه»(٢).

وهكذا يكونُ الموْتى في قُبورِهم مُنعَّمينَ أوْ مُعذَّبينَ، فلا يزالونَ هكذا إلى يومِ الدِّين، كما قال ربُّ العالمين: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٠٠)﴾[المؤمنون].

تلك هي حقيقَةُ القَبْر، رَوْضَةٌ من رياضِ الجنَّة، أوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّار، لذلكَ كانَ عُثْمانُ إذَا وقفَ على قَبْرٍ بكى حَتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَه.

« وقال عُمرُ بنُ عبْدِ العزيزِ لِبعْضِ جُلسائِه: لقد أرِقْتُ اللَّيْلة، أتفكَّرُ في القبْرِ وساكنِه، فلو رَأيْتَ الميِّتَ بعد ثلاثةٍ في قبْرِه لاسْتَوْحَشْتَ من قَبْرِه، بعْدَ طُولِ الأُنْسِ مِنْكَ به،

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٦٧).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٤٥٣).

ولرأيْتَ بيْتًا تجولُ فيه الهوامُ، ويجْرِي فيه الصَّديد، وتخْتَرِقُه الدِّيدان، مع تغيُّرِ الرِّيح، وبلَى الأكْفَان، بعْدَ حُسْنِ الهَيْئة، وطيبِ الرِّيح، ونقاءِ الثَّوْبِ، ثُمَّ شَهقَ شَهْقَةً خرَّ مغْشِيًّا عليه»[١].

« وكانَ زَيْدٌ الرَّقَاشِيُّ يقول: أَيُّها المَقْبورُ في حُفْرَتِه، والمُتخلِّ في القَبْرِ بِوَحْدتِه، المُسْتَأْنِسُ في بَطْنِ الأرْضِ بأعْمَالِه، ليْتَ شَعْرِي بأيِّ أعْمَالِك اسْتَبْشَرْتَ، وبأَيِّ إخْوانِك اغْتبطتَ، ثُمَّ يبْكِي حَتَّى يبُلَّ عِمَامَتـه، ثُمَّ يقـولُ: اسْتَبْشرَ والله بأعْمَالِه الصَّالِحَة، واغْتبطَ والله بإخْوانِه المُتعاونِينَ على طاعَةِ الله»[٢].

«ورُوِيَ عَنْ عليٍّ أَنَّه خرجَ إلى مقْبرةٍ فَلَمَّا أشْرفَ علَيْها قال: يا أهْلَ القبُورِ أَخْبِرُونا عنْكم أو نُخْبِرُكم، أَمَّا خَبرُ مَنْ قِبَلنا: فالمالُ قد اقْتُسِم، والنِّساءُ قد تزوَّجْنَ، والمساكِنُ قد سكنَها قَوْمٌ غيرُكم، ثُمَّ قَالَ: أَمَا والله لو اسْتَطاعُوا لقَالُوا: لم نرَ زادًا خيرًا مِنَ التَّقْوى»[٣].

قِفْ بالقُبورِ وقُلْ على ساحَاتِها ... مِنْ منْكمُ المَغْمورُ في ظلُماتِها

ومَنِ المُكرَّمُ منْكمُ في قَعْرِها ... قَدْ ذَاقَ بَرْدَ الأمْنِ مِنْ رَوْعَاتِها

أَمَّا السُّكونُ لِذِي العُيونِ فواحِدٌ ... لا يسْتَبِينُ التَّفاضُلَ في درجَاتِها

لَوْ جاوبُوكَ لأَخبَرُوكَ بألْسُنٍ ... تَصِفُ الحَقَائِقَ بَعْدُ مِنْ حالاَتِها

أَمَّا المطيعُ فنازِلٌ في رَوْضَةٍ ... يفْضِي إلى ما شاءَ مِنْ درجَاتِها

والمُجْرِمُ الطَّاغِي بها مُتقلِّبٌ ... في حُفْرَةٍ تأْوِي به إلى حيَّاتِها

وعَقَارِبٌ تسْعَى إلَيْهِ فَرُوحُه ... في شِدَّةِ التَّعْذِيبِ مِنْ لدَغَاتِها »[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٤٨٦).

(٢) التذكرة (٩٢).

(٣) المصدر السابق (١١١).

(٤) إحياء علوم الدين(٤/ ٤٨٧).

هذا هو ما أُعِدَّ للإنسانِ في قَبْرِه: تُرَابٌ ودُودٌ، ظُلمةٌ ووَحْشَةٌ، صَدِيدٌ يسيل، وفُرُشٌ تبْلَى، وريحٌ متغيِّرٌ، أَلَيْسَ ذلكَ شاهِدَ صِدْقٍ لِمَنْ قَالَ:

والله لَوْ عَاشَ الفتَى في عُمْرِهِ ... ألفًا مِنَ الأعْوَامِ مَالِكَ أَمْرِهِ
مُتَنَعِّمًا فِيهَا بكُلِّ لذيذةٍ ... مُتلَذِّذًا فِيهَا بسُكْنَى قَصْرِه
لا يَعْتَرِيهِ الهَمُّ طُولَ حياتِهِ ... كلاَّ ولا تَرِدُ الهُمومُ بصَدْرِهِ
مَا كَانَ ذلِكَ كلُّه في أَنْ يَفِي ... بمَبيتِ أوَّلِ ليْلَةٍ فِي قَبْرِهِ

❑ ❑ ❑

أسباب عذاب القبر (١)

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ المدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ. ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً. فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله! لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا، أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا»[١].

قالَ الإمامُ ابنُ العربيِّ: «أخبرَ النبيُّ ﷺ عنْ صاحِبيْ هذينِ القبْريْنِ أنَّهما يُعذَّبان، فكانَ ذلكَ إعْلامًا بعذابِ القبْرِ، وعذابُ القبْرِ حقٌّ، صدَّقَ بهِ أهْلُ السُّنَّة، وكذَّبتْهُ المُبتدِعَة، وقدْ ذكرهُ الله في كتابه، وتكاثرتْ عنْ رسولِ الله ﷺ الرِّواياتُ به، والقُدْرَةُ واسِعَة، وهو أوَّلُ درجاتِ الآخِرة، وفي نعيمٍ أوْ عذاب»[٢]، وقدْ بيَّنَّا ذلكَ بما لا يدعُ مجالاً للشَّكِّ فيه.

وقال الحافظُ ابنُ حجرٍ: «والظَّاهرُ من مجْموعِ طرقِ الحديثِ أنَّ الإنْسانَيْنِ كانا مُسْلِميْن، ففي روايةِ ابنِ ماجه «مرَّ بقبريْنِ جديدَيْن» فانْتفى كوْنُهما في الجاهليَّة، وفي حديثِ أبي أُمامةَ عنْدَ أحمد أنَّهُ ﷺ مرَّ بالبقيعِ فقال: «منْ دفنتُمُ اليوْمَ ههنا»[٣]؟ فهذا يدُلُّ على أنَّهما كانا مُسْلِميْن، لأنَّ البقيعَ مقبرةُ المسلمين، والخطابُ للمسلمين، معَ جريَانِ العادةِ بأنَّ كلَّ فريقٍ يتولَّى مَنْ هو منْهم. ويُقوِّي كوْنَهما مُسْلِميْنِ روايَةُ أبي بكْرَةَ عندَ أحمدَ والطَّبرانيِّ بإسْنادٍ صحيحٍ: «يُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبير» و «بلى، وما يُعذَّبانِ إلاَّ في الْغيبَةِ والْبوْل».

---

(١) متفق عليه: خ(٢١٦/ ٣١٧/ ١)، م(٢٩٢/ ٢٤١، ٢٤٠/ ١)، ت(٧٠/ ٤٨، ٤٧/ ١)، د(٢٠/ ٤٠-٤٢ / ١)، ن(٢٨-٣٠/ ١)، جه(٣٤٧/ ١٢٥/ ١).

(٢) عارضة الأحوذي (٧٨/ ١).

(٣) حم(٣١٣/ ١٣١/ ٨).

فهذا الحصْرُ يَنْفي كوْنَهما كان كافِرَيْن، لأنَّ الكافرَ وإنْ عُذِّبَ على ترْكِ أحْكامِ الإسْلامِ فإنَّهُ يُعذَّبُ معَ ذلكَ على الكُفْرِ بلا خلاف»[١].

وقد نصَّ الحديثُ على سببَيْنِ منْ أسْبابِ عذابِ القبْرِ:

الأوَّل: عدَمُ الاسْتِتارِ من البوْل:

« وقدْ رُوِيَ- هذا اللَّفظُ- على ثلاثةِ أوْجُه «**لا يستترُ**» من التَّستُّر، و« **لا يسْتنْزهُ**» من النَّزْهة، وهي البُعْد، و«**لا يسْتبْرئ**» من البراءة. فأمَّا قوْلُهُ «**لاَ يسْترُ**» بتاءيْنِ اثنتيْنِ من الاسْتتارِ فيحْتملُ وجْهيْن: أحدُهما: أنَّهُ لا يُبالي بكشْفِ عورَتِه. الثاني: أنَّهُ لا يُبالي بإضافةِ البوْلِ إلى ثِيابه، فلا يجْعلُ بيْنَهُ و بيْنهُ حاجِزًا من ماءٍ أوْ حِجارة، ولا يسْتنْزه، وقد كان بنو إسْرائيلَ إذا أصابَ ثوْبَ أحدِهمُ البوْلُ قرضَه، فخفَّفَ الله عن هذهِ الأُمَّة، فجعلَ حِجابَها عنِ النَّجاسةِ الطَّهارةَ بالماء. وأمَّا قوْلُهُ« **لاَ يسْتبْرئُ**» فهو أبْلغُ في التَّوقِّي والتَّحفُّظ، ومعْناه: أنَّهُ كانَ لا يُبالي، أسْتوْفى إخْراجَ الماءِ أمْ لا، فإذا توضَّأ خرجَ الماءُ بعدَ ذلكَ فيكونُ ناقِضًا لِلْوُضوءِ، مُبْطِلاً لِلصَّلاة»[٢].

فالاسْتِنْزاهُ منَ البوْلِ واجب، وطهارةُ الثَّوْبِ والبدنِ منهُ واجبة، وهذا أحَدُ آدابِ الاسْتِنْجاءِ الَّتي علَّمناها رسولُ الله ﷺ:

عَنْ سَلمانَ قَالَ: قَالَ لَنَا المشْرِكُونَ: إِنِّي أَرَى صَاحِبَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ، حَتَّى يُعَلِّمَكُمُ الخِرَاءَةَ! فَقَالَ: أَجَلْ! «إِنَّهُ نَهَانَا أَنْ يَسْتَنْجِيَ أَحَدُنَا بِيَمِينِهِ، أَوْ يَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ، وَنَهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالْعِظَامِ، وَقَالَ: لاَ يَسْتَنْجِي أَحَدُكُمْ بِدُونِ ثَلاَثَةِ أَحْجَارٍ»[٣].

---

(١) فتح الباري (٣٢١/ ١).

(٢) العارضة (٧٩/ ١).

(٣) م(٢٦٢/ ٢٢٣/ ١)، ت(١٦/ ١٣/ ١)، د(٧/ ٢٤/ ١)، ن(٣٨/ ١)، جه(٣١٦/ ١١٥/ ١).

فذكر رضيَ الله عنهُ من آدابِ الاسْتِنْجاءِ التي علَّمَهُموها النبيُّ ﷺ أرْبعةَ أُمور:

الأوَّل: أن لا يسْتَقْبِلَ الإنسانُ الْقِبْلَةَ وأن لا يسْتدْبرَها.

الثَّاني: أن لا يسْتَنْجِيَ بيمينِه.

الثَّالث: أن لا يسْتَنْجِيَ بأقَلَّ من ثلاثةِ أحْجار.

الرَّابع: أن لا يسْتَنْجِيَ برَوْثٍ أوْ عظْم.

ومنْها: أن لا يُمْسِكَ ذكرَهُ بيَمينه، لقوْلِهِ ﷺ **«إِذَا بَالَ أَحَدُكُمْ فَلاَ يَأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ، وَلاَ يَسْتَنْجِي بِيَمِينِهِ»**[1].

ومنها: أن يبتعِدَ عن النَّاسِ إذا كان في الخلاء: **عَنْ جَابِرٍ قَالَ: « خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ لاَ يَأْتِي الْبَرَازَ حَتَّى يَتَغَيَّبَ فلاَ يُرَى»**[2].

ومنها: أن لا يرْفعَ ثوْبَهُ حتى يدْنُوَ من الأرض: **عَنِ ابْنِ عُمَرَ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ حَاجَةً لاَ يَرْفَعُ ثَوْبَهُ حَتَّى يَدْنُوَ مِنَ الأَرْضِ»**[3].

فإذا كان في البُنْيانِ استُحِبَّ لهُ أن يُقدِّمَ رِجْلَهُ اليُسْرى في الدُّخولِ واليُمْنى في الخُروج، وأن يقولَ عندَ الدُّخولِ: بسم الله، اللهـمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الخُبْثِ والخبائث: **عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا دَخَلَ أَحَدُهُمُ الْخَلاَءَ أَنْ يَقُولَ بِسْمِ الله»**[4]، **وَعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ صُهَيْبٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا يَقُولُ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْخَلاَءَ قَالَ: «اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ»**[5].

---

(١) متفق عليه: خ(١٥٤/ ٢٥٤/ ١)، م(٢٦٧/ ٢٢٥/ ١)، د(٣١/ ٥٣/ ١)، ت(١٥/ ١٢/ ١)، ن(٢٥/ ١)، جه(٣١٠/ ١١٣/ ١).

(٢) صحيح: [ص.جه:٢٦٨]، جه(٣٣٥/ ١٢١/ ١)، د(٢/ ١٩/ ١) بنحوه.

(٣) صحيح: [ص.د:١١]، د(١٤/ ٣١/ ١).

(٤) صحيح: [ص.ت:٦٠٦]، ت(٦٠٣/ ٥٩/ ١)، جه(٢٩٧/ ١٠٩/ ١).

(٥) متفق عليه: خ(١٤٢/ ٢٤٢/ ١)، م(٣٧٥/ ٢٨٣/ ١)، د(٤/ ٢١/ ١)، ت(٦/ ٧/ ١)، ن(٢٠/ ١)، جه(٢٩٨/ ١٠٩/ ١).

ويُسْتَحبُّ إذا خرجَ أَنْ يقول: غُفرانك.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِي الله عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنَ الْخَلاَءِ قَالَ: «غُفْرَانَكَ»[١].

والبوْلُ قائمًا وقاعِدًا جائز، إلاَّ أنَّ القُعودَ أفْضل، لأنَّهُ الغالِبُ من هدْيِ النبيِّ ﷺ، وقد ثبتَ عنْهُ ﷺ أنَّهُ بالَ قائمًا[٢].

والاسْتِنْجاءُ بالماءِ أو بالأحْجارِ وما في معناها جائز، والماءُ أفْضل، لقوْلِهِ تعالى في حقِّ أهْلِ قِباء: ﴿ **فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَالله يُحِبُّ المطَّهِّرِينَ**(١٠٨) ﴾[التوبة:].

عَنْ طَلْحةَ بْنِ نَافِعٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! إِنَّ الله قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ فِي الطُّهُورِ، فَمَا طُهُورُكُمْ؟ قَالُوا: نَتَوَضَّأُ لِلصَّلاَةِ وَنَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ وَنَسْتَنْجِي بِالماءِ. قَالَ: فَهُوَ ذَاكَ فَعَلَيْكُمُوهُ»[٣].

السَّبَبُ الثَّاني من أسْبابِ عذابِ القبْر: المشْيُ بالنَّمِيمَة:

«وهي لُغةً: اسْمٌ منْ: نَمَّ الحديثَ ينِمُّهُ وينُمُّه نَمًّا»[٤].

واصْطِلاحًا: «نقْلُ كلامِ النَّاسِ بعْضِهم إلى بعْضٍ على جِهَةِ الإفْساد»[٥].

---

(١) صحيح: [ص.ت:٧]، ت(٧/ ٧/ ١)، د(٣٠/ ٥٢/ ١)، جه(٣٠٠/ ١١٠/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(٢٢٥/ ٣٢٩/ ١)، م(٢٧٣/ ٢٢٨/ ١)، ت(١٣/ ١١/ ١)، د(٢٣/ ٤٤/ ١)، ن(١٩/ ١)، جه(٣٠٥/ ١١١/ ١).

(٣) صحيح: [ص.جه:٢٨٥]، جه(٣٥٥/ ١٢٧/ ١).

(٤) لسان العرب (٥٩٢/ ١٢).

(٥) الأذكار (٢٩٩).

قال الإمامُ الذَّهبيُّ: «وهي حرامٌ بإجماعِ المسْلمين، وقد تظاهرتْ على تحْريمِها الدَّلائلُ الشَّرْعيَّةُ من الكتابِ والسُّنَّة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾[القلم].

وقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾[الهمزة]، قيلَ: الهُمزةُ النَّمام، وقال تعالى عنِ امرأةِ أبي لهب: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾[المسد]، قيلَ: إنَّها كانت نَّمامةً حمَّالةً للحديث، وقال تعالى عن امرأةِ نوحٍ ولوط: ﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾[التحريم]، قيلَ: كانتِ امرأةُ لوطٍ تُخْبِرُ بالضِّيفان، وامرأةُ نوحٍ تُخْبِرُ أنَّهُ مجْنون.

وفي الصَّحيحيْنِ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَال: «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ»[1]، وفي رواية لمسلم «لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ. ثُمَّ قَالَ: بَلَى! كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»[2][3].

وهذا الوعيدُ يدُلُّ على أنَّ النَّميمَةَ من الكبائر، وعلى هذا ترْجمَ البُخاريُّ في كتابِ الأدبِ منَ الجامعِ الصَّحيحِ فقال: (بابُ النَّميمَةُ من الكبائر) ثمَّ أسْندَ حديثَ ابنِ عبَّاس، وذلكَ لأنَّ «الكبيرةَ ما ترتَّبَ عليْها حدٌّ في الدُّنيا أوْ عُقوبةٌ في الآخرة»[4].

---

(١) متفق عليه: خ(٦٠٥٦/ ٤٧٢/ ١٠)، م(١٠٥/ ١٠١/ ١)، د(٤٨٥٠/ ٢١٩/ ١١)، ت(٢٠٩٥/ ٢٥٣/ ٣).

(٢) سبق أول الموضوع.

(٣) الكبائر (١٧٢) بزيادة من "الإحياء" (١٥٤و١٥٥/ ٣).

(٤) المصدر السابق (٧).

وقد أجاب الإمامُ الذَّهبيُّ عمَّا يوهمُ أنَّ النَّميمةَ من الصَّغائرِ وهو قوْلُهُ ﷺ «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» فقال: «وقوْلُهُ ﷺ «وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ» أيْ ليْسَ بكبيرٍ ترْكُهُ عليْهما، أوْ ليْسَ بكبيرٍ في زعْمِهما، ولهذا قال في روايةٍ أُخرى: «بلى! إنَّهُ كبيرٌ»»[1].

وقدْ عدَّ النبيُّ ﷺ النَّمَّامَ شرَّ النَّاسِ فقال: «تَجِدُ مِنْ شَرِّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ»[2].

وأهْلُ الشَّرِّ الحريصونَ عليهِ يجبُ الحذرُ منهم والبُعدُ عنهم، فقد نهانا الله تعالى عن طاعتِهم فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم].

وعليْهِ: «فكُلُّ من حُمِلتْ إليْهِ النَّميمةُ وقيلَ لهُ: إنَّ فُلانًا قالَ فيكَ كذا وكذا، أو فعلَ في حقِّكَ كذا وكذا، فعليْهِ ستَّةُ أُمور:

الأوَّل: أن لا يُصدِّقَه، لأنَّ النَّمَّامَ فاسِق، وهو مرْدودُ الشَّهادة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات].

الثَّاني: أن ينْهاهُ عن ذلكَ وينْصحَ لهُ ويُقبِّحَ عليْهِ فِعْلَه، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان].

الثَّالث: أن يُبْغِضَهُ في الله تعالى، فإنَّهُ بغيضٌ عندَ الله، ويجِبُ بُغْضُ من يُبْغِضُهُ الله.

الرَّابع: أن لا تظُنَّ بأخيكَ الغائبِ ظنَّ السَّوْء، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

الخامس: أن لا يحْمِلكَ ما حُكِيَ لكَ على التَّجسُّسِ والبحْثِ لتتحقَّق، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات].

(١) المصدر نفسه (١٧٣).

(٢) متفق عليه: خ(٦٠٥٨/ ٤٧٤/ ١٠)، م(٢٥٢٦/ ١٩٥٨/ ٤)، ت(٢٠٩٤/ ٢٥٢/ ٣).

السَّادس: أن لا ترْضى لنفْسِكَ ما نهيْتَ النَّمَّامَ عنْه، فلا تحْكي نميمَتَهُ فتقول: قال لي فُلانٌ كذا وكذا، فتكونَ بذلكَ نمَّامًا ومُغْتابًا، وتكونَ قد أتيْتَ ما نهيْتَ عنه.

وقد رُوِيَ عن عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّهُ دخلَ عليْهِ رجُلٌ فذكرَ لهُ عن رجُلٍ شيْئًا، فقال لهُ عُمر: إنْ شِئْتَ نظرْتُ في أمْرِكَ، فإنْ كُنْتَ كاذِبًا فأنْتَ من أهْلِ هذه الآية: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**(٦) ﴾[الحجرات]، وإنْ كُنْتَ صادِقًا فأنْتَ من أهْلِ هذه الآية ﴿ **هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ**(١١) ﴾[القلم]، وإنْ شئْتَ عفوْنا عنْك؟ فقال الرجُل: العفْوَ يا أميرَ المؤمنين، ولا أعودُ إليْهِ أبدًا.

وقال الحسن: منْ نَمَّ لكَ نَمَّ عليْك. وهذا إشارةٌ إلى أنَّ النَّمَّامَ ينْبغي أن يُبْغَضَ ولا يوثَقُ بقوْلِه ولا بصداقته، وكيْفَ لا يُبْغَضُ وهو لا ينْفكُّ عنِ الكذِبِ والغيبَةِ، والغدْرِ والخيانة، والغِلِّ والحسد، والنِّفاقِ، والإفْسادِ بيْنَ النَّاسِ والخديعة، وهم ممَّنْ يسْعوْنَ في قطْعِ ما أمرَ الله بهِ أن يُوصلَ ويُفْسِدونَ في الأرْض؟»(١).

فهذا ما يجِبُ على المُجْتمعِ تجاهَ النَّمَّام، أمَّا النَّمَّامُ نفْسُهُ فعليْهِ أنْ يتَّقِيَ الله ويتوبَ إليْه، وأنْ يعْلمَ أنَّ الله سميعٌ لأقْواله، عليمٌ بأفْعاله، وقد وكَّل بهِ ملَكيْنِ كريمَيْنِ، ﴿ **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**(١٧) **مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**(١٨) ﴾[ق]، وليتذكَّرْ قوْلَ النبيِّ ﷺ «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»(٢)، وقوْلَهُ ﷺ لِمُعاذٍ وقد وصَّاهُ بصِيانَةِ لِسانه، فقال مُعاذٌ: وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟! فقَالَ ﷺ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يُكِبُّ النَّاسَ عَلَى وُجُوهِهِمْ فِي النَّارِ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ**»(٣).

السّببُ الثَّالثُ من أسْبابِ عذابِ القبْرِ الغِيبة:

(١) الإحياء (١٥٦/٣).

(٢) خ(٦٤٧٨/٣٠٨/١١).

(٣) صحيح: [ص.ت:٢٦١٦]، ت(٢٧٤٩/ ١٢٤و١٢٥/ ٤)، جه(٣٩٧٣/ ١٣١٤و١٣١٥/ ٢).

وقد ترْجمَ الإمامُ البُخاريُّ في كتابِ الجنائزِ من صحيحهِ لِذلكَ فقال (بابُ عذابِ القبْرِ منَ الغيبةِ والبوْل) ثمَّ أسْندَ حديثَ ابنِ عبَّاس.

قال الحافظُ ابنُ حجر: «وليْسَ فيهِ لِلْغيبَةِ ذِكْر، وإنَّما وردَ بلفْظِ النَّميمة، فقيلَ: مُرادُهُ أنَّ الغيبَةَ تُلازِمُ النَّميمَة، لأنَّ النَّميمَةَ مُشْتمِلةٌ على ضرْبيْن: نقْلُ كلامِ المُغتابِ بما فيهِ ممَّا يسوؤُهُ قاصِدًا بذلكَ الإفساد، فيحتملُ أن تكونَ قِصَّةُ الذي كانَ يُعذَّبُ في قبْرهِ كانتْ كذلك، ويحتملُ أن يكونَ أشارَ إلى ما وردَ في بعْضِ طُرقهِ بلفْظِ الغيبةِ صريحًا، وهو ما أخْرجَهُ هو في «الأدبِ المُفْردِ» من حديثِ جابرٍ قال: **كُنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ فَأَتَى عَلَى قَبْرَيْنِ يُعَذَّبُ صَاحِبَاهُمَا، فَقَال: « إِنَّهُمَا لاَ يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَبَلَى، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَغْتَابُ النَّاس، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَتَأَذَّى مِنَ الْبَوْلِ»**[1].

وأخرج أحمدُ والطَّبرانيُّ بإسنادٍ صحيح **عَنْ أَبِي بكْرةَ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أُمَاشِي رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ آخِذِي بِيَدِي وَرَجُلٌ عَنْ يَسَارِهِ فَإِذَا نَحْنُ بِقَبْرَيْنِ أَمَامَنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ. وَبَلَى. وَمَا يُعَذَّبَانِ إِلاَّ فِي الْبَوْلِ وَالْغِيبَةِ»**[2]»[3].

وهكذا صرَّح النَّبيُّ ﷺ بأنَّ الغيبةَ مِنْ أسبابِ عذابِ القبْر، « وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ عذابَ القبْرِ ثلاثةُ أثلاث: ثُلُثٌ مِنَ الغِيبَة، وثُلُثٌ من النَّمِيمَة، وثُلُثٌ مِنَ البَوْل»[4].

قال ابنُ حجر: « وقد أبْدَى بعْضُهم للجَمْع بَيْنَ هذِه الخِصَالِ الثَّلاثِ مُنَاسَبةً، وهي أنَّ البرْزخَ مقدِّمَةُ الآخِرَة، وأوَّلُ ما يُقْضَى فيه يوْمَ القِيامةِ مِنْ حُقوقِ الله الصَّلاة، ومِنْ حُقوقِ العبادِ الدِّماء، ومِفْتَاحُ الصَّلاةِ التَّطهُّرُ مِنَ الحدَثِ والخبَث، ومِفْتَاحُ الدِّماءِ الغِيبَةُ،

---

(١) صحيح لغيره: [ص.خد:٥٦٤].

(٢) حم (٢٠٤١١/ ٥٣/ ٣٤)، الأرنؤوط.

(٣) فتح الباري (٤٧٠و٣٧١/ ١٠).

(٤) إحياء علوم الدين (١٤٣/ ٣).

ومِفْتَاحُ الدِّماءِ الغِيبَةُ، والسَّعْيُ بيْنَ النَّاسِ بالنَّمِيمَةِ بنَشْرِ الفِتَنِ الَّتي تُسْفَكُ بسَبَبِها الدِّماء»[1].

فالغِيبَةُ إذَنْ مِنَ الكِبائر، وهي حرَامٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجْماعِ الأُمَّة: قال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[الحجرات].

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَارْتَفَعَتْ رِيحٌ مُنْتِنَةٌ فَقَالَ ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحِ؟ هَذِهِ رِيحُ الذِينَ يَغْتَابُونَ الْمُؤْمِنِينَ»[2].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟! قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»[3].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ الله مَا الْغِيبَةُ؟ قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[4].

قَالَ الغَزَالِيُّ: «وحَدُّ الغِيبَةِ أَنْ تذْكُرَ أخاكَ بما يكرَهُهُ لَوْ بلغَه، سواءٌ ذَكَرْتَه بِنَقْصٍ في بدَنِه أو نَسبِه، أو خُلُقه أو في فِعْلِه أو في قوْلِه، أو في دِينِه، أو في دُنْياه حتَّى في ثوْبِهِ ودَارِهِ ودابَّتِه»[5].

---

(١) فتح الباري (٤٧٢/١٠).

(٢) حسن: [ص.تغ:٢٨٤٠]، حم(١٤٧٨٤/٩٧/٢٣) الأرنوؤط.

(٣) صحيح: [ص.د:٤٠٨٢]، د(٤٨٥٧/٢٢٣/١٣).

(٤) م(٢٥٨٩/٢٠٠١/٤)، د(٤٨٥٣/٢٢٠/١٣)، ت(١٩٩٩/٢٢٠و٢٢١/٣).

(٥) إحياء علوم الدين (١٤٣/٣).

« وقَالَ الحَسنُ: ذِكْرُ الغَيْرِ ثَلاثَةٌ: الغِيبَة، والبُهْتَان، والإفْكُ، وكلٌّ في كتابِ الله عزَّ وجلَّ، فالغِيبَةُ أَنْ تقولَ ما فِيهِ، والبُهْتَانُ أَنْ تَقُولَ ما لَيْسَ فيه، والإفْكُ أَنْ تَقُولَ ما بلَغك»[١].

والواجِبُ على المُسْلمِ إذا سَمِعَ غِيبَةَ أخيهِ أَنْ ينْهَى المُغْتَابَ وأَنْ يذبَّ عَنْ أخيه لقوله ﷺ: «المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ»[٢].

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ الله عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٣].

وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ بِالْغِيبَةِ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ»[٤].

فإِنْ لَمْ يفْعَلْ واستَمعَ للمُغْتابِ وأقرّه كان شريكه في الإثم، لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ الله جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا(١٤٠)﴾[النساء].

والواجِبُ على المُغتَابِ أَنْ يندمَ ويتُوبَ إلى الله تعالى ويسْتغْفِرَهُ فإِنَّ الله عرّض بالتَّوبةِ للمُغْتابِينَ فنَهاهم عن الغِيبَةِ ثُمَّ قال: ﴿ وَاتَّقُوا الله إِنَّ الله تَوَّابٌ رَحِيمٌ(١٢)﴾[الحجرات].

فمن تَابَ تابَ الله علَيْه، ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(١١)﴾[التوبة]، وعَلَيْهِ أَنْ يسْتحِلَّ أخاه الذي اغْتَابَهُ من غِيبَتِهِ إِنْ أَمِنَ مِنَ التَّحلُّل المَفْسدَة.

(١) المصدر السابق (١٤٤/ ٣).

(٢) متفق عليه: خ(٢٤٤٢/ ٩٧/ ٥)، م(٢٥٨٠/ ١٩٩٦/ ٤)، ت(١٤٥١/ ٤٤٠/ ٢)، د(٤٨٧٢/ ٢٣٦/ ١٣).

(٣) صحيح: [ص.ت:١٩٣١]، ت(١٩٩٦/ ٢١٩/ ٣).

(٤) صحيح لغيره: [ص. تغ:٢٨٤٧]، حم(٢٧٦٠٩/ ٥٨٣/ ٤٥) الأرنؤوط.

فقد قال ﷺ: « **مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلله مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ**»[1].

فإنَّ كانَتِ المَفْسَدَةُ من استحلال أخيه غير مأمونةٍ فعليه بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**[114]﴾[هود]، وقول النبي ﷺ: «**وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[2].

فليَجْتهِدْ في برٍّ من أساءَ إليْه باغْتِيابِه، وليَجْتهِدْ في الإحسانِ إليْه وإكْرامِه، فيُهاديه ويُواسيهِ، ويُشاركُه أفْراحَه وأتْراحَه، ويقْضِي حاجَاتِه، لعلَّه أنْ يُغْفَر له ما قد مضَى من زلاَّته.

ولَمَّا كان النَّبيُّ ﷺ ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**[128]﴾[التوبة]، فقد شفَعَ لهَذَيْنِ الإنسانَيْنِ اللَّذَيْنِ يعذبان في قبورهما أنْ يخفف الله عنهما العذاب «**دَعَا بِجَرِيدَةٍ فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً. فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ الله! لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا، أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا**».

وقدْ ظَنّ العامَّةُ أنْ وَضْعَ الجريدِ هو نَفْسُه السَّببُ في تَخْفيفِ العَذاب، فصَارُوا يضَعُونَ الجريدَ على الْقُبور، وهذا فَهْمٌ خاطئ.

قال الإمامُ الخطَّابِيُّ: « وأمَّا غرْسُهُ شِقَّ العَسيبِ على القَبْر، وقولُه: «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا**» فإنَّه من نَاحِيَةِ التَّبرُّكِ بأثرِ النَّبيِّ ﷺ ودُعائِه بالتَّخْفيفِ عنهما، وكأنَّه ﷺ جعلَ مدَّةَ بقاءِ النَّداوة فِيهما حدًّا لما وقَعتْ به المسْألَةُ منْ تخْفيفِ العذَابِ عنْهما، وليسَ ذلكَ مِنْ أجْلِ أنَّ في الجريدِ الرَّطْبِ معْنَى ليْس في اليابس. والعامَّةُ فِي كثيرٍ من البُلْدانِ تَفْرِشُ الخُوصَ في قُبورِ موْتَاهم، وأراهم ذَهبُوا إلَى هذَا، وليس لما تعَاطُوه مِنْ ذلكَ وجْهٌ. والله أعلم»[3].

---

(١) خ(٢٤٤٩/١٠١/٥).

(٢) حسن: [ص.ت:١٩٨٧]، ت(٢٠٥٣/٢٣٩/٣).

(٣) معالم السنن (٢٧/١).

وقد جاء التَّصْريحُ بشَفاعةِ النَّبيِّ ﷺ لهما في حديث جابرٍ عنْدَ مُسْلمٍ، وفيه: «**قَدْ فَعَلْتُ يَا رَسُولَ الله، فَعَمَّ ذَاكَ قَالَ: إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ فَأَحْبَبْتُ بِشَفَاعَتِي أَنْ يُرَفَّهَ عَنْهُمَا مَا دَامَ الْغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ**»[1].

« قال القاضِي عِيَاضٌ: فإِنْ كانَتِ القِصَّةُ واحدةً فقد بيَّنَ أَنَّه ﷺ دعَا لهما وشفَعَ، وإِنْ كانَتْ قِصَّةً أُخْرى فيكونُ المعْنَى فيهما واحدًا والله أعلم»[2].

❑ ❑ ❑

---

(١) م(٣٠١٢/٢٣٠٦و٢٣٠٧/ ٤).

(٢) إكمال المعلم (١٢٠/ ٢).

أسباب عذاب القبر (٢)

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا؟ قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ الله أَنْ يَقُصَّ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَان، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي: انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَهَدْهَدُ الحجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المرَّةَ الأُولَى. قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ الله! مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالاَ لِي: انْطَلِقْ انْطَلِقْ. قَالَ: فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المرَّةَ الأولَى، قَالَ: قُلْتُ سُبْحَانَ الله! مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالاَ لِي انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، قَالَ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللهبُ ضَوْضَوْا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلاءِ؟ قَالَ: قَالا لِي انْطَلِقِ انْطَلِقْ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَانِ؟ قَالَ: قَالاَ لِي انْطَلِقِ انْطَلِقْ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ المرْآةِ، كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجُلاً مَرْآةً،

وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَذَا؟ قَالَ: قَالاَ لِي انْطَلِقِ انْطَلِقْ، فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ، فِيهَا مِنْ كُلِّ لَوْنِ الرَّبِيعِ، وَإِذَا بَيْنَ ظَهْرَيِ الرَّوْضَةِ رَجُلٌ طَوِيلٌ لاَ أَكَادُ أَرَى رَأْسَهُ طُولاً فِي السَّمَاءِ، وَإِذَا حَوْلَ الرَّجُلِ مِنْ أَكْثَرِ وِلْدَانٍ رَأَيْتُهُمْ قَطُّ، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا مَا هَذَا؟ مَا هَؤُلاَءِ؟ قَالَ: قَالاَ لِي انْطَلِقِ انْطَلِقْ، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ عَظِيمَةٍ لَمْ أَرَ رَوْضَةً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْهَا وَلا أَحْسَنَ، قَالَ: قَالاَ لِي ارْقَ فِيهَا، قَالَ فَارْتَقَيْنَا فِيهَا فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَأَتَيْنَا بَابَ المدِينَةِ فَاسْتَفْتَحْنَا فَفُتِحَ لَنَا، فَدَخَلْنَاهَا، فَتَلَقَّانَا فِيهَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالَ: قَالاَ لَهُمُ اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهَرِ، قَالَ: وَإِذَا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يَجْرِي كَأَنَّ مَاءَهُ المحْضُ فِي الْبَيَاضِ، فَذَهَبُوا فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالَ: قَالاَ لِي هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالَ: فَسَمَا بَصَرِي صُعُدًا، فَإِذَا قَصْرٌ مِثْلُ الرَّبَابَةِ الْبَيْضَاءِ قَالَ: قَالاَ لِي هَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالَ قُلْتُ لَهُمَا: بَارَكَ الله فِيكُمَا، ذَرَانِي فَأَدْخُلَهُ، قَالاَ أَمَّا الآنَ فَلاَ وَأَنْتَ دَاخِلَهُ، قَالَ قُلْتُ لَهُمَا: فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ مُنْذُ اللَّيْلَةِ عَجَبًا! فَمَا هَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَ: قَالاَ لِي أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحجَرِ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ، وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحجَرَ فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيهُ المرْآةِ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جَهَنَّمَ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرَّوْضَةِ فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمُ ﷺ، وَأَمَّا الْوِلْدَانُ الَّذِينَ حَوْلَهُ فَكُلُّ مَوْلُودٍ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُ المسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ الله! وَأَوْلاَدُ المشْرِكِينَ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَأَوْلاَدُ المشْرِكِينَ،

وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنًا وَشَطْرٌ قَبِيحًا فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ الله عَنْهُمْ»(١).

قد تضمَّنَ هذا الحديثُ خمْسةَ أسْبابٍ من أسْبابِ عذابِ القبْرِ:

الأوَّل والثاني: رَفْضُ القرْآنَ، والنَّوْمُ عنِ الصَّلاةِ المكتوبة:

إنَّ القُرْآنَ الكريمَ هو حبْلُ الله المتين، وهو النُّورُ المُبين، والصِّراطُ المُسْتقيم، عِصْمةٌ لمنْ تمسَّكَ به، ونجاةٌ لمنِ اتَّبعه، ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢) ﴾[فصلت].

فيهِ نبأُ ما قبْلكم، وخبرُ ما بعْدكم، وحُكمُ ما بيْنكم، هو الفصْلُ ليسَ بالهزْل، منْ تركهُ منْ جبَّارٍ قصمهُ الله، ومنِ ابْتغى الهُدى في غيْرِهِ أضلَّهُ الله، وقد تكفَّلَ الله تعالى لمنْ قرأَ القرْآنَ وعملَ بما فيهِ أن لا يضِلَّ في الدُّنْيا ولا يشْقى في الآخِرة، فقال تعالى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) ﴾[طه].

وقِراءةُ القُرْآنِ قُرْبةٌ منْ أعْظَمِ القُرب، وعِبادةٌ من أجلِّ العبادات، يُعْطي الله تباركَ وتعالى عليْها منَ الأجْرِ والثَّوابِ ما لا يُعْطي على غيْرِها، وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ كثْرةَ هذا الأجْرِ بقوْله: « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لاَ أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»(٢).

---

(١) خ(٧٠٧٤/٤٣٨/١٢).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٩١٠]، ت(٣٠٧٥/٢٤٨/٤).

وأخبرَ ﷺ أنَّ القُرْآنَ يرْفعُ صاحِبَهُ في الدُّنيا والآخِرة:

عَنْ عَامِرِ بْنِ وَاثِلَةَ أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الحارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى. قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ الله يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[1].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»[2].

ولكنَّ المُرادَ بصاحِبِ القُرْآنِ هو الذي يُلازِمُ تلاوتَهُ والعملَ به، ولذلكَ اقترنَ العملُ بالتِّلاوةِ اقْتِرانَهُ بالإيمانِ، قال تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت].

وأمرَ رسُولَهُ ﷺ أنْ يُصرِّحَ بهذا الأمْرِ فقال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر].

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا

---

(١) م(٨١٧/ ٥٥٩/ ١).

(٢) حسن صحيح: [ص.د: ١٣٠٠]، د(١٤٥١/ ٣٣٨/ ٤)، ت(٣٠٨/ ٢٥٠/ ٤).

رَسُولُ الله ﷺ ثَلاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[١].

ولذلكَ «قال بعْضُ العُلماء: إنَّ منْ عمِلَ بالقُرْآنِ فكأنَّهُ يقرؤُهُ دائمًا وإنْ لمْ يقرأْه، ومنْ لمْ يعْملْ بالقرآنِ فكأنَّما لمْ يقْرأْهُ وإنْ قرأهُ دائمًا، وقد قال الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ(٢٩)﴾[ص]، فمُجرَّدُ التِّلاوةِ والحِفْظِ لا يُعْتبرُ اعْتِبارًا يترتَّبُ عليهِ المراتِبُ العليَّةُ في الجنَّةِ العالية»[٢].

وهذا معنى قوْلِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ(١٢١)﴾[البقرة].

«عنِ ابنِ عبَّاسٍ قال: يتَّبِعونَهُ حقَّ اتِّباعه. وعنِ ابْنِ مسْعودٍ قال: والَّذي نفْسي بيده! إنَّ حقَّ تلاوتِهِ أنْ يُحِلَّ حلالَه، ويُحرِّمَ حرامَه، ويقْرأَهُ كما أنْزَلهُ الله، ولا يُحرِّفُ الكلمَ عن مواضِعه، ولا يتأوَّلَ منهُ شيْئًا على غيْرِ تأْويله.

وعنْ قيْسِ بنِ سعْدٍ قال: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ يتَّبِعُونهُ حقَّ اتِّباعه، ألمْ ترَ إلى قوْله: ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا(٢)﴾[الشمس]، يعْني الشَّمْسَ إذا تبِعها القمر.

وعنِ الحسنِ قال: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ يعْملونَ بمُحْكَمِه، ويؤمنونَ بمُتشابِهِه، ويكِلُونَ ما أشْكلَ عليهم إلى عالِمِه»[٣].

فمنْ قرأَ القُرْآنَ وعمِلَ بما فيهِ كانَ القُرآنُ حجَّةً له، ومنْ قرأَ القُرآنَ ولمْ يعْملْ بما فيهِ فقد رفضَ القرآنَ بعْدَ أنْ أوتيَه، وكانَ القرآنُ حُجَّةً عليه، وعُذِّبَ على ذلكَ في القبْر.

---

(١) م(٨٠٥/ ٥٥٤/ ١)، ت(٣٠٤٥/ ٢٣٥/ ٤).

(٢) عون المعبود (٣٣٩/ ٤).

(٣) جامع البيان (٥١٩و٥٢٠/ ١).

كما في الحديث: «وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ، فَيَتَهَدْهَدُ الحجَرُ هَا هُنَا، فَيَتْبَعُ الحجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ المرَّةَ الأُولَى. قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ الله! مَا هَذَانِ؟ قَالاَ: إِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المكْتُوبَةِ».

قال الحافظُ ابنُ حجر: «قال ابنُ هبيرة: رفْضُ القرآنِ بعْدَ حِفْظهِ جنايةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّهُ يوهِمُ أَنَّهُ رأى فيهِ ما يوجِبُ رفْضَه، فلمَّا رفضَ أشْرفَ الأشْياءِ وهو القرآنُ عوقِبَ في أشْرفِ أعْضائِهِ وهو الرَّأس»[1].

فالواجبُ على منْ حفِظَ القرْآنَ أنْ يتعاهدَهُ كما وصَّى النبيُّ ﷺ حيْثُ قال: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ هُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[2].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»

وَزَادَ مسلم «وَإِذَا قَامَ صَاحِبُ الْقُرْآنِ فَقَرَأَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ذَكَرَهُ، وَإِذَا لَمْ يَقُمْ بِهِ نَسِيَهُ»[3].

وقد أفادَ الحديثُ أنَّ النَّوْمَ عنِ الصَّلاةِ المكْتوبةِ مُتعمَّدًا كبيرةٌ من الكبائرِ التي توجِبُ عذابَ القبْرِ، ولذلكَ «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ» مخافةَ خُروجِ وقْتِها، ويكْرهُ «الحدِيثَ بَعْدَهَا»[4] مخافةَ خُروجِ الفجْرِ عنْ وقْته.

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «سِرْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: لَوْ عَرَّسْتَ بِنَا يَا رَسُولَ الله! قَالَ: أَخَافُ أَنْ تَنَامُوا عَنِ الصَّلاَةِ! قَالَ بِلاَلٌ: أَنَا أُوقِظُكُمْ.

---

(١) فتح الباري (٤٤٤/ ١٢).

(٢) متفق عليه: خ(٥٠٣٣/ ٧٩/ ٩)، م(٧٩١/ ٥٤٥/ ١).

(٣) متفق عليه: خ(٥٠٣١/ ٧٩/ ٩)، م(٧٨٩/ ٥٤٣/ ١)، ن(١٥٤/ ٢).

(٤) متفق عليه: خ(٥٤٧/ ٢٦/ ٢)، م(٦٤٧/ ٤٤٧/ ١).

فَاضْطَجَعُوا»[1]، فلم يأذنْ لهم ﷺ في النَّوْمِ مع كونِهم مُجْهدينَ منَ السَّيْرِ في السَّفرِ مخافةَ أنْ تفوتَهمُ الصَّلاة، حتى تعهَّدَ بلالٌ بأنْ يسْهرَ هو ليحْرُسَ لهمُ الوقْت، فإذا طلعَ الفجْرُ أيْقظهم.

وهكذا يجبُ على كلِّ منْ نامَ أنْ يأخُذَ بالأسْبابِ التي يبْعَثُهُ الله منْ نوْمِهِ بها، أمَّا أنْ ينامَ الرَّجُلُ غيْرَ عازِمٍ على الصَّلاةِ في أوَّلِ وقْتها فقدْ عرَّضَ نفْسَهُ لذلكَ الوعيد، والعياذُ بالله.

السَّببُ الثَّالثُ من أسْبابِ عذابِ القبْر: الكذب:

« وهوَ الإخْبارُ بالشيءِ على خلافِ ما هو عليه»[2]، « وهوَ منْ قبائحِ الذُّنوبِ وفواحشِ العُيوب»[3]، ولا يتحرَّاهُ إلاَّ كافِرٌ أوْ مُنافِق.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ**(١٠٥)﴾ [النحل].

وقال تعالى عنِ المنافقين: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**(١٠)﴾[البقرة].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ المنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»[4].

ولذلكَ قابلَ الله تعالى الكافرينَ بالصَّادقينَ فقال: ﴿**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا**(٨)﴾ [الأحزاب]، فالصَّادقونَ همُ المؤمنون، والكافرونَ همُ الكاذبون، ولذلكَ إذا كانَ يوْمُ القيامة، ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**(١٠٦)﴾[آل عمران]، تبْيضُّ وُجوهُ الصَّادقين، وتسْودُّ وُجوهُ الكاذبين، كما قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى الله وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ**(٦٠)﴾ [الزمر].

---

(١) خ(٥٩٥/ ٦٦/ ٢)، ن(٢٩٤و٢٩٥/ ١).

(٢) فتح الباري (٢٤٢/ ٦)، كذا في نضرة النعيم (٥٨٣٢/ ١١).

(٣) إحياء علوم الدين (١٣٣/ ٣).

(٤) متفق عليه: خ(٣٣/ ٨٩/ ١)، م(٥٩/ ٧٨/ ١)، ت(٢٧٦٦/ ١٣٠/ ٤)، ن(١١٧/ ٨).

فالْكذِبُ كبيرةٌ منَ الكبائر، وأعْظمُهُ إنَّما الكذِبُ على الله:

ومنَ الكذِبِ على الله: وصْفُهُ تعالى بما لمْ يصِفْ بِهِ نفْسَهُ ممَّا لا يليقُ بجلاله، ولذلك قال الله تعالى عنِ المشْركين: ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ(١٥١) وَلَدَ الله وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(١٥٢) ﴾ [الصافات].

وقال تعالى عنِ القرآنِ الكريم: ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا(٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا(٥) ﴾ [الكهف].

ومنَ الكذبِ على الله: التَّحليلُ والتَّحْريمُ بلا هدًى ولا كتابٍ منير، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ الله لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آلله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ(٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(٦٠) ﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى الله الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ(١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١١٧) ﴾ [النحل].

ومن الكذبِ على الله: أنْ يدَّعِيَ الرَّجُلُ أنَّهُ رأى في المنامِ كذا وكذا، وهو لم يرَ شيئًا: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ »(١).

وأعْظمُ الكذبِ إنَّما بعْدَ الكذب على الله تعالى الكذِبُ على رسولِ الله ﷺ:

عَنِ الْمُغِيرَةِ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(٢).

---

(١) خ(٧٠٤٢/ ٤٢٧/ ١٢)، ت(٢٣٨٥/ ٣٦٧/ ٣)، د(٥٠٠٣/ ٣٦٧/ ١٣).

(٢) متفق عليه: خ(١٢٩١/ ١٦٠/ ٣)، م(٤/ ١٠/ ١).

ويلي ذلكَ في الإثمِ أنْ يكْذِبَ الرجُلُ في يمينهِ ليُضيِّعَ حقَّ أخيه:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّةَ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ الله! قَالَ: وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»(١).

فالكذِبُ يوجِبُ عذابَ النَّارِ في الآخِرةِ وعذابَ القبْرِ في البرْزخ، كما في الحديث: «فَانْطَلَقْنَا، فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وَإِذَا آخَرُ قَائِمٌ عَلَيْهِ بِكَلُّوبٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَّيْ وَجْهِهِ فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرَهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الجَانِبِ الآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالجَانِبِ الأَوَّلِ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الجَانِبُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ المَرَّةَ الأولَى، قَالَ: قُلْتُ سُبْحَانَ الله! مَا هَذَانِ؟ قَالاَ: إِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ».

فعليكم بالصِّدْقِ، وإيّاكم والكذب، فـ«إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا»(٢).

الرَّابعُ من أسْبابِ عذابِ القبر: الزِّنا:

إنَّ الله تعالى خلقَ الزَّوْجيْنِ الذَّكرَ والأنثى، وجعل في كلٍّ منهما ميْلاً نحْوَ الآخَرِ من أجْلِ أنْ يتَّصِلا الاتِّصالَ المُباحَ الذي تدورُ به عجلةُ الحياة، وتخْرجُ به الذُّرِّيَّةُ التي قدَّرها الله، وقد حرَّمَ الله تعالى الاتِّصالَ بيْنَ الجِنْسيْنِ بأيِّ طريقةٍ غيْرِ طريقةِ النِّكاح، وعدَّ منْ سلكَ الطُّرُقَ المُحرَّمةَ مُعْتدِيًا باغِيًا، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥) إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧)﴾[المؤمنون].

---

(١) م(١٣٧/١٢٢/١)، ن(٢٤٦/٨).

(٢) متفق عليه: خ(٦٠٩٤/٥٠٧/١٠)، م(٢٦٠٧/٢٠١٢/٤)، د(٤٩٦٨/٣٣٣/١٣)، ت(٢٠٣٨/٢٣٤/٣).

وتوعَّد الله تعالى أولئك البُغاةَ بأشدِّ أنواعِ العقُوبات في الدُّنيا، والبرزخ، والآخرة، أمَّا في الدُّنيا فالجَلْدُ للأعْزَبِ، والرَّجْمُ للمُحْصَن.

أمَّا الأوَّل فقد قال الله تعالى فيه: ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ الله إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢) ﴾[النور].

وأمَّا الثَّاني فقد رجمَ رَسُولُ الله ﷺ ورجَمَ الصَّحابَةُ مِنْ بعْدَه.

وأمَّا عقوبَةُ الزِّنا في البرْزَخِ فهي المَذْكُورُة في قوله ﷺ: «فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، قَالَ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ، قَالَ فَاطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللهبُ ضَوْضَوْا، قَالَ: قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلاءِ؟ قَالَ: فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي».

وأمَّا عقُوبَتُهم في الآخرة فقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ الله إِلَهًا ءَاخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(٦٩) ﴾[الفرقان].

ولكنَّ بابَ التَّوْبَةِ مفْتوحٌ والله يتوبُ على من تابَ، ولذلك اسْتَثْنى مِنْ هذه العقُوبةِ التَّائبين فقال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا(٧٠) ﴾[الفرقان].

فيا معْشرَ المؤمنين: احْفَظُوا فُروجَكم، ويا معْشرَ الْمُؤْمِنَات: احْفَظْنَ فُروجَكُنَّ، قال تعالى: ﴿ قُلْ لِلمؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ الله خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٣٠) وَقُلْ لِلمؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ(٣١) ﴾[النور].

يا أيُّها الرَّجلُ الَّذي ينْتَهِكُ أعْراضَ المسْلِمِينَ! قِفْ معَ نَفْسِكَ وقْفَةَ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ ومُحاسَبة، وقُلْ يا فلانُ: أتُحِبُّ هذا لأُمِّك؟ أتُحِبُّه لأُختك؟ أتُحِبُّه لخالتك؟ أتُحِبُّه لعمَّتك؟ أتحبُّه لامرأتك؟ أتحبُّه لابْنَتك؟ وسيكونُ جوابُ العَقْل: لاَ، لاَ، لاَ، فَقُلْ: فَمَا بالُكَ تَنْتَهِكُ عوْراتِ المسْلمين وهم إخْوانُك، وهذهِ المرْأَةُ الَّتي خَدَعْتَها حتَّى أخذْتَ منْها ما أخذْتَ هي أُمُّ فُلانٍ، أو خَالَتُه، أو عمَّتُه، أو بنْتُه، أو امرأتُه، فما لا تُحِبُّه لنسائِك اكْرَهْهُ لنسَاءِ المسْلمين.

فإنْ انْتَفَعْتَ بهذا وإلاَّ فَقُلْ: يا فلان! لقَدْ قَالُوا: كما تَدِينُ تُدَان، والجزاءُ من جنْسِ العمل، فاحْذَرْ يا فُلانُ إذا انْتَهَكْتَ أعْرَاضَ النَّاس أنْ ينْتَهِكُوا عِرْضَكَ فقد قال ذلِكُمُ الحكيمُ:

إنَّ الزِّنَــا دَيْـــنٌ إنْ أقْرَضْـــتَهُ كانَ الوَفَا مِنْ أهْلِ بَيْتِكَ فاعْلَمِ

فهل لكَ أنْ تُقْلِعَ عن هذه الفاحِشةِ وتصونَ حُرماتِ المسْلمين فيصُونُوا حُرْمتَك.

وأنْتِ أيَّتُها المرْأَةُ بكْرًا كُنْتِ أو ثَيِّبًا: احْفَظِي فَرْجك، وصُونِي عِرْضَك، وحَافظِي على شَرَفكِ وشَرفِ أهْلِك، واعْلَمِي أنَّ هذا الرَّجُلَ الَّذي يُعاكِسُكِ ويُطاردُكِ ذِئْبٌ مُفْتَرِسٌ، يريدُ أنْ ينْهشَ لحْمَك، ويُدنِّسَ عِرْضَك، ثُمَّ يذَركِ متلطِّخةً بالعارِ والشَّنار، فإنْ كنْتِ بكْرًا وعُرِفَ ذلك عنْكِ فلنْ يقْربَكِ أحد، فإمَّا أنْ تَتُوبِي إلى الله وتسْتَغْفِريه وتظلِّيّ طُولَ عُمركِ محْرومَةً من مُتْعَةِ الحلالِ بسبَبِ ما تعْجَلْتِ مِنْ مُتْعَةِ الحرام، وإمَّا أنْ يسْتَهويَكِ الشَّيْطَانُ فتكونين دائماً وأبدًا فريسةَ الذئاب التي تَنْتَقِلُ من جيفةٍ إلى جيفة، وَأمَّا إنْ كنْتِ ثَيِّبًا فقد جلَبْتِ العارَ لنفْسِك وأهْلكِ وزَوْجكِ وولَدك، ولن يُطِيقَ زَوْجُكِ مُعاشرَتَكِ فَيُطَلِّقك، فإمَّا أنْ تظلِّي حبيسةَ بيْتِ أبيك، وإمَّا أنْ تكوني عُرْضَةً للذئاب دائمًا وأبدًا، فَلْتُفكِّرِ المرْأَةُ ألْفَ مرَّةٍ ومرَّةٍ قَبْلَ أنْ تستجيبَ لداعِي الحرام.

الخامسُ من أسْبابِ عذابِ القبر: الربا:

إنَّ الله تعالى خلقَ الخلْقَ وقدَّرَ لهم أرزَاقَهم وأمرَهم باكْتِسابها بما أباحَ لهم مِنْ وسَائِلِ الكَسْبِ، ونهاهم عن الكَسْبِ الحرام فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ(١٦٩) ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرًا(٣٠) ﴾[النساء].

عن أبي أمامة أنَّ رسول الله ﷺ قال: « إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي، أَنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتَى تَسْتَكْمِلَ أَجَلَها، وتَسْتَوعِبَ رِزْقَها، فَاتَّقُوا الله، وأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، ولاَ يَحْمِلَنَّ أَحَدَكُمُ اسْتِبِطَاءُ الرِّزقِ أَنْ يَطْلُبَه بِمَعْصِيةِ الله، فَإِنَّ الله تَعَالى لاَ يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ »[١].

ومِنَ الكَسْبِ الحَرام: أكْلُ الرِّبا، وهو مُحَرَّمٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجْماعِ الأُمة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا الله وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله وَرَسُولِهِ(٢٧٩) ﴾[البقرة].

« وهي حرْبٌ على الأعْصابِ والقلوب، وحرْبٌ على البركةِ والرَّخاء، وحرْبٌ على السَّعادةِ والطُّمأنينَة، وحرْبٌ على الأمْنِ والأمان »[٢]، فلا ترى المُرابِيَ إلاَّ قلِقًا مُضْطرِبًا، خائفًا بائسًا، حزينًا كئيبًا، يشْكو منْ تعبِ أعْصابه، وقِلَّةِ راحته، وانْشغالِ بالِه، ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٣٣) ﴾[المائدة].

---

(١) صحيح: [ص.ج:٢٠٨١]، وعزاه السيوطي لأبي نعيم في الحلية.

(٢) في ظلال القرآن (٤٨٦/ ١).

كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٧٥)﴾[البقرة].

ولكنَّ المُرابينَ لا يخافونَ عذابَ الآخِرة، لذلكَ هدَّدهمُ الله تعالى بمحْقِ ما يجمعونَ فقال: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ(٢٧٦)﴾[البقرة].

ولقدْ عدَّ النبيُّ ﷺ الرِّبا من كبائرِ الذُّنوبِ المُهلِكةِ فقال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الموبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المحْصَنَاتِ المؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ»[1].

وشدَّدَ ﷺ الوعيدَ والنَّكيرَ على آكلي الرِّبا فقال: «دِرْهَمُ رِبًا يَأْكُلُهُ الرَّجُلُ وَهوَ يَعْلَمُ أَشَدُّ عِنْدَ اللهِ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلاثِينَ زَنْيَةً»[2].

وعن ابنِ مسْعودٍ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «الرِّبَا ثَلاَثَةٌ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَيْسَرُهَا مِثْلُ أَنْ يَنْكِحَ الرَّجُلُ أُمَّه»[3].

فيا آكِلَ الرِّبا اتَّقِ اللهَ وتُبْ إليْه، وأقْلِعْ عمَّا أنتَ فيهِ قبْلَ أنْ يُصيبَكَ وعيدُ اللهِ في الدُّنيا بالمحْقِ، وفي القبْرِ بالعذابِ الذي وصفهُ النبيُّ ﷺ بقوْله: «فَانْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهَرٍ حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي النَّهَرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهَرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحجَارَةَ فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا، فَيَنْطَلِقُ يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ، كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا، قَالَ: قُلْتُ لهُمَا: مَا هَذَانِ؟ قَالاَ: إِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا».

---

(١) متفق عليه: خ(٢٧٦٦/ ٣٩٣/ ٥)، م(٨٩/ ٩٢/ ١)، د(٢٨٥٧/ ٧٧/ ٨)، ن(٢٥٧/ ٦).

(٢) صحيح: [ص.ج:٣٣٧٥]، حم(٢٣٠/ ٦٩/ ١٥).

(٣) صحيح: [ص.ج:٣٥٣٩]، ك(٣٧/ ٢).

قال الحافظُ ابنُ حجر: « قال ابنُ هبيرة: إنَّما عوقِبَ آكل الرِّبا بسِباحَتِهِ في النَّهْرِ الأحْمرِ وإلْقامِهِ الحجارةَ؛ لأنَّ أصْلَ الرِّبا يجْري في الذَّهب، والذَّهبُ أحْمر، وأمَّا إلْقامُ المَلَكِ لهُ الحجرَ فإنَّهُ إشارةٌ إلى أنَّهُ لا يُغْني عنْهُ شيْئًا، وكذلكَ الرِّبا، فإنَّ صاحِبَهُ يتخيَّلُ أنَّ مالَهُ يزيد، والله منْ ورائِهِ مُمْحِقُّه»[1]. والعياذُ بالله.

❑ ❑ ❑

(١) فتح الباري (١٢/٤٤٥).

المنجيات من عذاب القبر (١)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النبيِّ ﷺ قَال: « إِنَّ الميِّتَ إِذَ وُضِعَ في قَبْرِهِ إِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ، فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَانَتِ الصَّلاَةُ عِنْدَ رَأْسِه، وَكَانَ الصِّيَامُ عَنْ يَمِينِه، وَكَانَتِ الزَّكَاةُ عَنْ شِمَالِه، وَكَانَ فِعْلُ الْخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ والصَّلاَةِ والمعْرُوفِ والإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عِنْدَ رِجْلَيْه، فَيُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ فتَقُولُ الصَّلاَةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَل، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَمِينِهِ فَيقُولُ الصِّيَامُ: مَا قِبَلِي مَدْخَل، ثُمَّ يُؤْتَى عَنْ يَسَارِهِ فَتَقُولُ الزَّكَاةُ: مَا قِبَلِي مَدْخَل، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ فَيقُولُ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصَّلاَةِ وَالمعْرُوفِ وَالإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ: مَا قِبَلِي مَدْخَل، فَيُقَالُ لَهُ: اجْلِسْ، فَيَجْلِسُ قَدْ مُثِّلَتْ لَهُ الشَّمْسُ، وَقَدْ آذَنَتْ لِلْغُرُوب، فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذي كَانَ قِبلَكُمْ، مَا تَقُولُ فِيه؟ وَمَاذَا تَشْهَدُ عَلَيْه؟ فَيقُول: دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّي، فَيقُولُونَ: إِنَّكَ سَتفْعَل، أَخْبِرْنَا عَمَّا نَسْأَلُكَ عَنْه، أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذي كَانَ قِبَلَكُمْ، مَا تَقُولُ فِيه؟ وَمَاذَا تَشْهَدُ عَلَيْه؟ فَيقُولُ: مُحَمَّدٌ! أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِالحَقِّ مِنْ عِنْدِ الله، فَيُقَالُ لَهُ: عَلَى ذَلِكَ حَيِيتَ، وَعَلَى ذَلِكَ مُتَّ، وَعَلَى ذَلِكَ تُبْعَثُ إِنْ شَاءَ الله، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوابِ الجَنَّة، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ مِنْهَا، وَمَا أَعَدَّ الله لَكَ فِيهَا، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّار، فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقعَدُكَ وَمَا أَعَدَّ الله لَكَ فِيهَا لَوْ عَصَيْتَه، فَيَزْدَادُ غِبْطَةً وَسُرُورًا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، وَيُعَادُ الجَسَدُ لِمَا بُدِئَ مِنْهُ، فَتُجْعَلُ نَسَمَتُهُ فِي النَّسَمِ الطَّيِّب، وَهِيَ طَيْرٌ تَعْلَقُ مِنْ شَجَرِ الجَنَّة، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ الله الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ الله مَا يَشَاءُ(٢٧) ﴾[إبراهيم]»[١].

---

(١) حسن: [ص.تغ:٣٥٦١]، طس(٩٤٣٨/ ٢٧٧/ ٩) مختصرًا، حب(٧٨١/ ١٩٧و١٩٨) واللفظ له.

«مِنَ الأسْبابِ المُنْجِيَةِ مِنْ عذابِ القَبْرِ العِلم بالله وخَشْيَتُهُ وتَقْواه، والامتثالُ لأمْرِه، والوقوفُ عند نَهْيِه وزَجْرِه، وتَجنُّبُ الأسْبابِ المُفْضِيَةِ للعذاب، ومن أنفع ذلك أنْ تجلسَ عنْد المَنامِ ساعةً تحاسِبُ فيها نفْسَك، ثُمَّ تجدِّدُ لكل ذنْبٍ توبةً نصوحًا، وتنامُ على تلكَ التَّوْبَة، فإنْ مِتَّ، وإلاَّ اسْتَيْقظْتَ مُسْتَقْبِلاً للعَملِ مسرورًا بتأخيرِ الأجلِ حتَّى تسْتَقْبِلَ ربَّكَ وتسْتَدْركَ ما فاتَك، وليس للعَبْدِ أنْفعُ مِنْ هذه التَّوْبَةِ لاسيَّما إذا عقَّبَ ذلكَ بذِكْرِ الله، واسْتَعْملَ السُّنَنَ الَّتي وردَتْ عنْ رَسُولِ الله ﷺ حتَّى يغْلِبَهُ النَّوْم. هذا وقد عيَّن النَّبيُّ ﷺ للنَّجاةِ من عذَابِ القَبْرِ أسبابًا فعلَيْك بها»[1].

ومِنْ هذه الأسْبابِ ما جاء في هذا الحديثِ مِنَ الصَّلاَةِ والصِّيامِ والزَّكاةِ وفِعْلِ الخَيْر.

أمَّا الصَّلاةُ فهي عمودُ الدِّين، وأعْظَمُ حقٍّ لله ربِّ العالمين، لذلك فرضَها بنَفْسِه ليْلَةَ المِعْراجِ مُشافَهةً منْهُ لرسُولِه ﷺ مِنْ وراءِ حجابٍ بلاَ وَاسِطَةِ المَلَك، وأكْثرَ في القُرْآنِ الكريم من الأمْرِ بإقامتِها ومدْحِ مُقِيميها.

قال تعالى: ﴿ **أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا** ﴾[الإسراء].

وقال تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[النور].

وقال تعالى: ﴿ **قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ** ﴾[إبراهيم].

ورغَّبَ سبْحانه وتعالى في إقامتِها ببيانِ فَضْلِها وعظيمِ ثوَابِها وأجْرِها:

(١) الفتح الرباني (١٤٥و١٤٦/٨).

فبيَّنَ سبحانهُ وتعالى أنَّ الصَّلاةَ تُطهِّرُ الإنسانَ من الأخلاقِ الدَّنيئةِ والصِّفاتِ القبيحة، فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ(٤٥) ﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ(٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ(٢٣) ﴾[المعارج].

وعن أبي هريرةَ قال: قيل يا رسولَ الله! إنَّ فُلانًا يُصلِّي اللَّيلَ كُلَّه، فإذا أصْبحَ سرَق! فقال: « سَيَنْهَاهُ مَا تَقُول-أو قال-: سَتَمْنَعُهُ صَلاتُه»[1].

وأخبرَ سبحانهُ أنَّ الصَّلاةَ تُطهِّرُ الإنسانَ منْ دَنسِ الذَّنْبِ إذا صلى بعْدَه، فقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ(١١٤) ﴾[هود].

وَعَنْ عُثْمَانَ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ، فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا»[2].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ! قَالَ: وَلَمْ يَسْأَلْهُ عَنْهُ. قَالَ: وَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَصَلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ الصَّلاَةَ قَامَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللهِ! قَالَ: أَلَيْسَ قَدْ صَلَّيْتَ مَعَنَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ أَوْ قَالَ حَدَّكَ»[3].

---

(١) إسناده صحيح: [س.ض:١٦/ ١]، حم(٢٢/ ٢٠٥/ ٢)، بز(٧٢١/ ٣٤٦/ ١)، طح في مشكل الآثار (٦٠١/ ٦٠٤/ ١).

(٢) م(٢٣١/ ٢٠٧و٢٠٨/ ١).

(٣) متفق عليه: خ(٦٨٢٣/ ١٣٣/ ١٢)، م(٢٧٦٤/ ٢١١٧/ ٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَا»(١).

وأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ إقامَ الصلاةِ منْ أعْظَمِ أسْبابِ الرَّحْمةِ وموجباتِ الجنَّة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٥٦)﴾[النور].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٣٤) أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ(٣٥)﴾

[المعارج].

ثُمَّ بيَّنَ أنَّ منازِلَهم في الجنَّةِ هيَ أعلى المنازِلِ.

فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ(٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ(١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(١١)﴾ [المؤمنون].

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: «أَتَى النَّبِيَّ ﷺ النُّعْمَانُ بْنُ قَوْقَلٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ المَكْتُوبَةَ، وَحَرَّمْتُ الحَرَامَ، وَأَحْلَلْتُ الحلاَلَ، أَأَدْخُلُ الجَنَّةَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: نَعَمْ»(٢).

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللهُ عَلَى الْعِبَادِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الجَنَّةَ»(٣).

---

(١) متفق عليه: خ(٥٢٨/ ١١/ ٢)، م(٦٦٧/ ٤٦٢/ ١).

(٢) م(١٥/ ٤٤/ ١).

(٣) صحيح: [ص.د:١٢٥٨]، د(١٤٠٧/ ٢٩٤و٢٩٥/ ٤)، ن(٢٣٠/ ١).

ومن فضلِ الصَّلاةِ أنَّها تمنعُ عنْ المُصلِّي عذابَ القبْرِ إذا جاءهُ منْ قِبَلِ رأسِه، فتقولُ الصَّلاةُ المفروضةُ: ما قِبَلي مدْخل، ومن فضْلِ النَّافِلةِ أنَّها تمْنعُ عنِ المُصلِّي عذابَ القبْرِ إذا جاءهُ منْ قِبَلِ رِجْلَيْه، فيُسْتحبُّ لِلمصلِّي إذا حافظَ على الفريضةِ أنْ يأْتِيَ بالنَّافلة، وهيَ قِسْمان: مُقيَّدةٌ ومُطْلقة.

فالمُقيَّدةُ هيَ الرَّواتِبُ القبْليَّةُ والبعْدِيَّة، وهيَ ثِنْتا عشْرةَ ركْعة:

عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ»(١).

وَعَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ: أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ»(٢).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «رَحِمَ الله امْرَأً صَلَّى قَبْلَ الْعَصْرِ أَرْبَعًا»(٣).

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مُغَفَّلٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ، بَيْنَ كُلِّ أَذَانَيْنِ صَلَاةٌ، ثُمَّ قَالَ فِي الثَّالِثَةِ لِمَنْ شَاءَ»(٤).

وأمَّا النَّوافِلُ المُطْلقةُ: فمنها الضُّحى، وقِيامُ اللَّيْل، والصَّلاةُ بيْنَ العِشاءَيْن، والتَّطوُّعُ في غيْرِ أوْقاتِ الكراهة، وقد قال النبيُّ ﷺ: «**الصَّلاةُ خَيْرٌ مَوْضُوعٌ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ**»(٥).

---

(١) م(٧٢٨/ ٥٠٢و٥٠٣/ ١)، جه(١١٤١/ ٣٦١/ ١).

(٢) صحيح: [ص.ت:٤١٥]، ت(٤١٣/ ٢٥٩و٢٦٠/ ١)، جه(١١٤٠/ ٣٦١/ ١).

(٣) صحيح: [ص.ت:٣٥٤]، ت(٤٢٨/ ٢٧٠/ ١)، د(١٢٥٧/ ١٤٩/ ٤)

(٤) متفق عليه: خ(٦٢٧/ ١١٠/ ٢)، م(٨٣٨/ ٥٧٣/ ١)، د(١٢٦٩/ ١٦٢/ ٤)، ت(١٨٥/ ١٢٠/ ١)، ن(٢٨/ ٢)، جه(١١٦٢/ ٣٦٨/ ١).

(٥) حسن لغيره: [ص.تغ:٣٩٠]، طس(٢٤٥/ ١٣٣/ ١).

فاسْتَكْثِروا- رحمكمُ الله - من النَّافلةِ بعْدَ الفريضة، فإنَّ الصَّلاةَ من المُنْجِياتِ مِنْ عذابِ القبْر.

ومن المُنْجِياتِ الصِّيام، فإذا أُتِيَ الرَّجُلُ في قبْرِه مِنْ قِبَلِ يمينهِ قالَ الصِّيامُ: ما قِبَلِي مدْخل، فيمْنعُهُ الصِّيامُ من العذاب.

وصِيامُ رمضانَ رُكْنٌ منْ أرْكانِ الإسْلام، وهو منْ أفْضلِ الأعْمالِ وأحبِّها إلى الرَّحْمن، ولذلكَ اسْتأثرَ الله بِهِ دونَ سائرِ أعْمالِ الإنْسان:

عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلاَّ الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»(١).

ولِذلكَ لمْ يُحِدَّ الله عزَّ وجلَّ لجزائهِ حدًّا كما حدَّ لسائرِ الأعْمال، وإنَّما قال النبيُّ ﷺ: **«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الحسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ. قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: إلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي»**(٢).

ومن فضائلِ الصِّيامِ أنَّهُ يشْفعُ لصاحبِهِ يوْمَ القيامة:

عَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَة، يَقُولُ الصِّيَامُ: أيْ رَبِّ! مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ والشَّهْوَةَ فَشَفِّعْنِي فِيه، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيه، قَالَ: فَيُشَفَّعَان»(٣).

---

(١) متفق عليه: خ(١٩٠٤/ ١١٨/ ٤)، م(١١٥١-١٦٣-/ ٢٨٠٧/ ٤).

(٢) م(١١٥١-١٦٤-/ ٨٠٧/ ٢).

(٣) حسن صحيح: [ص.تغ: ٩٨٤]، حم(١١/ ٢١٦/ ٩)، ك(٥٥٤/ ١).

ومن فضائله أنّه يقي صاحِبَهُ من النّار:

عَنْ عُثْمَانَ بنِ أَبِي الْعَاصِي قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ، كَجُنَّةِ أَحَدِكُم مِنَ الْقِتَالِ»(١).

ومن فضائله أنّه يوجِبُ الجنّة:

عَنْ سَهْلٍ رَضِي الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»(٢).

فصُومُوا رمضانَ، فـ«مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(٣)، وأكْثِروا منْ نوافلِ الصِّيامِ ما اسْتَطعْتُم، فإنْ لمْ تفْعلوا فلا يَعْجزنَّ أحدُكم عن صيامِ ثلاثةِ أيّامٍ من كلِّ شهْرٍ:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِي الله عَنْهمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «صَوْمُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ مِنَ الشَّهْرِ صَوْمُ الشَّهْرِ كُلِّهِ»(٤).

ومن المُنْجِياتِ من عذابِ القبْرِ الزَّكاة:

وهيَ رُكْنٌ منْ أرْكانِ الإسْلام، وقدْ قُرِنتْ بالصَّلاةِ في اثْنتيْنِ وثَمانينَ آيةً من القُرْآن، وقدْ رغَّبَ الله تعالى في إيتائها ببيانِ فضْلها:

---

(١) صحيح: [ص.تغ:٩٨٢].

(٢) متفق عليه: خ(١٨٩٦/١١١/٤)، م(١١٥٢/٨٠٨/٢)، ن(١٦٨/٤)، ت(٧٦٢/١٣٢/٢)، جه(١٦٤٠/٥٢٥/١).

(٣) متفق عليه: خ(١٩٠١/١١٥/٤)، م(٧٦٠/٥٢٣/١)، ن(١٥٧/٤)، جه(١٦٤١/٥٢٦/١).

(٤) م(١١٥٩-١٨٧-/٨١٥و٨١٦/٢).

فأخبر سُبْحانهُ وتعالى أنَّها تُطهِّرُ الإنْسَانَ من الأخلاقِ الدَّنيئةِ والصِّفاتِ القبيحة، فقالَ تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣)﴾[التوبة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(١٩)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(٢٠)وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا(٢١)إِلاَّ المصَلِّينَ(٢٢)الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ(٢٣)وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ(٢٤)لِلسَّائِلِ وَالمحْرُوم(٢٥)﴾[المعارج].

وأخبر سُبْحانهُ أنَّ الزَّكاةَ منْ موجباتِ رحْمته:

فقال تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ(١٥٦)﴾[الأعراف].

وأخبر سبحانه أنَّ الزَّكاةَ تُطهِّرُ الإنْسَانَ من دنَسِ الذَّنْبِ:

فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(١٢)﴾[المائدة].

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعْتَ رَسُولَ الله ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: «اتَّقُوا الله رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ دَخَلْتُ الجَنَّةَ، قَالَ: تَعْبُدُ الله لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ المكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ المفْرُوضَةَ،

---

(١) صحيح: [ص.ت:٦١٦]، ت(٦١١/ ٦٢/ ١).

وَتَصُومُ رَمَضَانَ، قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»(١).

ومن فضائلها أَنْ تَمْنَعُ عن صاحِبها عذابَ القَبْر إذا أُتِيَ من قِبَلِ يساره، فإذا أتى من قِبَلِ رِجْلَيْهِ منعَتْه صدَقةُ التَّطوُّعِ، ولذلك رغَّبَ الله فيها كما رغَّبَ في الزَّكاةِ.

فقال تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ الله هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا(٢٠) ﴾ [المزمل].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ المصَّدِّقِينَ وَالمصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ(١٨) وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالله وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ(١٩) ﴾[الحديد].

وقد بيَّنَ النبي ﷺ أَنَّ للصدقةِ باباً.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ الله، نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ الله هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ»(٢).

ومن فَضائِلِ الصَّدقةِ أَنَّها تمحُو الخطايا كما قال النبي ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ تُطفِئُ

---

(١) متفق عليه: خ(١٣٩٧/ ٢١٦/ ٣)، م(١٤/ ٤٤/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(١٨٩٧/ ١١١/ ٤)، م(١٠٢٧/ ٧١١و٧١٢/ ٢)، ت(٣٧٥٦/ ٢٧٦/ ٥)، ن(٢٢و٢٣/ ٦).

الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الماءُ النَّارَ»(١).

وقال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ(٢٧١)﴾[البقرة].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ .... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»(٢).

ومن المُنجِيَاتِ من عذابِ القَبْر: صَنَائِعُ المَعْروفِ والإحْسانُ إلى للنَّاس، فإذا أُتِيَ الرَّجُل في قَبْرِه مِنْ رِجْلَيْه قالَ فِعْلُ الخيْراتِ مِنْ الصَّدقَةِ والصَّلاةِ والمَعْروفِ والإحْسانِ إِلَى النَّاس: ما قِبَلي مدخل.

إنَّ الإنْسانَ لا يعيشُ وحْدَه أبدًا، فهو في أُسْرَتِه في مُجْتَمعٍ صغير، وفي مدْرَستِه طالبًا أو مُعَلِّمًا في مُجْتَمعٍ أكبر، وفي المسْجدِ الجامِعِ في مُجْتَمعٍ، وفي الشَّارعِ والسُّوقِ في مُجْتَمعٍ، وقد فَرضَ الله على كلِّ فرْدٍ في أيِّ مُجْتَمعٍ كان أنْ يَحْسِنَ مُعاملةَ النَّاس وأَنْ يُعاشِرَهم بالمَعْرُوف.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا(٣٦)﴾[النساء].

ورغّبَ في الإحْسان فقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المحْسِنِينَ(١٩٥)﴾[البقرة].

---

(١) صحيح: [ص.ت:٦١٤]، ت(٦٠٩/ ٦١/ ٢).

(٢) متفق عليه: خ(٦٦٠/ ١٤٣/ ٢)، م(١٠٣١/ ٧١٥/ ٢)، ت(٢٥٠٠/ ٢٤و٢٥/ ٤).

وشَهِدَ للمُحْسِنينَ بالهُدى وحكَمَ لهم بالفلاح.

فقال تعالى: ﴿ الم(١)تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الحكِيمِ(٢)هُدًى وَرَحْمَةً لِلمحْسِنِينَ(٣)الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤)أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ(٥)﴾[لقمان].

وأَسْكَنهم الجنَّة بسبَب هذا الإحْسَانِ.

فقال تعالى: ﴿ إِنَّ المتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(١٥)ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(١٦)كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(١٧)وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(١٨)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالمحْرُومِ(١٩)﴾[الذاريات].

كما أمرَ سُبْحَانه بِفِعْل الْمعْروفِ.

فقالَ تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجْاهِلِينَ(١٩٩)﴾[الأعراف].

ووعَدَ عَلَى فِعْلِ الْمعْرُوفِ إيمانًا واحْتِسابًا أجْرًا عظيمًا.

فقال تعالى: ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(١١٤)﴾[النساء].

وبيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ أبْوابَ الْمعْرُوفِ كثيرة(١).

فقال: « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ مِنَ المعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ»(٢).

---

(١) انظر كتابي «خير الناس» فقد جمعت فيه من أبواب الخير الكثير والكثير.

(٢) صحيح: [ص.ت: ١٩٧٠]، ت(٢٠٣٧/ ٢٣٤/ ٣).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِيَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُّ سُلاَمَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ يَعْدِلُ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيُعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ، فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلاَةِ صَدَقَةٌ، وَيُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»[2].

❑ ❑ ❑

---

(١) م(٢٦٢٦/٢٠٢٦/٤).

(٢) متفق عليه: خ(٢٩٨٩/ ١٣٢/ ٦)، م(١٠٠٩/ ٦٩٩/ ٢).

المنجيات من عذاب القبر (٢)

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: يُؤْتَى الرَّجُلُ فِي قَبْرِهِ، فَتُؤْتَى رِجْلاهُ فَتَقُولُ رِجْلاهُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، كَانَ يَقْرَأُ بِي سُورَةَ الْمُلْكِ، ثُمَّ يُؤْتَى مِنْ قِبَلِ صَدْرِهِ أَوْ بَطْنِهِ، فَتَقُولُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، كَانَ يَقْرَأُ بِي سُورَةَ الْمُلْكِ، ثُمَّ يُؤْتَى رَأْسُهُ، فَتَقُولُ: لَيْسَ لَكُمْ عَلَى مَا قِبَلِي سَبِيلٌ، كَانَ يَقْرَأُ سُورَةَ الْمُلْكِ، فَهِيَ الْمَانِعَةُ تَمْنَعُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَهِيَ فِي التَّوْرَاةِ سُورَةُ الْمُلْكِ، مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْنَبَ»[1].

منَ المُنْجياتِ منْ عذابِ القبْرِ قِراءةُ القُرْآنِ عُمومًا، وقِراءةُ سُورةِ المُلْكِ خُصوصًا، وهيَ سورةٌ مكيَّةٌ شأنُها شأنُ السُّوَرِ المكيَّةِ في الاهْتمامِ بتَرْسيخِ العقيدةِ وبيانِ أُصولِ الدِّينِ وأرْكانِ الإيمانِ، وبخاصَّةٍ التوْحيد، والرِّسالة، والبعْث.

ولقدْ كانَ رسولُ الله ﷺ يقْرؤُها ويحثُّ على قِراءتِها:

عَنْ جَابِرٍ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لاَ يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ الم تَنْزِيلُ، وَتَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلاَثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ»[3].

وقد قرَّرَتِ الآيةُ الأولى منْها حقيقتَيْن:

الأولى: أنَّ المُلْكَ كُلَّهُ بيدِ الله وحْدَه.

والثَّانيَةُ: أنَّ الله على كلِّ شيْءٍ قدير.

---

(١) صحيح: ك(٤٩٨/ ٢)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في [س.ص: ١١٤٠]: «وهو في حكم المرفوع»، وقد أخرج الجملة الأخيرة منه مرفوعة أبو الشيخ في «طبقات الأصبهانيين» (٢٦٤).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٨٩٢]، ت(٣٠٥٤/ ٢٣٩/ ٤).

(٣) حسن: [ص.ت:٢٨٩١]، ت(٣٠٥٣/ ٢٣٨/ ٤)، د(١٣٨٧/ ٢٧٧/ ٤).

ثُمَّ جاءتِ الآياتُ التِّسْعُ والعِشْرُونَ تُؤَكِّدُ هاتيْنِ الحقيقتيْنِ وتُقرِّرُهما بأساليبَ مُخْتلفة.

ومعْنى قوْلِهِ تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تقدَّستْ أسْماؤُهُ، وعظُمتْ أوْصافُه، وكثُرتْ بركاتُه، وعمَّتْ خيْراتُه، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ فهوَ المالِكُ له، المُهيْمِنُ عليْه، القابضُ على ناصِيَتِه، المُتصرِّفُ فيه:

فهوَ يُولِّي منْ يشاء، ويعْزِلُ منْ يشاء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللهمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٦)﴾[آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ الله اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٤٧)﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(١٢٩)﴾[الأنعام].

وهوَ سُبحانهُ يرزقُ منْ يشاء، كما قال تعالى: ﴿الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(١٩)﴾[الشورى].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ(٣٩)﴾[سبأ].

ولوْ منعَ رِزْقَهُ عمَّنْ يشاءُ فلا رازِقَ له، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ(٢١)﴾[الملك].

والمطرُ منْ رزْقِ الله، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَنْ يُنِيبُ(١٣)﴾[غافر].

وقال تعالى: ﴿وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ الله مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ ءَايَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٥)﴾[الجاثية].

فإذا منعَ الله تعالى المطرَ عمَّنْ يشاءُ لمْ يأتِهِمْ غيْرُهُ به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ(٣٠)﴾[الملك].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ(٢١)وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(٢٢)﴾[الحجر].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ(١٨)﴾[المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ(٦٨)ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ(٦٩)لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ(٧٠)﴾[الواقعة].

وهوَ سُبحانهُ ينصُرُ منْ يشاءُ ويخْذُلُ منْ يشاء، كما قال تعالى: ﴿الم(١)غُلِبَتِ الرُّومُ(٢)فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣)فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤْمِنُونَ(٤)بِنَصْرِ الله يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(٥)﴾[الروم].

فمنْ نصرهُ الله فهوَ المنْصورُ وإنْ خذلهُ أهْلُ الأرْض، ومنْ خذلهُ الله فهوَ المخْذولُ، وإنْ نصرهُ أهْلُ الأرض، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤْمِنُونَ(١٦٠)﴾[آل عمران].

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا وَالله عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٤٠)﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ(٢٠)﴾[الملك].

حينَ عبدوا منْ دونِ الله ما لا يمْلِكُ لهم نصْرًا ولا يستطيعون، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ(٧٥)﴾[يس].

وقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَالاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ(١٩١) وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلاَ أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ(١٩٢)﴾[الأعراف].

فهذهِ بعْضُ الدِّلالاتِ على الحقيقةِ الأولى الَّتي قرَّرَتْها سورةُ المُلْك، وهيَ أنَّ المُلْكَ كُلَّهُ بيدِ الله وحْده، «وهي حقيقةٌ، حينَ تسْتقِرُّ في الضَّميرِ تُحدِّدُ لهُ الوِجْهةَ والمصير، وتُخلِّيهِ منَ التَّوجُّهِ أو الاعتمادِ أوِ الطَّلبِ منْ غيْرِ المالكِ المُهيْمنِ المُتصرِّفِ في هذا المُلْكِ بلا شريك، كما تُخلِّيهِ منَ العُبوديَّةِ والعبادةِ لغيْرِ المالكِ الواحدِ، والسيِّدِ الفريد»[١].

وهذهِ هي الغايةُ منْ إبْرازِ هذه الدَّلائلِ وإبْدائِها وإعادتِها في القرْآنِ الكريم، ولذلكَ قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لله أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٢)﴾[البقرة].

---

(١) في ظلال القرآن (٨/١٨٥).

أمّا الحقيقةُ الثّانية: فهيَ أنَّ الله على كُلِّ شيءٍ قدير، فالَّذي بيدهِ المُلْكُ يُصرِّفُهُ كيْفَ يشاءُ -كما رأينا- على كُلِّ شيْءٍ قدير، لا يَعْجزُ عنْ شيْءٍ، ولا يُعْجِزُهُ شيْءٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا(٤٤)﴾[فاطر].

فكلُّ مخلوقٍ فناصِيَتُهُ بيدِ الله، كما قال هودٌ عليه السلام لقوْمه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٦)﴾[هود]، ولذلكَ قال تعالى: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٥٧)﴾[النور].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ(٥٩)﴾ [الأنفال].

وقال تعالى حكايةً عنْ مؤمني الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا(١٢)﴾[الجن].

وهوَ سُبْحانهُ ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ(١٦)﴾[البروج]، لا رادَّ لِقضائه، ولا مُعقِّبَ لِحُكمِه، ولا غالِبَ لأمْرِه، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٨٢)﴾[يس].

«وهيَ حقيقةٌ حينَ تسْتقِرُّ في الضَّمير تُطْلِقُ تصوّرَهُ لمشِيئةِ الله وفِعْلِهِ منْ كلِّ قيْدٍ يردُ عليهِ منْ مألوفِ الحسِّ، أوْ مألوفِ العقْلِ، أوْ مألوفِ الخيال، فقُدْرةُ الله وراءَ كلِّ ما يخْطُرُ للبشرِ على أيِّ حال، والقُيودُ الَّتي تردُ على تصَوُّرِ البشرِ بحُكْمِ تكْوينِهمُ المحْدودِ تجْعلُهم أسْرى لما يألفونَ في تقديرِ ما يتوقَّعونَ منْ تغْييرٍ وتبْديلٍ، فيما وراءَ اللَّحْظةِ الحاضِرةِ والواقعِ المحْدود. فهذهِ الحقيقةُ تُطْلِقُ حِسَّهُم منْ هذا الإسار، فيَتوقَّعُونَ منْ قُدْرةِ الله كلَّ شيْءٍ بلا حُدود، ويكلونَ لقُدْرةِ الله كلَّ شيْءٍ بلا قُيود، وينْطلِقونَ منْ أسْرِ اللَّحْظةِ الحاضِرَةِ والواقعِ المحْدُود»(١).

(١) في ظلال القرآن (٨/١٨٥).

وهاتانِ الحقيقتانِ تجعلانِ المسْلمَ دائمًا لا يلْتفِتُ إلى غيْرِ الله، ولا يتعلَّقُ قلْبُهُ بغيْرِ الله رجاءً ولا خوْفًا، فإذا سألَ سَألَ الله، وإذا اسْتعانَ اسْتعَانَ بالله، لِيقينِهِ بِأنَّ الله وحْدهُ هوَ المالكُ، وما سِواهُ مَملوك، وأنَّ الله وحْدهُ هوَ القادِر، وما سِواهُ أعْجزُ أنْ يُحقِّقَ لِنفسهِ نفْعًا، أوْ يدْفعَ عنْها ضَرًّا، فضْلاً عنْ أنْ يقْدِرَ على ذلكَ لغيْره.

وهذا هو ما وصَّى بهِ رسولُ الله ﷺ حينَ قالَ لابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: «**يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احْفَظِ الله تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[1].

ومنْ مظاهرِ قُدْرةِ الله عزَّ وجلَّ: الإحْياءُ والإماتة، كما قال تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَملاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**(٢) ﴾ [الملك].

فمنْ آثارِ قُدْرتِهِ، وطلاقةِ إرادتِهِ، أنَّهُ سبْحانهُ يُحْيي ويُميت، وإنَّما قدَّم ذِكْرَ الموْتِ على الحياةِ لأنَّ الموْتَ سابقُ الحياة، والعدمَ سابقُ الوجود، كما قال تعالى: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا**(١)﴾[الإنسان].

وقال تعالى: ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِالله وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**(٢٨)﴾[البقرة].

وحكى سبْحانهُ عنْ أهْلِ النَّارِ أنَّهم ﴿**قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ**(١١)﴾[غافر].

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢٥١٦]، ت(٢٦٣٥/ ٧٦/ ٤).

والمُرادُ بالمَوْتةِ الأولى العدمُ الَّذي سبقَ الحياةَ والوُجودَ، وهوَ المذْكورُ في قوْلهِ تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(١) ﴾[الإنسان].

والمُرادُ بالحياةِ الأولى هذهِ الحياةُ الَّتي يحْياها كلٌّ منَّا الآن، ثُمَّ يموتُ إذا انْتهى أجلُه، وهذهِ المَوْتةُ الثَّانية، ثُمَّ يبْعثُ الله الموْتى، وهذهِ الحياةُ الثَّانية، وإلى الحياتيْنِ أشار ربُّنا سُبْحانهُ في قوْلِه: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤) ﴾ [الملك].

ولكنَّ القوْمَ أنْكروا الحياةَ الثَّانيةَ ﴿ وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ(٢٩) ﴾ [الأنعام]، وأخذوا يسْألونَ رسولَ الله ﷺ سُؤالَ تعنُّتٍ وجُحُودٍ، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ(٢٦) ﴾[الملك].

«وبَيْنَما هم يسْألونَ في شكٍّ ويُجابونَ في جزْمٍ، يُخيِّلُ السِّياقُ القرْآنيُّ كأنَّما هذا اليوْمُ الَّذي يسْألونَ عنْهُ قدْ جاء، والموْعِدُ الَّذي يشكُّونَ فيهِ قدْ حان، وكأنَّما هم مواجِهوهُ الآن، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ(٢٧) ﴾[الملك]، فقدْ رأوْهُ قريبًا مُواجِهًا لهم، حاضِرًا أمامهم، دونَ توقُّعٍ ودونَ تمْهيد، فسيئتْ وُجوهُهم، وبدا فيها الاسْتِياء، وَوُجِّهَ إليْهم التَّأنيبُ، ﴿ وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾»(١)، كما قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ(٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ(٥٣) ﴾[يس].

وقوْلُهُ تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ بيانٌ لحِكْمةِ خَلْقِ الخلْقِ، وخَلْقِ الموْتِ والحياة، ولم يَقُلْ سبحانه (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَكْثَرُ عَمَلاً)، حتى يَهتمَّ المُسْلمُ بتَحْسينِ عمَلهِ لا بَكثْرَتِه، فركْعتانِ يُسْبغُ وضُوءَهما، ويُحْسِنُ قراءتَها، ويَطْمَئِنُ في ركُوعِهما وسُجودِهما خيْرٌ من ألْفِ ركْعةٍ بخلاف ذلك.

(١) في ظلال القرآن (٢٠٨/٨).

وقد قَالَ الفُضَيْلُ في تفْسِيرِ هذه الآية: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾: لا يكونُ العملُ حَسنًا حتَّى يكونَ خَالصًا وصَوابًا. فقيل: يا أبا عبْدِ الله! ما الخَالِصُ وما الصَّواب؟ قَالَ: لا يكونُ العَمَلُ خالصًا حتَّى يكونَ لله، ولا يكونُ العَمَلُ صوابًا حتَّى يكونَ على سُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ.

ومن مَظاهِرِ قُدْرتِه تعالى خَلْقُ السَّمواتِ السَّبْعِ مُحْكَمةً مُتْقنةً مُزيَّنةً بالنَّجومِ والكَواكِبِ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ(٤)﴾[الملك].

فمَهْمَا عبثَ العابثون، وحاول المُبْطِلُونَ أَنْ يقِفُوا على خَللٍ في خَلْقِ السَّمواتِ فلن يسْتَطِيعُوا، وكُلّ ما سيَحْصُلُونَ عليْهِ هو مزيدٌ مِنَ التَّعبِ والحَسْرةِ على الجُهْدِ الذي أضَاعُوه بلا فائدة.

ثُمَّ بيَّن سُبْحانَهُ الحِكْمةَ مِنْ خَلْقِ النُّجومِ في السَّماء فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ(٥)﴾[الملك].

فالنُّجومُ زينةٌ للسَّماء، وعلاماتٌ إرْشَادِيَّةٌ لأهْلِ الأرْض، كما قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ(١٦)﴾[النحل].

والوظيفةُ الثَّالثَةُ هي حِرَاسَةُ السَّماء من الشَّياطين الَّذين يسْتَرِقُون السَّمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ(٧) لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ(٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ(٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ(١٠)﴾[الصافات].

ولقدْ كانت الشَّياطينُ يسْتَرِقُونَ السَّمْعَ قَبْلَ بِعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ، يرْكَبُ بعْضُهم بعْضًا إلى عنَانِ السَّماء، فيَسْمَعُ أعْلاهُم الكَلِمَةَ يتكلَّمُ بها الملائكةُ ممَّا أخْبَرَهُمُ الله به أنَّه سيكونُ في الأرْض، فيُلْقِيها أعْلاهم إلى أدْناهم، فيُقِرُّها في أُذُنِ وليِّهِ من الكَهنةِ والعرَّافين، فيحدِّثُ بها النَّاس، فتكونُ كما أخبر، فتكونُ فِتْنةً للظالمين، ويأخذُها ذلكَ الدَّجالُ ذريعةً فيكذب معها مائةَ كذبة، فلَمَّا بُعثَ النَّبيُّ ﷺ حُرِسَتِ السَّماءُ وحيلَ بيْنَهم وبيْنَ ما يشْتَهون، فكانُوا إذا اسْتَرقُوا السَّمْعَ قُذفُوا بالشُّهُبِ فتَحْرِقُهم، ولهذا قالوا كما حكى الله عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(٩)﴾[الجن].

فعلى المسْلمِينَ أنْ يحْذَرُوا الكهنةَ والعرَّافين، وأنْ يعْلَمُوا أنَّهم لَيْسُوا بشَيْءٍ كما قال النَّبيُّ ﷺ، ولقد بَالَغَ ﷺ في التَّخْويفِ منْهم فقال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاَةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً»(١).

وقال ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، أَوْ أَتَى امْرَأَةً حَائِضًا، أَوْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا فَقَدْ بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»(٢).

ولَمَّا كانَتِ الشَّياطِينُ هي المُضَّلةَ للغاوين، جمعَ الله تعالى بيْنَهم وبيْنَ الَّذينَ أضلُّوهم في العذابِ المُهين، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ(٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ(٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ(٩)

(١) م(٢٢٣٠/ ١٧٥١/ ٤).

(٢) صحيح: [ص.د:٣٣٠٤]، د(٣٨٨٦/ ٣٩٨و٣٩٩/ ١٠)، ت(١٣٥/ ٩٠/ ١)، جه(٦٣٩/ ٢٠٩/ ١).

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ(١٠)فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ(١١)﴾[الملك].

ثُمَّ ذكرَ حالَ عبادِ الله المُخْلِصين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ(١٢)﴾ دُونَ أَنْ يَرَوْهُ، وحين يغيبُون عمَّنْ يرَاهُم مِنَ الخَلْق، ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ(١٢)﴾.

ثُمَّ ذكر ما يُعينُ على مُرَاقَبتِهِ وخَشْيَتِه، وهو كمَالُ عِلمه وإحَاطَتِهِ، فقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(١٣)أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ(١٤)﴾[الملك].

ومن مظَاهِرِ قُدْرتِه سُبْحانَه ما يحْمِلُه هذا الوعيد: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ(١٦)أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ(١٧)﴾[الملك].

وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ(٦٥)﴾[الأنعام].

ولكنَّ الكافِرينَ لا يفْقَهُون، ولذلك فرَّقَ الله بيْنَ أَهْلِ الفِقْهِ وهم المُؤْمِنونَ وبيْنَ الَّذينَ لا يفْقَهُونَ وهم الكافرون، فقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢٢)﴾[الملك].

« وهذا مثَلٌ ضربَهُ الله للمُؤْمِنِ والكافر، فالكَافِرُ مثَلُه فيما هو فيه كمثَلِ مَنْ يمْشِي مُنْكبًا على وجْهِهِ أيّ يمْشِي مُنْحَنِيًا لا مُسْتَوِيًا، فهو لا يدْرِي أيْنَ يسْلُك، ولا كيْفَ يذهب، بل هو كأنّه حائر، فهل هذا أهدى؟ ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أيّ مُنْتَصِبَ القامة ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أيّ على طريقٍ واضحٍ بيّن، وهو في نَفْسِه مسْتَقِيم، وطريقُهُ مسْتَقِيم.

هذا مَثَلُهم في الدُّنيا، وكذلِكَ يكُونُونَ في الآخرةِ فالمُؤْمِنُ يُحْشَرُ يمْشِي سَوِيًّا على صراطٍ مستقيم مُفْضٍ به إلى الجنة الفَيْحاء، وأَمَّا الكَافِرُ فإِنَّه يُحْشَرُ على وجْهِهِ إلى نارِ جنَّهم»[1]، كما قال تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا(٩٧)﴾[الإسراء].

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا نَبِيَّ الله! كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

ومِنْ مَظَاهِرِ قُدْرتِه سُبْحَانَهُ إمْسَاكُهُ الطَّيْرَ في الهواء ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ(١٩)﴾[الملك].

والَّذِي يُمْسِكُ الطَّيْرَ في السَّماءِ هُوَ الَّذي يُمْسِكُ الطَّائِرَاتِ في الهواء، وهو الَّذِي يُمْسِكُ السُّفُنَ في البحار، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ(٤١)﴾[يس].

كما أَنَّ الله يُمْسِكُ السَّماء وما فيها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ الله بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(٦٥)﴾[الحج].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الله يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(٤١)﴾[فاطر]

ولقد كان المُشْرِكُونَ يقولُونَ على النَّبيِّ ﷺ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ به رَيْبَ المَنُون، وكانُوا يتَواصَوْنَ بالصَّبْرِ علَيْه حتى يَمُوتَ كما ماتَ مَنْ قَبْلَه مِنَ الشُّعراء، فأَمرَهُ الله أَنْ يقولَ لهم: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(٢٨)﴾[الملك].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٩٩/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٦٥٢٣/ ٣٧٧/ ١١)، م(٢٨٠٦/ ٢١٦١/ ٤).

فماذا يَنْفَعُكُم إِنْ أَهْلَكَنِيَ الله ومَنْ مَعِي؟ وإِنْ رَحِمَني فذلِكَ فضْلُه ولَنْ تَعُمَّكُمْ رحْمَتُه، فَنَحْنُ نَعْمَلُ بطاعةِ الله عَلَى نورٍ مِنَ الله نَرْجُو رَحْمَةَ الله، ونَتْرُكُ مَعْصِيَةَ الله عَلَى نُورٍ مِنَ الله نَخْشَى عِقَابَ الله، فإِنْ عذَّبنا فبَعَدْلِه، وإِنْ رَحِمَنا فبِفَضْلِه، وقدْ فعَلْنا ما أعَانَنا عَلَيْه مِنْ أَسْبَابِ رَحْمَتِه، أَمَّا أَنْتُم فلَمْ تَأْتُوا بأيّ سببٍ مِنْ أَسْبَابِ الرَّحمة، وتَعْلَّقْتم بكلِّ أَسْبَابِ العذاب ﴿ **فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا** (٧٧)﴾[الفرقان]، ﴿ **وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً** (٤٢)﴾[الفرقان].

❑ ❑ ❑

النفخ في الصور

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ**، فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**لَهُمْ قُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا**»[1].

«عرفْنا فيما سبقَ شِدَّةَ أهْوالِ الميِّتِ في سكراتِ الموْتِ وخطرَهُ في خوْفِ العاقبة، ثُمَّ مُعاناتَهُ لِظُلْمةِ القبْرِ وديدانِه، ثُمَّ لِمُنْكرٍ ونكيرٍ وسؤالِهما، ثُمَّ لِعذابِ القبْرِ وخطرِهِ إنْ كانَ مغْضوبًا عليْه، وأعْظمُ منْ ذلكَ كلِّهِ الأخْطارُ الَّتي بيْنَ يديْهِ منَ النَّفْخِ في الصُّور، والبعْثِ يوْمَ النُّشور، والعرْضِ على الجبَّار، والسُّؤالِ عنِ القليلِ والكثير، ونصْبِ الميزانِ لمعْرفةِ المقادير، ثُمَّ جوازُ الصِّراطِ معَ دِقَّتهِ وحِدَّته، ثُمَّ انتظارُ النِّداءِ عنْدَ فصْلِ القضاءِ إمَّا بالإسْعادِ وإمَّا بالإشْقاء.

فهذهِ أحْوالٌ وأهْوالٌ لا بُدَّ منْ معْرفتِها، ثُمَّ الإيمانِ بها على سبيلِ الجزْمِ والتَّصْديق، ثُمَّ تطْويلِ الفِكْرِ في ذلك، لِينْبعِثَ منْ قلْبكَ دواعي الاسْتعْدادِ لها، فإنْ كنْتَ قويَّ الإيمانِ فأشْعرْ قلْبكَ تلْكَ المخاوِفَ والأخْطار، وأكْثِرْ فيها التَّفكُّرِ والاعْتبار، لِتسْلُبَ عنْ قلْبكَ الرَّاحةَ والقرار، وتشْتغِلَ بالتَّشمُّرِ لِلْعرْضِ على الجبَّار، وتفكَّرْ أوَّلاً فيما يقْرعُ سمْعكَ منَ النَّفْخِ في الصُّور، فلوْ لم يكنْ إلاَّ هوْلُ تلْكَ النَّفْخةِ لكانَ ذلكَ جديرًا بأنْ يُتَّقى، فإنَّها نفْخةٌ شديدةٌ قويَّة، يُصْعقُ بها منْ في السَّمواتِ ومنْ في الأرض، إلاَّ منْ شاء الله، ولذلكَ قال رسولُ الله ﷺ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ**»[2].

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢٤٣١]، ت(٢٥٤٨/ ٤٢/ ٤)، حم(٢٦٩/ ١٠٨/ ٢٤)، ك(٥٥٩/ ٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٥١١و٥١٢/ ٤) باختصار.

والقَرْنُ هوَ الصُّور، كما في الحديثِ: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: مَا الصُّورُ؟ قَالَ: « قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ»[1]، «وقال مُجاهد: الصُّورُ كهيئةِ البُوق»[2]، وصاحِبُ الصُّورِ هو إسْرافيلُ عليهِ السلام.

قال الحافظُ ابنُ حجر: « اشْتُهِرَ أَنَّ صاحِبَ الصُّورِ إسْرافيلُ عليهِ السلام، ونقلَ فيه الحليميُّ الإجْماع، ووقعَ التَّصْريحُ بهِ في أحاديث»[3].

وقدْ جاء ذِكْرُ الصُّورِ في مواضِعَ كثيرةٍ منَ القرْآنِ الكريم:

قال تعالى: ﴿ قَوْلُهُ الحَقُّ وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ(٧٣) ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ(٢٠) ﴾[ق].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ المجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا(١٠٢) ﴾[طه].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا(١٨) ﴾ [النبأ].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَيَتَسَاءَلُونَ(١٠١) ﴾[المؤمنون].

وقدِ اخْتُلِفَ في عدَدِ النَّفْخات:

فذهبَ ابنُ العربيِّ[4]-وتابعهُ ابنُ كثير[5]- إلى أنَّها ثلاثٌ:

نفْخةُ الفزع، وهي المذْكورةُ في سورةِ النَّمْلِ في قوْلهِ تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ الله وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ(٨٧) ﴾[النمل].

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢٤٣٠]، ت(٢٥٤٧/ ٤١/ ٤)،د(٤٧١٣/ ٦٨و٦٩/ ١٣).

(٢) فتح الباري (٣٦٧/ ١١).

(٣) فتح الباري (٣٦٨/ ١١).

(٤) عارضة الأحوذي (١٩١/ ٩).

(٥) الفتن والملاحم (١٤١).

ونفْخةُ الصَّعْق، ونفْخةُ البعْث، وهما المذْكورتانِ في قوْلهِ تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ الله ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ(٦٨)﴾[الزمر].

وذهبَ القرْطبيُّ[١] -وتابعهُ ابنُ حجرٍ[٢]- إلى أنَّ النَّفْخاتِ اثْنتانِ لا ثلاث:

« والصحيحُ أنَّها نفْختانِ لا ثلاث، لِثُبوتِ الاستِثْناءِ بقوْلهِ تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنْ شَاءَ الله﴾ في كلٍّ منَ الآيتيْن.

ولا يلْزمُ منْ مُغايرَةِ الصَّعْقِ لِلْفزَعِ أنْ لا يحْصُلا معًا منَ النَّفْخةِ الأولى، وقد ثبتَ في صحيحِ مسْلمٍ منْ حديثِ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو في حديثٍ طويلٍ عن رسولِ الله ﷺ قال: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَلاَ يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلاَّ أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ الله أَوْ قَالَ يُنْزِلُ الله مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ»[٣].

وَعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ»[٤] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ. قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ»[٥].

---

(١) التذكرة (١٨٤).

(٢) فتح الباري (٣٦٩و٣٧٠/ ١١).

(٣) م(٢٩٤٠/ ٢٢٥٨و٢٢٥٩/ ٤).

(٤) صحيح: [ص.د:٩٢٤]، د(١٠٣٤/ ٣٧٠و٣٧١/ ٣)، ن(٩١و٩٢/ ٣)، جه(١٠٨٥/ ٣٤٥/ ١).

(٥) متفق عليه: خ(٤٨١٤/ ٥٥١/ ٨)، م(٢٩٥٥/ ٢٢٧٠و٢٢٧١/ ٤).

«وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ[١] تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ[٧]﴾[النازعات]، قَالَ: ﴿الرَّاجِفَةُ﴾النَّفْخَةُ الأُولَى، و﴿الرَّادِفَةُ﴾ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ»[١]، وفي كلِّ ذلكَ دِلالةٌ على أنَّهما نفْختانِ فقط»[٢].

« فإذا أرادَ الله تعالى انْقِراضَ الدُّنيا وتمامَ ليالِيَها وقرُبتِ النَّفْخةُ خرجتْ نارٌ منْ قعْرِ عدن، تسوقُ النَّاسَ إلى المحْشر (وهو أرْضُ الشَّام)، تبيتُ معهم وتقيل، حتَّى يجْتمعَ الخلْقُ بالمَحْشر، الإنْسُ والجِنُّ، والدَّوابُ والوحْش، والسِّباعُ والطَّيْرُ، والهوام، وخشاشُ الأرض، وكلُّ ذي روح»[٣].

وقد جاء ذِكْرُ هذهِ النَّارِ في أحاديث:

عَنْ أَنَسٌ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ نَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المشْرِقِ إِلَى المغْرِبِ»[٤].

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: مَا تَذَاكَرُونَ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ، فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلاثَةَ خُسُوفٍ، خَسْفٌ بِالمشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالمغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»[٥].

ويُلاحظُ أنَّهُ قد وُصِفتِ النَّارُ في حديثِ أنسٍ بأنَّها أوَّلُ أشْراطِ السَّاعة، وَوُصِفَتْ في حديثِ حُذيْفةَ بأنَّها آخِرُ أشْراطِ السَّاعة، «وقد جمعَ بعْضُ العلماءِ بيْنهما بأنَّ آخِريَّةَ خُروجِ

(١) خ(٣٦٧/ ١١) تعليقًا.

(٢) فتح الباري (٣٧٠/ ١١).

(٣) لوامع الأنوار البهية (١٥٣/ ٢).

(٤) خ(٧٨/ ١٣) تعليقًا، وقال الحافظ: وتقدم موصولاً في إسلام ابن سلام (٣٩٣٨/ ٢٧٨/ ٧).

(٥) م(٢٩١٠/ ٢٢٢٥/ ٤)، د(٤٢٨٩/ ٤٢٦/ ١١)، ت(٢٢٧٤/ ٣٢٣/ ٣).

النَّارِ باعْتِبارِ ما ذُكِرَ معها منَ الآيات، وأوَّلِيَّتَها بأنَّها منْ أوَّلِ الآياتِ الَّتي لا شيْءَ بعْدها منْ أمورِ الدُّنْيا أصْلاً، بلْ يقعُ بانْتِهائها النَّفْخُ في الصُّور، بخلافِ ما ذُكِرَ معها، فإنَّهُ يبقى بعْدَ كلِّ آيةٍ منها أشْياءُ منْ أمورِ الدُّنيا»[1].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «سَتَخْرُجُ نَارٌ مِنْ حَضْرَمَوْتَ أَوْ مِنْ نَحْوِ بَحْرِ حَضْرَمَوْتَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ تَحْشُرُ النَّاسَ. قَالُوا يَا رَسُولَ الله فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ عَلَيْكُمْ بِالشَّامِ»[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلاَثِ طَرَائِقَ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلاَثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، تَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا»[3].

قالَ الحافِظُ ابنُ حجر: «قال الخطابيُّ: هذا الحشْرُ يكونُ قبْلَ قِيامِ السَّاعة، تحْشُرُ النَّاسَ أحْياءً إلى الشَّام، وصوَّبَ عِياضُ[4] ما ذهبَ إليْهِ الخطَّابيُّ وقوَّاهُ بحديثِ حُذَيْفةَ بنِ أَسيد، وكذلكَ رجَّحهُ الطِّيِّبي»[5].

واخْتارهُ أيْضًا القرطبيُّ[6] وابنُ كثير[7]، قال القرطبيُّ: «وممَّا يدُلُّ على أنَّ ذلكَ في الدُّنْيا حديثُ أبي هريرةَ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «يَتْرُكُونَ المدِينَةَ عَلَى خَيْرِ مَا كَانَتْ لاَ يَغْشَاهَا إلاَّ الْعَوَافِ، يُرِيدُ عَوَافِيَ السِّبَاعِ وَالطَّيْرِ، وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَيْنَةَ، يُرِيدَانِ

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١٥٠/ ٢).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٢١٧]، ت(٢٣١٤/ ٣٣٧و٣٣٨/ ٣).

(٣) متفق عليه: خ(٦٥٢٢/ ٣٧٧/ ١١)، م(٢٨٦١/ ٢١٩٥/ ٤)، ن(١١٥و١١٦/ ٤).

(٤) إكمال المعلم (٠٣٩١/ ٨).

(٥) فتح الباري (٣٧٩-٣٨٢/ ١١).

(٦) التذكرة (٢٠٠).

(٧) الفتن والملاحم (١٤٥).

المدِينَةَ، يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا، فَيَجِدَانِهَا وَحْشًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَّا عَلَى وُجُوهِهِمَا»(١).

قال النَّوويُّ: «الظَّاهِرُ المُخْتارُ أنَّ هذا التَّرْكَ لِلمدينةِ يكونُ في آخرِ الزَّمانِ عنْدَ قِيامِ السَّاعة، وتُوضِّحهُ قِصَّةُ الرَّاعِيَيْنِ منْ مُزَيْنَة، فإنَّهما يخِرَّانِ على وجوهِهما حينَ تُدْرِكُهما السَّاعة، وهما آخِرُ منْ يُحْشَرُ كما ثبتَ في صحيحِ البُخاري»(٢).

وفي قوْله ﷺ «وهما آخِرُ مَنْ يُحْشَر» إشارةٌ إلى أنَّهُ بتمامِ الحشْرِ يُنْفخُ في الصُّور «نفْخةٌ واحدة للفناءِ فيُصَابُ الكونُ كلُّه بخَلْخَلَةٍ عَنِيفَةٍ، فتنحلُّ بها كُلُّ الرَّوابطِ الَّتي كانَتْ تَرْبِطُ بيْنَ أجْزاءِ الكوْن، فترتجُّ الأرْضُ رجًا عنيفًا، وتُزَلْزَلُ زِلْزَالاً مُروِّعًا، وتَنْدَكُّ مع جِبَالِها دكًا، فتَصِيرُ هبَاءً مُنْبثًا، وتُصابُ السَّماءُ بانْفطارٍ عظيمٍ يبْطُلُ معه قانُونُ الجاذِبيَّةِ المَعْرُوفُ الآنَ، فتتناثرُ الكواكب، وتَنْكَدِرُ الشَّمْس، ويذْهَبُ ضَوْءُ الكُلِّ، ويَفْقِدُ الجميعُ كِيانَه، فتَنْصَهِرُ تلكَ الأجْرامُ السَّماوِيَّةُ بجميع مجرَّاتِها وإذا هِيَ كالنُّحاسِ المُذَابِ تمامًا، وإذا العالَمُ كلُّهُ سَديمٌ وبُخَارٌ كما كانَ قَبْلَ وجُودِه وخَلْقِ الله تَعَالى له»(٣).

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ(٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ(٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ(٤)﴾ [التكوير].

وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ(١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ(٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ(٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ(٤)﴾ [الانفطار].

وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ(١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ(٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ(٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ(٥)﴾ [الانشقاق].

---

(١) متفق عليه: خ(١٨٧٤/ ٨٩و٩٠/ ٤) بزيادة «وآخر من يحشر»، م(١٣٨٩-٤٩٩-/ ١٠١٠/ ٢).

(٢) شرح مسلم (١٦٠/ ٩).

(٣) عقيدة المؤمن (٢٦٠).

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧)﴾[الرحمن].

وقال تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (٦)﴾[الواقعة].

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦)﴾[الحاقة].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالمهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩)﴾[المعارج].

وقال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢)﴾[الزلزلة].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥)﴾[القارعة].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً (١٤)﴾[المزمل].

وقال تعالى: ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١)﴾[الفجر].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠)﴾[المرسلات].

وقال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا (١٠٧)﴾[طه].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)﴾[النمل].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً (٤٧)﴾[الكهف].

«فهذهِ الآياتُ كلُّها تُنبئُ بأنَّ نِهايةَ عالَمِنَا هذا ستكونُ نِهايةً مُروِّعة، تُرجُّ فيها الأرْض وتُدكُّ، وتُنْسفُ فيها الجبالُ، وتَتفجَّرُ فيها البِحار، وتُطْمسُ فيها النُّجومُ وتنْكدِر، وتُشقَّقُ فيها السَّماءُ وتنْفطِر، وتَتحطَّمُ فيها الكواكبُ وتنْتثِر، وتخْتلُّ المسافات، فيُجْمعُ بيْنَ الشَّمْسِ والقمر، وتبْدوا السَّماءُ مرَّةً كالدُّخان، ومرَّةً مُتلهِّبةً حمْراء، إلى آخِرِ هذا الهوْلِ الرَّعيب»[1]، الذي تشيبُ منهُ الوِلْدان، وتقشعرُّ منهُ الأبْدان، وتسْقطُ منهُ الحوامل، وتذْهلُ فيهِ المراضِع، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا(١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً(١٨)﴾ [المزمل]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ(١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ(٢)﴾ [الحج].

«وممَّا قيلَ منَ النَّظْمِ في معْنَى ما ذكرْنا قوْلُ بعْضِهم:

مثِّـلْ لِنفسِكَ أيُّها المغْرورُ	يوْمَ القِيامةِ والسَّماءُ تمورُ
إذْ كُوِّرتْ شَمْسُ النَّهارِ وأُدْنيتْ	حتَّى على رأْسِ العبادِ تسيرُ
وإذا النُّجومُ تساقطتْ وتناثرتْ	وتبدلَّتْ بعْدَ الضِّياءِ كُدورُ
وإذا البحارُ تفجَّرتْ منْ خوْفِها	ورأيْتَها مِثْلَ الجحيمِ تفورُ
وإذا الجبالُ تقلَّعتْ بأصولِها	فرأيْتَها مِثْلَ السَّحابِ تسيرُ
وإذا العِشارُ تعطَّلتْ وتخرَّبتْ	خلتِ الدِّيارُ فما بها معْمورُ
وإذا الوحوشُ لدى القِيامةِ احْشرتْ	وتقولُ لِلأمْلاكِ أينَ نسيرُ
وإذا تُقاةُ المسْلمينَ تزوَّجتْ	منْ حُورٍ عينٍ زانهنَّ شُعورُ
وإذا الموءودةُ سُئلتْ عنْ شأْنِها	وبأيِّ ذنْبٍ قتلها ميْسُورُ
وإذا الجليلُ طوى السَّماءَ بيمينِهِ	على السِّجلِّ كتابهُ المنشورُ
وإذا الصَّحائفُ عندَ ذاكَ تساقطتْ	تُبْدي لنا يوْمَ القِصاصِ أُمورُ

(١) في ظلال القرآن (٦/١٥٥).

وإذا الصَّـحايفُ نُشِرتْ فتطـايرتْ ... وتهتَّكَـتْ لِلمـؤمنينَ سُتـورُ
وإذا السَّماءُ تكشَّطـَتْ عـنْ أهْلِهـا ... ورأيْـتَ أفْـلاكَ السَّـماءِ تمـورُ
وإذا الجحيـمُ تسعـرَّتْ نيرانُهـا ... فلهـا عـلى أهْـلِ الـذُّنوبِ زفيـرُ
وإذا الجِنـانُ تزخْرفـتْ وتَطيَّبَـتْ ... لفتـىً عـلى طـولِ الـبلاءِ صـبورُ
وإذا الجنيـنُ بأمِّـهِ مُتعلِّـقٌ ... يخْشـى القِصـاصَ وقلْبـهُ مـذْعورُ
هـذا بـلا ذَنْـبٍ يخـافُ جنايـةً ... كيـفَ المُصِرُّ عـلى الـذُّنوبِ دُهـورُ »[1].

وستكونُ هذهِ الأهوالُ مُفاجِئةً لِلإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ(٤٩) فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ولاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ(٥٠)﴾[يس].

قال ابنُ كثير: « يُخْبِرُ الله تعالى عن اسْتِبْعادِ الكفَرةِ لقيامِ السَّاعةِ في قَوْلِهم ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ ؟ قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ﴾ أيْ ما ينْتظِرُونَ إلاَّ صَيْحَةً واحدة وهي -والله أعْلَمُ- نفْخَةُ الفزَعِ، يُنْفَخُ في الصُّورِ نَفْخَةَ الفَزعِ والنَّاسُ في أسْواقِهم ومعايشِهم يخْتَصِمُونَ ويتشَاجَرُونَ على عادتِهم، فبَيْنَما هم كذلكَ إذْ أمرَ الله عزَّ وجلَّ إسْرافِيلَ فينْفُخُ في الصُّورِ نفخةً يُطوِّلها ويمدُّها، فلا يبْقَى أحدٌ على وجْهِ الأرْض إلاَّ أصْغَى لِيتًا ورَفَعَ لِيتًا - وهي صَفْحَةُ العَنق- يتسمَّعُ الصَّوْتَ مِنْ قِبَلِ السَّماء، ثمَّ يُسَاقُ المَوْجُودُون من النَّاسِ إلى محْشَرِ القِيامَةِ بالنَّارِ تُحِيطُ بهم مِنْ جَوانِبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أيّ على ما يَمْلِكُونه، الأمْرُ أهَمُّ من ذلك، ﴿ولاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾»[2].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلانِ ثَوْبَهُما بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِهِ، وَلاَ يَطْوِيَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ فَلاَ يَطْعَمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلاَ يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أُكْلَتَهُ

(١) التذكرة (٢١٤و٢١٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٧٤).

إِلَى فِيهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا»[1].

فإذا شاهدَ النَّاسُ تلْكَ الأهْوالَ حاوَلُوا الخلاَص ﴿وَلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ[٣]﴾[ص].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ[٧] وَخَسَفَ الْقَمَرُ[٨] وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ[٩] يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفَرُّ[١٠] كَلاَّ لاَ وَزَرَ[١١] إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المسْتَقَرُّ[١٢]﴾[القيامة].

قال ابنُ كثيرٍ: « المقْصُودُ من قَوْلِه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ أَنَّ الأَبْصَارَ تَنْبَهِرُ يوْمَ القِيَامَةِ وتَخْشَعُ وتَحارُ وتَذْهَلُ منْ شِدَّةِ الأهْوالِ ومِنْ عِظَمِ ما تُشاهِدُه يَوْمَ القِيامةِ مِنَ الأمُور، وقوْلُه تعالى: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أي ذهب ضوءه ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ أيّ كُوِّرا. ﴿يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المفَرُّ﴾ إذا عاينَ ابْنُ آدمَ هذه الأهوالَ يوْمَ القِيامةِ حينَئِذٍ يريدُ أَنْ يفرَّ ويقولُ أينَ المفَرُّ؟ هل من ملْجَأٍ أو مَوْئِلٍ؟ قال تعالى: ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ[١١] إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المسْتَقَرُّ﴾، قال غيرُ واحدٍ من السَّلف: أيّ لا نجاةَ، وهذه الآيةُ كَقَوْلِ الله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ[٤٧]﴾[الشورى]، أيّ ليسَ لكُمْ مكانٌ تتنكَّرونَ فيه، ولذا قال ههنا: ﴿لاَ وَزَرَ﴾ أي ليْسَ لهم مكانٌ يعْتَصِمُون فيه، ولهذا قال: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المسْتَقَرُّ﴾ أيّ المَرْجِعُ والمَصِير»[2].

وهكذا يُصِيبُ الخلائِقُ الذُّعْرُ والرُّعْبُ والفزَعُ والجزَعُ حتَّى يَخِرُّونَ ميِّتِين مَوْتةَ رَجُلٍ واحد، فلا يبْقَى مِنَ الخلاَئِقِ أحدٌ إلاَّ مات، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ[٢٦] وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجْلاَلِ وَالإِكْرَامِ[٢٧]﴾[الرحمن]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[٨٨]﴾[القصص]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ[٦٨]﴾[الزمر].

---

(١) خ(٧١٢١/٨١/١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٤٨/٤).

« فإذا لم يبْقَ إلاَّ الله الواحِدُ القهَّار، الأحدُ الفرْدُ الصَّمدُ، الذي لم يلدْ ولم يُولد، ولم يكنْ لهُ كُفواً أحد، كانَ آخِرًا كما كانَ أوَّلاً، طوى السَّمواتِ والأرْضَ كطيِّ السِّجِلِّ لِلْكتُب، ثُمَّ دحاهما، ثُمَّ لفَّهما ثلاثَ مرَّات، وقال: أنا الجبَّار، ثلاثًا، ثُمَّ يُنادي: لمنِ المُلْكُ اليوْم؟ ثلاثَ مرَّاتٍ، فلا يُجيبهُ أحد، ثُمَّ يقولُ مُجيبًا نفْسَهُ: لله الواحِدِ القهَّار، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٧)﴾[الزمر]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(١٠٤)﴾[الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(٣)﴾[الحديد]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِ(١٥)يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(١٦)﴾[غافر].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: « يَقُولُ يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا المَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ»[١].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجُبَّارُونَ؟ أَيْنَ المتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجُبَّارُونَ؟ أَيْنَ المتَكَبِّرُونَ؟»[٢].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلاَئِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ

---

(١) خ(٤٨١٢/ ٥٥١/ ٨).

(٢) متفق عليه: خ(٧٤١٢/ ٣٩٣/ ١٣) مختصرا، م(٢٧٨٨/ ٢١٤٨/ ٤)، د(٤٧٠٦/ ٥٧و٥٨/ ١٣).

نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾»(١).

قال ابنُ كثيرٍ: «وقد وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ متعلِّقةٌ بهذه الآيةِ الكريمةِ والطَّريقُ فيها وفي أمثالِها مذهَبُ السَّلفِ وهو إمْرارُها كما جاءت مِنْ غَيْرِ تكْييفٍ ولا تَحْريفٍ»(٢).

فالسَّلفُ الصَّالِحُ رِضْوَانُ الله علَيْهم كانوا يُؤْمِنُونَ بما جاءَ عَنِ الله على مُرَادِ الله، ويُؤْمِنُونَ بما جاءَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ على مُرادِ رَسُولِ الله ﷺ، لا يشبِّهون، ولا يُمثِّلون، ولا يُحرِّفون، ولا يُعطِّلون، لأنَّهم يُؤْمِنُونَ بأنَّ الكلامَ في الصِّفاتِ فَرْعٌ عن الكلامِ في الذَّات، وكما لا تُشْبِهُ الذَّاتُ الذَّواتِ، كذلكَ لا تُشْبِهُ الصِّفَاتُ الصِّفات، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى]، لَيْسَ كمثلِه شيءٌ في ذاتِه، ولَيْسَ كمثلِه شيءٌ في صفاته، وليْس كمثلِه شيءٌ في أفْعالِه.

فنقولُ: لله يَدٌ لا كأيْدينا. ولله عيْنٌ لا كأعَيْنِنا. فهو سُبْحانه: «لا يُشْبِهُ شيئًا من خَلْقه ولا يُشْبِهُه شيءٌ من خَلْقه، وصِفَاتُه كلُّها خِلافُ صِفَاتُ المَخْلُوقين، يعْلَمُ لا كعِلمنا، ويقْدِرُ لا كقُدْرَتِنا، ويرَى لا كرُؤْيَتِنا، فمَنْ شبَّه الله سُبْحانَهُ بشيْءٍ مِنْ خَلْقِه فقَدْ كفر، ومَنْ أنْكَرَ ما وصفَ الله بهِ نَفْسَه فقَدْ كفَرَ، ولَيْسَ فِيَما وصَفَ الله بهِ نَفْسَه ولا رَسُولُه تشْبِيه»(٣).

❑ ❑ ❑

---

(١) متفق عليه: خ(٤٨١١/ ٥٥٠و٥٥١/ ٨)، م(٢٧٨٦/ ٢١٤٧/ ٤)، ت(٣٢٩١/ ٤٨و٤٩/ ٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦٢/ ٤).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٢).

النفخة الثانية

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، قَالَ: وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

تحدَّثْنا عن النَّفْخَةِ الأولى وأهوالِها، وأَنَّ إسْرافِيلَ يمدُّها حتَّى يُصْعَقَ بها مَنْ في السَّمواتِ ومَنْ فِي الأرض إِلاَّ مَنْ شاءَ الله، وأَنَّه سُبْحَانهُ يُنْفرِدُ بعْدَ ذلك بِمُلْكِه كما كانَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ.

وفِي الحديثِ يقُولُ النَّبيُّ ﷺ : « **مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ**». « يعني: نَفْخَتِي الصَّعْقِ والبَعْثِ، يُشيرُ إلى قَوْلِه تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**(٦٨)﴾[الزمر]. وقولُ أَبِي هُرَيرةَ: «**أَبَيْتُ أَبَيْتُ**» لَمَّا سُئِلَ عن الأربعين ما هي؟»[2]، «أيّ امْتَنَعْتُ عَنِ القَوْلِ بتَعْيينِ ذلِكَ لأَنَّهَ لَيس عنْدِي فِي ذلِكَ توْقيف»[3].

« ومَعْناه أبيت أَنْ أجزِمَ أَنَّ المُرَادَ أَرْبعُونَ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا أَوْ سَنَةً، بل الذي أجزم به أَنَّهَا أربعون مُجْمَلةٌ- قال النوويُّ: وقد جاءَتْ مفسَّرةً مِنْ رِوَايةِ غَيْرِه «**أَرْبَعُونَ سَنَةً**»[4]، قال الحافِظُ في الفَتْح: « وهو شاذ»[5].

---

(١) متفق عليه: خ(٤٨١٤/ ٥٥١/ ٨)، م(٢٩٥٥/ ٢٢٧٠و٢٢٧١/ ٤).

(٢) المفهم (٣٠٦/ ٧).

(٣) شرح مسلم للنووي (٩١و٩٢/ ١٨).

(٤) شرح مسلم (٩٠و٩١/ ١٨).

(٥) فتح الباري (٥٥٢/ ٨).

«وقوله: «ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» يعني بعْدَ نفْخَةِ الصَّعْقِ، ينْزِلُ هذا الماءُ، فتتكوَّنُ فيه الأجْسَامُ بقُدْرَةِ الله تعالى، وعنْ ذلِكَ عبَّر بقَوْلِه: «فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ» فإذا تهيَّأتِ الأجْسَامُ وكَمُلَتْ نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةَ البعْثِ، فخَرجتِ الأرْوَاحُ من المَحالِّ الَّتِي هِيَ فيها، فتَأْتِي كلُّ رُوحٍ إلى جَسدِها فيَحْيِيهَا الله تعالى، كُلُّ ذلكَ في لحْظَةٍ بدليلِ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) ﴾[الزمر].

وقوله: «وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى»، هذا عمومٌ مخْصُوصٌ بقَوْلِه ﷺ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[1]»[2].

« وأما «عَجْبُ الذَّنَبِ» فهو العَظْمُ اللَّطِيفُ الَّذي في الصُّلْب، وهو رأْسُ العُصْعُصِ، وهو أوَّلُ ما يُخْلَقُ من الآدمِيِّ، وهو الَّذِي يبْقى منْهُ ليُعادَ تَرْكيبُ الخَلْقِ علَيْه، كما قال ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ»[3]»[4].

« فبعْدَ مُضِيِّ الأرْبعينَ المذكورةِ ينْزِلُ الماءُ من السَّماءِ فتنْبُتُ به الأجْسامُ تحت الأرْضِ، كما ينْبُتُ البَقْلُ، وذلك بواسطةِ تفَاعُلِ الماءِ مع بِذْرَةِ الإنسانِ وهيَ عجْبُ الذَّنَب، فإذا تَمَّ الخَلْقُ، واكْتَملَ النموُّ، وأصْبَحتِ الأجْسامُ هياكِلَ تامَّةَ التَّكْوينِ تحْتَ الأرْضِ لا ينْقُصُها إلاَّ أنْ تحلَّها الأرْواحُ فتدبُّ فيها الحياةُ وتتحرَّكُ وتقوم، أرْسلَ الله سبحانه وتعالى الأرْواحَ الَّتي قبضَها ملَكُ المَوْتِ يَوْمَ وفَاةِ كلِّ إنْسانٍ في هذه الحياة، وأودعَتْ في مُسْتَوْدَعاتٍ بعْضُها في العالَمِ العُلْويِّ وهِيَ الأرْواحُ الطَّاهِرةُ الطَّيِّبة، وبعْضَها في العالَمِ السُّفْلِيِّ وهِيَ الأرْواحُ الخبيثة، ثُمَّ أحْيَا الله تعالى إسْرافِيلَ وأمَرَهُ أنْ ينفُخَ في الصُّورِ النَّفْخةَ الثَّانِيةَ، فتَخْرُجُ تِلْكَ الأرْوَاحُ مِنْ مُسْتَوْدعاتِها وتدْخلُ كلُّ رُوحٍ جسدَها، ثُمَّ ينادِي مُنَادِ الله عزَّ وجلَّ أنْ قُوموا لربِّكم،

(١) صحيح: [ص.د:٩٢٥]، د(١٠٣٤/ ٣٧٠و٣٧١/ ٣)، ن(٩١و٩٢/ ٣)، جه(١٠٨٥/ ٣٤٥/ ١).

(٢) المفهم (٣٠٧/ ٧).

(٣) م(٢٩٥٥-١٤٢-/ ٢٢٧١/ ٤)، د(٤٧١٤/ ٧٠/ ١٣)، ن(١١١/ ٤).

(٤) شرح مسلم (٩٢/ ١٨).

فتَسْمَعُ وتُجِيبُ، وتَنْشَقُّ الأرْضُ عنهم بسُرْعَة، ويقُومُون مِنْ قُبورِهم أحياءً للحَشْرِ بعْدَ أنْ تَمَّ النَّشْرُ»[1]. قال ﷺ: «**أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2].

وقد جاءَ ذِكْرُ النَّفْخَةِ الثَّانيةِ في مَواضِعَ كثيرةٍ من القرآنِ الكريم:

قال تعالى: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾**﴾ [النبأ]، وقال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾**﴾[الكهف]، وقال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾**﴾[يس].

ووصفَ سُبْحانَهُ خرُوجَ النَّاسِ مِنْ قُبورِهم فقال: ﴿**فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾**﴾[المعارج]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾**﴾[القمر]، وقال تعالى: ﴿**وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾**﴾[ق]، وقال تعالى: ﴿**الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾**﴾[القارعة].

وقد أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ يوْمَ البَعْثِ هو يَوْمُ الجُمُعةِ، فقال: «**إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَيِّدُ الأَيَّامِ، وَأَعْظَمُهَا عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ يَوْمِ الأَضْحَى وَيَوْمِ الْفِطْرِ، فِيهِ خَمْسُ خِلاَلٍ:**

---

(١) عقيدة المؤمن (٢٦٢و٢٦٣).

(٢) م(٢٢٧٨/ ١٧٨٢/ ٤)، د(٤٦٤٥/ ٤٢٦/ ١٢).

خَلَقَ الله فِيهِ آدَمَ، وَأَهْبَطَ الله فِيهِ آدَمَ إِلَى الأَرْضِ، وَفِيهِ تَوَفَّى الله آدَمَ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يَسْأَلُ الله فِيهَا الْعَبْدُ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ مَا لَمْ يَسْأَلْ حَرَامًا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ مَا مِنْ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلاَ سَمَاءٍ وَلاَ أَرْضٍ وَلاَ رِيَاحٍ وَلاَ جِبَالٍ وَلاَ بَحْرٍ إِلاَّ وَهُنَّ يُشْفِقْنَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»[1].

وَعَنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاَةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلاَتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله! كَيْفَ تُعْرَضُ صَلاَتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرَمْتَ؟ يَعْنِي بَلِيتَ، فَقَالَ: إِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ»[2].

ووصفَ النَّبيُّ ﷺ خُروجَ النَّاسِ من قُبورِهم فقال: «يُبْعَثُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَيْفَ بِالْعَوْرَاتِ؟ قَالَ: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس]»[3].

وَعَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ قَالَ ﷺ: يَا عَائِشَةُ الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ»[4].

« فَأَعْظِمْ بيَوْمٍ تنكَشِفُ فيه العَوْرَاتُ، ويُؤْمَنُ مع ذلكَ النَّظَرُ والالتفات، كيْفَ وبعْضُهم يمْشُونَ على بُطونِهم ووجوهِهم، فلا قُدْرَةَ لهم على الالتفاتِ إلى غيْرِهم.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ الله! كَيْفَ يُحْشَرُ الْكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ

---

(١) حسن: [ص.جه:٨٨٨]، جه(١٠٨٤/ ٣٤٤و٣٤٥/ ١).

(٢) صحيح: [ص.د:٩٢٥]، د(١٠٣٤/ ٣٧٠٣٧١/ ٣)، ن(٩١و٩٢/ ٣)، جه(١٠٨٥/ ٣٤٥/ ١).

(٣) صحيح: [ص. ن:٢٠٨٢]، ن(١١٤/ ٤).

(٤) متفق عليه: خ(٦٥٢٧/ ٣٧٧/ ١١)، م(٢٨٥٩/ ٢١٩٤/ ٤)، ن(١١٥/ ٤).

القِيَامَةِ؟ قَالَ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[١].

فإيَّاك أَنْ تُنكِرَ شيئًا من عجائبِ يوْمِ القيامةِ لمُخالَفتِه قياسَ ما في الدُّنيا، فإنَّك لَوْ لَمْ تَكُنْ قد شاهَدْتَ عجائِبَ الدُّنيا ثُمَّ عُرِضَتْ عليْكَ قبل المُشاهَدةِ لكُنْتَ أشدَّ لها إنكارًا، فأحْضِرْ في قلْبِكَ صُورتَك وأنْتَ واقِفٌ عاريًا مكْشُوفًا، ذليلاً مدْحُورًا، متحيِّرًا مبْهُوتًا، تنْتَظِرُ ما يجْرِي عليْكَ من القَضاءِ بالسَّعادةِ أو الشَّقاوَة، وأعْظِمْ هذه الحالَ فإنَّها عظيمة»[٢].

واعْلم أنَّك لو «كُنْتَ في الدُّنيا من المُترفِينَ والأغْنياءِ المُنعَّمِينَ فملُوكُ الأرْض في ذلكَ اليوْمِ أذلُّ أهْلِ الجَمْعِ وأصْغَرُهم وأحْقَرُهم، يُوطئون بالأقْدام مِثْلَ الذرِّ كما قال النَّبيُّ ﷺ: «يُحْشَرُ المتكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الخَبَالِ»[٣] »[٤].

«فإذا قامَ النَّاسُ من قُبورِهم وجَدُوا الأرْضَ على غيْرِ صِفَةِ الأرْضِ الَّتي فارَقُوها، قدْ دُكَّتْ جِبالُها، وزَالَتْ قِلالُها، وتغيَّرتْ أحْوَالُها، وانْقطَعَتْ أنهارُها، وبارَتْ أشْجارُها، وسُجِّرتْ بحَارُها، وتسَاوَتْ مِهادُها ورُباها، وتغيَّرتْ مدَائِنُها وقُراها، وقد زُلْزِلَتْ زِلْزَالَها، وأخْرَجَتْ أثقالَها، وقالَ الإنْسَانُ ما لَها، وكذَلِكَ السَّمواتُ ونَواحِيها قد تشقَّقت، وأرْجاؤها قد انْفطَرت، والملائِكةُ على أرْجائِها قد أحْدَقَتْ، وشَمْسُها وقَمرُها مكْسُوفان، بل مخْسُوفان، وفي مكانٍ واحِدٍ مجْمُوعان، ثُمَّ يُكوَّرانِ بعْدَ ذلك، ثُمَّ يُلْقيان في النِّيران، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ[٤٨]﴾[إبراهيم].

(١) متفق عليه: خ(٦٥٢٣/ ٣٧٧/ ١١)، م(٢٨٠٦/ ٢١٦١/ ٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٥١٣و٥١٤/ ٤)

(٣) حسن: [ص.ت:٢٤٩٢]، ت(٢٦١٠/ ٦٦و٦٧/ ٤)، حم(٦٠/ ٢٢٧/ ١٩).

(٤) إحياء علوم الدين (٥١٢/ ٤).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ نَقِيٍّ لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لأَحَدٍ»[1].

وعنِ ابنِ مسْعودٍ قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ قال: أرْضٌ كالفِضَّة، نقيَّةٌ، لم يُسْفكْ عليها دمٌ، ولم تُعْملْ عليها خطيئة، يضُمُّهمُ المحْشر، ويُناديهمُ الدَّاعي، حُفاةً عُراةً كما خُلِقوا.

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: عَلَى الصِّرَاطِ»[2] »[3].

«وقد وقعَ لِلسَّلفِ خِلافٌ في المُرادِ بقوْلهِ تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ﴾: هلْ معْنى تبْديلِها تغْييرُ ذاتِها وصِفاتِها، أوْ تغْييرُ صِفاتِها فقط، والأوَّلُ أقْوى. والحِكْمةُ فيه: أنَّ ذلكَ اليوْمَ يوْمُ عدْلٍ وظُهورِ حقٍّ، فاقْتضتِ الحِكْمةُ أنْ يكونَ المحلُّ الذي يقعُ فيهِ ذلك طاهرًا عنْ عملِ المعْصِيةِ والظُّلم، وليكونَ تجلِّيهِ سُبْحانهُ على عِبادهِ المؤْمنينَ على أرْضٍ تليقُ بعظمتِه، ولأنَّ الحُكْمَ فيهِ إنَّما يكونُ لله وحْده، فناسبَ أنْ يكونَ المحلُّ خالِصًا لهُ وحْده»[4].

وليْسَ الحشْرُ لِلإنْسِ والجنِّ فقط، وإنَّما تُحْشرُ الخلائقُ كلُّها منَ الإنسِ والجنِّ والدَّوابِّ والطَّيْرِ والبهائم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ ولاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام] يعْني «يوْمَ القيامة»، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[التكوير].

(١) متفق عليه: خ(٦٥٢١/ ٣٧٢/ ١١)، م(٢٧٩٠/ ٢١٥٠/ ٤).
(٢) م(٢٧٩١/ ٢١٥٠/ ٤)، ت(٥١٢٧/ ٣٥٩/ ٤).
(٣) الفتن والملاحم (١٧٦).
(٤) فتح الباري (٣٧٥/ ١١).

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ رَأَى شَاتَيْنِ تَنْطِحَانِ، فَقَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ! أَتَدْرِي فِيمَ تَنْطِحَان؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: لَكِنَّ الله يَدْرِي، وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَة»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « لَتُؤَدُّنَّ الحقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الجَلحاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ»(٢).

وعنْ أبي هريرةَ قال: يُحْشرُ الخلْقُ كلُّهم يومَ القيامة: البهائمُ والدَّوابُّ والطَّيْرُ وكلُّ شيء، فيبْلغُ منْ عدْلِ الله يومئذٍ أنْ يأْخُذَ لِلْجمَّاءِ منَ القرْناء، ثُمَّ يقولُ كوني تُرابًا، فلذلكَ ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا(٤٠) ﴾[النبأ]»(٣).

« وقالَ المُحاسبيُّ: يحْشرُ الله الأمَمَ منَ الإنْسِ والجِنِّ عُراةً أذِلاَّء، قدْ نُزِعَ المُلْكُ منْ مُلوكِ الأرض، ولزِمهمُ الصَّغارُ بعْدَ عُتُوِّهم، والذِّلَّةُ بعْدَ تجبُّرِهم، ثُمَّ أقْبلَتِ الوُحوشُ منْ أماكِنِها مُنَكِّسةً رُؤوسَها بعْدَ توحُّشِها منْ هوْلِ يوْمِ النُّشور، منْ غيْرِ ريبَةٍ ولا خَطيَّةٍ أصابتْها، حتَّى وقفتْ منْ وراءِ الخلْقِ بالذِّلَّةِ والانْكِسارِ لِلملِكِ الجبَّار، حتَّى إذا تكاملتْ عِدَّةُ أهْلِ الأرْضِ منْ إنْسِها وجِنِّها، ووَحْشِها وسِباعِها، وأنْعامِها وهوامِها، هبطتِ الملائكةُ منَ السَّماءِ فأخذوا مصافَّهمْ حوْلَ الخلائقِ قبْلَهم، ثُمَّ أُدْنِيتِ الشَّمْسُ منْهم، فعظُمَ الخطْبُ، وازْدادَ الكرْبُ، وازْدَحمتِ الأُمَمُ وتضايقَتْ، واختلفَتِ الأقْدامُ، وانقطعَتِ الأعْناقُ، قدِ اجْتمعَ عليهم في مقامِهم حرُّ الشَّمْسِ معَ وهجِ أنْفاسِهم وتزاحُمِ أجْسامهم، ففاضَ العرقُ منْهم على وجْهِ الأرضِ ثُمَّ على أقْدامِهم، ثُمَّ على قدْرِ مراتِبهمْ ومنازِلِهمْ عنْدَ ربِّهم»(٤).

عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ حَدَّثَنِي المِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ. قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ:

---

(١) حسن: حم(٢١٤٣٨/ ٣٤٥/ ٣٥) الأرنؤوط.

(٢) م(٢٥٨٢/ ١٩٩٧/ ٤)، ت(٢٥٣٥/ ٣٧/ ٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١٣١/ ٢).

(٤) التذكرة (٢٣٣و٢٣٤).

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ المِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟ قَالَ: فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا، قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَعْرَقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ فِي الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ»[2].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ: يَقُومُ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ»[3].

«فتأمَّلْ -يا إنسانُ- في عرَقِ أهْلِ المَحْشَرِ وشِدَّةِ كرْبِهم، وفيهم منْ يُنادي فيقول: يا ربِّ أرحْني منْ هذا الكرْبِ والانْتِظارِ ولوْ إلى النَّار، وكلُّ ذلكَ ولمْ يلْقَوْا بعْدُ حِسابًا ولا عِقابًا، فإنَّكَ واحِدٌ منْهم، ولا تدْري إلى أيْنَ يبْلغُ بكَ العرقُ؟ واعْلمْ أنَّ كلَّ عَرقٍ لمْ يُخْرِجْهُ التَّعبُ في سبيلِ اللهِ فسيُخْرِجهُ الحياءُ والخوْفُ في صعيدِ القِيامة، في يوْمٍ عظيمٍ شِدَّتُه، طويلةٍ مُدَّتُه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج]. فتأمَّلْ في طولِ هذا اليوْمِ وشِدَّةِ الانْتِظارِ فيهِ حتَّى يخِفَّ عليْكَ انْتِظارُ الصَّبْرِ عنِ المعاصي في عُمُرِكَ المُخْتصر، واعْلمْ أنَّ ذلكَ اليوْمَ الطَّويلَ يُخفَّفُ على المُؤْمنينَ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**يَوْمُ الْقِيَامَةِ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ**»[4].

فاجْتَهِدْ أنْ تكونَ منْ أولئكَ المُؤْمنين، فما دامَ يبْقى لكَ نَفَسٌ منْ عُمرِكَ فالأمْرُ إليْكَ، والاسْتِعْدادُ بيديْكَ، فاعْملْ في أيَّامٍ قِصارٍ لأيَّامٍ طِوال، ترْبحْ رِبْحًا لا مُنْتهى لِسُرورِه،

---

(١) م(٢٨٦٤/ ٢١٩٦/ ٤)، ت(٢٥٦٣/ ٣٧/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٦٥٣٢/ ٣٩٢/ ١١)، م(٢٨٦٣/ ٢١٩٦/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ(٦٥٣١/ ٣٩٢/ ١١)، م(٢٨٦٢/ ٢١٩٥/ ٤)، ت(٣٣٩٢/ ١٠٥/ ٥).

(٤) صحيح: [س.ص:٢٤٥٦]، ك (٨٤/).

واسْتحْقِرْ عُمركَ، بلْ عُمرَ الدُّنيا كلِّها فإنَّك لَوْ صَبَرتَ أَلْفَ سَنَةٍ لِتَخْلُصَ مِنْ شَرِ يَوْمٍ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفًا لَكَانَ رِبْحُكَ كَثِيرًا وَتَعَبُكَ يَسِيرًا»(١).

وَهَكَذَا يُعَانِي أَهْلُ المَوْقِفِ الأَهْوَالَ العِظَامَ، ولاَ ظِلَ ولاَ شَرَابَ ولاَ طَعَامَ،« عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: **يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَجْوَعُ مَا كَانُوا قَط، وأَظْمَأُ مَا كَانُوا قَط، وأَعْرَى مَا كَانُوا قَط**»(٢)، فَيَكْسُو الله تعالى أَهْلَ الجَنَّةِ، ويُطْعِمَهُم ويَسْقِيهِم ويُظَلِّلَهُم، حَتَى تَخِفَ عَنْهُم تِلْكَ الأَهْوَالِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فَقَالَ: « **إِنَّكُمْ تَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ الآيَةَ، وَإِنَّ أَوَّلَ الخَلاَئِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ**»(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «**تَكُونُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُبْزَةً وَاحِدَةً يَتَكَفَّؤُهَا الجَبَّارُ بِيَدِهِ كَمَا يَكْفَأُ أَحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ فِي السَّفَرِ نُزُلاً لأَهْلِ الجَنَّةِ**»(٤).

قال ابنُ حَجرٍ: « يُسْتَفادُ مِنْهُ أَنَّ المُؤمِنِينَ لاَ يُعَاقَبُونَ بالجُوعِ فِي طُولِ زَمَانِ المَوْقِفِ، بَلْ يَقْلِبُ الله لَهُم بِقُدْرَتِهِ طَبْعَ الأَرْضِ حَتَى يَأْكُلُوا مِنْهَا مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِم مَا شَاءَ الله بِغَيْرِ عِلاَجٍ ولاَ كُلْفَةٍ، ويَكُونُ مَعْنَى قَوْلَه: «**نُزُلاً لأَهْلِ الجَنَّةِ**» أَيّ الذِينَ يَصِيرُونَ إِلَى الجَنَّةِ ، والله أَعْلَمُ»(٥).

فَإِذَا طَعِمُوا سُقُوا من حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ « والأَحَادِيثُ الوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الحَوْضِ تَبْلُغُ حَدَّ التَوَاتُرِ، رَوَاهَا مِنَ الصَّحَابَةِ بِضْعٌ وَثَلاَثُونَ صَحَابِيًّا، اسْتَقَصَى طَرَقُهَا ابْنُ كَثِيرٍ فِي البِدَايَةِ والنِّهَايَةِ»(٦).

---

(١) إحياء علوم الدين (٥١٤و٥١٥/ ٤) باختصار.
(٢) التذكرة (٢٠٣)، وعزاه لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب.
(٣) متفق عليه: خ(٦٥٢٦/ ٣٧٧/ ١١)، م(٢٨٦٠-٥٨-/ ٢١٩٤و٢١٩٥/ ٤)، ت(٢٥٣٩/ ٣٨/ ٤).
(٤) متفق عليه: خ(٦٥٢٠/ ٣٧٢/ ١١)، م(٢٧٩٢/ ٢١٥١/ ٤).
(٥) فتح الباري (٣٧٤/ ١١).
(٦) الفتن والملاحم (١٨٨-٢٠٨).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: أَغْفَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِغْفَاءَةً فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا فَإِمَّا قَالَ لَهُمْ وَإِمَّا قَالُوا لَهُ يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ ضَحِكْتَ، فَقَالَ: إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ فَقَرَأَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا، فَلَمَّا قَرَأَهَا، قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ! قَالَ: فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي الْجَنَّةِ، وَعَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ الْكَوَاكِبِ»[1].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! مَا آنِيَةُ الحوْضِ؟ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، أَلاَ فِي اللَّيْلَةِ المظْلِمَةِ المصْحِيَةِ، آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»[2].

وَعَنْ ثَوْبَانَ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي لَبِعُقْرِ حَوْضِي أَذُودُ النَّاسَ لأَهْلِ الْيَمَنِ، أَضْرِبُ بِعَصَايَ حَتَّى يَرْفَضَّ عَلَيْهِمْ، فَسُئِلَ عَنْ عَرْضِهِ؟ فَقَالَ: مِنْ مَقَامِي إِلَى عَمَّانَ، وَسُئِلَ عَنْ شَرَابِهِ؟ فَقَالَ: أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، يَغُتُّ فِيهِ مِيزَابَانِ يَمُدَّانِهِ مِنَ الْجَنَّةِ، أَحَدُهُمَا مِنْ ذَهَبٍ، وَالآخَرُ مِنْ وَرِقٍ»[3].

والذي يَتَلَخَصُ مِنَ الأَحَادِيثِ الـوَارِدَةِ فِي صِفَةِ الحَوْضِ أَنَّهُ حَوْضٌ عَظِيمٌ، وَمَوْرِدٌ كَرِيمٌ، يُمَدُّ مِنْ شَرَابِ الجَنَّةِ مِنْ نَهْرِ الكَوْثَرِ الذي هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَبَنِ، وأَبْرَدُ مِنَ الثَلْجِ، وأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ المِسْكِ، وهُوَ فِي غَايَةِ الاتِسَاعِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ سَوَاء، كُلُ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاه مَسِيرَةُ شَهْرٍ.

قـال القُرْطُبِيُّ في التـذكرة: «واخْتُلِفَ فِي المِيزَانِ والحَوْضِ أَيهما قَبْلَ الآخَرِ؟ فَقِيلَ المِيزَان، وقِيلَ الحوْض، قَالَ أَبو الحَسَن القَاسِمِي: والصحيح أَنَّ الحوْضُ قَبْلُ، قَالَ القرطبي: والمعْنَى يُفِيدُ بأَنَّ الناس يخرجون مِنْ قُبُورِهم عطاشًا فيُقدمُ الحوض قَبْلَ الميزان والصراط»[4].

❐ ❐ ❐

---

(١) م(٤٠٠/ ٣٠٠/ ١)، د(٤٧٢١/ ٨١و٨٢/ ١٢) واللفظ له.

(٢) م(٢٣٠٠/ ١٧٩٨و١٧٩٩/ ٤)، ت(٢٥٦٢/ ٤٨/ ٤).

(٣) م(٢٣٠١/ ١٧٩٩/ ٤).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (٢٥٠-٢٥٢).

ما ينجي من أهوال يوم القيامة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[1].

تحدَّثْنا عنْ أهْوالِ يوْمِ القِيامةِ وما يُلاقيهِ النَّاسُ في أرْضِ المحْشرِ منَ الخُطوبِ والكُروب، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⁽٦⁾ ﴾[المطففين]، حُفاةً عُراةً غُرْلاً، ليْسَ للرَّجُلِ إلاَّ موْضعُ قدَمِه، تحْتَ حرِّ الشَّمْسِ الَّتي دنتْ منْ رؤوسِهم، وهم معَ ذلكَ جِياعٌ عِطاشٌ، وعرَفْنا أنَّ الله تعالى يتغمَّدُ المؤمنينَ أهْلَ الجنَّةِ برحْمتِهِ وهم في أرْضِ الموْقف، فيُطْعمهُم منَ الأرض، ويسْقيهم من الحوْض، وفي هذا الحديثِ بيانٌ لوقايتهم منَ الحرِّ بجعْلِهم في ظِلِّ الله عزَّ وجلَّ.

قال القاضي عِياض: «إضافةُ الظِّلِّ إلى الله إضافةُ ملْكٍ وتشْريف، وكلُّ ظِلٍّ فهو لله ومنْ خلْقهِ ومُلْكهِ وسُلْطانه، وهوَ ظِلُّ العرْشِ على ما في الحديثِ الآخَر. وذهبَ ابنُ دينارٍ إلى أنَّ معْنى الظِّلِّ هنا: الكرامةُ والكنفُ والكنُّ عنْ المكارهِ في ذلكَ الموْقفِ، ولم يُردِ الظِّلَّ منَ الشَّمْس. وما قالهُ معْلومٌ في اللِّسانِ، يُقالُ: فُلانٌ في ظِلِّ فُلانٍ، أيْ في كنفهِ وحِمايته، وهو أوْلى الأقْوال، ويكونُ إضافتهُ إلى العرْشِ لأنَّهُ مكانُ التَّقْريبِ والكرامة، و إلاَّ فالشَّمْسُ وسائرُ العالَمِ تحْتَ العرْشِ وفي ظلِّه»[2].

---

(١) متفق عليه: خ(٦٦٠/ ١٤٣/ ١٢)، م(١٠٣١/ ٧١٥/ ٢)، ت(٢٥٠٠/ ٢٤و٢٥/ ٤)، ن(٢٢٢و٢٢٣/ ٨).

(٢) إكمال المعلم (٥٦٢/ ٣).

فإذا أظلَّ الله منْ شاءَ في ظلِّه، وأطْعمهُ وسقاه، لم يشُقَّ ذلكَ اليومُ عليْه، وكانَ أخفَّ عليهِ منْ صلاةٍ مكتوبة، وقدْ ذكر النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ سبْعةً منَ الَّذينَ يُظِلُّهمُ الله في ظلِّهِ يوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه:

الصِّنْفُ الأوَّل: الإمامُ العادِل:

« والمُرادُ بهِ صاحِبُ الولايةِ العُظْمى »[1]، خليفةُ المسْلمينَ أوْ أميرُ المؤمنين، الَّذي يُنصِّبونَهُ عليْهم ليتولَّى أمورَهم والنَّظرَ فيها، وهو مُكلَّفٌ شرْعًا بالعدْلِ بيْنهم، كما قال تعالى: ﴿**يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ**(٢٦)﴾[ص].

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ الله كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**(٥٨)﴾[النساء] .

فإنْ عدلَ الإمامُ فقدْ أنْجى نفْسَه، وإنْ ظلمَ فقدْ أوْبقَها، كما قال النبيُّ ﷺ « **مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إلاَّ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولاً حَتَّى يَفُكَّهُ الْعَدْلُ أَوْ يُوبِقَهُ الْجَوْرُ** »[2].

« ويلْتحِقُ بالإمامِ العادلِ كلُّ منْ وليَ شيْئًا منْ أُمورِ المُسْلمين »[3]، قال النَّوويُّ: « وإنَّما بدأ بهِ لكثْرةِ مصالحِهِ وعُمومِ نفْعِه »[4].

(١) فتح الباري (١٤٤/ ٢).

(٢) صحيح: [ص.ج:٥٥٧١]، هق(٩٦/ ١٠).

(٣) فتح الباري (١٤٤و١٤٥/ ٢).

(٤) شرح مسلم (١٢١/ ٧).

فكلُّ منْ وَلِيَ أمْرًا منْ أمورِ المسلمينَ فهوَ مسئولٌ عنْ إقامةِ العدْلِ في حُدودِ دائرتِهِ ومصْلحتِهِ الَّتي تولاَّها، لِعُمومِ قوْلِهِ ﷺ «إِنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»[1].

قال النَّوويُّ: «معْناهُ أنَّ هذا الفضْلَ إنَّما هوَ لمنْ عدلَ فيما تقلَّدهُ منْ خِلافةٍ أوْ إمارةٍ أوْ حِسْبَةٍ، أوْ نظرٍ على يتيمٍ أوْ صدقةٍ أوْ وَقْفٍ، وفيما يلْزمُهُ منْ حُقوقِ أهْلِهِ وعِيالِهِ ونحْوِ ذلك»[2].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلاَ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى أَهْلِ بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَعَبْدُ الرَّجُلِ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلاَ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[3].

«قال العُلماءُ: الرَّاعي هوَ الحافِظُ المُؤتمنُ المُلْتزِمُ صلاحَ ما قامَ عليهِ وما هو تحْتَ نظرِهِ، ففيهِ أنَّ كلَّ منْ كانَ تحْتَ نظرِهِ شيءٌ فهوَ مُطالبٌ بالعدْلِ فيهِ والقيامِ بمصالحِهِ في دينِهِ ودُنْياهُ ومُتعلَّقاتِه»[4].

فالرَّجُلُ في بيْتِهِ إمامٌ راعٍ، فإنْ هوَ أقامَ العدْلَ في بيْتِهِ، ووضعَ كلَّ شيءٍ في موْضِعِه، منْ غيْرِ إفْراطٍ ولا تفْريط، عاشرَ أهْلَهُ بالمعْروفِ كما أمرَ اللهُ، وأمرهم بإقامِ

---

(١) م(١٨٢٧/١٤٥٨/٣)، ن(٨/٢٢١).

(٢) شرح مسلم (١٢/٢١٢).

(٣) متفق عليه: خ(٧١٣٨/١١١/١٣)، م(١٨٢٩/١٤٥٩/٣).

(٤) شرح مسلم للنووي (١٢/٢١٣).

الصَّـلاةِ وإيتـاءِ الزَّكـاة، وعـدلَ بـيْنَ نِسـائِهِ إنْ كـانَ عِنْـدهُ أكْثـرُ مـن امْـرأة، وعـدلَ بـيْنَ أوْلادِهِ، فهـوَ إمـامٌ عـادل، وإنْ هـوَ أهْمـلَ وقصَّرَ فلـمْ يـأْمُرْهُم بـالمعْروفِ ولمْ يـنْهَهُم عـنِ المُنكـر، ولم يـأمرْهم بإقـامِ الصَّـلاةِ وإيتـاءِ الزَّكـاة، ولم يـأمرِ البنـاتِ بالعفَّـةِ والحِجـاب، وكـانَ عنْدهُ أكثرُ منَ امـرأةٍ فلـم يعـدِلْ بيْنهنَّ، وفـرَّقَ بـيْنَ أوْلادهِ في العطيَّـة، فقـد أسـاءَ وظلـم، كـما قال ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ مَعَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْـرَى جَـاءَ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ وَأَحَـدُ شِـقَّيْهِ سَاقِطٌ**»[1].

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ الله عَنْهمَا قَالَ: أَعْطَانِي أَبِي عَطِيَّةً، فَقَالَتْ عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لاَ أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ الله ﷺ! فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: إِنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، فَأَمَرَتْنِي أَنْ أُشْهِدَكَ يَا رَسُولَ الله! قَالَ: أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟ قَـالَ: لاَ. قَالَ: فَاتَّقُوا الله وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَولاَدِكُمْ. قَالَ فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ»[2].

فعلى كُلِّ أَبٍ أَنْ يعْلَمَ عِلم اليَقِينِ أَنَّه إِمَامُ بيْتِه وراعِيه، وهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيتِه، فإِنْ قَامَ بِمَا يَجِبُ عليه فقدْ نجَّا نَفْسَه وأَهْلَه مِنْ نارٍ حَامِيةٍ، كـما قـال تعـالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**⁽٦⁾﴾[التحريم].

والذي يُدَقِّقُ النَّظَرَ يَرَى أَنَّ الرَّجُلَ إِنْ كانَ عَادِلاً فِي بَيْتِه كَانَ الأَصْـلَ للأَصْـنَافِ السِّـتَةِ البَاقِيَةِ.

الصِّنْفُ الثَّاني: «**شَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله**» «أيْ: شبَّ وكبِرَ عليْها، ولم يكنْ لهُ صبْوة»[3].

---

(١) صحيح: [ص.جه:١٠٦٣]، جه(١٩٦٩/ ٦٣٣/ ١)، ت(١١٥٠/ ٣٠٤/ ٢)، د(٢١١٩/ ١٧١/ ٦)، ن(٦٣/ ٧).

(٢) متفق عليه: خ(٢٥٨٧/ ٢١١/ ٥)، م(١٦٢٣/ ١٢٤٢/ ٣)، ت(٢٦٥٠/ ٢٥٨/ ٥).

(٣) إكمال المعلم (٥٦٣/ ٣).

« فإنَّ الغالبَ أنَّ الشَّبابَ يكونُ لهم صَبْوةٌ وميْلٌ وانْحِراف، ولكنْ إذا كانَ هذا الشَّابُّ نشأَ في طاعةِ الله، ولم يكنْ لهُ ميْلٌ ولا انْحرافٌ، واسْتمرَّ على هذا، فإنَّ الله تعالى يُظلُّهُ في ظلِّهِ يوْمَ لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه»[1].

ونشْأةُ الشَّابِّ إنَّما يرْسمُ معالمَها ويخطُّ طريقَها الأبوان، ولا ينْشأُ الشَّابُّ في عِبادةِ ربِّهِ إلاَّ بسببِ أبويْه، فإنْ كانَ أبوهُ صالحًا، وكانَ إمامًا عادلاً، فلا شكَّ أنَّهُ سيُلقِّنهُ منْ صِغَرِهِ: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسْلامِ دينًا، وبمُحمَّدٍ رسولاً، وسيقولُ لهُ: «**يَا غُلامُ! سَمِّ الله، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»[2]، وسيأمرهُ بالصَّلاةِ إذا ميَّزَ، عملاً بقوْلِ الله تعالى: ﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**(١٣٢) ﴾ [طه]، وعملاً بقوْلِ النبيِّ ﷺ: «**مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي المَضَاجِعِ**»[3].

وهَكَذَا يُنْشِّئُ الأَبُ وَلَدَه في طَاعَةِ الله، ومَنْ شَبَّ على شَيءٍ شَابَ عليه، ومَنْ شَابَ على شَيءٍ مَاتَ عليه، ومَنْ مَاتَ على شَيءٍ بُعِثَ عليه، فَيَفُوزَ هَذَا الشَابُّ بِظلِّ الله يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلَّهُ.

الصِّنْفُ الثَّالث: «وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ»:

إنَّ المَسَاجدَ هِي بُيوتُ الله، وقَدْ أَمَرَ الله تعالى بِعِمَارَتِها، وشَهِدَ لعُمَّارِها بالإيمَانِ، فقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ ءَامَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ الله فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِينَ**(١٨) ﴾[التوبة].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣٦٧و٣٦٨/ ٦).

(٢) متفق عليه: خ(٥٣٧٦/ ٥٢١/ ٩)، م(٢٠٢٢/ ١٥٩٩/ ٣).

(٣) حسن صحيح: [ص.د:٤٦٦]، د(٤٩١/ ١٦٢/ ٢).

ولقد كانَ رسولُ الله ﷺ يُرغِّبُ في تعْميرِ المساجد، والسَّعْيِ إليْها، والجلوسِ فيها: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ غَدَا إِلَى المسْجِدِ وَرَاحَ أَعَدَّ الله لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»[1].

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْظَمُ النَّاسِ أَجْرًا فِي الصَّلاَةِ أَبْعَدُهُمْ فَأَبْعَدُهُمْ مَمْشًى»[2].

«وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى المسْجِدِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ الصَّلاَةُ لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلاَّ رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»[3].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا صَلَّى الْفَجْرَ جَلَسَ فِي مُصَلاَّهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسَنًا»[4].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ «مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ الله حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ»[5].

وَتَعَلُّقُ القُلُوبَ بالمَسَاجِدِ إِنَّمَا يَرْجِعُ إلى الأَبِ، فإنَّ الأَبَ هُوَ الذي يُنَشِّئُ وَلَدَه في عِبَادَةِ الله، وَهُوَ الذي يُعَلِّقُ قَلْبَهُ ببيُوتِ الله، وذلك إذا اصْطَحبَه معه دائِمًا إلى المَسْجِدِ، وأَخَذَه معه إلى الصَّلاَةِ، وأَحْسَنَ المصَلُّونَ اسْتِقْبَالَ هَذَا الطِفْلِ فَدَاعِبُوه ولاَعَبُوه، وعَلَّمُوه وأَدَّبُوه بِرِفْقٍ ولِينٍ، فحِينَئِذٍ يَنْشأُ الوَلَدُ في عِبَادةِ الله، ويَتَعَلَّقُ قَلْبُهُ ببيُوتِ الله، ويكون يوْمَ القِيَامَةِ في ظِلِّ الله.

(١) متفق عليه: خ(٦٦٢/ ١٤٨/ ٢)، م(٦٦٩/ ٤٦٣/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(٦٥١١٣٧/ ٢)، م(٦٦٢/ ٤٦٠/ ١).

(٣) متفق عليه: خ(٦٤٧/ ١٣١/ ٢)، م(٦٤٩/ ٤٥٩/ ١)، د(٥٥٥/ ٢٦٥/ ٢).

(٤) م(٦٧٠-٢٨٧-/ ٤٦٤/ ١)، ت(٥٨٢/ ٤٩/ ٢).

(٥) حسن: [ص.ت:٥٨٦]، ت(٥٨٣/ ٥٠/ ٢).

الصِّنْفُ الرَّابِعُ: «وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»:

إِنَّ الإسلامَ يدْعُو إلى المعْرِفَةِ والأُلْفَةِ، ويَحُثُّ على المَحَبَةِ والمودَةِ، وكَفَاكَ قول النَّبِيّ ﷺ: «لاَ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ»(١).

وَعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»(٣).

والحبُّ في اللهِ فضْلُهُ عَظيم:

فهوَ يُوجِبُ محبَّةَ اللهِ لِلمتحابِّين، كما قال ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلمتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالمتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالمتَزَاوِرِينَ فِيَّ»(٤).

والحُبُّ في اللهِ يُظِلُّ المُتحابِّينَ في ظلِّ اللهِ، كما قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ المتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي»(٥).

وَقَالَ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالى: المتَحَابُّونَ بِجَلالِي فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي»(٦).

---

(١) م(٥٤/ ٧٤/ ١)، د(٥١٧١/ ١٠٠/ ١٤)، ت(٢٨٢٩/ ١٥٦/ ٤)، جه(٦٨/ ٢٦/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(١٦/ ٦٠/ ١)، م(٤٣/ ٦٦/ ١)، ت(٢٧٥٩/ ١٢٧/ ٤)، جه(٤٠٣٣/ ١٣٣٨/ ٢)، ن(٩٦/ ٨).

(٣) صحيح: [ص.د:٣٩١٥]، د(٤٦٥٥/ ٤٣٨/ ١٢).

(٤) صحيح: [ص.تغ:٣٠٢٤]، ط(١٧٣٥/ ٦٨٠)، حم(٣٢/ ١٥٧/ ١٩)، ك(١٦٩/ ٤).

(٥) م(٢٥٦٦/ ١٩٨٨/ ٤).

(٦) صحيح: [ص.ت:٢٣٩٠]، ت(٢٤٩٩/ ٢٤/ ٤).

ومنْ فضْلِ الحُبِّ في الله أنَّهُ يوجِبُ لِلمتحابِّينَ الأمْنَ إذا خافَ النَّاس، والفرحَ إذا حزِنوا، لقوْلِهِ تعالى: ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المُتَّقِينَ﴿٦٧﴾ يَاعِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴿٦٨﴾** ﴾[الزخرف].

وممَّا يُشيعُ الحبَّ في الله الالْتقاءُ في بيوتِ الله، والاجْتماعُ على ذِكره، فالحبُّ في الله يأتي منْ عِمارةِ المساجدِ وذِكرِ الله وإقامِ الصَّلاة.

وأمَّا قولهُ ﷺ «**اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ**» فقد قال النَّوويُّ: «معْناهُ اجْتمعا على حُبِّ الله وافْترقا على حُبِّ الله، أيْ كانَ سببَ اجْتماعهما حُبَّ الله، واسْتمرَّا على ذلكَ حتَّى تفرَّقا منْ مجْلسِهما وهما صادِقانِ في حُبِّ كلٍّ منهما صاحِبَهُ لله تعالى حالَ اجْتماعهما وافْتراقهما»[١].

وقال الحافظُ ابنُ حجر: «المرادُ أنَّهما داما على المحبَّةِ الدِّينيَّةِ ولمْ يقْطعاها بعارضٍ دُنْيَويٍّ، سواءٌ اجْتمعا حقيقةً أمْ لا، حتَّى فرَّقَ بيْنهما الموْتُ»[٢].

الصِّنْفُ الخامسُ: «رَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ»:

«والمرادُ بالمنْصبِ الأصْلُ أوِ الشَّرف، وفي روايةٍ «**ذَاتُ حَسَبٍ**» وهو يُطْلقُ على الأصْلِ وعلى المالِ أيْضًا، وقد وصفها بأكْملِ الأوْصافِ الَّتي جرتِ العادةُ بمزيدِ الرَّغْبةِ لمنْ تحْصلُ فيه، وهو المنْصِبُ الذي يسْتلْزِمُ الجاهَ والمالَ معَ الجمال، وقلَّ منْ يجْتمعُ ذلكَ فيها منَ النِّساء»[٣].

ومعَ ذلك فإنَّ هذه المرأةَ قد راودتِ الرَّجُلَ عنْ نفْسِهِ، وأعْفتْهُ منْ مشاقِّ الوصولِ إليها، وعرضتْ نفْسَها عليه، «**فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**».

(١) شرح مسلم (١٢١/٧).

(٢)،(٣) فتح الباري (١٤٥/٢).

« فهوَ رجلٌ ذو شهْوةٍ، والدَّعْوةُ الَّتي دعتْهُ إليْها هذهِ المرْأةُ توجبُ أنْ يفْعل، لأنَّها هيَ الَّتي طلبتْه، والمكانُ خالٍ ليْسَ فيهِ أحد، ولكنْ منعهُ منْ ذلكَ خوْفُ الله عزَّ وجلَّ، « فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ ».

لمْ يقُلْ: أخْشى أنْ يطَّلِعَ عليْنا أحدٌ، ولمْ يقُلْ: إنَّهُ لا رغْبةَ لي في الجماعِ، ولكنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ »[1].

« فقوْلهُ هذا وامْتِناعهُ عنْ إجابتِها دليلٌ على عظيمِ معْرفتِهِ بالله تعالى، وشِدَّةِ خوْفهِ منْ عِقابهِ ومتينِ تقْواه، وحيائهِ منَ الله تعالى، وهذا هوَ المقامُ اليوسُفِيُّ »[2]، الذي حكاهُ الله تعالى في قوْلِهِ: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾[يوسف].

وإنَّما ينْشأُ الخوْفُ منَ الله في القلْبِ وينْمو فيهِ إلى هذه الدَّرجةِ الَّتي تعْصِمُ منَ الفواحشِ نتيجةَ الغدْوِ والرَّواحِ إلى المساجد، وإقامِ الصَّلاةِ، والإكْثارِ منْ ذِكْرِ الله.

فالرَّجلُ الَّذي يقومُ بيْنَ يديِ الله في الصَّلاةِ لا يُمْكنُ أنْ يسْتجيبَ لداعي الهوى، ولا يُمْكنُ أنْ يسْتجيبَ لداعي المعْصية، ولذلكَ أمرَ الله بإقامِ الصَّلاة، وذكرَ الحِكْمةَ منها، فقال: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ (٤٥) ﴾[العنكبوت].

« وقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ فُلاَنًا يُصَلِّي اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ! قَالَ: سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ »[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣٦٩/٦).

(٢) المفهم (٧٦/٣).

(٣) إسناده صحيح: [س.ص:١٦/١]، حم(٢٢/٢٠٥/٢)، بز(٧٢١/٣٤٦/١)، طح في مشكل الآثار (٦٠١/ ١/٦٠٤).

الصِّنْفُ السادسُ: «**رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**»:

إنَّ إبْداءَ الصَّدقة وإظْهارَها أمْرٌ مُباحٌ لا بأسَ به؛ لقوْلِه تعالى: ﴿**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ**﴾، ولكنَّ إخْفاءَها حينَ لا تدْعو الحاجةُ إلى إظْهارها أحقُّ وأوْلى.

ولذلكَ قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**(٢٧١)﴾[البقرة].

فعلى المتصدِّقَ أنْ يعْلمَ أنَّ الله يراهُ باللَّيْلِ والنَّهار، في السِّرِّ والعلانيَة، فإذا تصدَّقَ بصدقةٍ أخْفاها، حتَّى لوِ اسْتطاعَ أنْ يُخْفيَها عنْ نفْسهِ، حتَّى لا تعْلمَ شِمالُهُ ما تُنْفقُ يمينهُ، كانَ خيْرًا له.

وهذهِ المُبالغةُ في الإخْفاء إنَّما تنتُجُ منْ خشْيةِ الله في السِّرِّ والعلانية، التي منعتِ الرَّجلَ الَّذي طلبتْهُ ذاتُ المنْصبِ والجمالِ منْ إجابتِها.

الصِّنْفُ السَّابعُ: «**رَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**» منْ مخافةِ الله، حيْثُ تذكَّرَ عظمةَ الله وجلالَه، وعِزَّتَهُ وكِبْرياءَه، وتذكَّرَ ذُنوبَ نفْسِهِ وخطاياه، فاسْتحْيى منَ الله أنْ يَلْقاه بِهَذِهِ الذُّنُوبِ، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ بالدَمْعِ حَيَاءً وَخَجلاً وخَشْيَةً.

فَهَذَا الرَّجُلُ حَرِصَ على أنْ يؤمّنه الله مِمَّا يَخَافُ، وَيُبَلِّغَه ما يَرْجُو، «وفِيهِ فَضْلُ البُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ الله، وفَضْلُ أَعْمَالِ السِّرِ كُلِّها، لأَنَّها أَبْعَدُ مِنَ الرِيَاءِ والتَصَنُّعِ»[1].

فهذه سبعةٌ من الأعمالِ الصَّالحةِ تُنْجِي صاحِبَها من أهْوالِ يوْمِ القيامة.

ومن ذلك أيضاً:

---

(١) إكمال المعلم (٣/٥٦٤).

انظارُ المُعْسِرِ أوِ الوَضْعُ عنه:

عَنْ أَبِي الْيَسَرِ صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُظِلَّهُ الله فِي ظِلِّهِ فَلْيُنْظِرْ مُعْسِرًا أَوْ لِيَضَعْ لَهُ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ أَظَلَّهُ الله فِي ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2].

وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ رَجُلاً مُوسِرًا وَكَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَكَانَ يَأْمُرُ غِلمانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ المعْسِرِ فَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ تَجَاوَزُوا عَنْهُ»[3].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَتَادَةَ: أَنَّ أَبَا قَتَادَةَ طَلَبَ غَرِيمًا لَهُ فَتَوَارَى عَنْهُ ثُمَّ وَجَدَهُ، فَقَالَ: إِنِّي مُعْسِرٌ، فَقَالَ: آلله؟ قَالَ: آلله، قَالَ: فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ الله مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ»[4].

ومنْها: قضاءُ الحوائجِ وتفريجُ الكروب:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ،

---

(١) م(٣٠٠٦/ ٣٢٠١و٣٢٠٢/ ٤)، في قصة طويلة، جه(٢٤١٩/ ٨٠٨/ ٢)، مختصرًا واللفظ له.

(٢) صحيح: [ص.ت:١٣٠٦]، ت(١٣٢١/ ٣٨٥/ ٢).

(٣) م(١٥٦١/ ١١٩٥/ ٣)، ت(١٣٢٢/ ٣٨٥و٣٨٦/ ٢).

(٤) م(١٥٦٣/ ١١٩٦/ ٣).

وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَالله فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيه»[1].

وَعَنْ عَبْدِ الله بنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «المسْلِمُ أَخُو المسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُه، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ الله فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ الله عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَة، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[2] .

فهذهِ أعْمالٌ صالحَةٌ تُنْجي منْ أهْوالِ يوْمِ القِيامة ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(١١٠) ﴾ [الكهف].

❑ ❑ ❑

---

(١) م(٢٦٩٩/ ٢٠٧٤/ ٤)، د(٤٩٢٥/ ٢٨٩و٢٩٠/ ١٣)، ت(٤٠١٥/ ٢٦٥/ ٤)، جه(٢٢٥/ ٨٢/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(٢٤٤٢/ ٩٧/ ٥)، م(٢٥٨٠/ ١٩٩٦/ ٤)، ت(١٤٥١/ ٤٤٠/ ٢)، د(٤٨٧٢/ ٢٣٦/ ١٣).



الشفاعة

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِي الله عَنْهُ قَال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَم، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ الله مَقَامًا مَحْمُودًا يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلُّهُمْ »[1].

إذا جمعَ اللهُ تعالى الأوَّلينَ والآخِرينَ يوْمَ الدِّينِ أهْملهـمْ قِيامًا ينْظرون، حتَّى إذا عَظُـمَ الخَطْبُ، واشْتدَّ الكرْبُ، مشى بعْضُـهم إلى بعْـض، « أَلاَ تَـرَوْنَ مَـا أَنْـتُمْ فِيـه؟ أَلاَ تَـرَوْنَ مَـا قَـدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّكُم »[2].

« والشَّفاعةُ لُغةً: مصدرُ قوْلِهم: شفعَ يشْفعُ. واصْطِلاحًا: قال الرَّاغِبُ: « الشَّـفْعُ ضـمُّ الشَّيْءِ إلى مِثْلِه. والشَّفاعةُ الانْضِمامُ إلى آخَرَ ناصِرًا لهُ وسائلاً عنْه، وأكْثرُ ما يُسْتعْملُ في انْضِمامِ منْ هوَ أعْلى حُرْمةً ومرْتبةً إلى منْ هو أدْنى، ومنْهُ الشَّـفاعةُ في القيامـة »[3]، والشَّـافِعُ: الطَّالِـبُ لِغيْرِه، والمُشفِّعُ: الَّذي يقْبلُ الشَّفاعة، والمُشفَّعُ: الَّذي تُقْبلُ شفاعتُه »[4].

وقدْ حثَّ اللهُ تعالى عِبادَهُ على أنْ يشْفعَ بعضُهم لِبعْضٍ في الدُّنْيا في الخيْرِ وَوَعدهم عليهِ بالأجْر، وحذَّرهم منْ أنْ يشْفعَ بعْضُهم لِبعْضٍ في الشَّرِّ وتوعَّدهم عليْه، فقال تعالى: ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا(٨٥) ﴾[النساء].

---

(١) خ(١٤٧٥/ ٣٣٨/ ٣)، ابن جرير (١٤٦/ ١٥).

(٢) متفق عليه: خ(٤٧١٢/ ٣٩٥/ ٨)، م(١٩٤/ ١٨٤-١٨٦/ ١)، ت(٢٥٥١/ ٤٣-٤٥/ ٤).

(٣) المفردات (٢٦٣).

(٤) نضرة النعيم (٢٣٦٥و٢٣٦٦/ ٦).

وقال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**(٢)﴾[المائدة].

فالشَّفاعةُ الحسنَةُ منَ التَّعاوُنِ على البرِّ والتَّقْوى، والشَّفاعةُ السَّيِّئةُ منَ التَّعاوُنِ على الإثْمِ والعُدْوان، ولقد كان النَّبيُّ ﷺ يأتيهِ الرَّجُلُ لِحاجةٍ فيقولُ لِمنْ عِنْدهُ: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاءَ**»(١).

أمّا الشَّفاعةُ في الآخِرةِ فقد جاءتْ في القُرْآنِ الكريمِ مُثْبتَةً ومنْفِيَّةً:

أمّا المَنْفِيَّةُ فهيَ في قوْلِهِ تعالى: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ**(١٨)﴾[غافر]، وقوْلِهِ سُبْحانه: ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**(٤٨)﴾[المدثر].

وأمّا المُثْبتةُ فهيَ في مِثْلِ قوْلِهِ تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ**(٢٥٥)﴾[البقرة]، وقوْلِهِ: ﴿**وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**(٢٨)﴾[الأنبياء]، وقوْله: ﴿**يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**(١٠٩)﴾[طه].

والنَّاسُ في الشَّفاعةِ في الآخِرةِ ثلاثةُ أقْسام: طرفانِ مذْمُومانِ، ووَسَطٌ محْمُود:

أمّا الطَّرفُ الأوَّل: فهمُ الَّذينَ غلَوْا في إثْباتِ الشَّفاعةِ وأفْرطوا فيها.

وأمّا الطَّرفُ الثَّاني: فهمُ الَّذينَ غلَوْا في نَفْيِها وأفْرطوا فيه.

وأمّا الوسَطُ المحْمودُ: فهمُ الَّذينَ أثْبَتُوا ما أثْبتَهُ اللهُ تعالى، ونفَوْا ما نفاه.

فأمّا الَّذينَ أفْرطوا في إثْباتِ الشَّفاعةِ فهمُ المُشْركونَ ومنْ قلَّدَهم منْ عامّةِ المُسْلمينَ الَّذينَ غلَوْا في الأوْلِياءِ والصَّالحين، فاعْتقدوا شفاعتَهم لهم، ولم يخْطُرْ بِبَالِهِم أنْ تُردَّ أبدًا، وقد أبْطلَ اللهُ تعالى قوْلَهم وأنْكرَ عليهم مُعْتقدَهم.

---

(١) متفق عليه: خ(١٤٣٢/ ٢٩٩/ ٣)، م(٢٦٢٢/ ٢٠٢٦/ ٤)، د(٥١٠٩/ ٤٠/ ١٤)، ت(٢٨١٢/ ١٤٨/ ٤)، ن(٧٨/ ٥).

فقالَ تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَضُرُّهُمْ ولاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿١٨﴾﴾[يونس].

وقال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ الله شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا ولاَ يَعْقِلُونَ﴿٤٣﴾قُلْ لله الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴿٤٤﴾﴾[الزمر].

«فأخْبرَ سُبحانهُ أنَّ الشَّفاعةَ لمنْ لهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْض، وهوَ اللهُ وحْده، فهوَ الَّذي يشْفعُ بنفْسهِ إلى نفْسه، ليرْحمَ عبْدَه، فيأذنُ هوَ لمنْ يشاءُ أنْ يشْفعَ فيه، فصارتِ الشَّفاعةُ في الحقيقةِ إنَّما هيَ له، والَّذي يشْفعُ عِنْدهُ إنَّما يشْفعُ بإذْنِهِ لهُ وأمْره، بعْدَ شفاعتهِ سُبْحانهُ إلى نفْسه، وهيَ إرادتُهُ منْ نفْسهِ أنْ يرْحمَ عبْدَه، وهذا ضِدُّ الشَّفاعةِ الشِّرْكيَّةِ الَّتي أثْبتها هؤلاءِ المُشْركونَ ومنْ وافقهم، وهيَ الَّتي أبْطلَها اللهُ سُبحانهُ في كتابهِ بقوْله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ولاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ولاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴿٤٨﴾﴾[البقرة]، وقوْله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ ولاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴿٢٥٤﴾﴾[البقرة]، وقوْله: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴿٥١﴾﴾[الأنعام]»[(١)].

وقد اعْترفَ القومُ بخيْبةِ آمالهم، وضياعِ رجائهم، وبُطْلانِ ظنِّهم في شفاعةِ أوْليائهم، كما قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴿٩٤﴾وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴿٩٥﴾قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴿٩٦﴾تَالله إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴿٩٧﴾إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٩٨﴾وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمجْرِمُونَ﴿٩٩﴾فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴿١٠٠﴾وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴿١٠١﴾فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمؤْمِنِينَ﴿١٠٢﴾إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴿١٠٣﴾وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴿١٠٤﴾﴾[الشعراء].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢٢٠/ ١).

وقد قابلَ هذا الطَّرفَ الَّذي غلاَ في إثْباتِ الشَّفاعةِ طرفٌ آخرُ من الفِرقِ الضَّالةِ منَ المُسلمينَ فأفْرطوا في نفْيِ الشَّفاعة، حتَّى نفوْها عنْ عُصاةِ المسْلمين، وكفَّروا المُسْلمَ بالكبيرة، وحكموا عليْهِ بالخُلودِ في النَّار، وقالوا لا يخْرجُ منَ النَّارِ أحدٌ دخلها أبدًا.

« قال ابنُ بطَّالٍ: أنْكرتِ المُعْتزلةُ والخوارجُ الشَّفاعةَ في إخْراجِ منْ أُدْخِلَ النَّارَ منَ المُذْنبينَ، وتمسَّكوا بقوْلِهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨)﴾ [المدثر]، وغيْرِ ذلكَ منَ الآيات، وأجابَ أهْلُ السُّنَّةِ بأنَّها في الكُفَّار»[1].

فقوْلهُ تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨)﴾[المدثر]، جاء عقِبَ قوْلِهِ تعالى حِكايةً عنْ أهلِ النَّار: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ(٤٣)وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ(٤٤)وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(٤٥)وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(٤٦)حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ(٤٧)﴾[المدثر]، فقال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(٤٨)﴾ «أي: منْ كانَ مُتَّصِفًا بمِثْلِ هذهِ الصِّفاتِ فإنَّهُ لا تنْفعُهُ يوْمَ القِيامةِ شفاعةُ شافعٍ، لأنَّ الشَّفاعةَ إنَّما تنْجعُ إذا كانَ المحلُّ قابلاً، فأمَّا منْ وافى اللهَ كافرًا يوْمَ القيامةِ فإنَّ لهُ النارَ لا محالةَ خالِدًا فيها»[2].

وممَّا اسْتدلُّوا بهِ أيضًا قوْلهُ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ(٣٧)﴾[المائدة]، وهذه أيْضًا في الكافرين، وما قبْلها يُوضِّحُها، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣٥)إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٣٦)يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ(٣٧)﴾[المائدة].

---

(١) فتح الباري (١١/٤٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٤٧).

وبهذا يظْهرُ بُطْلانُ قوْلِ الخوارجِ والْمُعتزلة، كما ظهرَ منْ قبْل بُطْلانُ قولِ المشركين.

أمَّا الْوسَطُ المحْمودُ فهوَ ما عليْهِ أهْلُ السُّنَّةِ والجماعة منْ إثْباتِ ما أثْبتهُ اللهُ تعالى منَ الشفاعةِ ونفْيِ ما نفاه:

«فالشَّفاعةُ الَّتي أبْطلها اللهُ شفاعةُ الشَّريك، فإنَّهُ لا شريكَ له، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ(٩٤)﴾[الأنعام]، والشَّفاعةُ الَّتي أثْبتها شفاعةُ العبْدِ المأمورِ الَّذي لا يشْفعُ ولا يتقدَّمُ بيْنَ يديْ مالكهِ حتَّى يأذنَ لهُ ويقولَ اشْفعْ في فُلان. قال تعالى: ﴿ولاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى(٢٨)﴾[الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(١٠٩)﴾[طه]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ الله لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى(٢٦)﴾[النجم].

فأخْبرَ سُبحانهُ أنَّهُ لا يحْصلُ يوْمئذٍ شفاعةٌ تنفعُ إلاَّ بعْدَ رضاءِ قوْلِ المشْفوعِ لهُ، وإذْنهِ للشَّافع، فما لم يوجدْ مجْموعُ الأمْريْنِ لم توجدِ الشَّفاعة. ومنْ وفَّقهُ اللهُ لِفَهْمِ هذا ومعْرفتهِ تبيَّنَ لهُ حقيقةُ التَّوْحيدِ والشِّرْك، والفرْقُ بيْنَ ما أثْبتهُ اللهُ تعالى منَ الشَّفاعةِ وبيْنَ ما نفاهُ وأبْطله، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠)﴾[النور]»[1].

والشُّفعاءُ يوْمَ القِيامةِ كثيرون، تشْفعُ الملائكة، ويشْفعُ النَّبيُّون، ويشْفعُ العُلماءُ الرَّبانيُّون، ويشْفعُ الشُّهداءُ الْمُخْلِصون، ويشْفعُ منْ أذِنَ اللهُ تعالى لهُ منْ سائرِ المؤمنينَ الصَّالحين، ولكنَّ أكْثرَ الشَّافعينَ حظًّا، وأوْفرَهم نصيبًا، سيِّدُ الأوَّلينَ والآخِرين، وخليلُ ربِّ العالمين، محمَّدٌ الأمين ﷺ، فهوَ ﷺ صاحِبُ الشَّفاعةِ العُظْمى، والمقامِ المحْمودِ الَّذي يغْبطهُ عليْهِ النَّبيُّونَ والْمُرسلون:

(١) إغاثة اللهفان (٢٢٠-٢٢٣/ ١) بتصرف واختصار.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا(٧٩)﴾[الإسراء].

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِي الله عَنْهمَا يَقُول: « إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا، يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ الله المَقَامَ المحْمُودَ»(١).

قال الطَّبَرِيُّ: « أكثرُ أهلِ العلمِ على أنَّ ذلكَ المقامَ هوَ المقامُ الَّذي يقومهُ ﷺ يومَ القِيامةِ لِلشَّفاعةِ للنَّاسِ لِيُريحَهم ربُّهم منْ عظيمِ ما هم فيهِ منْ شِدَّةِ ذلكَ اليوم»(٢).

وهذهِ الشَّفاعةُ خاصَّةٌ بهِ ﷺ دونَ إخوانهِ منَ الأنبياءِ والمرسلين، ولذلكَ قالَ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ المغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(٣).

قال الحافظ: « قال ابنُ دقيقِ العيد: المرادُ الشَّفاعةُ العُظمى لإراحةِ النَّاسِ منْ هوْلِ الموْقف، ولا خِلافَ في وُقوعِها، وكذا جزمَ النَّوَوِيُّ وغيْرُه»(٤).

وقالَ القُرطبيُّ: « هذهِ الشَّفاعةُ العامَّةُ الَّتي خُصَّ بها نبيُّنا ﷺ من بيْنِ سائرِ الأنبياءِ هيَ المُرادةُ بقوْلهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَه وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي

---

(١) خ(٤٧١٨/ ٣٩٩/ ٨).

(٢) جامع البيان (١٤٣و١٤٤/ ١٥).

(٣) متفق عليه: خ(٣٣٥/ ٤٣٥/ ١)، م(٥٢١/ ٣٧٠و٣٧١/ ١)، ن(٢١٠و٢١١/ ١).

(٤) فتح الباري (٤٣٨/ ١).

شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَة »(١). وهذهِ الشَّفاعةُ العامَّةُ لأهْلِ المَوْقفِ إنَّما هيَ لتعْجيلِ حِسابهم ويُراحوا منَ المَوْقفِ»(٢).

« وقد وردتْ هذهِ الشَّفاعةِ منْ حديثِ الصِّديقِ الأعْظمِ، وأنسٍ، وأبي هريرة، وابنِ عبَّاسٍ، وابنِ عمر، وحُذيْفةَ، وعُقْبةَ بنِ عامر، وأبي سعيدِ الخُدْري، وسلمانَ الفارسيِّ، وأحاديثُ هؤلاءِ مطوَّلة، وَوَردتْ مُختصرةً منْ حديثِ أُبيِّ بنِ كعْب، وعُبادةَ بنِ الصَّامِت، وجابرِ بنِ عبْد الله، وعبْدِ الله بنِ سلامٍ وغيْرِهم، رضيَ اللهُ عنهم أجمعين»(٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ الله النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ ولاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلاَم، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الملائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ الله عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟

(١) متفق عليه: خ(٦٣٠٤/ ٩٦/ ١١)، م(١٩٩/ ١٨٩/ ١)، واللفظ له، ت(٣٦٧٢/ ٢٣٨/ ٥)، جه (٤٣٠٧/ ١٤٤٠/ ٢).

(٢) التذكرة (٢٤٤و٢٤٥).

(٣) المصدر السابق (٢٠٤/ ٢).

فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ! أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذِبَاتٍ، فَذَكَرَهُنَّ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ! أُمَّتِي يَا رَبِّ! أُمَّتِي يَا رَبِّ! فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ. ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[1].

فهذهِ هي الشَّفاعةُ العُظْمى، وهيَ المقامُ المحْمود.

---

(١) متفق عليه: خ(٤٧١٢/ ٣٩٥/ ٨)، م(١٩٤/ ١٨٤-١٨٦/ ١)، ت(٢٥٥١/ ٤٣-٤٥/ ٤).

ولهُ ﷺ شفاعاتٌ أُخرى:

منها: « شفاعتُهُ ﷺ في أقْوامٍ تساوتْ حسناتُهم وسيِّئاتهم، فيشْفعُ لهم ليدْخلوا الجنَّة، وفي أقْوامٍ آخرينَ قد أُمِرَ بهم إلى النَّارِ أن لا يدْخلوها.

ومنها: شفاعتُهُ ﷺ في رفْعِ درجاتٍ منْ يدْخلُ الجنَّة فيها فوْقَ ما كانَ يقْتضيهِ ثوابُ أعْمالهم.

ومنها: شفاعتُهُ ﷺ في أقْوامٍ أنْ يدْخلوا الجنَّةَ بغيْرِ حساب.

ومنها: شفاعتُهُ ﷺ أنْ يؤذنَ لجميعِ المؤمنينَ في دُخولِ الجنَّة.

ومنها: شفاعتُهُ ﷺ في أهْلِ الكبائرِ ممَّنْ دخلَ النَّارَ فيخْرُجونَ منها، وقد تواترتْ بهذا النَّوْعِ الأحاديث[1].

ومنها: شفاعتُهُ ﷺ في تخْفيفِ العذابِ عمَّنْ يسْتحقُّه، كشفاعتِهِ في عمِّهِ أبي طالب»[2].

عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ أَنَّهُ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ! قَالَ: نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »[3].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»[4].

---

(١) وستأتي بعد الحديثِ عن الصراط إن شاء الله.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٢٥٣-٢٥٨).

(٣) متفق عليه: خ(٣٨٨٣/ ١٩٣/ ٧)، م(٢٠٩/ ١٩٤و١٩٥/ ١).

(٤) م(٢١٢/١٩٦/ ١).

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا»(١). نسألُ اللهَ السلامةَ والعافيةَ.

وهذهِ الشَّفاعاتُ نوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّشريفَاتِ الَّتي يُشرِّفُ الله بها نبِّينا ﷺ يوْمَ القيامةِ، قال ابنُ كثيرٍ: «لِرَسُولِ الله ﷺ تشريفَاتٌ يوْمَ القِيامةِ لا يُشارِكُه فيها أَحدٌ، وتشْريفَاتٌ لا يُساويهِ فيها أحد، فهو أوَّلُ مَنْ تنشقُ عَنْه الأرْضُ، ويُبْعَثُ راكِبًا إِلَى المَحْشَرِ، وله اللّواءُ الَّذي آدمُ فَمَنْ دُونَه تحْتَ لوائِه، وله الحَوْضُ الَّذي لَيْس في المَوْقِفِ أكثَرُ واردًا منْه، وله الشَّفاعَةُ العُظْمَى عنْد اللهِ ليأْتِيَ لفَصْلِ القضاءِ بيْنَ الخلائق، وذلِكَ بعْدَ ما يسألُ النَّاسُ آدمَ ثم نوحًا ثُمَّ إبراهيمَ ثم موسَى ثم عيسَى فكُلٌّ يقولُ لسْتُ لها، حتى يأْتُوا محمَّدًا ﷺ فيقولُ: أنا لها، أنا لها، ومِنْ ذلِكَ أَنْ يشْفَعَ في أقْوامٍ قد أُمِرَ بهم إلى النَّار فيُرَدُّونَ عنها، وهو أوَّلُ الأنْبياءِ يُفْصَلُ بيْنَ أُمَّتِه، وأوَّلُهم إجازةً على الصراط بأُمَّتِه، وهو أوَّلُ شَفيعٍ في الجنَّة، ويشْفَعُ في درجاتِ أقْوامٍ لا تَبْلُغها أعْمَالُهم، وهو صاحِبُ الوَسيلةِ الَّتي هي أعْلَى منْزِلةٍ في الجنَّةِ لا تليقُ إلاَّ له. وإذا أَذِنَ اللهُ تعالى في الشَّفاعةِ للعُصاةِ شفعَ الملائِكةُ والنَّبيُّون والمُؤمِنُونَ فيشْفَعُ هو في خلائِقَ لا يعْلَمُ عِدَّتَهم إلاَّ الله، ولا يشْفَعُ أحدٌ مثْلَه ولا يُساويه»(٢).

اللهمَّ يا حيُّ يا قيُّوم، يا ذا الجلالِ والإكرام، شفِّع فينا نبيَّك ﷺ حتى نَدْخُلَ الجنَّةَ بغير حساب

آميـن

❑ ❑ ❑

(١) م(٢١٣-٣٦٤/١٩٦/١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٥).

وسائل الحصول على شفاعة الرسول

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ! مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»[1].

تحدَّثْنا عن أنْواعِ شفاعةِ الرَّسولِ ﷺ لأُمَّتِهِ يوْمَ القِيامة، فاقْتضى ذلكَ أن نتحدَّثَ عمَّن ينْتفعونَ بها، لأنَّ هذا مِمَّا يردُ السُّؤالُ عنهُ عنْدَ سماعِ أحاديثِ الشَّفاعة، ولذلكَ قال الحافظُ ابنُ حجرٍ في سؤالِ أبي هريرةَ لرسولِ الله ﷺ: **مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**: «لعلَّ أبا هريرةَ سألَ عنْ ذلكَ عنْدَ تحْديثِهِ ﷺ بقوْله: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي**»[2]»[3].

وقدْ سُرَّ النبيُّ ﷺ بسُؤالِ أبي هريرةَ وقال له: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ**»، ففيهِ إشارةٌ إلى مدْحِ الحِرْصِ على حديثِ رسولِ الله ﷺ وتعلُّمِه، ولذلكَ ترْجمَ البخاريُّ لهذا الحديثِ في كتابِ العِلمِ منْ صحيحِهِ فقال: «بابُ الحرْصِ على الحديث».

ثُمَّ أجابَ النبيُّ ﷺ أبا هريرةَ بقوْله: «**أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**»:

---

(١) خ(٩٩/ ١٩٣/ ١ و٦٥٧٠/ ٤١٨/ ١١).

(٢) متفق عليه: خ(٦٣٠٤/ ٩٦/ ١١)، م(١٩٩/ ١٨٩/ ١).

(٣) فتح الباري (٤٤٣/ ١١).

قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ: «"أسْعد" أفْعلُ تفضيل، وهي على بابها، فإنَّهُ وإنْ كانَ كلُّ أحدٍ يحصلُ لهُ سُعْدٌ بشفاعتِهِ ﷺ، لكنَّ المؤمنَ المُخْلصَ أكثرُ سعادةً بها، فإنَّهُ ﷺ يشْفعُ في الخلْقِ لإراحتِهم من هوْلِ الموْقف، وأسْعدُ النَّاسِ بهذهِ الشَّفاعةِ من يسْبِقُ إلى الجنَّةِ، وهمُ الَّذينَ يدْخلونَ الجنَّةَ بغيْرِ حساب، ثُمَّ الَّذينَ يلونهم وهوَ من يدْخلُها بغيْرِ عذابٍ بعْدَ أنْ يُحاسَبَ ويسْتحِقَّ العذاب، ثُمَّ من يُصيبُهُ لفحٌ من النَّارِ ولا يسْقط، وهكذا يتفاوتونَ في الانْتِفاعِ بالشَّفاعةِ على قدْرِ تفاوُتِهم في الإخْلاص»[1]، فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**أسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ**»:

«فقوْلهُ «**مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله**» احْترازٌ من المُشْرك»[2]، فإنَّ الله قال في المشركين: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ**[18]﴾ [غافر].

وَعنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ الله مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لاَ يُشْرِكُ بِالله شَيْئًا**»[3].

«وقوْلهُ «**خالصًا**» احْترازٌ من المُنافق»[4] الَّذي قالها بلسانهِ دونَ قلْبه، فإنَّ قوْلَ اللِّسانِ لا يُسْمنُ ولا يُغْني من جوعٍ دونَ إخْلاصِ القلْب، ولذلكَ قال ﷺ: «**خالصًا من قِبَلِ نفسه**»، «فذكر ذلك على سبيلِ التَّأكيد، لأنَّ الإخْلاصَ محلُّهُ القلْب، لكن إسْنادَ الفعْلِ إلى الجارحةِ أبْلغُ في التَّأكيد»[5]، «ألا ترى أنَّكَ تقول: أبْصرْتُهُ بعيْني، وسَمِعْتَهُ أُذُناي، وَوَعاهُ قلْبي»[6].

(١) فتح الباري (١/١٩٤ و١١/٤٤٣) بتصرف.

(٢) فتح الباري (١/١٩٤).

(٣) سبق في الصفحة السابقة.

(٤) فتح الباري (١/١٩٤).

(٥) فتح الباري (١١/٤٤٣).

(٦) البحر المحيط (٢/٣٧٥).

«فلا ينتفعُ بشفاعةِ النبيِّ ﷺ إلاَّ أهْلُ التَّوْحيدِ المؤمنون، دونَ أهْلِ الشِّرْكِ ولوْ كانوا يُحِبُّونَ النبيَّ ﷺ ويُعظِّمونه، ولهذا لمَّا كان أبو طالبٍ وغيْرُهُ يُحِبُّونهُ ولم يُقِرُّوا بالتَّوْحيدِ الَّذي جاء بهِ لم يُمْكِنْ أنْ يخْرجوا من النَّارِ بشفاعتِهِ ولا غيْرِها»[1].

وهذا من فضْلِ التَّوحيدِ وبركته، وفضائلُهُ كثيرة:

منها: «أنَّهُ أعْظَمُ أسْبابِ انشِراحِ الصَّدْر، وعلى حسَبِ كمالِهِ وقُوَّتِهِ وزيادتِهِ يكونُ انْشِراحُ صدْرِ صاحبه، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٢٥)﴾[الأنعام]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ(٢٢)﴾ [الزمر]»[2].

ومنها: حُصولُ الأمْنِ التَّامِّ في الدُّنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٥٥)﴾ [النور]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(٨٢)﴾[الأنعام].

عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ الله ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَه؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(١٣)﴾[لقمان]»[3].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٥٣و١٥٤/ ١).

(٢) زاد المعاد (٢٣و٢٤/ ٢).

(٣) متفق عليه: خ(٣٢/ ٨٧/ ١)، م(١٢٤/ ١١٤/ ١)، ت(٥٠٦٢/ ٢٢٧/ ٤).

ومنها: مغفرةُ الذُّنوبِ وتكْفيرُ السَّيِّئات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(٤٨)﴾[النساء].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «قَالَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَاابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

ومنها: ثِقَلُ الميزانِ يوْمَ القيامة، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى! إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟ فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ»(٢).

ومنها: أَنَّهُ يمْنعُ من دُخولِ النَّارِ ابْتداءً إذا كمُلَ في القلْب، ويمْنعُ منَ الخلودِ فيها إذا كان في القلْبِ منْهُ أدْنى مثْقالِ حبَّةٍ من خرْدل.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ: «يَقُولُ مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، حَرَّمَ الله عَلَيْهِ النَّارَ»(٣).

---

(١) صحيح: [ص.ت:٣٥٤٠]، ت(٣٦٠٨/٢٠٨/٥).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٦٣٩]، ت(٢٧٧٦/١٣٣و١٣٤/٤)، جه(٤٣٠٠/١٤٣٧/٢).

(٣) م(٢٩/٥٧و٥٨/١)، ت(٢٧٧٥/١٣٢/٤).

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُعَذَّبُ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فِي النَّارِ، حَتَّى يَكُونُوا فِيهَا حُمَمًا، ثُمَّ تُدْرِكُهُمُ الرَّحْمَةُ فَيُخْرَجُونَ وَيُطْرَحُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَرُشُّ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الماءَ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْغُثَاءُ فِي حِمَالَةِ السَّيْلِ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ»(١).

فإذا خرجَ أهْلُ التَّوْحيدِ من النَّارِ ندِمَ الكُفَّارُ على كُفْرهم، وتمَنَّوْا أن لو كانوا مُوحِّدين:

عَنْ أَبِي مُوسى الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَعَهُمْ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، قَالَ الْكُفَّارُ لِلمسْلِمِينَ: أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: بَلَى! قَالُوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلامُكُمْ وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ قَالُوا: كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأُخِذْنَا بِهَا، فَسَمِعَ اللهُ مَا قَالُوا، فَأَمَرَ بِكُلِّ مَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ مَنْ بَقِيَ مِنَ الْكُفَّارِ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنَخْرُجَ كَمَا خَرَجُوا، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ(١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ(٢)﴾ [الحجر]»(٢).

ومنها: أنَّ جميعَ الأقْوالِ والأعْمالِ الظَّاهرةِ والباطنَةِ مُتوقِّفةٌ في قبولِها وفي كمالِها وفي ترتُّبِ الثَّوابِ عليْها على التَّوْحيد، قال تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ(١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ(١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ(١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ(١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ(١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ(١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمرْحَمَةِ(١٧)﴾ [البلد]، فإن لم يكنْ منهم كانَ عملُهُ مرْدودًا عليْه، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ(١٨)﴾ [إبراهيم].

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! ابْنُ جُدْعَانَ! كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ المسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: لاَ يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»(٣).

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢٥٩٧]، ت(٢٧٢٤/ ١١٣/ ٤).

(٢) صحيح: السنة لأبي عاصم:(٨٤٣/ ٤٠٥و٤٠٦/ ٢)، ابن جرير(٢/ ١٤).

(٣) م(٢١٤/ ١٩٦/ ١).

ومنها: أنَّ الأعْمالَ الصَّالحةَ من الأبْناءِ لا تنفعُ سوى المُوَحِّدينَ من الآباء، عَنْ عَمْرِو ابنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ الْعَاصَ بنَ وَائِلٍ نَذَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَنْحَرَ مِائَةَ بَدَنَةٍ، وَأَنَّ هِشَامَ ابنَ الْعَاصِ نَحَرَ حِصَّتَهُ خَمْسِينَ بَدَنَةً، وَأَنَّ عَمْرًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «أَمَّا أَبُوكَ فَلَوْ كَانَ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ فَصُمْتَ وَتَصَدَّقْتَ عَنْهُ نَفَعَهُ ذَلِكَ»(١).

ومنها: أنَّ التَّوحيدَ حِرْزٌ للعبْدِ من الشَّيْطانِ الرَّجيم، كما استثنى هو -لعنه الله- حينَ قال: ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخْلَصِينَ (٨٣)﴾[ص].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ إِلاَّ رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ»(٢).

لكنَّ هذه الفضائلَ لا تحْصلُ إلاَّ لمنْ حقَّقَ التَّوْحيدَ، وذلكَ لا يتِمُّ إلاَّ بشروطٍ، قالَ فيها الحافظُ الحَكَمِيُّ في منْظومتِهِ «سُلَّمُ الوصول»:

«وبشروطٍ سبْعةٍ قدْ قُيِّدتْ	وفي نُصوصِ الوحْيِ حقًّا وردتْ
فإنَّهُ لم ينتفِعْ قائلُها	بالنُّطقِ إلاَّ حيثُ يسْتكْمِلُها
العِلمِ واليقينُ والقبولُ	والانْقِيادُ فادْرِ ما أقولُ
والصِّدْقُ والإخْلاصُ والمحبَّة	وفَّقكَ الله لما أحبَّه

أمَّا الأوَّلُ: وهو العلم، فالمرادُ بِهِ العلمُ بمعْناها المرادُ منها نفْيًا وإثْباتًا، المُنافِي لِلْجهْلِ بذلك، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ (١٩)﴾[محمد]، وقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦)﴾[الزخرف].

---

(١) حسن: حم(٦٧٠٤/ ٣٠٧/ ١١). الأرنؤوط.

(٢) متفق عليه: خ(٦٤٠٣/ ٢٠١/ ١١)، م(٢٦٩١/ ٢٠٧١/ ٤)، ت(٣٥٣٥/ ١٧٤/ ٥).

ومعنى لا إلهَ إلاَّ الله: لا معْبودَ بحقٍّ إلاَّ الله، ومعْناها: الإيمانُ بألوهيَّةِ الله، والكُفْرُ بكلِّ ما عُبِدَ سِواه، وهذا معْنى قوْلِ الله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا(٢٥٦) ﴾ [البقرة].

عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى الله»(١).

وأمَّا الثَّاني: وهوَ اليقين، فالمُرادُ بهِ اليقينُ المُنافي للشَّكِّ، بأن يكونَ قائلُها مسْتيْقِنًا بمَدْلولِها يقينًا جازمًا، فإنَّ الإيمانَ لا يُغْني فيهِ إلاَّ عِلم اليقين، لا علم الظَّنِّ، فكيْفَ إذا دخلهُ شكٌّ. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(١٥) ﴾[الحجرات]، فاشْترطَ في صدْقِ إيمانهم كوْنَهم لم يرْتابوا، أيْ لم يشكُّوا.

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ نَعْلَيْهِ فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ! اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»(٢)، فاشْترطَ لِدُخولِ قائلِها الجنَّةَ أنْ يكونَ مسْتَيْقِنًا بها قلْبُه، غيْرَ شاكٍّ فيها، فإذا انتفى الشَّرْطُ انْتفى المشْروط.

وأمَّا الثَّالِثُ: القبُولُ لما اقْتضتْهُ هذهِ الكلِمةُ بقلْبِهِ ولسانِهِ، قبُولاً يُنافي الرَّدَّ، فإنَّ هناكَ منْ يعْلمُ أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ الله، ويوقنُ بها، ولكنَّهُ يرُدُّها ويأبى قبُولَها لِغرضٍ في نفْسه، كما قال تعالى في آلِ فرْعونَ: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ(١٤) ﴾[النمل].

---

(١) م(٢٣/٥٣/١).

(٢) م(٣١/٥٩-٦١/١).

وقال عن أهلِ الكتاب ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ(٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ(٩٠)﴾[البقرة]، وكذلكَ المشركونَ كانوا يعرفونَ معنى لا إلهَ إلاَّ الله، ولكنَّهم رفضوها واستَكْبروا عنها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ(٣٥)﴾[الصافات].

«ولقد كانَ أبو طالبٍ يعْلمُ أنَّهُ لا إلهَ إلاَّ الله، ولكنَّهُ رفضها مخافةَ القدْحِ في آبائه، ومِمَّا أُثِرَ عنْهُ في ذلكَ قوْلُه:

ولقد علِمْتُ بأنَّ دينَ محمَّدٍ ... مِنْ خيْرِ أدْيانِ البريَّةِ دينا

لوْلاَ الملامَةُ أوْ حذارِ مسبَّةٍ ... لوجدْتني سمْحًا بذاكَ مُبينا »[١].

وأمَّا الرابع: الانْقِيادُ لما دلَّتْ عليْهِ انْقِيادًا يُنافي التَّرْك، وهوَ الإسْلامُ الذي الَّذي أمرَ الله بهِ في قوْلِه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ(٥٤)﴾[الزمر]، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى(٢٢)﴾[لقمان]، ومعنى يُسْلِم ينْقاد، وهوَ مُحْسن أيْ مُوحِّد.

وأمَّا الخامس: الصِّدْقُ فيها المُنافي لِلْكذب، فإنَّ من قالها كذِبًا كانَ مُنافِقًا، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ(١)﴾ [المنافقون].

وأمَّا السَّادس: الإخْلاص، وهو تصْفِيَةُ العملِ بصالحِ النِّيَّةِ عن جميعِ شوائبِ الشِّرْك، قال تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ(٢) أَلاَ للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ(٣)﴾[الزمر].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٣٧٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»(١).

وأمَّا السَّابعُ: المحبَّةُ لهذهِ الكلِمةِ، ولما اقتضتْهُ ودلَّتْ عليه، ولأهْلِها العاملينَ بها، الْمُلتزمينَ لشرُوطِها، وبُغْضُ ما ناقضَ ذلك، قال تعالى: ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الله أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٢٢)﴾ [المجادلة].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢) »(٣).

فمتى اجْتمعتْ هذهِ الشُّروطُ السَّبْعةُ فيمنْ قالَ لا إلهَ إلاَّ الله فقدِ اسْتحقَّ شفاعةَ رسولِ الله ﷺ، «والْمُرادُ باجْتِماعِها في العبْدِ التِزامهُ إيَّاها بدونِ مُناقضةٍ منْهُ لشيْءٍ منها، وليْسَ الْمُرادُ عدَّ ألْفاظِها وحِفْظَها، فكم منْ عاميٍّ اجْتمعتْ فيهِ والتزَمها وهوَ لا يُحْسِنُ عدَّها، وكم منْ حافظٍ لألْفاظِها، يجري فيها كالسَّهْمِ، وتراهُ يقع كثيرًا فيما يُناقضُها، والتَّوْفيقُ بيدِ الله عزَّ وجلَّ»(٤).

---

(١) سبق تخريجه أول الموضوع.

(٢) متفق عليه: خ(١٦/ ٦٠/ ١)، م(٤٣/ ٦٦/ ١)، ت(٢٧٥٩/ ١٢٧/ ٤)، جه(٤٢٣٠/ ١٣٣٨/ ٢)، ن(٩٦/ ٨).

(٣) معارج القبول (٣٠٧-٣١٥/ ١)، ونضرة النعيم (١٣٠٧و١٣٠٨/ ٤).

(٤) المصدر السابق (٣٠٧/ ١).

ومنْ وسائلِ الحصولِ على شفاعةِ الرَّسولِ ﷺ:

الدُّعاءُ لهُ ﷺ بالوسيلةِ عقِبَ كلِّ أذان: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا الله لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»[1].

ومنها كَثْرَةُ الصَّلاة: عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الأَسْلَمِيُّ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: سَلْ. فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[2].

ومنْها المَوْتُ بالمدينةِ المُنَورة: عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا»[3].

ومنْها سُكْنَى المدينةِ المُنَورةِ والصَّبْرُ على ما يُصِيبُ الإِنْسانَ فيهَا مِنْ الشِّدَّة: عَنْ عَامِرِ ابْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «المَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، لاَ يَدَعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا، إِلاَّ أَبْدَلَ الله فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَلاَ يَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوَائِهَا وَجَهْدِهَا، إِلاَّ كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[4].

❑ ❑ ❑

(١) م(٣٨٤/ ٢٨٨و٢٨٩/ ١)، د(٥١٩/ ٢٢٥و٢٢٦/ ٢)، ت(٣٦٩٤/ ٢٤٧/ ٥)، ن(٢٥/ ٢).

(٢) م(٤٨٩/ ٣٥٣/ ١)، د(١٣٠٦/ ٢٠٢و٢٠٣/ ٤)، ن(٢٢٧و٢٢٨/ ٢).

(٣) صحيح: [ص.ت:٣٩١٧]، ت(٤٠٠٩/ ٣٧٧/ ٥)، جه(٣١١٢/ ١٠٣٩/ ٢).

(٤) م(١٣٦٣/ ٩٩٢/ ٢).

الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي الله عَنْهما قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُه، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللهِ وَرَسُولِه، وَلَكِنْ هَؤُلاَءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: هُمِ الَّذِينَ لاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَامَ آخَرُ، فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»[1].

دُخولُ الجنَّةِ أُمنيةُ كلِّ مُؤْمنٍ باللهِ واليوْمِ الآخِرِ، ولكنَّ اليومَ الآخِرَ يومٌ عظيم، وشرُّهُ مُسْتطير، ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾[المطففين]، قِيامًا طويلاً، الشَّمْسُ فوْقَ رؤسِهم دانية، وجهنَّمُ بالموْقفِ محيطة، والزِّحامُ شديد، وكلُّ هذا يهونُ في جانبِ ما يُصيبُ المؤمنَ من الحياءِ والخجلِ حينَ يُقرِّرهُ ربُّهُ بذنوبِهِ فيقول: عمِلْتَ يومَ كذَا كذَا وكذَا، وعمِلْتَ يومَ كذَا كذَا وكذَا، لذلكَ كانَ دُخولُ الجنَّةِ بغيْرِ حسابٍ نِعْمةً جليلة، ورحْمةً عظيمة، ينْبغي لكلِّ مؤمنٍ أنْ يحْرِصَ على الفوْزِ بها، وإنَّهُ ليسيرٌ على منْ يسَّرهُ الله عليه.

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ الشَّريفِ صِفاتِ الَّذينَ يدْخُلونَ الجنَّةَ بغيْرِ حساب، حتَّى يجدَّ كلُّ راغبٍ في دخولِ الجنَّةِ بغيْرِ حسابٍ في الاتِّصافِ بها.

---

(١) متفق عليه: خ(٥٧٥٢/ ٢١١/ ١٠)، م(٢٢٠/ ٢٠٠/ ١).

فقد رأى ﷺ في منامِهِ الأنْبياءَ وأُمَمَهم «فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ» وهوَ «الْعِصابةُ دونَ العشَرة، كما في قوْلِهِ تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ(٤٨) ﴾[النمل]»[1]، ومعْنى ذلكَ «أنَّ الأنْبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ ليْسوا كلُّهم قد أطاعهمْ قوْمُهم، بل بعْضُهم لم يُطِعْهُ أحدٌ من قوْمِه، وبعْضُهم أطاعهُ الرَّهْط، وبعْضُهم أطاعهُ الرَّجلُ والرَّجلان»[2]، وفي هذا تعْزيةٌ للدُّعاةِ ومُواساةٌ لهم، أنَّ انْصرافَ النَّاسِ عنهم لا يضرُّهم، وأنَّ رفْضَ النَّاسِ لدعْوتِهم لا يقْدحُ فيها، ولذلكَ قال الله تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١) ﴾[الرعد]، وقال تعالى: ﴿ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ(١٧) ﴾[هود].

وفيهِ أيضًا تعْليمٌ للعامَّةِ أن لا يغْترُّوا بالباطلِ لكثْرةِ أتْباعه، وأن لا يزْهدُوا في الحقِّ لقلَّةِ أتْباعه، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ(١١٦) ﴾[الأنعام]؛ ولذلكَ قال بعْضُ السَّلف: عليكَ بطريقِ الحقِّ وإنْ قلَّ سالِكوه، وإيَّاكَ وطريقَ الباطلِ وإنْ كثُرَ سالِكوه.

وأمَّا قوْلهُ ﷺ: «وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ»، فالسَّوادُ ضِدُّ البياض، والمُرادُ «الأشْخاصُ، وكلُّ شخْصٍ سوادٌ، ومنْهُ قوْلُهم: لا يُفارِقُ سوادي سوادَك»[3]، «والأفُقُ النَّاحية، والمُرادُ بِهِ هنا ناحِيَةُ السَّماء»[4]، فلمَّا رأى ﷺ هذا السَّوادَ العظيمَ ظنَّهم أُمَّتَه، فقال لهُ جبْريلُ: «هَذَا مُوسَى وَقَوْمُه».

---

(١) المفردات (٢٠٤).

(٢) شرح رياض الصالحين (٥٠٧/ ٢).

(٣) إكمال المعلم (٦٠٧/ ١).

(٤) فتح الباري (٤٠٧/ ١١).

وقد يقولُ قائلٌ: كيْفَ لم يعْرفِ النبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ حتَّى ظنَّهم أُمَّةَ موسى، وهوَ القائل: «تَرِدُ عَلَيَّ أُمَّتِي الحَوْضَ وَأَنَا أَذُودُ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَذُودُ الرَّجُلُ إِبِلَ الرَّجُلِ عَنْ إِبِلِهِ. قَالُوا يَا نَبِيَّ الله أَتَعْرِفُنَا؟ قَالَ نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لأَحَدٍ غَيْرِكُمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ»(١)؟

والجواب: «أنَّ الأشْخاصَ الَّتي رآها في الأفُقِ لا يُدْركُ منها إلاَّ الْكثْرةَ مِنْ غيْرِ تمْييزٍ لأَعْيانهم، وأمَّا الحديثُ المذْكورُ فمحْمولٌ على ما إذا قرُبوا منْه، وهذا كما يرى الشَّخْصُ شخْصًا على بُعْدٍ فيُكلِّمهُ ولا يعْرفُ أنَّهُ أخوه، فإذا صارَ بحيْثُ يتميَّزُ عنْ غيْرِهِ عرفه، ويُؤيِّدهُ أنَّ ذلكَ يقعُ عنْدَ وُرودِهم عليهِ الحوْض»(٢).

ثمَّ قال جبْريلُ للنبيِّ ﷺ: «انْظُرْ فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلاَءِ أُمَّتُكَ»: ومعناه أنَّه ﷺ أكثر الأنبياء تابعًا يوم القيامة، «لأنَّه ﷺ منذ بُعِثَ إلى يومِ القيامةِ والنَّاسُ يتَّبِعُونَه، فكان أكثرَ الأنبياءِ تابعًا، قد ملأ أتباعُه ما بيْن الأُفقين»(٣)، والحمد لله الذي جعلنا من أتباعه.

ثمَّ قال جبْريلُ للنبيِّ ﷺ: «وَمَعَ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»، ثم نهضَ النَّبيُّ ﷺ فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلاَ عَذَابٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ الله ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُم الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ وَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: مَا الَّذِي تَخُوضُونَ فِيهِ؟ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُم الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ، وَلاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

---

(١) م(٢٤٧/٢١٧/١).

(٢) فتح الباري (٤٠٨/١١).

(٣) شرح رياض الصالحين (٥٠٨/٢).

فالصفة الأُولى من صفات القوم أنَّهم «لاَ يَتَطَيَّرُون»، «والتَّطيُّر لغةً: مصْدَرُ قولهم: تطيَّر مِنَ الشَّيْءِ، وهو مأخوذٌ من مادة (ط ي ر) التي تدلُّ على خِفَّةِ الشَّيْءِ في الهواء. وقد بيَّنَ الرَّاغِبُ العَلاقةَ بيْنَ الطَّيْرِ والتَّطيُّرِ فقال: تطيَّر فلانٌ واطَّيَّرَ، وأصْلُهُ التَّفاؤلُ بالطَّيْرِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ في كلِّ مَا يُتفاءَلُ به ويُتشَاءم»[١].

والتَّطيُّرُ اصْطِلاحًا: «هو التَّشاؤمُ، وكانت العرَبُ تتيمَّنُ بالسَّانح، وهو الَّذي يأتي مِنْ ناحيةِ اليمين، وتتشاءَمُ بالبارح، وهو الَّذي يأتي مِنْ ناحيةِ الشِّمال، وكانوا يتطيَّرونَ أيضًا بصَوْتِ الغُراب، ويتأوّلونه البَيْن. وكانوا يسْتَدِلُّونَ بمُجاوباتِ الطيورِ بعْضِها بعْضًا على أُمورٍ، وبأصْواتِها في غيْرِ أوْقاتِها المعْهودةِ على مِثْلِ ذلك»[٢].

فنهَى الإسْلامُ عن ذلكَ وأبْطلَه، وأعْلَمُهم أنَّ الطَّيْرَ لا يأتِي بنَفْعٍ ولا بضُرٍّ:

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الحكَمِ السُّلَمِيِّ أنَّه قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ : **وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ. قَال: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلاَ يَصُدَّنَّكُمْ»**[٣]، «فأخبر أنَّ تأذيَهُ وتشاؤمَهُ بالطِّيَرةِ إنَّما هو في نَفْسِه وعقيدته، لا في المُتطيَّرِ به، فوَهْمُهُ وخَوْفُه وإشْراكُه هو الذي يُطيِّرُه ويَصُدُّهُ لما رآه وسَمِعَه، فأوضَحَ ﷺ لأُمَّتِهِ الأمْرَ، وبيَّن لهم فسادَ الطِّيَرة، ليَعْلَمُوا أنَّ الله سبحانه لم يجْعلْ لهُمْ عليْها علامة، ولا فيها دِلالة، ولا نصَبها سببًا لما يخافُونه ويحْذَرُونه، ولتطمئنَّ قلوبُهم، وتسْكُنَ نفوسُهم إلى وَحْدانيَّته تعالى التي أرْسلَ بها رُسُله، وأنزل بها كُتُبَه، وخلَق مِنْ أجْلِها السَّموَاتِ والأرْضِ، وعَمَّر الدَّارَيْنِ الجنَّةَ والنَّارَ بسَببِ التَّوحيد، فقطعَ ﷺ علائِقَ الشِّرْكِ مِن قلُوبِهم، لئلاَّ يبْقى عَلَقَةٌ منها، ولا يتلبَّسُوا بعَمَلٍ من أعْمَالِ أهْلِ النَّارِ الْبتَّة»[٤].

---

(١) نضرة النعيم (٤١٩٠/٩)، والمفردات (٣٠٩و٣١٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٦٥/٧).

(٣) م(٥٣٧/ ٣٨١و٣٨٢/ ١)، د(٩١٨/ ١٩٨-٢٠٣/ ٣)، ن(١٤-١٨/ ٣).

(٤) فتح المجيد (٤٣٠).

وأكْثرَ النبيُّ ﷺ من التَّحْذِير من التَّطيُّر:

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ عَدْوَى وَلاَ طِيَرَةَ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لاَ طِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ، قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ»[2].

وَعَنْ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»[3].

ورغَّبَ النَّبيُّ ﷺ في الاسْتِجَابةِ لتَرْكِ التطيُّر، فأعْلَمهُم أنَّ مِنْ صِفَاتِ الَّذين يدْخلُونَ الجنَّةَ بغَيْرِ حساب عدَمَ التطيُّر، فينْبَغِي للمُسْلمِ إذا خرجَ من بيْتِه أنْ يقول: «**بِسْمِ الله تَوَكَّلْتُ عَلَى الله وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله**»[4]، فإذا رأى ما لا يُعْجِبُه، أو سَمِعَ ما يكْرَهُه، فلْيَمْضِ في طريقه، ولا يردُّه قُبْحُ ما رأى أو ما سِمَعَ، فإنَّه لا يعْلَمُ الغَيْبَ إلاَّ الله.

والصِّفَةُ الثَّانِيَةُ: مِنْ صِفَاتِ الَّذين يدْخلُونَ الجنَّةَ بغَيْرِ حساب أَنَّهم «**لاَ يَكْتَوُونَ**»:

الْكَيُّ دواءٌ من الأدْوِيَةِ الَّتي يُسْتَشْفَى بها، لقوله ﷺ: «**إِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَدْوِيَتِكُمْ شِفَاءٌ فَفِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ أَوْ لَذْعَةٍ بِنَارٍ تُوَافِقُ الدَّاءَ وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»[5]، «فالكيُّ جائِزٌ للحاجَةِ لِنِسْبَةِ الشِّفاءِ إِلَيْه، والأوْلَى تَرْكُهُ إذا لم يتعيَّن، لقولِه ﷺ: «**وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ**»[6].

---

(١) متفق عليه: خ(٥٧٥٦/ ٢١٤/ ١٠)، م(٢٢٢٤/ ١٧٤٦/ ٤)، د(٣٨٩٦/ ٤١٣/ ١٠)، ت(١٦٦٤/ ٨٥/ ٣)، جه (٣٥٣٧/ ١١٧٠/ ٢).

(٢) متفق عليه: خ(٥٧٥٥/ ٢١٤/ ١٠)، م(٢٢٢٣/ ١٧٤٥/ ٤).

(٣) صحيح: [ص.د:٣٣٠٩]، د(٣٨٩٢/ ٤٠٥/ ١٠)، ت(١٦٦٣/ ٨٤/ ٣)، جه(٣٥٣٨/ ١١٧٠/ ٢).

(٤) صحيح: [ص.د:٤٢٤٩]، د(٥٠٧٣/ ٤٣٧/ ١٣)، ت(٣٤٨٦/ ١٥٤/ ٥).

(٥) متفق عليه: خ(٥٦٨٣/ ١٣٩/ ١٠)، م(٢٢٠٤/ ١٧٣٠/ ٤).

(٦) فتح الباري (١٥٥/ ١٠).

قال ابنُ القيِّم: «ثبتَ في صحيح البُخاريِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ شَرْبَةِ عَسَلٍ وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ وَكَيَّةِ نَارٍ وَأَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الْكَيِّ**»[١]، وثبتَ في صحيحِ مُسْلمٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: **بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ طَبِيبًا، فَقَطَعَ مِنْهُ عِرْقًا ثُمَّ كَوَاهُ عَلَيْهِ**»[٢]. وثبتَ في الصَّحِيحَيْنِ عَدُّ تركِ الكيِّ من صفاتِ الَّذين يدخلُونَ الجنَّةَ بغَيْرِ حساب. فقد تضمَّنَتْ أحاديثُ الكيِّ أرْبَعَةَ أنواعٍ: أحدُها: فِعْلُه، والثَّاني: عدَمُ محبَّتِه له، والثَّالِثُ: الثَّناءُ على مَنْ تَرَكَه، والرَّابعُ: النَّهْيُ عنه، ولا تَعارُضَ بيْنَها بحَمْدِ الله تعالى، فإنَّ فِعْلَه يدلُّ على جَوازِه، وعدَمَ محبَّتِه له لا يدلُّ على المَنْعِ مِنْه، وأَمَّا الثَّناءُ على تاركِه فيدلُّ على أنَّ تَرْكَه أوْلَى وأفْضل، وأمَّا النَّهْيُ عنه فعلَى سبيلِ الاختيار والكراهة، أو عَنِ النَّوْعِ الَّذي لا يُحْتَاجُ إليه، بل يُفْعَلُ خوْفًا مِنْ حُدُوثِ الداء. والله أعلم»[٣].

والصِّفَةُ الثَّالِثَةُ: مِنْ صِفَاتِ القوْمِ أَنَّهم «**لَا يَسْتَرْقُونَ**»: أيْ إذا مَرِضَ أحدُهم وعاده العُوَّادُ، وزارَه الزُّوار، لا يَطْلبُ منْهُم الرُّقْيَةَ، توكُّلاً على الله عزَّ وجلَّ، لا يقولُ المريضُ لعائدِه أو زائرِه ارْقِنِي، بل يتوكلُ على الله ويرْجُو مِنْه الشِّفاء، أَمَّا إذا بادرَ العائدُ والزَّائِرُ بُرقْيَةِ المريضِ من نفسه فلا حرجَ في ذلك، بل إنَّ الرَّاقِيَ قد يُؤْجَرُ على رُقْيَتِه أخاه، لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لأصْحَابِه: «**اعْرِضُوا عَلَيَّ رُقَاكُمْ، لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكًا، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ**»[٤].

ولم يثْبُتْ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن الاسْتِرقاءِ، بل ثبتَ أَنَّه أَذِنَ فيه:

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ وَلَدَ جَعْفَرٍ تُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْعَيْنُ،

---

(١) خ(٥٦٨٠/ ١٣٦/ ١٠).

(٢) م(٢٢٠٧/ ١١٧٠/ ٤).

(٣) زاد المعاد (٦٤-٦٦/ ٤).

(٤) م(٢٢٠٠/ ١٢٢٧/ ٤)، د(٣٨٦٨/ ٣٧٢/ ١٠).

أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَأْمُرُهَا أَنْ تَسْتَرْقِيَ مِنَ الْعَيْنِ»(٢).

وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِجَارِيَةٍ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ رَأَى بِوَجْهِهَا سَفْعَةً، فَقَالَ: «بِهَا نَظْرَةٌ فَاسْتَرْقُوا لَهَا يَعْنِي بِوَجْهِهَا صُفْرَةً»(٣).

فالاسْتِرْقَاءُ مُباحٌ، ولكنَّ تَرْكَهُ أَوْلَى أَفْضَلُ لِمَنْ كَمُلَ توكُّلهُ على الله.

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اشْتَكَى مِنَّا إِنْسَانٌ مَسَحَهُ بِيَمِينِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا»(٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ لِلإِنْسَانِ إِذَا اشْتَكَى بِرِيقِهِ: ثُمَّ قَالَ: «تُرْبَةُ أَرْضِنَا بِرِيقَةِ بَعْضِنَا يُشْفَى سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا»(٥).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ جِبْرِيلَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! اشْتَكَيْتَ. فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ، أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ، اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ»(٦).

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢٠٥٩]، ت(٢١٣٦/ ٢٦٧/ ٣)، جه(٣٥١٠/ ١١٦٠/ ٢).

(٢) متفق عليه: خ(٥٧٣٨/ ١٩٩/ ١٠)، م(٢١٩٥/ ١٧٢٥/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ(٥٧٣٩/ ١٩٩/ ١٠)، م(٢١٩٧/ ١٧٢٥/ ٤).

(٤) متفق عليه: خ(٥٧٤٢/ ٢٠٦/ ١٠)، م(٢١٩١/ ١٧٢١و١٧٢٢/ ٤).

(٥) متفق عليه: خ(٥٧٤٥/ ٢٠٦/ ١٠)، م(٢١٩٤/ ١٧٢٤/ ٤).

ومعنى الحديث: «أنّه يأخذ من ريق نفسه على إصبعه السبابة ثم يضعها على التراب فيعلق بها منه شيء، فيمسح بها على الموضع الجريح أو العليل ويقول هذا الكلام في حال المسح» اهـ. من تعليق عبد الباقي على صحيح مسلم، د(٣٨٧٧/ ٣٨٨و٣٨٩/ ١٠).

(٦) م(٢١٨٦/ ١٧١٨و١٧١٩/ ٤)، ت(٩٧٩/ ٢٢٣/ ٢).

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ: عِنْدَهُ سَبْعَ مِرَاتٍ: «أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَنْ يَشْفِيَكَ، إِلاَّ عَافَاهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ»(١).

ومِنَ الرُّقَى المسْنُونَةِ أَيْضًا: قراءةُ الفاتِحَة، والإِخلاصِ والمُعوِّذَتيْن.

والصِّفَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ صِفَاتِ القَوْمِ: أَنَّهم «عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون»:

«والتَّوكُّلُ لغةً: مصْدَرُ توكَّلَ يتوكَّلُ، وهو مأخوذٌ من مادَّةِ (و ك ل) الَّتي تدلُّ على اعْتِمادٍ على الغَيْرِ في أمْرٍ ما، ومنْ ذلك التوكُّلُ وهو إظْهارُ العَجْزِ في الأمْرِ والاعْتمادُ على الغير. والمُتوكِّلُ على الله: الَّذِي عَلِمَ أَنَّ الله كافِلُ رِزْقِهِ وأمْرِه، فيرْكَنُ إِلَيْهِ وحْدَه، ولا يتوكلُ على غَيْرِه»(٢).

واصْطِلاحًا: «صِدْقُ اعْتِمادِ القَلْبِ على الله عزَّ وجلَّ في اسْتِجْلابِ المصَالحِ ودَفْعِ المضَارِّ مِنْ أُمورِ الدُّنيا والآخرة، وَكِلَةُ الأُمورِ كلِّها إليْه، وتَحْقِيقُ الإيمانِ بأنَّه لا يُعْطِي ولا يَمْنَعُ ولا يَضرُّ ولا ينْفَعُ سواه»(٣).

وقد أمرَ الله تعالى بالتوكُّلِ عليْه وحْدَه، فقال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ(١١) ﴾[إبراهيم]، وفي تقديم الجارِّ والمَجْرُورِ على الفاعلِ ما يُفِيدُ الحَصْرَ والقصْرَ، كما في قوْلِهِ تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) ﴾[الفاتحة]، حيْثُ قُدِّمَ المَفْعُولُ على الفاعل.

ونَهى الله تعالى عن اتِّخاذِ وكيلٍ غَيْرِه فقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً(٢) ﴾[الإسراء].

وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ(٣٦) ﴾[الزمر]، «وهو اسْتِفْهامُ إنْكارٍ على طالبِ الكِفَايَةِ مِنْ غَيْرِه والتَّارِكِ للتوكُّلِ عليْه»(٤).

---

(١) صحيح: [ص.د:٢٦٦٣]، د(٣٠٩٠/ ٣٧١/ ٨)، ت(٢١٦٥/ ٢٧٧/ ٣).

(٢) نضرة النعيم (١٣٧٧/ ٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٣٨٠).

(٤) إحياء علوم الدين (٢٤٣/ ٤).

والتوكُّل على الله فَضْلُه عظيم، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق]، أيْ كافيه، ويُفَسِّرُهُ إنْجَاءُ الله لخليلِهِ إبراهيمَ مِنَ النَّار، وحِفْظُهُ لخليلِه مُحَمَّدٍ في الغار، لتوكُّلِهما علَيْه وحْدَه:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمِ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾[آل عمران][1].

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[الأنفال] «أيْ عزيزٌ لا يَذِلُّ مَنْ اسْتجارَ به، ولا يَضِيعُ مَنْ لاذَ بِجَنَابِهِ والْتجَأ إليْه، وحكيمٌ لاَ يقْصُرُ عن تَدْبيرِ مَنْ توكَّلَ على تَدْبيره»[2]، فمن توكَّل علَيْه كفاه، ومن توكَّلَ على غيْره خذَلَه، كما قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران].

ومِنْ فَضْلِ التوكُّلِ أنَّه يُوجِبُ محبَّةَ الله للمتوكِّلين، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران]، «وأعْظِمْ بمَقامٍ مَوْسُومٌ بمحبَّةِ الله تعالى صَاحِبُه، ومَضْمُونٌ كفايةَ الله تعالى مُلاَبِسُه، فمَنِ الله تعالى حَسْبُه وكافِيه، ومُحِبُّه ومُراعِيه، فقد فازَ الفَوْزَ العظيم، فإنَّ المَحْبُوبَ لاَ يُعذَّبُ ولاَ يُبْعَدُ ولا يُحْجَبُ»[3].

ومِنْ فَضْلِ التَّوكُّلِ أنَّه يُدْخِلُ المُتوكِّلينَ الجنَّةَ بغَيْرِ حساب.

ومِنَ الجدير بالذِّكْرِ أنَّهُ «لَيْسَ المُرادُ بالتوكُّلِ تَرْكَ التَّسبُّبِ والاعْتِمادِ على ما يأْتِي مِنَ المَخْلُوقين، لأَنَّ ذلكَ قد يجرُّ إلى ضِدِّ ما يُرادُ مِنَ التوكُّلِ.

---

(١) خ(٤٥٦٣/٢٢٩/٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٢٤٣و٢٤٤/ ٤)، ومعنى «لا يقصر»: لا يعجز.

(٣) المصدر السابق (٢٤٣/ ٤).

وقد سُئِلَ أحمدُ عَنْ رَجُلٍ جلسَ في بيْتِه أَوْ المَسْجِدِ وقَالَ: لاَ أعْمَلُ شيْئًا حَتَّى يأتِيَني رِزْقِي، فقَالَ: هَذَا رَجُلٌ جَهِلَ العِلم، فقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[1]، فَذَكَرَ أَنَّهَا تغْدُو وتَرُوحُ في طَلَبِ الرِّزْق. قال: وكَانَ الصَّحابَةُ يتَّجِرُونَ ويعْمَلُونَ فِي نَخِيلِهِم، والقُدْوَةُ بِهِم»[2].

فمَنِ اجْتَمَعتْ فيهِ هذِه الصِّفَاتُ دخلَ الجنَّةَ بغَيْرِ حسَاب، فيكُونُون فيها ﴿**عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾**﴾[الواقعة]، والنَّاسُ مازَالُوا في أرْضِ المَوْقِفِ لَمْ يُفْصَلْ بيْنَهم.

ومِنْ فَضْلِ الله عزَّ وجلَّ أنَّه يتفضَّلُ على النَّبيِّ ﷺ وأُمَّتِهِ بالزِّيادَةِ على هؤلاءِ السَّبْعِينَ ألفًا، كما قال ﷺ: «**وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلاَ عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَثَلاَثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِهِ**»[3]. والأَملُ في الله كبيرٌ أَنْ يجْعلَنا منْهم بفَضْلِه ورَحْمَتِه.

❑ ❑ ❑

(١) صحيح: [ص.ت:٢٣٤٤]، ت(٢٤٤٧/ ٤/ ٤)، جه(٤١٦٤/ ١٣٩٤/ ٢).

(٢) فتح الباري (٣٠٥و٣٠٦/ ١١).

(٣) صحيح: [ص.ت:٢٤٣٧]، ت(٢٥٥٤/ ٤٥و٤٦/ ٤)، جه(٤٢٨٦/ ١٤٣٣/ ٢).

مجيء الرب ﷻ لفصل القضاء

عَنْ جَابِرٍ قَالَ لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ، قَالَ: أَلاَ تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، قَالَ فِتْيَةٌ مِنْهُمْ بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً، مِنْ مَاءٍ فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ، فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا، ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا، فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللهُ الْكُرْسِيَّ، وَجَمَعَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ، وَتَكَلَّمَتِ الأَيْدِي وَالأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا، قَالَ يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَدَقَتْ صَدَقَتْ، كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لاَ يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ»[1].

إذا شفع النَّبيُّ ﷺ الشَّفاعةَ العُظْمَى لفصْلِ القَضَاءِ جاء الربُّ سُبْحَانَهُ ووضَعَ كُرْسِيَّهُ حيْثُ يشاء، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا(٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا(٢٢) ﴾[الفجر].

قال ابنُ كَثِير: «يُخْبِرُ تعالى عمَّا يَقَعُ يوْمَ القيامةِ مِنَ الأَهْوَالِ العَظيمة، فقال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ أيْ حقًا ﴿ إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أيْ وُطِئَتْ ومُهِّدَتْ وسُوِّيَتِ الجِبَالُ وقام الخلائقُ من قُبورِهم لربِّهم ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يعْنِي لفَصْلِ القضاءِ بَيْنَ خَلْقِه، وذلك بعْدَ ما يسْتَشْفِعُونَ إِلَيْه بسيِّدِ ولَدِ آدمَ على الإطلاقِ محمَّدٍ ﷺ بعْدَ ما يسْأَلُونَ أُولِي العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ واحدًا بَعْدَ واحدٍ فكلُّهم يقُولُ: لَسْتُ بصَاحِبِ ذاكم، حَتَّى تَنْتَهِي النَّوْبَةُ إِلَى محمَّدٍ ﷺ فيقُولُ: أنا لها، أنا لها، فيذهبُ فيَشْفَعُ عِنْدَ الله تعالى في أنْ يأْتِيَ لفَصْلِ القضاء، فيُشَفِّعهُ الله تعالى

---

(١) حسن: [ص.جه:٣٢٣٩]، جه(٤٠١٠/ ١٣٢٩/ ٢).

في ذلك، وهي أَوَّلُ الشَّفاعات، وهي المقامُ المَحْمُود، كما سبق بيانُه، فيجيءُ الربُّ تباركَ وتعالى لفَصْلِ القَضَاءِ كَما يَشَاءُ، والملائكةُ يجيئُونَ بَيْنَ يدَيْهِ صُفوفًا صُفوفًا»[1].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) ﴾[الفرقان].

قال ابْنُ كثير: «يُخْبِرُ تَعَالى عَنْ هَوْلِ يومِ القِيَامةِ وما يكونُ فيه من الأُمُورِ العظِيمة، فمِنْهَا: انْشِقَاقِ السَّماءِ وتَفطُّرُها وانْفِرَاجُها بالغَمَامِ وهو ظِلُّ النُّورِ العَظِيمِ الَّذي يُبْهِرُ الأبْصَار، ونُزولُ ملائِكَةِ السَّمواتِ يومئذٍ فيُحِيطُونَ بالخلائِقِ في مقامِ الحَشْرِ ثُمَّ يجيءُ الربُّ تَبارَكَ وتَعالى لفَصْلِ القَضَاء. قال مُجَاهِد: وهذَا كما قَالَ تَعالَى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠) ﴾[البقرة].

وعنْ ابنِ عبَّاسٍ أَنَّه قرأ هذه الأية ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴾ فقَالَ: يَجْمَعُ الله تعالى الخَلائِقَ يَوْمَ القِيَامةِ في صَعِيدٍ وَاحد، الجِنَّ والإنْسَ والبَهائِمَ والسِّباعَ والطَّيْرَ وجَمِيعَ الخَلْق، فتنشقُّ السَّماءُ الدُّنْيا فيَنْزِلُ أَهْلُها وهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الجنِّ والإنْسِ ومِنْ جميعِ الخَلْق، فيُحِيطُونَ بالجِنِّ والإنْسِ وجميعِ الخَلْقِ، ثُمَّ تَنْشقُّ السَّماءُ الثَّانيةُ فيَنْزِلُ أهْلُها فيُحِيطُونَ بالمَلائكةِ الَّذينَ نزَلُوا قبْلَهم وبالجِنِّ والإنْسِ وجَمِيعِ الخَلْقِ، وهُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ السَّماءِ الدُّنْيا ومِنْ جَمِيعِ الخَلْقِ، ثُمَّ تَنْشقُّ السَّماءُ الثَّالثةُ فيَنْزِلُ أَهْلُها وهُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ السَّماءِ الثَّانيةِ والسَّماءِ الدُّنْيا ومِنْ جَمِيعِ الخَلْق، فَيُحِيطُونَ بالمَلائكةِ الَّذين مِنْ قَبْلَهم وبالجِنِّ والإنْسِ وجَمِيعِ الخَلْق، ثُمَّ كَذلِكَ كُلُّ سَماءٍ عَلَى ذَلِكَ التَّضعِيف، حَتَّى تنْشقَّ السَّماءُ السَّابِعة، فيَنْزِلُ أَهْلُها وهُمْ أَكْثَرُ مِنْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥١٠/ ٤).

الَّذين نَزَلُوا قَبْلهم مِنْ أَهْلِ السَّمواتِ ومِنَ الجِنِّ والإِنْسِ وجَمِيعِ الخَلْق، فيُحِيطُونَ بالملائكةِ الَّذين مِنْ قَبْلِهم مِنْ أَهْلِ السَّمَواتِ السَّبْعِ ومِنَ الجِنِّ والإِنْسِ وجَمِيعِ الخَلْق، فيُحِيطُونَ بالملائكةِ الَّذِينَ نزَلُوا قَبْلَهم مِنْ أَهْلِ السَّمواتِ السَّبْعِ وبالجِنِّ والإِنْسِ وجَمِيعِ الخَلْقِ كلِّهم، ويَنْزِلُ ربُّنا عزَّ وجلَّ في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ وحَوْلَهُ الكرُوبيُّونَ وهُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ السَّمواتِ السَّبْعِ ومِنَ الجِنِّ والإِنسِ وجَمِيعِ الخَلْق، لَهُمْ قُرونٌ كأكْعُبِ القَنا، وهُمْ تَحْتَ العَرْشِ، لَهُمْ زَجَلٌ بالتَّسْبِيحِ والتَّهْلِيلِ والتَّقْدِيسِ لله عزَّ وجلَّ»[1].

«ووَصْفُهُ تَعَالى نَفْسَهُ بالإِتْيَانِ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَام كَوَصْفِه بالمَجِيءِ ونَحْوِهما ممَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ أَوْ صَحَّ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، والقَوْلُ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مِنْ جِنْسٍ وَاحِد، وهُوَ مَذْهَبُ سلَفَ الأُمَّةِ وأَئِمَّتِها: أَنَّهم يَصِفُونَهُ سُبْحَانَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ووَصَفَهُ بِهِ رَسُولُه ﷺ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ ولاَ تَعْطِيلٍ، ولاَ تَكْيِيفٍ ولاَ تَمْثِيلٍ، والقَوْلُ فِي صِفَاتِه كالقَوْلِ فِي ذَاتِه، والله تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ فِي ذَاتِه، ولاَ فِي صِفَاتِه، ولاَ فِي أَفْعَالِه.

فَلَوْ سَأَلَ سَائِلٌ: كَيْفَ يَجِيءُ سُبْحَانَه، أَوْ كَيْفَ يَأْتِي؟ فَلْيُقَلْ له: كَيْفَ هُوَ نَفْسُه؟ فإذا قال: لا أَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَاتِه؟ فَلْيُقَلْ لَهُ: وكَذَلِكَ لاَ نَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ صِفَاتِه، فإِنَّ العِلم بكَيْفِيَّةِ الصِّفَةِ يتْبَعُ العِلم بِكَيْفِيَّةِ المَوْصُوف، وهَذَا مَذْهَبُ السَّلَفِ قاطبة.

قال الخطَّابيُّ: مَذْهَبُ السَّلَفِ أَنَّ صِفَاتِه تَعَالَى تَجْرِي على ظَاهِرِها مَعَ نَفْيِ الكَيْفِيَّةِ والتَّشْبِيهِ عَنْها.. وقَالَ الحَافِظُ ابْنُ عَبْدِ البرِّ: أَهْلُ السُّنَّةِ مُجْمِعُونَ عَلَى الإِقْرَارِ بالصِّفَاتِ الوَارِدَةِ كلِّها فِي القرآنِ والسُّنَّةِ والإِيمانِ بِها، وحَمْلِها على الحَقِيقَةِ لاَ على المَجَازِ إِلاَّ أَنَّهم لا يُكَيِّفُونَ شَيْئًا مِنْ ذلك، ولا يُحِدُّونَ فِيه صِفَةً مَحْصُورة»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣١٦).

(٢) محاسن التأويل (١٧٨-١٨٠/ ٣) باختصار.

فإذا جاءَ الربُّ سُبْحانَه وتجلَّى لعبادِه أخذَتْهمُ الصَّاعِقَةُ وغُشِيَ عليهم أجْمَعِين:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: مَنْ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: ادْعُوهُ، فَقَالَ: أَضَرَبْتَهُ؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ، قُلْتُ: أَيْ خَبِيثُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوِ اكْتَفَى بِصَعْقَةِ الطُّورِ»[1].

قَالَ الحافِظُ ابنُ حَجَرٍ: «المُرادُ بالصَّعْقِ غَشْيٌ يلحقُ مَنْ سَمِعَ صَوْتًا أَوْ رَأَى شيئًا يفزَعُ منه، وقَالَ عِياضٌ[2]: يُحْتَمَلُ أَنَّ المُرادَ بهذِهِ الصَّعْقَةِ فزَعٌ بعْدَ النَّشْرِ حينَ تَنْشَقُّ السَّمواتُ والأَرْضُون. ويُؤيِّدُه أَنَّهُ عبَّرَ بقَوْلِه «**أَفَاقَ**» لأنَّه إنَّما يُقَالُ: أَفَاقَ مِنَ الغَشْيِ وبُعِثَ بعْدَ المَوْتِ، وكذا عبَّرَ عَنْ صَعْقَةِ الطُّورِ بالإفاقةِ لأنَّها لَمْ تَكُنْ موْتًا بلا شك»[3].

قال ابنُ كثير: «وقَوْلُه ﷺ «**أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**» يدلُّ على أنَّ هذا الصَّعْقَ الَّذِي يَحْصُلُ للنَّاسِ يوْمَ القِيَامةِ سَبَبُه تجلِّي الربِّ تعالى لعِبَادِه لفِصْلِ القَضَاءِ، فيُصْعَقُ النَّاسُ مِنَ العَظَمةِ والجلالِ، كما صُعِقَ موسَى يَوْمَ الطُّور، حينَ سأَلَ الرُّؤْيَةَ، ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا**[143] ﴾ [الأعراف]، فمُوسَى عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يَوْمَ القِيامَةِ إذا صُعِقَ النَّاسُ إمَّا أَنْ يكونَ جُوزِيَ بتِلْكَ الصَّعْقَةِ الأُولَى فَما صُعِقَ عنْدَ هذَا التَّجلِّي، وإمَّا أَنْ يكونَ

---

(١) متفق عليه: خ(٢٤١٢/ ٧٠/ ٥)، م(٢٣٧٤/ ١٨٤٥/ ٤).

(٢) إكمال المعلم (٢٥٧/ ٧).

(٣) فتح الباري (٤٤٤و٤٤٥/ ٦).

صُعِقَ صَعْقًا أخفَّ مِنْ غَيْرِه فأَفَاقَ قَبْلَ النَّاسِ كُلِّهم. والله أعلم»[1].

وَقَدْ وَصَفَ الله تعالى حالةَ النَّاسِ في أَرْضِ المَوْقِفِ عنْدَ مَجيئهِ عزَّ وجلَّ:

فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا(٣٨) ﴾[النبأ].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا(١٠٨) ﴾[طه].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ(١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ(١٠٥) ﴾[هود].

وأَوَّلُ مَنْ يَتكلَّمْ يَوْمَئِذٍ آدمُ عَلَيْهِ السَّلام:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: آدَمُ فَتَرَاءَى ذُرِّيَّتُهُ، فَيُقَالُ: هَذَا أَبُوكُمْ آدَمُ؟ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَمْ أُخْرِجُ؟ فَيَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله! إِذَا أُخِذَ مِنَّا مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ فَمَاذَا يَبْقَى مِنَّا؟ قَالَ: إِنَّ أُمَّتِي فِي الأُمَمِ كَالشَّعَرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الأَسْوَدِ»[2].

---

(١) الفتن والملاحم (٢١١).

(٢) خ(٦٥٢٩/٣٧٨/١١).

ثُمَّ يَسْأَلُ الله تعالى المُرْسَلِينَ الَّذِين أَرْسَلَهم للعَالَمِينَ عَنْ رِسَالتِهم ومَوْقِفِ أُمَّتِهم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ(٦) ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾، ورأى المُرْسَلُونَ أنَّهم بحَضْرَةِ العَلِيمِ الخَبِير، فاسْتَحْيَوْا أَنْ يَنْطِقُوا بشَيْءٍ، فَردُّوا العِلم إلى العَلِيمِ الخَبِير ﴿ قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(١٠٩) ﴾ [المائدة].

«ولاَ شكَّ أنَّه قَوْلٌ حَسَنٌ وهُوَ من بابِ التَّأَدُّبِ مَعَ الرَّبِّ جلَّ جلالُه، أيْ لا عِلم لنا بالنِّسْبَةِ لِعِلمكَ المُحِيطُ بكلِّ شيء، فنَحْنُ وإنْ كنَّا قد أُجِبْنَا وعَرَفْنَا مَنْ أَجَابَنا ولكنْ مِنْهم مَنْ كنَّا إنَّما نَطَّلِعُ على ظاهرِهِ لاَ عِلم لنا ببَاطِنِه، وأَنْتَ العَلِيمُ بكلِّ شيء، المُطَّلِعُ على كلِّ شيء، فعِلمنَا بالنِّسْبَةِ إلى عِلمكَ كلا عِلم، فإنَّك ﴿ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ﴾»[1].

وكذلك قَالَ عيسى بنْ مرْيمَ عَلَيْه السَّلام حينَ سَأَلهُ الله عزَّ وجلَّ، ﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ(١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(١١٨) ﴾ [المائدة].

ومِنَ المُبَشِّراتِ الَّتِي أُحِبُّ أَنْ أَسُوقَها لأُمَّتِنا الكَرِيمَةِ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قرأ هذه الآية «فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: اللهمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ

(١) تفسير القرآن العظيم (١١٤/٢).

وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ الله: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلاَ نَسُوءُكَ»[1].

وهكذا تبرأ عيسى عليهِ السَّلامُ ممَّن اعتقد ألوهيَّته، وكذلِكَ تتبرَّأُ الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) ﴾[سبأ].

فإذا استُجْوِبَتِ الرُّسلُ ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ استُجْوِبَتِ الأُمَمُ ﴿مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥)﴾[القصص]: فيُنكِرُونَ مجيءَ الرّسُلِ فَيَسْتَشْهِدُ الرَّسُلُ بِنا نحنُ أُمَّةَ محمَّدٍ ﷺ فَنَشْهَدُ لكلِّ نبيٍّ على أُمَّتِه:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ، قَالَ: فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾[البقرة]»[2].

وفي صحيح البخاري: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ»[3].

---

(١) م(٢٠٢/١٩١/١).

(٢) صحيح: [ص.جه:٣٤٥٧]، جه(٤٢٨٤/١٤٢٢/٢).

(٣) خ(٤٤٨٧/١٧١و١٧٢/٨).

قال ابْنُ كثيرٍ: شَهَادَةُ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ على جَمِيعِ الأُمَمِ يَوْمَ القِيَامَةِ بُرْهَانٌ على عَدَالَةِ هَذِهِ الأُمَّةِ وشَرَفِها، ومُضْمُونُ هذَا: أَنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ يَوْمَ القِيَامةِ يكُونُونَ عُدُولاً عِنْدَ سائِرِ الأُمَمِ، ولهذَا يسْتَشْهِدُ بِهِم سائِرُ الأَنْبياءِ على أُمَمِهم، ولَوَلا اعْتَرافُ أُمَمِهم بشَرَفِ هَذِهِ الأُمَّةِ لَمَا حَصَلَ إِلْزَامُهم بشَهَادتِهم، وفي الحديث:

عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَنْتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ آخِرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله عَزَّ وَجَلَّ»[1].

❑ ❑ ❑

(١) حسن: [ص.ت:٣٠٠١]، ت(٤٠٨٧/ ٢٩٤/ ٤)، جه(٤٢٨٨/ ٤٣٣/ ٢).

تطاير الصحف

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلم عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ الله شَيْءٌ»(1).

إِنَّ النِّسْيانَ من طبيعةِ الإنْسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[طه].

وفي الحديثِ أَنَّ آدمَ عليه السلام عُرِضتْ عليهِ ذُرِّيتهُ «فَإِذَا كُلُّ إِنْسَانٍ مَكْتُوبٌ عُمْرُهُ بَيْنَ عَيْنَيْه، فَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ أَضْوَؤُهُمْ أَوْ مِنْ أَضْوَئِهِمْ، قَالَ: يَا رَبِّ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا ابْنُكَ دَاوُدُ، قَدْ كَتَبْتُ لَهُ عُمْرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، قَالَ يَا رَبِّ زِدْهُ فِي عُمْرِهِ، قَالَ: ذَاكَ الَّذِي كَتَبْتُ لَهُ، قَالَ أَيْ رَبِّ! فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُ لَهُ مِنْ عُمْرِي سِتِّينَ سَنَةً، قَالَ: أَنْتَ وَذَاكَ. قَالَ: ثُمَّ أُسْكِنَ الْجَنَّةَ مَا شَاءَ الله، ثُمَّ أُهْبِطَ مِنْهَا، فَكَانَ آدَمُ يَعُدُّ لِنَفْسِهِ. قَالَ: فَأَتَاهُ مَلَكُ الموْت، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: قَدْ عَجَّلْتَ، قَدْ كُتِبَ لِي أَلْفُ سَنَة، قَالَ، بَلَى! وَلَكِنَّكَ جَعَلْتَ لابْنِكِ دَاوُدَ سِتِّينَ سَنَةً، فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ. قَالَ: فَمِنْ يَوْمِئِذٍ أُمِرَ بِالْكِتَابِ وَالشُّهُود»(2).

---

(1) صحيح: [ص.ت: ٢٦٣٩]، ت(٢٧٧٦/ ١٣٣و١٣٤/ ٤)، جه(٤٣٠٠/ ١٤٣٧/ ٢).

(2) حسن صحيح: [ص.ت:٣٣٦٨]، ت(٣٤٢٧/ ١٢٣و١٢٤/ ٥)، ك(٦٤/ ١).

ولَمَّا كانَ الله تعالى يُحبُّ العُذْرَ فقد وكَّل بكلِّ إنسانٍ مَلكيْنِ كريميْنِ يكْتُبانِ أقْوالَهُ وأفْعالَهُ، لتكونَ حُجَّةً عليْهِ يومَ القيامة، ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ الله جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ الله وَنَسُوهُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(٦) ﴾[المجادلة].

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ(١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ(١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ(١٢) ﴾[الانفطار].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ(١٦) إِذْ يَتَلَقَّى المتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(١٨) ﴾[ق].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ(٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ(٨٠) ﴾[الزخرف].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الموْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ(١٢) ﴾[يس].

وقال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ(٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ(٥٣) ﴾[القمر].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلاَ تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا»(١).

وهكذا يُحْصِي الملَكانِ على الإنْسانِ أعْمالَهُ كُلَّها، خيْرَها وشرَّها، دِقَّها وجِلَّها، فإذا ماتَ طُوِيتْ صحيفةُ أعْمالِهِ وجُعِلتْ في عُنُقِه، حتَّى تُنْشَرَ لهُ يوْمَ القِيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ(١٠) ﴾ [التكوير].

(١) م(١٢٨/١١٧/١).

« قال الضحاك: أُعْطِيَ كلُّ إنسانٍ صحيفتَهُ بيمينهِ أوْ بشماله. وقال قتادة: يا ابنَ آدم! تُملي فيها ثُمَّ تُطْوى ثُمَّ تُنْشرُ عليكَ يومَ القيامة، فلْينْظرْ رجلٌ ما ذا يُملي في صحيفته»[1].

« وعن ابن جُرَيْجٍ قال: إذا مات الإنْسانُ طُويتْ صحيفتهُ، ثمَّ تُنشرُ يومَ القيامةِ فيُحاسبُ بما فيها»[2].

«وقد ذكر الله تعالى تطايُرَ الصُّحفِ ونشْرَها وتناولَها في غيْرِ موْضعٍ من كتابه، مع بيانِ منازلِ أهْلها، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ ولاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً(٧١)وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً(٧٢)﴾[الإسراء]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ(١٨)فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ(١٩)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ(٢٠)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(٢٣)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢٤)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦)يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ(٢٨)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ(٢٩)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٣٠)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(٣١)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(٣٢)إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ(٣٣)وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ(٣٤)فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(٣٥)وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦)لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ(٣٧)﴾[الحاقة]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ(٦)فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ(٧)فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا(٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا(٩)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ(١٠)فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا(١١)وَيَصْلَى سَعِيرًا(١٢)إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا(١٣)إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ(١٤)بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا(١٥)﴾[الانشقاق]، وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٧٨/ ٤).

(٢) الدر المنثور(٤٣١/ ٨).

حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا[49]﴾[الكهف]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[29]﴾[الجاثية]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا[13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا[14]﴾[الإسراء]»[1].

«قال أبو السَّوارِ العدويُّ: هما نشْرتانِ وطَيَّة، أمَّا ما حييتَ يا ابنَ آدمَ فصَحيفَتُكَ منشورةٌ فأمْلِ فيها ما شِئت، فإذا مِتَّ طُوِيتْ، حتَّى إذا بُعِثْتَ نُشِرت. وقال بعضُ الصُّلحاء: هذا كتابٌ لسانُكَ قلمُه، وريقُكَ مِدادُه، وأعْضاؤكَ قِرْطاسُه، وأنتَ المُمْلي على حفظَتِك، ما زيدَ فيهِ ولا نُقِصَ منه، ومتى أنكرْتَ منهُ شيئًا يكونُ فيهِ الشَّاهدُ منكَ عليْك»[2].

«وقال الحسن: يا بنَ آدم! بُسِطتْ لكَ صحيفة، وَوُكِّلَ بكَ ملكانِ كريمان، أحدُهما عن يمينكَ يكتبُ حسناتك، والآخرُ عن شمالكَ يكتبُ سيِّئاتك، فاعملْ ما شئتَ، أقْلِلْ أوْ أكثِر، حتَّى إذا متَّ طويتْ صحيفتُك، فجُعِلتْ في عُنقِك معكَ في قبْرك، حتَّى تخرُجَ يومَ القيامةِ ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا[13] اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا[14]﴾ ثمَّ يقول: عدلَ واللهِ فيكَ مَنْ جعلكَ حسيبَ نفسك»[3].

«والحاصلُ أنَّ نشْرَ الصُّحُفِ وأخْذَها باليمينِ أوِ الشِّمالِ ممَّا يجبُ الإيمانُ به، وعقْدُ القلْبِ بأنَّهُ حقٌّ، لِثُبوتِهِ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجْماع»[4]، «فإذا بُعِثَ النَّاسُ من قُبورِهم إلى المَوْقف، وقاموا فيهِ ما شاءَ الله، على ما تقدَّم، حُفاةً عُراةً، وجاء وقْتُ الحسابِ الَّذي يُريدُ الله أن يُحاسِبهم فيه، أمرَ بالكتُبِ التي كتبها الكِرامُ الكاتبونَ بذِكرِ أعمالِ النَّاسِ فأُوتوها، فمنهم

---

(١) معارج القبول (٢١٤و٢١٥/ ٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٣٠/ ١٠).

(٣) جامع البيان (٥٣/ ١٥).

(٤) لوامع الأنوار البهية (١٨١/ ٢).

من يؤتى كتابَهُ بيمينه، فأولئكَ هم السُّعداء، ومنهم من يؤتى كتابَهُ بشمالِهِ من وراءِ ظهْرِهِ وهمُ الأشْقِياء، فعنْدَ ذلكَ يقْرأُ كلٌّ كتابَه، قارئًا كانَ أوْ أُمِّيًّا.

فيا عبْدَ الله!

مِثْلُ وقُوفَكَ يومَ الحشْرِ عُرْيانا	مُسْتوْحشًا قلِقَ الأحشاءِ حيْرانا
واقْرأْ كتابَكَ يا عبْدي على مهَلٍ	فهلْ ترى فيهِ حرْفًا غيْرَ ما كانا
لَمَّا قرأْتَ ولمْ تُنكِرْ قراءتَهُ	إقرارَ من عرف الأشياءَ عِرْفانا
نادى الجليلُ خذوهُ يا ملائكتي	وامْضوا بعبْدٍ عصا للنارِ عطْشانا
المُشْركونَ غدًا في النَّارِ يلْتهبوا	والمُؤمنونَ لدارِ الخُلْدِ سُكَّانا

فتوهَّم نفسَكَ- يا أخي- إذا تطايرتْ الكتب، ونُصِبتِ الموازين، ونوديتَ باسْمكَ على رؤوسِ الخلائقِ أينَ فُلانُ ابنُ فُلان؟ هلُمَّ للعرْضِ على الله تعالى! وقد وُكِّلتْ الملائكةُ بأخْذِكَ فقرَّبتْكَ إلى الله، لا يمْنعُها اشْتباهُ الأسْماءِ باسْمكَ واسْمِ أبيك، إذْ عرفْتَ أنَّكَ المُرادُ بالدُّعاء، إذْ قرعَ قلْبكَ النِّداء، فعلِمْتَ أنَّكَ المطْلوب، فارتعدتْ فرائصُك، واضطربتْ جوارحك، وتغيَّرَ لوْنُك، وطار قلْبُك، تُخطَّى بكَ الصُّفوفُ إلى ربِّكَ للعرْضِ عليه، والوقوفِ بيْنَ يديْه، وقد رفعَ الخلائقُ إليكَ أبْصارَهم وأنتَ في أيْديهم، وقد طار قلْبُك، واشْتدَّ رُعْبُك، لِعلمكَ أينَ يُرادُ بك، فتوهمْ نفْسكَ وأنتَ بيْنَ يدي ربِّك، وفي يدكَ صحيفةٌ مُخْبرةٌ بعملِك، لا تُغادرُ بليَّةً كتمْتَها، ولا مُخبَّأةً أسْرَرْتَها، وأنتَ تقرأُ ما فيها بلسانٍ كليل، وقلْبٍ مُنكسِر، والأهوالُ مُحدِّقةٌ بكَ من بيْنِ يديْكَ ومن خلْفِك، فكم من بليَّةٍ قد كنتَ نسيتَها ذكَّركَها، وكم من سيِّئةٍ قد كنتَ أخْفيْتَها قد أظْهرها وأبْداها، وكم من عملٍ ظننتَ أنَّهُ سلِمَ لكَ وخلُصَ فردَّهُ عليكَ في ذلكَ الموْقفِ وأحْبطه، بعدَ أن كانَ أملُكَ فيهِ عظيمًا، فيا حسْرةَ قلبكَ، ويا أسفكَ على ما فرَّطتَ فيهِ من طاعةِ ربِّك»[1].

(١) التذكرة (٢٥٥و٢٥٦).

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ صِفةَ عرْضِ المؤمنِ على الله عزَّ وجلَّ فقال: «إِنَّ الله يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ! حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ»(١)، فَيَرْجع إلى أهْلِ المَوْقفِ فرِحًا مسْتبْشرًا مسْرورًا، فيقول: ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ(١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ(٢٠)﴾ [الحاقة]، «قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(٢١)﴾ أي: مُرْضِية، قد رضِيَها، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(٢٢)﴾ في السَّماء، ﴿قُطُوفُهَا﴾ أي: ثِمارُها وعناقيدُها، ﴿دَانِيَةٌ(٢٣)﴾ أُدْنِيَتْ منهم، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(٢٤)﴾ [الحاقة]، أي: بما قدَّمْتُم في أيَّامِ الدُّنْيا»(٢).

وهذا العرْضُ هو الحسابُ اليسيرُ المذْكورُ في قوْلِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ(٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا(٨)﴾ [الانشقاق].

عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ: «أَنَّ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ كَانَتْ لَا تَسْمَعُ شَيْئًا لَا تَعْرِفُهُ إِلَّا رَاجَعَتْ فِيهِ حَتَّى تَعْرِفَهُ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ. قَالَتْ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ الله تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكْ»(٣).

«والمُرادُ بالمُناقَشةِ الاسْتقْصاءُ في المُحاسبة، والمُطالبةُ بالجليلِ والحقيرِ، والصَّغيرِ والكبيرِ، وترْكُ المُسامحة.

وقوْلهُ ﷺ «إِنَّمَا ذَلِكِ الْعَرْضُ» يعْني أنَّ الحسابَ المذْكورَ في الآيةِ إنَّما هوَ أنْ تُعْرضَ أعْمالُ المؤْمنِ عليْه، ويُوقفَ عليْها تفْصيلاً حتَّى يعْرفَ مِنَّةَ الله تعالى عليْهِ في سترِها عليْهِ في الدُّنْيا، وفي عفْوهِ عنْها في الآخرة، كما جاء في الحديثِ السَّابق»(٤).

(١) متفق عليه: خ(٢٤٤١/ ٩٦/ ٥)، م(٢٧٦٨/ ٢١٢٠/ ٤).

(٢) التذكرة (٢٥٧).

(٣) متفق عليه: خ(١٠٣/ ١٩٦/ ١)، م(٢٨٧٦/ ٢٢٠٤/ ٤)، د(٣٠٧٧/ ٣٥٥/ ٨)، ت(٢٥٤٣/ ٣٩/ ٤).

(٤) المفهم (١٥٧و١٥٨/ ٧).

وأمَّا الكافرُ والمُنافقُ فإنَّهُ إذا عُرِضَ على ربِّهِ وقرَّرهُ بذُنوبهِ أنكرَ وجادلَ، فلا يسكتُ إلاَّ بعدَ أنْ تفضحَهُ جوارِحُه، وتشهدَ عليهِ أعْضاؤه:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ بَلَى! فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيه، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ انْطِقِي، فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِه، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ، فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا! فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟ قَالُوا لاَ. قَالَ: فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟ قَالُوا لاَ. قَالَ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا. قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ بَلَى! فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ! أَلَمْ أُكْرِمْكَ وَأُسَوِّدْكَ وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ بَلَى أَيْ رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاَقِيَّ؟ فَيَقُولُ لاَ. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ وَبِكِتَابِكَ وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ وَصُمْتُ وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا. ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِه، مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟! فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ»[2].

(١) م(٢٩٦٩/ ٢٢٨٠/ ٤).

(٢) م(٢٩٦٨/ ٢٢٧٩و٢٢٨٠/ ٤).

قال الله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ(٦٥) ﴾[يس]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ولاَ أَبْصَارُكُمْ ولاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ(٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِين(٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ(٢٤) ﴾[فصلت].

وهكذا تبينَ لنا أنَّ الحفظةَ الكرامَ يكتُبونَ كلَّ أعْمالِ الإنْسانِ، خيْرِها وشرِّها، دِقِّها وجِلِّها، كما قال تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ(٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ(٥٣) ﴾[القمر].

وقد بيَّنَ الله تعالى أنَّ المجْرمينَ المُفرِّطينَ إذا رأوْا أعْمالَهم يوْمَ القيامةِ صاحوا صيْحةَ النَّادمينَ حيْثُ لا ينفعُهمُ النَّدم،فقالَ تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ولاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(٤٩) ﴾ [الكهف]،« كانَ الفُضَيْلُ بنُ عِياضٍ إذا قرأَ هذهِ الآيةَ قال: ضجُّوا منَ الصَّغائرِ قبْلَ الكبائر»(١)، لأنَّ العادةَ جرتْ بالإسْرافِ في الصَّغائرِ للاسْتِهانةِ بها، فهو يراها هيِّنةً فلا يُبالي بها، فتكثُرُ عليهِ فتُهْلكه،« ومثالُ ذلكَ قطراتٌ من الماءِ تقعُ على حَجَرٍ مُتوالياتٍ، فإنَّها تُؤثِّرُ فيه، ولو جُمِعتْ تلْكَ القطَراتُ وصُبَّتْ عليهِ مرَّةً واحدةً لم تُؤثِّر فيه»(٢)، ولذلكَ حذَّر النبيُّ ﷺ من الصَّغائرِ فقال: « إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ. وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثلاً: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فلاَةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا فَأَجَّجُوا نَارًا وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا»(٣).

(١) التذكرة (٢٥٩).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (٢٥٧).

(٣) صحيح: [ص.ج: ٢٦٨٤]، حم(١٦٥/٢٥٢و٢٥٣/١٩).

فيا عبدَ الله!

«خلِّ الذُّنوبَ صغيرَها وكبيرَها ذاكَ التُّقى
واصنعْ كماشٍ فوْقَ أرْضِ الشَّوْكِ يحْذرُ ما يرى
لا تحْقِرنَّ صغيرةً إنَّ الجبالَ من الحصى»[1].

وفي شهادةِ الجوارحِ على الإنسانِ ما يحْملهُ على الحياءِ من الرَّحمنِ وترْكِ العِصْيان، إذْ أنَّ الإنسانَ-غالبًا- ما يفِرُّ بذنْبِهِ إلى حيثُ يغلِبُ على ظنِّهِ أنَّهُ لا يُرى، وإذا صدقَ ظنُّهُ في النَّاسِ فكيفَ يغيبُ عن ربِّ النَّاسِ ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ[3] ﴾ [سبأ]؟ وكيفَ يَسْتَتِرُ بذنبِهِ عن نفسِه، والأعْضاءُ الَّتي يعْصِي الله بها هيَ نفْسُها الَّتي ستشْهدُ عليه، والأرضُ الَّتي يعْصي الله فوْقها أيْضًا ستشْهدُ عليه، كما قال تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا[1] وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا[2] وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا[3] يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا[4] ﴾ [الزلزلة]، «أي تُحدِّثُ بما عمِلَ العاملونَ على ظهْرِها»[2].

فيا عبدَ الله!

إذا ما خلوْتَ الدَّهرَ يوْمًا فلا تقُلْ   خَلوْتُ ولكنْ قُلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحْسَبنَّ الله يغْفلُ ساعةً   ولا أنَّ ما تُخْفي عليْهِ يغيبُ

وفي قوْلِ الملائكةِ لأصحابِ اليمين: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ[24] ﴾[الحاقة] دليلٌ على أنَّ الأعْمالَ سبَبُ دُخولِ الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[72] ﴾[الزخرف]، وأنَّهُ يجبُ على الإنسانِ أن يعْلمَ أنَّ أيَّامَ الدُّنيا مُنْقضِيَة، وأنَّهُ خارجٌ منها إلى الآخرة، وأنَّ الآخرةَ لا عملَ فيها، كما قال عليٌّ رضي الله عنه: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ

(١) جامع العلوم والحكم (١٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٥٣٩).

الآخِرَةِ ولا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ ولا حِسَاب، وَغَدًا حِسَابٌ ولا عَمَلٌ»[1].

فعلى الإنسانِ أن يغتنِمَ حياتَهُ وأوْقاتَ، وأن يُكْثِرَ من الباقياتِ الصَّالحاتِ قبْلَ المَمات، فإنَّهُ إذا ماتَ لن يتمكَّنَ من تدارُكِ ما فات، كما قال فاطرُ الأرضِ والسَّموات: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ(٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(١٠٠)﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ(٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(٣٧)﴾[فاطر].

عن نافعٍ قال: «خرجَ ابنُ عمرَ في بعضِ نواحي المدينةِ ومعهُ أصْحابٌ له، وَوضعوا سُفْرةً لهم، فمرَّ بهم راعي غنمٍ فسلَّم، فقال ابنُ عمر: هلُمَّ يا راعي، هلُمَّ فأصِبْ من هذهِ السُّفرة، فقال: إنِّي صائم، فقال لهُ ابنُ عمر: أتصومُ في مثلِ هذا اليومِ الحارِّ الشَّديدِ سُمومُه، وأنتَ في هذه الجبالِ ترْعى هذه الغنم؟! فقال: إنِّي واللهِ أُبادرُ أيَّامي الخاليَة، فقال لهُ ابنُ عمر، وهو يُريدُ أن يختبِرَ ورعَه: فهل لكَ أن تبيعنا شاةً من غنمكَ هذه فنُعْطيكَ ثمنَها، ونُعْطيكَ من لحْمها فتُفطِرَ عليه؟ فقال: إنَّها ليْسَتْ لي بغنم، إنَّها غنمُ سيِّدي، فقال لهُ ابنُ عمر: فما عسى سيِّدُكَ فاعلاً إذا فقدها فقلْتَ أكلها الذِّئب؟ فولَّى الرَّاعي: وهو رافعٌ إصْبعَهُ إلى السَّماءِ وهو يقول: فأيْنَ الله؟! فجعل ابنُ عمر يُردِّدُ قولَ الرَّاعي وهو يقول: قال الرَّاعي فأينَ الله؟! فلمَّا قدِمَ المدينةَ بعثَ إلى موْلاهُ فاشْترى منهُ الغنمَ والرَّاعيَ فأعْتقَ الرَّاعيَ ووَهبهُ الغنم»[2].

❑ ❑ ❑

(١) خ تعليقًا (٢٣٥/ ١١).

(٢) الدر المنثور (٢٧٢و٢٧٣/ ٨).

أول من يقضى عليهم المراءون

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلم وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلم وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلم لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المالِ كُلِّه، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1].

إذا جاءَ الله تعالى يومَ القيامةِ لفصْلِ القضاءِ كانَ «أوَّلُ ما يقْضى بينهم من المخْلوقاتِ الحيواناتِ غيرَ الإنْسِ والجنِّ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَال: «لَتُؤَدُّنَّ الحقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلحاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»[2].

---

(١) م(١٩٠٥/ ١٥١٣و١٥١٤/ ٣).

(٢) م(٢٥٨٢/ ١٩٩٧/ ٤)، ت(٢٥٣٥/ ٣٧/ ٤).

« حتَّى إذا فُرِغَ من ذلك فلم يبقَ لواحدةٍ عندَ أُخرى حقٌّ قال الله لها كوني تُرابًا، فعندَ ذلكَ يقولُ الكافرُ يا ليْتني كنتُ تُرابًا»[١].

ثمَّ يقضي الله تعالى بيْنَ الأمم، ويبْدأُ بأفْضلِها وأشْرفِها على الإطلاق، وهيَ أُمَّةُ محمدٍ ﷺ، كما في الحديثِ **عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، المقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخَلائِقِ»**[٢].

ويبدأُ الله تعالى بالتَّمْييزِ بيْنَ المُخْلصينَ والمُراءين، فيُقدِّمُ المُراءينَ أوّلاً ثمَّ يأمرُ بهم إلى النَّار، كما في حديثِ أبي هريرةَ:إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقضَى يومَ القيامةِ عليهِ شهيدٌ وعالمٌ وجوادٌ كريم.

قال النَّوَوِيُّ: «قوْلهُ ﷺ في الغازي والعالمِ والجوادِ، وعِقابُهم على فِعلهم ذلكَ لغيْرِ الله، وإدْخالُهمُ النَّار، دليلٌ على تغْليظِ تحْريمِ الرِّياءِ وشِدَّةِ عُقوبته، وعلى الحثِّ على وُجوبِ الإخْلاصِ في الأعْمال، كما قال الله تعالى: **﴿ وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ(٥)﴾** [البينة]، وفيهِ أنَّ العمُوماتِ الواردةَ في فضْلِ الجهادِ إنَّما هيَ لمن أرادَ الله تعالى بذلكَ مُخْلِصًا، وكذلكَ الثَّناءُ على العُلماءِ وعلى المُنْفقينَ في وُجوهِ الخيْرات، كلُّهُ محْمولٌ على من فعلَ ذلكَ لله تعالى مُخْلصًا»[٣].

لقد أمرَ الله تعالى عبادَهُ بفعْلِ الخيْرِ فقال: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٧٧)﴾** [الحج].

---

(١) الفتن والملاحم (٢٣٤-٢٣٦) باختصار.

(٢) م(٨٥٦/ ٥٨٦/ ١)، ن(٨٧/ ٣).

(٣) شرح مسلم (٥٠و٥١/ ١٣).

لكنَّهُ سبحانهُ أعْلمَهم أنَّ الأجْرَ والثَّوابَ على فِعْلِ الخيْرِ مُتوقِّفٌ على إخْلاصِ النِّيةِ فيهِ لله عزَّ وجلَّ، فقال تعالى: ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا(١١٤)﴾[النساء].

وحذَّرَ سبحانهُ من إرادةِ الدُّنيا بالأعْمالِ الصَّالحة، فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(١٨)وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(١٩)﴾[الإسراء].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(٢٠)﴾ [الشورى].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ(١٥)أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآَخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٦)﴾ [هود].

ولقد كان النبيُّ ﷺ يُرغِّبُ في الجهادِ ويحثُّ عليْهِ ببيانِ فضْلهِ وفضْلِ الشُّهداء:

عَنْ سَلمانَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَل؟ قَالَ لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ. فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ، وَقَالَ فِي

(١) م(١٩١٣/ ١٥٢٠/ ٣)، ن(٣٩/ ٦).

الثَّالِثَةِ: مَثَلُ المجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ الله، لاَ يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ حَتَّى يَرْجِعَ المجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله تَعَالَى»(١).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ. فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيد، فَقَالَ أَعِدْهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ الله! فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله، الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله»(٢).

وَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ الله عَنْ هَذِهِ الآيَةِ ﴿ ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران].

قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُم اطِّلاَعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟! فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ! نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»(٣).

وَعَنِ المِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ

---

(١) م(١٨٧٨/ ١٤٩٨/ ٣)، ت(١٦٦٩/ ٨٨/ ٣).

(٢) م(١٨٨٤/ ١٥٠١/ ٣)، ن(١٩و٢٠/ ٦).

(٣) صحيح: [ص.جه:٢٢٥٧]، ت(١٧١٢/ ١٠٦/ ٣)، جه(٢٧٩٩/ ٩٣٥/ ٢).

خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ ،وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحورِ الْعِينِ وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»[١].

لكنَّ النبيَّ ﷺ كان دائمًا يُؤكِّدُ على أنَّ هذا الفضلَ مُتوقِّفٌ على إخلاصِ النيَّةِ وتجْريدِها لله عزَّ وجلَّ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:قَالَ رَسُولِ الله ﷺ : «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ الله فَوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»[٢].

وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الله، وَالله أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِه، إلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَم، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ»[٣].

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «تَضَمَّنَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِي سَبِيلِي، وَإِيمَانًا بِي، وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ »[٤].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: «سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ الله؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله»[٥].

---

(١) صحيح: [ص.ت:١٦٦٣]، ت(١٧٠٢/ ١٠١و١٠٢/ ٣).

(٢) م(١٨٧٦-١٠٥-/١٤٩٦/ ٣).

(٣) متفق عليه: خ(٣٦/ ٩٢/ ١)، م(١٨٧٦/ ١٤٩٥/ ٣) واللفظ له، ن(١١٩/ ٨).

(٤) متفق عليه: خ(٣٦/ ٩٢/ ١)، م(١٨٧٦/ ١٤٩٥/ ٣) واللفظ له.

(٥) متفق عليه: خ(٢٨١٠/ ٢٧و٢٨/ ٦)، م(١٩٠٤/ ١٥١٣/ ٣)، ت(١٦٩٧/ ١٠٠/ ٣).

وَعَنْهُ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلمغْنَم، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُه، فَمَنْ فِي سَبِيلِ الله؟ قَالَ: مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله»(١).

فمنْ قاتلَ رياءً فقُتِلَ دخلَ النَّار، كما في الحديثِ عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّار»(٢).

وكانَ النبيُّ ﷺ يحثُّ على تعلُّمِ العلم وتعْليمِه، وتعلُّمِ القرْآنِ وتعليمِه:

عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(٣).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلما سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الجَنَّة، وَإِنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلم، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالحيتَانُ فِي جَوْفِ الماءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِب، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، وَإِنَّما وَرَّثُوا الْعِلم فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(٤).

---

(١) صحيح: [ص.د:٢١٩٧]، د(٢٥٠٠/ ١٩٣/ ٧)، ن(٢٣/ ٦).

(٢) سبق أول الموضوع.

(٣) متفق عليه: خ(٧١/ ١٦٤١)، م(١٠٣٧/ ٧١٨/ ٢)، جه(٢٢٠/ ٨٠/ ١).

(٤) صحيح: [ص.د:٣٠٩٦]، د(٣٦٢٤/ ٧٢-٧٤/ ١٠)، ت(٢٨٢٣/ ١٥٣/ ٤)، جه(٢٢٣/ ٨١/ ١).

وَعَنْ عُثْمَانَ رَضِي الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(١).

لكنَّ النبيَّ ﷺ أيضًا كانَ يُحذِّرُ من طلبِ العلمِ لغيْرِ الله تحذيرًا يتضمَّنُ الأمْرَ بإخْلاصِ الطَّالبِ والعالمِ نيَّتَهما لله عزَّ وجلَّ:

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول: «مَنْ طَلَبَ الْعِلم لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ الله النَّارَ»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَتَعَلَّمُهُ إِلاَّ لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا»(٣).

فإذا خالفَ الطَّالبُ فتعلَّمَ لغيْرِ الله، وخالفَ العالمُ فعلَّمَ لغيْرِ الله دخلَ النار، كما في حديثِ أبي هريرةَ **«وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلم وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلم وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلم لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّار»**(٤).

أمَّا الإنْفاقُ من مالِ الله في سبيلِ الله فقد كثُرَ في القُرْآنِ الكريمِ الأمْرُ بهِ والحثُّ عليهِ والتَّرْغيبُ فيه:

---

(١) خ(٥٠٢٧/ ٧٤/ ٩)، ت(٣٠٧١/ ٢٤٦/ ٤)، د(١٤٣٩/ ٣٢٥/ ٤).

(٢) حسن: [ص.ت:٢٦٥٤]، ت(٢٧٩٢/ ١٤٠و١٤٢/ ٤).

(٣) صحيح: [ص.د:٣١١٢]، د(٣٦٤٧/ ٩٧/ ١٠)، جه(٢٥٢/ ٩٢و٩٣/ ١).

(٤) سبق تخريجه أول الوضوع.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ(٢٦٧)﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٥٤)﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعلاَنِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَلٌ(٣١)﴾[إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً(٢٤٥)﴾[البقرة].

ثمَّ بيَّنَ قدْرَ هذا التَّضْعيفِ فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَالله يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٦١)﴾[البقرة].

لكنَّ هذا التَّضْعيفَ مشْروطٌ بأن تكونَ النَّفقَةُ خالصةً لوجْهِ الله، وأنْ تسْلمَ مِمَّا يُبْطِلُها منَ المنِّ والأذى والرِّياء، ولذلكَ عقَّبَ الله تعالى بقوْلِه: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَالله غَنِيٌّ حَلِيمٌ(٢٦٣)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ولاَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٢٦٤)وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٢٦٥)أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢٦٦)﴾[البقرة].

فمنْ أنْفقَ رِياءً دخلَ النَّار، كما في حديثِ أبي هريرة: «**وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المالِ كُلِّه، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيل، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**».

وهكذا ظهرَ لنا أنَّ الرِّياءَ يُحبِطُ الأعْمال، وبذلكَ صرَّحَ النبيُّ ﷺ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْك، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَه»[1].

وَعَنْ مَحْمُودِ بنِ لَبِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُم الشركُ الأَصغَر، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَا الشركُ الأَصغَرُ؟! قَالَ: الرِيَاء»[2].

وإذا كانَ هذا خطرَ الرِّياءِ وجبَ على العاقلِ أنْ يحْذرَه، وأن يحْرِصَ على مُعالجةِ قلْبِهِ منهُ بالمُجاهدةِ، «ويكونُ ذلكَ بأمريْن:

الأوَّل: قلْعُ عُروقِهِ واسْتئْصالُ أصوله، وهي الحرْصُ على لذَّةِ المحْمدة، والفرارُ من ألمِ الذَّم. والطمَعَ فِيمَا في أيْدِي النَّاس، وهذِهِ الثَّلاثَةُ رَاجِعَةٌ إلى حُبِّ المَنْزلَةِ والجاه.

الثَّانِي: أنْ يُشَمِّرَ الإِنْسَانُ عَنْ سَاعِدِ الجِدِّ لدَفْعِ ما يعْرِضُ مِنْ خَاطِرِ الرِّياء»[3]، وأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ النَّاسَ لنْ يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ الله شَيْئًا، وأَنْ مَدْحَهم لا يَنْفَعُه، كما أَنَّ ذَمَّهم لا يَضرُّه، فيَقْطَعَ مِنْ قَلْبِه الطَّمَعَ فِي مَدْحِهم، والخَوْفَ من ذَمِّهِم، فإِنَّ قَلُوبَهم بيَدِ الله،

---

(١) م(٢٩٨٥/ ٢٢٨٩/ ٤).

(٢) صحيح: [ص.ج:١٥٥١]، حم(٢٣٦٣٠/ ٣٩/ ٣٩) الأرنؤوط.

(٣) إحياء علوم الدين (٣١٠/ ٣).

و«مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ الله مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ الله وَكَلَهُ الله إِلَى النَّاسِ»[1]، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا(٩٦)﴾[مريم]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ الله يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ الله يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ»[2].

❑ ❑ ❑

(١) صحيح: [ص.ت:٢٤١٤]، ت(٢٥٢٧/ ٣٤/ ٤).

(٢) متفق عليه:خ(٧٤٨٥/ ٤٦١/ ١٣)، م(٢٦٣٧/ ٢٠٣٠/ ٤)، ت(٥١٧١/ ٣٧٨/ ٤).

أول ما يحاسب عليه العبد صلاته

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ المسْلِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلاَةُ المكْتُوبَةُ، فَإِنْ أَتَمَّهَا، وَإِلاَّ قِيلَ انْظُرُوا هَلْ لَهُ مِنْ تَطَوُّعٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ أُكْمِلَتِ الْفَرِيضَةُ مِنْ تَطَوُّعِهِ، ثُمَّ يُفْعَلُ بِسَائِرِ الأَعْمَالِ المفْرُوضَةِ مِثْلُ ذَلِكَ»[1].

خَلَقَ الله تعَالَى الخَلْقَ لعبَادَتِه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(٥٦)﴾[الذاريات]، وجَعَلَ ذَلِكَ حقًّا له لازمًا عليهم، كما في حديث مُعَاذٍ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ يَا مُعَاذُ! «هَلْ تَدْرِي حَقَّ الله عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله، قُلْتُ الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ، فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[2].

وأَكْثَرَ سُبْحَانَه مِنَ الأَمْرِ بِذَلِكَ في القُرْآنِ الكَرِيم، فِي مَثْلِ قَوْلِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(٢١)﴾ [البقرة]، وقوْله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا الله وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا(٣٦)﴾[النساء]، وقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ(٢٣)﴾[الإسراء].

«والعِبادةُ اسْمٌ جامِعٌ لكُلِّ ما يُحِبُّهُ الله ويرضاهُ منَ الأقْوالِ والأَعْمالِ الباطِنَةِ والظَّاهِرة»[3]، إلاَّ أَنَّ أصلَها الَّذي تقومُ عليْهِ هوَ الصَّلاة. ولذلكَ قالَ تعالى لِموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي أَنَا الله لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي(١٤)﴾[طه].

---

(١) صحيح: [ص جه:١١٧٢]، جه(١٤٢٥/ ٤٥٨/ ١) واللفظ له، ت(٤١١/ ٢٥٨/ ١)، ن(٢٣٢/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(٢٨٥٦/ ٥٨/ ٦)، م(٣٠/ ٥٨/ ١)، ت(٢٧٨١/ ١٣٥و١٣٦/ ٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٤٩/ ١٠).

فأمَرَهُ «بجميعِ أنواعِ العِبادةِ ظاهرِها وباطِنِها، أُصولِها وفُروعِها، ثُمَّ خصَّ الصَّلاةَ بالذِّكْرِ وإنْ كانتْ داخِلةً في العِبادةِ لِفضْلِها وشرفِها، وتضمُّنِها عُبوديَّةَ القلْبِ واللِّسانِ والجوارحِ»(١).

ولَمَّا بعثَ الله تعالى مُحمَّدًا ﷺ بالهُدى ودينِ الحقِّ كانَ أوَّلَ ما فرضَ عليْهِ منَ العِباداتِ الصَّلاة، وأكثرَ عليْهِ في القُرْآنِ الكريمِ منَ الأمْرِ بإقامتِها والمُحافظةِ عليْها في الحضَرِ والسَّفر، والأمْنِ والخوْف، والصِّحَّةِ والمرض:

قال تعالى: ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لله قَانِتِينَ(٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا الله كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ(٢٣٩) ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا(١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ الله أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا(١٠٢) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاَةَ فَاذْكُرُوا الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا(١٠٣) ﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ الله كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا(٤٣) ﴾[النساء].

---

(١) تيسير الكريم المنان (١٤٧/ ٥).

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ فَقَالَ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»(١).

وقد جعلَ الله تعالى إقامَ الصَّلاةِ عُنْوانَ الإيمانِ، ودليلَ الإحْسانِ، فقالَ تعالى: ﴿طس تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ(١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ(٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٣)﴾ [النمل].

وقالَ تعالى: ﴿الم(١) تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ(٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ(٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ(٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٥)﴾ [لقمان].

ولذلكَ أطْلَقَ النبيُّ ﷺ لفظَ الكُفْرِ على الَّذين لا يُصلُّونَ فقال: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»(٢).

وقد وعدَ الله تعالى المُقيمينَ الصَّلاةَ والمُحافظينَ عليْها بالأجْرِ والثَّوابِ والمغْفرةِ والرَّحْمة، وتوعَّدَ مُضيِّعيها بالعذاب:

قالَ تعالى: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا(١٦٢)﴾ [النساء].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الله إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ الله قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ(١٢)﴾ [المائدة].

---

(١) خ(١١١٧/ ٥٨٧/ ٢)، د(٩٣٩/ ٢٣٣/ ٣)، ت(٣٦٩/ ٢٣١/ ١).

(٢) صحيح: [ص.جه:٨٨٤]، جه(١٠٧٩/ ٣٤٢/ ١)، ت(٢٧٦٥/ ١٢٥/ ٤)، ن(٢٣١/ ١).

وقال تعالى: ﴿ وَالمؤْمِنُونَ وَالمؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴿٧١﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴿٩﴾أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴿١٠﴾الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون].

وقال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴿٥٩﴾﴾ [مريم].

وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلمصَلِّينَ﴿٤﴾الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴿٥﴾﴾ [الماعون].

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴿٣٨﴾إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴿٣٩﴾فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴿٤٠﴾عَنِ المجْرِمِينَ﴿٤١﴾مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المصَلِّينَ﴿٤٣﴾وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المسْكِينَ﴿٤٤﴾وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴿٤٦﴾حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴿٤٧﴾فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴿٤٨﴾﴾[المدثر].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا! مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِه؟ قَالُوا لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو الله بِها الخَطَايَا»(١).

وَعَنْ عُثْمانَ قَالَ: سمعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِي كَتَبَ الله عَلَيْهِ فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الخَمْسَ إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا»(٢).

---

(١) متفق عليه: خ(٥٢٨/ ١١/ ٢)، م(٦٦٧/ ٤٦٢/ ١).

(٢) م(٢٣١/ ٢٠٧و٢٠٨/ ١).

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ الله عَلَى عِبَادِهِ، فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يَنْتَقِصْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ فَإِنَّ الله جَاعِلٌ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَهْدًا أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ قَدِ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِنْدَ الله عَهْدٌ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»[1].

ولَمَّا كانتِ الصَّلاةُ بهذه المنْزلةِ كانتْ أوَّلَ ما يُحاسبُ بهِ العبْدُ يوْمَ القيامةِ من عملِه، فإذا عُرِضَ العبْدُ على ربِّهِ يوْمَ العرْضِ الأكبرِ سألهُ الله تعالى أوَّلاً عنِ الصَّلاة (فَإِنْ صَلَحَتْ) «بأنْ كانَ صلاَّها مُتوفِّرةَ الشُّروطِ والأركانِ وشملَها القبُولُ»[2] «(فَقَدْ أَفْلَحَ) أي فازَ بمقْصودِه، (وَأَنْجَحَ) أي حصلَ لهُ الثَّواب، (وَإِنْ فَسَدَتْ) بأنْ لم تُؤدَّ، أوْ أُدِّيتْ غيرَ صحيحةٍ أوْ غيرَ مقْبولةٍ(فَقَدْ خَابَ) بحِرْمانِ الثَّوابِ(وَخَسِرَ) بوُقوعِ العُقوبةِ، وقيلَ: معنى(خَابَ) ندم،و(خَسِرَ) أي صارَ محْرومًا منَ الفوْزِ والخلاصِ قبْلَ العذاب، (فَإِنِ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْئًا قَالَ الله تَعَالَى: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ) أي هلْ في صحيفتِهِ سُنَّةٌ أوْ نافلةٌ قبْلَ الفرْضِ أوْ بعده أوْ مُطْلَقًا. «فيُكَمِلُ بِه مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ»[3].

قَال ابْنُ العَرَبِيُّ: «يُحْتَمَلُ أَنْ يكُونَ يُكَمَّلُ لَهُ ما نَقَصَ مِنْ فَرْضِ الصَّلاةِ وأعْدَادِها بفَضْلِ التَّطوُّعِ، ويُحْتَمَلُ ما نقَصَه مِنَ الخُشوعِ، والأوَّلُ أظْهَرُ لقوله: «ثُمَّ الزَّكَاةُ كَذَلِكَ وَسَائِرِ الأَعْمَالِ»، ولَيْسَ في الزَّكَاةِ إلاَّ فَرْضٌ أوْ فَضْلٌ، فكَمَا يُكَمَّلُ فَرْضُ الزَّكَاةِ بفَضْلِها كَذَلِكَ الصَّلاة، وفَضْلُ الله أوْسَع، ووَعْدُه أنْفَذ، وعَزْمُه أَعَمَّ وَأَتَمُّ»[4].

---

(١) صحيح: [ص.جه:١١٥٠]، ط(٢٦٦/ ٩٠)، حم(٨٢/ ٢٣٤/ ٢)، د(٤٢١/ ٩٣/ ٢)، ن(٢٣٠/ ١)، جه (١٤٠١/ ٤٤٩/ ١).

(٢) فيض القدير (٨٧/ ٣).

(٣) تحفة الأحوذي (٤٦٣/ ٢).

(٤) عارضة الأحوذي (١٧٥و١٧٦/ ٢).

لِذَلِكَ يُسْتَحبُّ للمُسْلِمِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ نَوَافِلِ الصَّلاةِ والصِّيامِ والزَّكَاةِ والحجِّ، حَتَّى يُكَمَّلَ لَهُ مِنْها ما انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضة. وهذَا فَضْلٌ عَظِيم، ومِنْ فَضْلِ النَّوافِلِ أَيْضًا أَنَّهَا تُوجِبُ للعَبْدِ مَحبَّةَ الله، كما في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»[١].

ثُمَّ يُسْأَلُ العَبْدُ عَنْ نَعِيمِ الله الَّذِي أَنْعمَ عَلَيْه به فِي الدُّنْيا، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ[٨]﴾[التكاثر] «أي ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عن شُكْرِ مَا أَنْعَمَ الله به عَلَيْكُم مِنْ الصِّحَّةِ والأَمْنِ والرِّزْقِ وغَيْرِ ذلك، ماذا قَابَلْتُم نِعَمَهُ مِنْ شُكْرِهِ وعِبَادتِه»[٢].

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ الله! فَأَيُّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ عَنْهُ وَإِنَّمَا هُمَا الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالماءُ؟ قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ سَيَكُونُ»[٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي الْعَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ الماءِ الْبَارِدِ»[٤].

فَيَا عِبَادَ الله اقْدُرَوا نِعْمَةَ الله حَقَّ قَدْرِها، واشْكُرُوه عَلَيْها، ولاَ تَكْفُروا بنِعمَةِ الله فيُذْهِبَها عَنْكُم فِي الدُّنْيا، ويُحَاسِبَكم عَلَى كِفرِها فِي الآخرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ[١٥] فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ

---

(١) خ(٦٥٠٢/ ٣٤٠و٣٤١/ ١١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥٤٥/ ٤).

(٣) حسن الإسناد: [ص.ت:٣٣٥٦]، ت(٣٤١٤/ ١١٨/ ٥).

(٤) صحيح: [ص.ت:٣٣٥٨]، ت(٣٤١٦/ ١١٨/ ٥).

وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ(١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ(١٧)﴾[سبأ].

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢)﴾[النحل].

وممَّا يُسْأَلُ عَنْه العَبْدُ يَوْمَ العَرْضِ جَوَارِحُه، كما قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلم إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً(٣٦)﴾ [الإسراء].

«قال قتادَة: ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلم﴾ لاَ تَقُلْ رَأَيْتُ وأَنْتَ لَمْ تَرَ، وسَمِعْتُ وَلَمْ تَسْمَع، وعَلِمْتُ ولَمْ تَعْلَم، فإنَّ الله تعالى سائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ كِلِّه، لأنَّه قال: ﴿ كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أي هذه الصِّفَاتُ مِنَ السَّمْعِ والبَصَرِ والفُؤَادِ ﴿ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ أي سَيُسْأَلُ العَبْدُ عَنها يَوْمَ القِيَامَةِ وتُسْأَلُ عَنْهُ وعمَّا عَمِلَ فيها»(١).

يُسْأَلُ العَبْدُ عَنْ جَوارحِه هَلْ اسْتَخْدَمها فِي طَاعَةِ الله أمْ فِي مَعْصِيَتِه، وتُسْأَلُ الجَوارِحُ عَنْ العَبْدِ وما عَمِلَ بها وتَشْهَدُ علَيْه، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ الله إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ(١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا الله الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ الله لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ(٢٢)﴾[فصلت].

«فَحَقِيقٌ بالعَبْدِ الَّذِي يَعْرِفُ أنَّه مَسْئُولٌ عمَّا قَالَه وفَعَلَه، وعمَّا اسْتَعْمَلَ بِه جَوارِحَه الَّتِي خَلَقَها الله لِعِبَادِتِه أَنْ يُعِدَّ للسُّؤَالِ جَوَابًا، وذَلِكَ لاَ يَكُونُ إلاَّ باسْتِعْمَالِها بِعُبُودِيَّةِ الله، وإِخْلاَصِ الدِّينَ لَهُ، وكفِّها عمَّا يَكْرهُهُ الله تَعَالَى»(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٩).

(٢) تيسير الكريم المنان (٤/٢٧٨).

ولاَ يَزالُ العَبْدُ واقفًا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ حتَّى يَسْأَلَهُ عَنْ عُمُرِهِ ومَالِه وعِلمه، كما في الحديث:

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»(١).

إنَّ عُمُرَ الإنْسَانِ هُوَ رَأْسُ مَالِه في التِّجَارَةِ مَعَ الله عزَّ وجلَّ، فإنْ أَحْسَنَ اسْتِغْلاَلَه في طاعَةِ الله كَانَ مِنَ الفَائزِين، وإلاَّ كانَ مِنَ الخَاسِرين، كما قال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾[العصر].

فالواجب على العاقل أنْ يغتنم حياته قبل موته، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الموْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ الله نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾[المنافقون].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الموْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾[المؤمنون].

فَوَقْتَكَ وقْتَك لاَ تُضَيِّعْه، وحَياتَك حِياتَك لا تَفُوتَنَّك، «واعْلَمْ أَنَّ اليَوْمَ واللَّيلَة أَرْبَعٌ وعِشْرُونَ سَاعَة، وأنَّ العَبْدَ يُنْشَرُ لَهُ بِكُلِّ يَوْمٍ أَرْبَعٌ وعِشْرُونَ خِزانةً مصْفوفة، فَيُفْتَحُ لَهُ مِنْها خزانةٌ فيَرَاها مَمْلُوءةً نورًا مِنْ حسناته الَّتِي عَمِلَها في تِلْكَ السَّاعة، فَيَحْصلُ لَهُ مِنَ السُّرورِ بمَشاهَدةِ تِلْكَ الأَنْوَارِ ما لو وُزِّعَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ لأَدْهشَتْهم عن الإحْساسِ بألَمِ النَّار، ويُفْتَحُ له خزانةٌ أُخْرى سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ، يَفُوحُ رِيحُها، ويغْشاهُ ظَلامُها، وهي السَّاعةُ الَّتي عَصَى الله تعالى

(١) صحيح: [ص.ت:٢٤١٦]، ت(٢٥٣١/ ٣٥/ ٤).

فيها، فَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ الفزَعِ والخِزْيِ مَا لَوْ قُسِمَ على أَهْلِ الجنَّةِ لنغَّصَ علَيْهم نَعِيمَهم، ويُفْتَحُ لَهُ خزانَةٌ أُخرَى فارِغَةٌ لَيْسَ فيها ما يسُوؤه ولا يسرُّه، وهي السَّاعةُ الَّتي نَامَ فِيهَا أَوْ غَفَلَ فِيهَا أَوْ اشْتَغل بشَيْءٍ مِنَ المُباح، فيتحسَّرُ على خُلوِّها، ويَنَالُهُ ما نالَ القادِرَ على الرِّبْحِ الكَثِيرِ إذَا أَهْمَلَهُ حتَّى فَاتَه، وعلَى هذَا تُعْرَضُ علَيْهِ خزائِنُ أَوْقَاتِه طُولَ عُمُرِه»[1]، فليجْتَهِدْ كلٌّ فِي فَراغِه وَليَشْغَلْهُ بطَاعَةِ رَبِّه، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ[7]﴾[الشرح]، «عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: إذَا فَرَغْتَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيا فانْصَبْ فِي عِبَادةِ رَبِّك وصَلِّ»[2]، واعْلَمْ أَنَّ كلَّ يَوْمٍ تطْلُعُ علَيْكَ شَمْسُه نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّكَ علَيْك، فإذا أَصْبَحْتَ فقُلْ يا نَفْسُ اجْتَهِدي في طاعَةِ الله، فلعلَّ ذلِكَ آخِرُ أيَّامِك، وإذا أَمْسَيْتَ فقُلْ يا نَفْسُ اجْتَهِدي في طاعَةِ الله، فلعلَّ اللَّيْلَةَ آخِرُ لياليك، وهكذا حتَّى تُسْلِمَ نَفْسَك إلى ربِّها راضِيَةً مَرْضِيَّةً.

ومِنَ المَعْلُوم أَنَّ العُمرَ مُدَّةُ حياةِ الإنْسانِ مُنْذُ جري علَيْه قَلَمُ التَّكْليفِ حتَّى المَوْت، ومَعْناهُ أنَّه سُئِلَ عَنْ شبابِهِ وهَرَمِه، فلماذا أُعِيدَ علَيْهِ السُّؤالُ عن شَبَابِه؟

والجَوابُ: أَنَّ الشَّبابَ هُوَ زَمنُ الصِّحَّةِ والعَافِيَة، والقُوَّةِ والفُتوَّة، وزَمنُ البَذْلِ والعَطَاء، والجَهْدِ والتَّضْحِيَة، فإذَا اسْتَغَلَّ الإنْسانُ شَبابَه فغدَا ورَاحَ إِلَى المَسَاجد، وقَامَ اللَّيْلَ، وصَامَ النَّهارَ، وجَاهَدَ فِي سَبِيلِ الله حَتَّى الجِهاد فقد فاز، كما قال ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ الإمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ**»[3].

ثُمَّ يُسْأَلُ العَبْدُ عن مالِه مَنْ أَيْنَ اكتَسَبه؟ وفيمَ أَنْفَقَه؟ فالعَبْدُ مأمورٌ أَنْ يكْسِبَ مِنَ الحَلالِ، مَنْهِيٌّ عَنْ الكَسْبِ من الحَرام، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ[168]**﴾[البقرة].

(١) مختصر منهاج القاصدين (٣٧١).

(٢) معالم التنزيل (٥٩٥/ ٥).

(٣) متفق عليه: خ(٦٦٠/ ١٤٣/ ٢)، م(١٠٣١/ ٧١٥/ ٢)، ت(٢٥٠٠/ ٢٤و٢٥/ ٤)، ن(٢٢٢و٢٢٣/ ٨).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الله كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى الله يَسِيرًا(٣٠)﴾[النساء].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٨)﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا(١٠)﴾[النساء].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٣٠)وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ(١٣١)وَأَطِيعُوا الله وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(١٣٢)﴾[آل عمران].

لكنَّ الشُّحَّ والجَشَعَ والطَّمَعَ يحْمِلُ الإنسانَ على جَمْعِ المَالِ وكَسْبِه مِنَ الحَرامِ والحَلالِ بلا مُبَالاة، وسيكونُ ذلكَ وبَالاً عليْه في الدُّنيا والآخرة.

فيَا عِبَادَ الله اسْتَجِيبُوا لرَسُولِ الله ﷺ حيْثُ قال: «إِنَّ رُوحَ القُدسِ نَفَثَ فِي رُوعِي، أَنَّ نَفْساً لَنْ تَمُوتَ حَتى تَستَكْمِلَ أجَلَها، وتَستَوْعِبَ رِزقَها،فاتّقُوا الله، وأَجْمِلوا في الطَّلَبِ، ولا يَحْمِلَنَّ أحَدَكمُ اسْتِبطاءُ الرِّزقِ أَنْ يَطلُبُه بِمَعْصيةِ الله،فإِنَّ الله تَعَالى لا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إلا بِطَاعَتِهِ»(١).

فلاَ تَأكُلُوا الحرامَ، وابْتَعِدُوا عَنْهُ وإِنْ دنَا مِنْكُم، ولا تَغْتَرُّوا بـه، ولَـوْ كَثُـرَ عنْدَ غَيْركم، فإِنَّ الله تعالى قال: ﴿قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا الله يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(١٠٠)﴾[المائدة].

(١) صحيح: [ص.ج:٢٠٨١]، وعزاه السيوطي لأبي نعيم في "الحلية".

وإذا وُفِّقْتُمْ للكَسْبِ الطَّيِّبِ فاعْلَمُوا أَنَّ مَا كَسَبْتُم مِنَ الطَّيِّباتِ أَمَانَةٌ فِي أَيْدِكُم فلاَ تُنْفِقُوه فِي معْصِيَةِ الله، واعْلَمُوا أنَّه لاَ يُنْجِيكُم الكَسْبُ الطَّيِّبُ مِنْ عذَابِ الله حتَّى يكونَ الإنْفَاقُ أيْضًا فِي مَرْضَاةِ الله، فأَيُّمَا عَبْدٍ أَنْفقَ مَالَ الله فِيمَا حَرَّمَ الله عَذَّبَهُ الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ(٣٦) لِيَمِيزَ الله الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ(٣٧) ﴾[الأنفال]، وكلُّ إنْسانٍ أَنْفقَ مَالَ الله فِيمَا حَرَّمَ الله كَانَ مِنَ الخَاسِرِين.

ثُمَّ يُسْأَلُ العَبْدُ عَنْ عِلمِهِ الَّذي تعلَّمه ماذا عَمِلَ فِيه، فإِنَّ العِلمَ إِنَّمَا يُطْلَبُ مِنْ أَجْلِ العَمل، فإِنْ وُفِّقَ مَنْ تَعَلَّمَ للعَمَلِ كانَ خيرًا لَهُ، وإِنْ تَعَلَّمَ ولم يعْمَلْ كانَ شرًا له، ولذلكَ قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»(١)، يعني حُجَّةٌ لك إِنْ عَمِلتَ به، وحُجَّةٌ علَيكَ إنْ لم تعْمَلْ به، والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ الله أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ(٣) ﴾ [الصف].

وقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ(٤٤) ﴾[البقرة].

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ: «يَقُولُ يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ: فَيَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالمعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المنْكَرِ، فَيَقُولُ: بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالمعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ المنْكَرِ وَآتِيهِ»(٢).

---

(١) م(٢٢٣/ ٢٠٣/ ١)، ت(٣٥٨٣/ ١٩٦ و١٩٧/ ٥)، ن(٥ و٦/ ٥).

(٢) متفق عليه: خ(٣٢٦٧/ ٣٣١/ ٦)، م(٢٩٨٩/ ٢٢٩٠/ ٤).

فيا عِبَادِ الله تعلَّمُوا واعْمَلُوا، فإنَّ الله تعالى أثْنَى على يعْقُوبَ لعَمَلِه بعِلمه، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[يوسف: ٦٨]، «قالَ قتادة: إنَّه لعامِلٌ بمَا عَلِمَ، وقال سُفيَان: مَنْ لا يَعْمَلُ لا يكونُ عالمًا»[1].

وفرّق سُبْحَانَه بيْنَ العالِمينَ العَامِلينَ وغَيْرِ العَامِلينَ فقالَ تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[الزمر: ٩]، «ففي هذه الآيةِ إشْعَارٌ بأَنَّ الَّذينَ يعْلَمُونَ هم العامِلُون بعِلمهم، إذْ عبَّرَ عَنْهم أوَّلاً بـ﴿القَانِتُ﴾ ثُمَّ نَفَى المُسَاواةَ بيْنَه وبَيْنَ غَيْرِه، ليكونَ تأكيدًا له، تصريحًا بأنَّ غَيْرَ العاملِ كأنَّه لَيْسَ بعالمٍ»[2].

فهنيئًا لمن تعلَّم وعَمِل، وعَلِمَ أنَّه مَسْئُولٌ فأعدَّ للسُّؤالِ جوابًا «قَالَ الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ لرَجُلٍ: كَمْ أَتَتْ عليْكَ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنة، قَالَ: فَأَنْتَ مُنْذُ سِتِّينَ سَنةً تَسِيرُ إلى الله يُوشِكُ أَنْ تَبْلُغ، فَقَالَ الرَّجلُ: - إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ- فَقَالَ الفُضَيْلُ: أتَعْرِفُ تَفْسِيرَهُ؟ تَقُولُ: -إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ- فَمَنْ عَرَفَ أَنَّه إِلى الله رَاجِعٌ فَلْيَعْلَمْ أَنَّه مَوْقُوفٌ، ومَنْ عِلَم أَنَّهُ مَوْقُوفٌ فلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مَسْئُولٌ، ومَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ، فَلْيُعِدَّ للسُّؤالِ جَوابًا، فَقَالَ الرَّجل: فَمَا الحِيلَة؟ قال يسِيرةٌ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ تُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ يُغْفَرْ لَكَ مَا مَضَى، فَإِنَّك إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ أُخِذْتَ بِمَا مَضَى ومَا بَقِيَ»[3].

❑ ❑ ❑

(١) جامع البيان (١٥/ ١٣).

(٢) محاسن التأويل (١٩٩/ ١٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (٣٣٤).



عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ**»[1].

هذا ثالثُ حديثٍ وردَ بلفظِ الأوَّليَّة، فقد سبقَ: «**أوَّلُ مَا يُحاسبُ بهِ العبدُ منْ عملهِ يوْمَ القيامةِ صلاتُه**»، و«**إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضى عليْهِ يوْمَ القيامةِ رجلٌ اسْتُشْهِد**»، «وقد يسْبقُ إلى الوَهْمِ أنَّ هذهِ الأحاديثَ مُتعارضةٌ منْ حيْثُ الأوَّليَّةِ المذْكورةِ في كلِّ حديثٍ منها، وليْسَ كذلك، فإنَّهُ إنَّما كانَ يلزمُ ذلكَ لوْ أُريدَ بكلٍّ منها أنَّهُ أوَّلٌ بالنِسْبةِ إلى كلِّ ما يُسْألُ عنه، ويُقْضى فيه، وليْسَ في شيْءٍ من تلْكَ الأحاديثِ ما ينصُّ على ذلك، وإنَّما أرادَ-والله أعلم-أنَّ كلَّ واحدٍ من تلْكَ الأوَّليَّاتِ أوَّلٌ بالنِسْبةِ إلى الَّتي في بابه، فأوَّلُ ما يُحاسبُ بهِ منْ أركانِ الإسلامِ الصَّلاة، وأوَّلُ ما يُحاسَبُ بهِ منَ المظالمِ الدِّماء، وأوَّلُ ما يُحاسَبُ بهِ مِمَّا ينتشِرُ فيهِ صَيْتُ فاعلهِ تلْكَ الأمور، وهذا أوَّلُ ما يُقاربهُ ويُناسِبه، وهكذا تَعْتَبِرُ كلَّ ما يردُ عليْكَ منْ هذا الباب، والله تعالى أعلم»[2].

فإذا فرغَ الله تعالى منْ مُحاسَبَةِ العِبادِ على حقِّهِ أذِنَ لدواوينِ المظالمِ أنْ تُنْصبَ وتُنْشر، و«**الظُّلم ثَلاثَةٌ**: فَظُلم لاَ يَغْفِرُهُ الله، وَظُلم يَغْفِرُه، وَظُلم لاَ يَتْرُكُه، فَأَمَّا الظُّلم الَّذِي لاَ يَغْفِرُهُ الله فَالشِّرْكُ، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلم عَظِيمٌ**﴾ وَأَمَّا الظُّلم الَّذِي يَغْفِرُهُ الله فَظُلم الْعِبَادِ لأَنْفَسِهِمْ فِيمَا بَيْنَهمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَأَمَّا الظُّلم الَّذِي لاَ يَتْرُكُهُ الله فَظُلم الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، حَتَّى يَدِينَ (أي يقتصَّ) لِبَعْضِهِم مِنْ بَعْضٍ»[3].

---

(١) متفق عليه: خ(٦٨٦٤/ ١٨٧/ ١٢)، م(١٦٧٨/ ١٣٠٤/ ٣)، ت(١٤١٦/ ٤٢٧/ ٢)، ن(٨٣/ ٧)، جه(٢٦١٥/ ٨٧٣/ ٢).

(٢) المفهم(٧٤٦و٧٤٧/ ٣).

(٣) حسن: [ص.ج:٣٨٥٦]، الطيالسي(٢/ ٦٠و٦١)، بز(٣٤٣٩/ ١٥٨و١٥٩/ ٤).

كما في الحديثِ عنْ جابرِ بنِ عبدِ الله أنَّ عبدَ الله بنَ أُنيْسٍ حدَّثهُ أنَّهُ سمِعَ النبيَّ ﷺ يقول: «**يَحْشُرُ الله الْعِبَادَ عُرَاةً غُرْلاً بُهْمًا. قُلْنَا: مَا بُهْمًا؟ قَالَ: لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ وَمَنْ قَرُبَ: أَنَا الملِكُ، لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ، وَلاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ. قُلْتُ: كَيْفَ؟ وَ إِنَّمَا نَأْتِي الله عُرَاةً بُهْمًا؟ قَالَ بِالحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ**»(١).

وأوَّلُ ما يُقْضى فيهِ منَ المظالِمِ الدِّماءُ، وذلكَ لِعظيمِ أمْرِها، وكبيرِ خطرِها.

إنَّ النَّفْسَ البشَرِيَّةَ - مُسْلِمةً كانتْ أوْ كافِرةً - معْصُومةُ الدَّم، لا يجوزُ إزْهاقُها، ولا إراقةُ دَمِها إلاَّ بجريرَةٍ ترْتكِبُها:

قالَ الله تعالى: ﴿ **ولاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بِالحَقِّ**(١٥١) ﴾[الأنعام]

وَعَنْ عَبْد الله قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنِّي رَسُولُ الله إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ»(٢).

وقد قتلَ النبيُّ ﷺ مَنْ قتلَ مِنْ غيْرِ المسلمين، ورَجَمَ الزَّانيَ المُحْصَنَ منهم، وأمَّا الكافرُ الباقي على كُفْرِهِ فلا يُقْتلُ إلاَّ إذا قاتل، كما قالَ تعالى: ﴿ **فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**(١٩١) ﴾ [البقرة].

فإذا قتلَ المسْلمُ كافرًا مُسالمًا بلا جريرةٍ حرُمتْ عليْهِ الجنَّة، كما في الحديثِ **عَنْ عَبْد الله ابْنِ عَمْرٍو رَضِي الله عَنْهمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا**

---

(١) حسن: [ص.خد:٧٤٦]، حم(٣٦٥/ ١٥٠/ ٢٤)، ك(٥٧٥/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٦٨٧٨/ ٢٠١/ ١٢)، م(١٦٦٧٦/ ١٣٠٢/ ٣)، د(٤٣٣٠/ ٥/ ١٢)، ن(٩٠و٩١/ ٧)، ت(١٤٢٣/ ٤٢٩/ ٢)، جه(٢٥٣٤/ ٨٤٧/ ٢).

تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»[١].

أمَّا قتْلُ المسْلم بغيْرِ حقٍّ فجريمةٌ نكْراء، شدَّدَ الله تعالى فيها الوعيدَ فقال: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾[الفرقان].

وقالَ تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»[٢].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ الله فِي النَّارِ»[٣].

فالقتْلُ منَ الكبائرِ المُهْلكة، كما في الحديثِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْكَبَائِرُ الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»[٤].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الموبِقَاتِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بِالحقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المحْصَنَاتِ المؤْمِنَاتِ الْغَافلاَتِ»[٥].

فمنْ أرادَ السَّلامةَ فليسْلمِ النَّاسُ منْ يدِه، فقد قالَ ﷺ: «لَنْ يَزَالَ المؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ

---

(١) خ(٣١٦٦/ ٢٦٩/ ٦).

(٢) صحيح: [ص.ت:١٣٩٥]، ت(١٤١٤/ ٤٢٦/ ٢)، ن(٨٢و٨٣/ ٧)، ورواه: جه(٢٦١٩/ ٧٨٤/ ٢) من حديث البراء بن عازب.

(٣) صحيح: [ص.ت:١٣٩٨]، ت(١٤١٩/ ٤٢٧/ ٢).

(٤) خ(٦٦٧٥/ ٥٥٥/ ١١).

(٥) متفق عليه: خ(٢٧٦٦/ ٣٩٣/ ٥)، م(٨٩/ ٩٢/ ١)، د(٢٨٥٧/ ٧٧/ ٨)، ن(٢٥٧/ ٦).

دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»[1].

فإذا سفكَ الدَّمَ الحرامَ ضُيِّقَ عليهِ يومَ القيامةِ، يومَ يأخذُ المقتولُ بيدِهِ ويُطالِبُ ربَّهُ بالقِصاصِ منْه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ الْمَقْتُولُ بِالْقَاتِلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَاصِيَتُهُ وَرَأْسُهُ فِي يَدِهِ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْخَبُ دَمًا، يَقُولُ: يَا رَبِّ قَتَلَنِي! حَتَّى يُدْنِيَهُ مِنَ الْعَرْشِ»[2].

فإنْ كانَ للقاتلِ حسناتٌ أُعْطِيَ منها المقتولُ حتى يرضى، وإنْ لم تكنْ لهُ حسناتٌ حُمِّلَ منْ سيِّئاتِ المقتولِ ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ.

فإذا فرغَ اللهُ تعالى منَ القضاءِ في الدِّماءِ نظرَ في المظالمِ الَّتي دُونها:

ومنْها: القذفُ: فإنَّهُ منَ السَّبْعِ المُهْلكاتِ الَّتي أمرَ النبيُّ ﷺ باجْتنابِها، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٢٣) ﴾[النور].

ومنها: السبُّ: والنَّبيُّ ﷺ يقول: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ»[3].

ومنها: أَكْلُ مالِ اليتيمِ: وهو منَ السَّبْعِ المُهْلكاتِ الَّتي أمرَ النبيُّ ﷺ باجْتنابِها، واللهُ تعالى يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا(١٠) ﴾[النساء].

ومنها: أَكْلُ أَمْوَالِ النَّاسِ بالبَاطِلِ: واللهُ تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا(٣٠) ﴾[النساء].

---

(١) خ(٦٨٦٢/ ١٨٧/ ١٢).

(٢) صحيح: [ص.ن: ٤٠١٠]، ن(٨٥/ ٧)، جه(٢٦٢١/ ٨٧٤/ ٢).

(٣) متفق عليه: خ(٤٨/ ١١٠/ ١)، م(٦٤/ ٨١/ ١)، ت(٢٧٧٣/ ١٣١/ ٤)، جه(٦٩/ ٢٧/ ١)، ن (١٢٢/ ٧).

ومنها: ضَرْبُ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ الضَّرْبَ: عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَجُلاً قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَشْتُمُهُمْ وَأَضْرِبُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ قَالَ: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لاَ لَكَ وَلاَ عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلاً لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمُ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ، قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ الله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ﴾[الأنبياء] الآيَةَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالله يَا رَسُولَ الله مَا أَجِدُ لِي وَلِهَؤُلاَءِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أُشْهِدُكُمْ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ»[١].

ومنها: غَصْبُ الأَرْضِ: والنَّبِيُّ ﷺ يقول: «مَنْ ظَلَمَ قَيْدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[٢]، فليتَّقِ الله كُلُّ جارٍ في حدِّ جَارِه، ومَا غصَبه منه، ولينْظُرْ كُلُّ امرئٍ في حقِّ إخْوانِه وأَخَوَاته ومَا منَعَهم منه.

ومنها: الغِيبَة: وهي ذِكْرُكَ أخاكَ بما يَكْرَه، وهي مِنَ الكبَائِرِ، فَكُلُّ مَنِ اغْتَبْتَه فلَهُ عنْدَكَ مَظْلَمة.

ومنها: النَّمِيمَة: وهي نَقْلُ كلامِ النَّاسِ بعْضِهم فِي بعْضٍ علَى جِهَةِ الإِفْسَادِ بَيْنَهم، وكُلُّ مَنْ أَوْقَعْتَ بَيْنَهم العَدَاوةَ والبَغْضَاءَ بالنَّمِيمَةِ فلَهُم مظَالمُ عِنْدَك.

ومنها: شَهَادَةُ الزُّور: فكُلُّ مَنْ ضَيَّعْتَ حقَّه بشَهادتِكَ فلَهُ عنْدَك مَظْلَمة، وهَكَذا ولا بُدَّ مِنْ رَدِّ هذِه المظَالِمِ يوْمَ القِيامَةِ وإرْضَاءِ الخُصوم، ولَيْسَ ثَمَّ دينَارٌ ولا دِرْهم، إنَّما هِيَ الحَسناتُ والسَّيِّئات: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا المفْلِسُ؟ قَالُوا: المفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ المفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ

(١) صحيح الإسناد: [ص.ت:٣١٦٥]، ت(٣٢١٢/ ٣/ ٥).

(٢) متفق عليه: خ(٣١٩٨/ ٢٩٣/ ٦)، م(١٦١٢/ ١٢٣١/ ٣).

وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[1].

«قَالَ أَحْمَدُ بنُ حَرْبٍ: تُبْعَثُ النَّاسُ يوْمَ القِيَامةِ على ثلاثِ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ أغْنِياء، وفِرْقَةٌ فُقَرَاء، وفِرْقَةٌ أَغْنِياءُ ثُمَّ يصيرُونَ فُقَرَاءُ مَفَاليس فِي شَأْنِ التَّبِعَات. وقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: إِنَّك أَنْ تَلْقَى الله عزَّ وجلَّ بِسَبْعِينَ ذَنْبًا فِيمَا بَيْنَك وبَيْنَه أَهْوَنُ عَلَيْك مِنْ أَنْ تَلْقَاه بذَنْبٍ واحدٍ فِيمَا بَيْنَكَ وبَيْنَ العِبَاد. قَالَ القُرْطُبِيُّ: هذَا صَحِيح، لأَنَّ الله غَنِيٌّ كَرِيمٌ، وابْنُ آدمَ فَقِيرٌ مِسْكِينٌ مُحْتَاجٌ فِي ذلِكَ اليَوْمِ إِلَى حَسَنةٍ وَاحدةٍ يَدْفَعُ بها سَيِّئَةً إِنْ كَانَتْ عليْه حتَّى يَرْجُحَ مِيزانُه فَيَكْثُرَ خَيْرُه وثَوَابُه»[2].

«وَإِذَا تقرَّر هذا، فَيَجِبُ على كُلِّ مُسْلمٍ البدارُ إلى مُحاسَبةِ نَفْسِه، كمَا قَالَ عُمر: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُم قَبلَ أَنْ تُحَاسَبُوا. وإِنَّمَا حِسَابُه لِنَفْسِه أَنْ يتُوبَ عَنْ كُلِّ مَعْصَيةٍ قَبْلَ المَوْتِ تَوْبةً نَصُوحًا، ويَتَدَارِكَ ما فَرَّطَ مِنْ تقْصِيرٍ فِي فَرَائِضِ الله عزَّ وجلَّ، ويَرُدَّ المَظَالِمَ إلى أَهْلِها حَبَّةً حَبَّة، ويَسْتَحِلَّ كُلَّ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ بِلسَانِه وبِيدِه وسَطْوَتِه بقَلْبِه، ويُطيِّبَ قلُوبَهم حتَّى يَمُوتَ ولَمْ يبْقَ علَيْه فَرِيضة ولاَ مَظْلَمَة، فهَذَا يَدْخلُ الجَنَّةَ بغَيْرِ حِسَاب، فَإِنْ مَاتَ قَبْلَ ردِّ المَظَالمِ أَحَاطَ بِهِ خُصَماؤُه، فهذَا يَأْخُذ بيَدِه، وهذَا يَقْبِضُ علَى نَاصِيَتِه، وهذَا يتَعَلَّقُ بلُبَّتِه، وهذَا يقُولُ ظَلَمْتَنِي، وهذَا يقُولُ: شَتَمْتَنِي، وهذَا يقُولُ: اسْتَهْزَأْتَ بِي، وهذَا يقُولُ: ذَكَرْتَنِي فِي الغَيْبَةِ بمَا يَسُوءُنِي، وهذَا يقُولُ: جَاوَرْتَنِي فَأَسَأْتَ جِوَارِي، وهذَا يقُولُ: عَامَلْتَنِي فغَشَشْتَنِي، وهَذَا يقُولُ: بَايعْتَنِي وأَخْفَيْتَ عَنِّي عَيْبَ متَاعِكَ، وهَذَا يقُولُ: كَذَبْتَ فِي سِعْرِ مَتَاعِك، وهَذَا يقُولُ: رَأَيْتَنِي مُحْتَاجًا وكُنْتَ غنِيًّا فَمَا أَطْعَمْتَنِي، وهذَا يقُولُ: وَجَدْتَنِي مَظْلُومًا وكَنْتَ قادِرًا علَى دَفْعِ الظُّلم فدَاهَنْتَ الظَّالِمَ ومَا رَاعَيْتَنِي.

(١) م(٢٥٨١/ ١٩٩٧/ ٤)، ت(٢٥٣٣/ ٣٦/ ٤).

(٢) التذكرة (٣١٤و٣١٥).

فبَيْنَما أنْتَ كَذَلِكَ وقدْ أَنْشبَ الخُصَماءُ فِيكَ مَخَالِبَهم، وأَحْكَمُوا في تَلاَبِيبِكَ أيْدِيَهم، وأَنْتَ مَبْهُوتٌ مُتَحِّيرٌ مِنْ كَثْرَتِهم، حتَّى لَمْ يبْقَ فِي عُمُرِكَ أَحَدٌ عَامَلْتَه على دِرْهَمٍ، أوْ جَالَسْتَه فِي مَجْلِسٍ إلاَّ وقَدْ اسْتَحَقَّ عَلَيْك مَظْلَمَةٌ بَغِيبَةٍ أوْ جِنَايَةٍ أوْ نَظَرٍ بعَيْنِ اسْتِحْقَار، وقَدْ ضَعُفْتَ عَنْ مُقَاوَمَتِهم ومَدْدتَ عُنُقَ الرَّجَاءِ إلَى سيِّدِك ومُوْلاَكَ لَعَلَّهُ يُخَلِّصُكَ مِنْ أَيْدِيهم إذْ قَرَع سَمْعَكَ نِدَاءُ الجَبَّار: ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْم الْيَوْمَ(١٧) ﴾[غافر]، فَعِنْدَ ذلِكَ يَنْخَلِعُ قَلْبُكَ مِنَ الهَيْبَةِ وتُوقِنُ نَفْسُكَ بالبَوَار، وتَتَذَكَّرُ مَا أَنْذَرَكَ الله بِهِ علَى لِسَانِ رسُولِه ﷺ حَيْثُ قال: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ(٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ(٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ الله مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(٤٦) فَلاَ تَحْسَبَنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ الله عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(٤٨) وَتَرَى المجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ(٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ(٥٠) لِيَجْزِيَ الله كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ الله سَرِيعُ الحِسَابِ(٥١) هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ(٥٢) ﴾[إبراهيم].

فَما أَشَدَّ فرَحَكَ اليَوْمَ بِتَمَضْمُضِك بِأَعْرَاضِ النَّاسِ وتَنَاوُلِكَ أَمْوَالَهم، ومَا أَشَدَّ حَسْرَتَك فِي ذَلِكَ اليَوْمِ وَقَدْ وُقِفَ بكَ علَى بِسَاطِ العَدْل، وشُوفِهْتَ بخِطَابِ السَّيِّئَاتِ وأَنْتَ مُفْلِسٌ فَقِيرٌ عَاجِزٌ مَهِين، لا تَقْدِرُ أَنْ تَرَدَّ حقًا أوْ تُظْهِرَ عُذْرًا، فعِنْدَ ذلِكَ تُؤْخَذُ حَسَنَاتِكَ الَّتي تَعِبْتَ فيها عُمُرَكَ، وتَنْتَقِلُ إلى خُصُومِكَ عِوَضًا عَنْ حُقُوقِهم كما وردَ فِي الأحَادِيث عَنْ النَّبيِّ ﷺ »(١).

(١) التذكرة (٢٧٠و٢٧١).

فاتَّقِ الله فِي نَفْسِكَ وفِي النَّاس، واعْلَمْ أَنْ الظُّلم حَرَام، كَمَا فِي الحديثِ القُدسِيِّ أَنَّ الله تعالى قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي»(١).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٢).

وقَدْ توعَّدَ الله بالانْتِقَامِ مِنَ الظَّالِمِينَ وَلَوْ بعْدَ حِينٍ فَقَالَ تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(٤٢)﴾[إبراهيم].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢)﴾[هود]»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ المصِيرُ(٤٨)﴾[الحج].

فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ، وخُذُوا حِذْرَكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ(٨٩)﴾[هود]، وتَحَلَّلوا مِنَ المَظَالِمِ فِي الدُّنْيا مَادُمْتُم قَادِرِينَ على ذَلِكَ وفِي العُمُرِ بَقِيَّةٌ، فبِذَلِكَ وَصَّاكم خَيْرُ البَرِيَّة فقال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلله مِنْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»(٤).

❑ ❑ ❑

---

(١) م(٢٥٧٧/ ١٩٩٤/ ٤)، ت(٢٦١٣/ ٦٧و٦٨/ ٤).

(٢) م(٢٥٧٨/ ١٩٩٦/ ٤).

(٣) متفق عليه: خ(٤٦٨٦/ ٣٥٤/ ٨)، م(٢٥٨٣/ ١٩٩٧/ ٤)، ت(٥١١٠/ ٣٥١/ ٤)، جه(٤٠١٨/ ١٣٣٢/ ٢).

(٤) خ(٢٤٤٩/ ١٠١/ ٥)، ت(٢٥٣٤/ ٣٦/ ٤).

الميزان

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله الْعَظِيمِ»[1].

«قالَ العُلماء: إذا انْقضى الحسابُ كانَ بعْدهُ وزْنُ الأعْمال، لأنَّ الوزْنَ لِلجزاءِ فينْبغي أنْ يكونَ بعدَ المُحاسَبة، فإنَّ المُحاسبَةَ لِتقْديرِ الأعْمال، والوزْنَ لإظْهارِ مقاديرِها، ليكونَ الجزاءُ بحسَبِها»[2].

«والميزانُ ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجْماعِ الأُمَّة»[3]: قالَ تعالى: ﴿وَنَضَعُ المَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(٤٧)﴾[الأنبياء]، وقالَ تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ(٨)وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ(٩)﴾[الأعراف]، وقالَ تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ(١٠٢)وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(١٠٣)﴾[المؤمنون]، وقالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(٧)وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨)فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩)وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ(١٠)نَارٌ حَامِيَةٌ(١١)﴾ [القارعة].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله الْعَظِيمِ».

---

(١) متفق عليه: خ(٦٤٠٦/ ٢٠٦/ ١١)، م(٢٦٩٤/ ٢٠٧٢/ ٤)، ت(٣٥٣٤/ ١٧٤/ ٥).

(٢) التذكرة (٣٠٩).

(٣) لوامع الأنوار البهية (١٨٤/ ٢).

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالحَمْدُ لله تَمْلأُ المِيزَانَ»[1].

وَعَنْ سَلمانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُوضَعُ المِيزَانُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ الملائِكَةُ: يَا رَبِّ! لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟! فَيَقُولُ الله تَعَالَى: لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي»[2].

«وقالَ أبو إسْحاقَ الزَّجاج: أجْمَعَ أهلُ السُّنَّةِ على الإيمانِ بالميزانِ، وأنَّ أعْمالَ العِبادِ تُوزنُ يوْمَ القيامة، وأنَّ الميزانَ لهُ لسانٌ وكفَّتان،ويميلُ بالأعْمال»[3].

وقد اختلفَ العُلماءُ فيما يُوزنُ يوْمَ القيامة، «قالَ الطِّيبيُّ: قيلَ إنَّما توزنُ الصُّحف، وأمَّا الأعْمالُ فإنَّها أعْراضٌ فلا توصَفُ بثِقَلٍ ولا خِفَّة، والحقُّ عندَ أهْلِ السُّنَّةِ أنَّ الأعمالَ حينئذٍ تُجسَّدُ أوْ تُجْعلُ في أجْسامٍ، فتصيرُ أعْمالُ الطَّائعينَ في صورةٍ حسَنة، وأعْمالُ المسيئينَ في صورةٍ قبيحَةٍ ثُمَّ تُوزن»[4].

والدَّليلُ على أنَّ الأعْمالَ تُجسَّدُ قوْلُ النبيِّ ﷺ في حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ في صِفةِ التَّوفِّي وسُؤالِ القبْر، فإنَّهُ ﷺ قالَ في المؤمنِ «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يجيءُ بالخيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»[5].

وفيهِ أيْضًا أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ في حقِّ الكافرِ «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ،هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ.فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ

(١) م(٢٢٣/ ٢٠١/ ١)، ت(٣٥٨٣/ ١٩٦/ ٥)، ن(٥و٦/ ٥).

(٢) م(٢٢٣/ ٢٠٣/ ١)، ت(٣٥٨٣/ ١٩٦و١٩٧/ ٥)، ن(٥و٦/ ٥).

(٣) فتح الباري (٥٣٨/ ١٣).

(٤) المصدر السابق (٥٣٩/ ١٣).

(٥) صحيح: [أحكام الجنائز: ١٥٩]، حم(٥٣/ ٧٤/ ٧)، د(٤٧٢٧/ ٨٩-٩٢/ ١٣).

الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الخَبِيثُ»[١].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ»[٢]، «أي يُشفِّعُهما الله فيهِ ويُدْخلهُ الجنَّة. قالَ المناويُّ: «وهذا القوْلُ يحْتملُ أنَّهُ حقيقة، بأنْ يُجسَّدَ ثوابُهما ويخْلُقَ الله فيهِ النُّطْقَ، والله على كلِّ شيءٍ قدير، ويحْتملُ أنَّهُ على ضرْبٍ منَ المجازِ والتَّمْثيل»[٣].

قالَ الألْبانيُّ: والأوَّلُ هوَ الصَّوابُ الَّذي ينْبغي الجزْمُ بهِ هنا وفي أمْثالهِ منَ الأحاديثِ الَّتي فيها تجْسيدُ الأعْمالِ ونحْوِها، كمثلِ تجْسيدِ الكنْزِ شُجاعًا أقْرع، ونحْوُهُ كثير، وتأويلُ مثْلِ هذهِ النُّصوصِ ليْسَ منْ طريقةِ السَّلفِ رضيَ الله عنهم، بلْ هو طريقةُ المُعْتزلةِ ومنْ سلكَ سبيلَهم منَ الخلف، وذلكَ ممَّا يُنافي أوَّلَ شُروطِ الإيمان، ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ[٤]﴾ [البقرة]، فحذارِ أنْ تحْذُوَ حذْوَهم فتضِلَّ وتشْقى، والعِياذُ بالله تعالى»[١]

وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[٥].

---

(١) صحيح: [أحكام الجنائز: ١٥٩]، حم(٥٣/ ٧٤/ ٧)، د(٤٧٢٧/ ٨٩-٩٢/ ١٣).

(٢) حسن صحيح: [ص.تغ: ٩٨٤]، حم(١١/ ٢١٦/ ٩)، ك(٥٥٤/ ١).

(٣) فيض القدير (٢٥٢/ ٣).

(٤) هامش: [ص.تغ: ٩٨٤].

(٥) م(٨٠٥/ ٢٥٤/ ١)، ت(٣٠٤٥/ ٢٣٥/ ٤).

قالَ الترْمِذِيُّ: «ومعْنى هذا الحديثِ عنْدَ أهْلِ العلم أنَّهُ يجيءُ ثوابُ قراءتِه، وفي الحديثِ ما يدُلُّ على ما فسَّروا، إذْ قالَ النبيُّ ﷺ: «وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا»، ففي هذا دلالَةٌ أنَّهُ يجيءُ ثوابُ العمل».

قالَ الحافظُ الحكميُّ: «فأمَّا أنْ يُقالَ: إنَّ الآتِيَ هو كلامُ الله نفْسُهُ فحاشا وكلاَّ، ومعاذَ الله، لأنَّ كلامَهُ تعالى صِفتُهُ، ليْسَ بمخْلُوقٍ، والَّذِي يُوضعُ في الميزانِ هوَ فِعْلُ العبْدِ وعملُه، ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ[٩٦]﴾[الصافات]»[1].

فإذا ثبتَ أنَّ الأعْمالَ تُجسَّدُ يوْمَ القيامةِ فلْيُعْلمْ أنَّها لا توزنُ وحْدها، وإنَّما توزنُ الأعْمالُ، وصحائفُها، والعاملُ نفْسُه، وقد صرَّحتِ الأحاديثُ بهذا كلِّه، ولا تعارُضَ بيْنها، والحمدُ لله.

فمِمَّا يدُلُّ على وزْنِ الأعْمالِ قوْلُهُ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، والحمْدُ لله تَمْلأُ المِيزَانَ»[2]، وقوْلُهُ ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»[3].

ومِمَّا يدُلُّ على وزْنِ الصُّحُفِ قوْلهُ ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاًّ، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافِظُونَ؟ فَيَقُولُ لاَ يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ لاَ يَا رَبِّ! فَيَقُولُ بَلَى! إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلم عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ

(١) معارج القبول (٢١٩/ ٢).

(٢)،(٣) سبقا قريبًا.

الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ»(١).

ومما يدلُّ علَى وَزنِ العَامِلِ نَفْسِه مَا رَوَاه أَحْمَدُ عَنْ عليٍّ أنَّ ابْنَ مسْعودٍ صعِدَ شجرةً يجْتني الكَبَّاثَ، فجعلَ النَّاسُ يعْجبونَ منْ دِقَّةِ ساقيْه، فقالَ النبيُّ ﷺ: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! إِنَّهُمَا فِي الميزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ اقْرَءُوا ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥)﴾[الكهف]»(٣).

وهكذا «ثبتَ وزْنُ الأعْمالِ والعاملِ وصحائفِ الأعْمال، وثبتَ أنَّ الميزانَ لهُ كفَّتان، والله تعالى أعلمُ بما وراءَ ذلكَ منَ الكيْفِيَّات، فعليْنا الإيمانُ بالغيْبِ كما أخْبرنا الصَّادقُ المصْدوقُ ﷺ منْ غيْرِ زيادةٍ ولا نُقْصان، والحذَرُ كلُّ الحذَرِ منْ نفْيِ ذلكَ لخفاءِ الحِكْمةِ منه، فلوْ لم يكنْ منَ الحكمةِ في وزْنِ الأعْمالِ إلاَّ ظُهورُ عدْلِهِ سبْحانهُ لجميعِ عباده، فإنَّهُ لا أحدٌ أحبَّ إليْهِ العُذْرُ منَ الله، منْ أجْلِ ذلكَ أرْسلَ الرُّسلَ مُبشِّرينَ ومُنْذرين، فكيْفَ ووَراءَ ذلكَ منَ الحكمِ ما لا اطِّلاعَ لنا عليْه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾[البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء]»(٤).

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢٦٣٩]، ت(٢٧٧٦/ ١٣٣و١٣٤/ ٤)، جه(٤٣٠٠/ ١٤٣٧/ ٢).

(٢) صحيح: [ص.خد:١٧٦]، حم(٢٩٠/ ٣١٢/ ٢٢).

(٣) خ(٤٧٢٩/ ٤٢٦/ ٨)، م(٢٧٨٥/ ٢١٤٧/ ٤).

(٤) شرح الطحاوية (٤٧٥).

ونتائجُ الوزْنِ ثلاثة:

- فمنْ رجحتْ حسناتُهُ دخلَ الجنَّة.
- ومنْ رجحتْ سيِّئاتُهُ دخلَ النَّار.
- ومنِ اسْتوتْ حسناتُهُ وسَيِّئاتُهُ منعتْهُ حسناتُهُ منْ دُخولِ النَّار، ومنعتْهُ سَيِّئاتُهُ منْ دُخولِ الجنَّة، فيُوقفُ على سُورٍ بيْنَ الجنَّةِ والنَّار، حتَّى يعْفُوَ عنْهُ العزيزُ الغفَّار، ويأْذنَ لهُ في دُخولِ الجنَّةِ معَ الأبْرار.

قالَ القُرْطُبيُّ: «قالَ عُلماؤنا -رحمهمُ الله-: النَّاسُ في الآخِرةِ ثلاثُ طبقات: مُتَّقونَ لا كبائرَ لهم، ومُخَلِطونَ وهمُ الَّذينَ يُوافُونَ بالْفواحشِ والكبائر، والثَّالثُ الكفَّار.

فأمَّا المُتَّقونَ فإنَّ حسناتِهم تُوضعُ في الكفَّةِ النَّيِّرَة، وصغائرَهم إنْ كانتْ لهم في الكفَّةِ الأخْرى، فلا يجْعلُ الله لتلْكَ الصَّغائرِ وزْنًا، وتثْقلُ الكفَّةُ النَّيِّرَةُ حتَّى لا تبْرح، وترْتفِعُ المُظْلمةُ ارْتفَاعَ الفارغِ الخالي.

وأمَّا المُخْلطونَ فحسناتُهم تُوضعُ في الكفَّةِ النيِّرةِ، وسيِّئاتِهم في الكفَّةِ المُظلمة، فيكونُ لكبائرِهم ثِقَلٌ، فإنْ كانتِ الحسناتُ أثْقلَ ولوْ بصُؤابةٍ دخلَ الجنَّة، وإنْ كانتِ السَّيِّئاتُ أثْقلَ ولو بصؤابةٍ دخلَ النَّارَ إلاَّ أنْ يعْفُوَ الله، وإنْ تساويا كانَ منْ أصْحابِ الأعْراف.

هذا إنْ كانتِ الكبائرُ فيما بيْنهُ وبيْنَ الله، وأمَّا إنْ كانتْ عليْهِ تبِعاتٌ وكانتْ لهُ حسناتٌ كثيرةٌ فإنَّهُ يُنقصُ منْ ثوابِ حسناتهِ بقدْرِ جزاءِ السَّيِّئاتِ لكثْرةِ ما عليْهِ منَ التَّبِعات، فيُحْملُ عليهِ منْ أوْزارِ منْ ظلمهُ ثمَّ يُعذَّبُ على الجميع»[1].

---

(١) التذكرة (٣١٤).

كما في الحديثِ عَنْ عائِشَة أَنَّ رَجُلاً قَعَدَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله! إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يُكَذِّبُونَنِي، وَيَخُونُونَنِي، وَيَعْصُونَنِي وَأَشْتُمُهُمْ، وَأَضْرِبُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُم؟ قَالَ: يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا لاَ لَكَ ولاَ عَلَيْكَ وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلاً لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمُ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ. قَالَ: فَتَنَحَّى الرَّجُلُ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَهْتِفُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ الله ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا(٤٧) ﴾[الأنبياء] الآيَةَ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: وَالله يَا رَسُولَ الله مَا أَجِدُ لِي وَلِهَؤُلاَءِ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ مُفَارَقَتِهِمْ، أُشْهِدُكُمْ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ»[1].

«وأمّا الكافرُ فإِنَّهُ يُوضعُ كُفْرهُ في الكفَّةِ المُظْلمةِ، ولا يوجدُ لهُ حسنةٌ توضعُ في الكفَّةِ الأخرى، فتبْقى فارغةً لفراغِها وخُلوِّها عنِ الخيْرِ، فيأمرُ الله بهم إلى النَّار، ويُعذِّبُ كلَّ واحدٍ منهم بقدْرِ أوْزارهِ وآثامِه»[2].

وأمّا أصْحابُ الأعْرافِ فيقومونَ عليهِ- وهوَ سُورٌ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ- فإذا رأَوْا أهْلَ الجنَّةِ حيُّوهم بالسَّلامِ، كما قالَ تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاً بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ(٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(٤٧) ﴾ [الأعراف].

وفي نهايةِ المطافِ يتغَمَّدُهمُ الله برحْمتهِ، ويقولُ لهم: ﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ(٤٩) ﴾[الأعراف].

(١) صحيح الإسناد: [ص.ت:٣١٦٥]، ت(٣٢١٢/٣/ ٥).

(٢) التذكرة (٣١٥).

فليجْتهدِ المُجْتهدونَ في الحسناتِ حتَّى تثْقُلَ موازينُهم فيُدْخِلُهم ربُّهمُ الجنَّة، وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ ما يُثقِّلُ الموازينَ يوْمَ القيامة، ومنْهُ بلْ أعْظمُهُ التَّوْحيد، فمنْ قالَ لا إلهَ إلاَّ الله خالِصًا مُخْلِصًا بها قلْبُهُ ثقُلَ ميزانُه، كما في حديثِ صاحبِ البطاقة.

ومنْهُ : الخُلُقُ الحسنُ، كما في الحديثِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ المؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»[1]، وحُسْنُ الخُلقِ شيْءٌ هيِّن، طلاقةُ الوجْهِ، وقوْلٌ ليِّن.

ومنْهُ قوْلُ : الحَمْدُ لله، كما في الحديثِ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ، والحمْدُ لله تَمْلأُ الميزَانَ»[2].

ومنْهُ قوْلُ: سُبْحانَ الله وبحَمْده، سُبْحانَ الله العظيم، كما في الحديثِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله الْعَظِيمِ»[3].

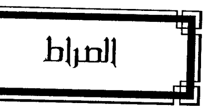
فنسْأَلُ الله العظيمَ ربَّ العرْشِ العظيمِ أنْ يُحسِّنَ أخلاقَنا، وأنْ يُعينَنا على ذكْرِهِ وشُكْرِهِ وحُسْنِ عِبادته، إنَّهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليْه.

❑ ❑ ❑

(١) صحيح: [ص.ت:٢٠٠٢]، ت(٢٠٧٠/ ٢٤٥/ ٣)، د(٤٧٧٨/ ١٥٥/ ١٣).

(٢) سبق مرارًا.

(٣) سبق مرارًا.



الصراط

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَحُذَيْفَةَ قَالاَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ الْمؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الجنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الجنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجنَّةِ إِلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ، قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللهِ وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالْبَرْقِ، قَالَ: قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي! أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ الْبَرْقِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ! ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ، وَشَدِّ الرِّجَالِ تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ! حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلاَ يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلاَّ زَحْفًا، وَفِي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلاَلِيبُ مُعَلَّقَةٌ، مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ، وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي هُرَيْرَةَ بِيَدِهِ إِنَّ قَعْرَ جَهَنَّمَ لَسَبْعُونَ خَرِيفًا»[1].

إذا فرغَ الله تعالى منْ مُحاسبَةِ العِباد، وَوُزِنتِ الأعْمالُ، وظهرتِ النَّتائجُ، لمْ يبْقَ إلاَّ أنْ ينالَ كلٌّ جزاءَه، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ⁽¹⁵⁾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ⁽¹⁶⁾ ﴾[الروم].

وقالَ تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنَّةُ لِلمتَّقِينَ⁽⁹⁰⁾ وَبُرِّزَتِ الجحِيمُ لِلْغَاوِينَ⁽⁹¹⁾ ﴾[الشعراء].

---

(١) م(١٩٥/١٨٦و١٨٧/١).

وقالَ تعالى: ﴿ وَإِذَا الجحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الجنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) ﴾[التكوير].

وقالَ تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) ﴾[الكهف].

وقال تعالى: ﴿ وَرَأَى المجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) ﴾[الكهف].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ الله وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (٤٦) ﴾[الشورى].

وهكَذَا يَتَمَنَّى الظَالِمُونَ العوْدَةَ إِلَى الدُّنْيا مَخَافَةَ دُخُولِ النَّار، أَمَّا أَهْلُ الجنَّةِ فإِنَّهم حِينَ رَأَوْها وأُزْلِفَتْ مَنْهم اشْتَاقُوا إِلَيْها، وقَامُوا إِلَى الأَنْبِيَاءِ يسْتَشْفِعُونَ بِهم لِيأْذَنَ لَهم رَبُّهم في دُخُولِها، «فَيأْتُونَ آدَمَ، فَيقُولُونَ يا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الجنَّةَ، فَيقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الجنَّةِ إلاَّ خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ؟ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِك، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الله، قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلاً مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى عليه السلام الَّذِي كَلَّمَهُ الله تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى عليه السلام فَيقُول: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِك، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ الله وَرُوحِهِ، فَيَقُولُ عِيسَى عليه السلام : لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِك، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ ،فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ»، أَيّ تُقْبَلُ شفاعَتُه فِي أَنْ يَدْخلُوها، ولَيْسَ لها طَرِيقٌ يُوَصِّلُ إليها إلاَّ طريقَ جهنَّم، فلا يسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يدْخُلَ الجنَّةَ إلاَّ مِنَ النَّار، ولِذَلِكَ يُوضَعُ الصِّرَاط، ومَا أَدْرَاكَ مَا الصِّرَاط، أَدَقُّ مِنَ الشَّعْر، وأَحَدُّ من السَّيف، دَحْضٌ مَزَلَّة، علَى جَانِبَيهِ كَلاَلِيبُ وخَطَاطِيف، وحَسَكٌ كَشَوْكِ السَّعْدَان، لا تَثْبُتُ علَيْه الأَقْدَامُ إلاَّ أَقْدَامُ الَّذِين ثَبَّتَهم الله بالقَوْلِ الثَّابتِ فِي الحيَاةِ الدُّنْيا وفِي الآخرة،

وأَمَّا الَّذِين ضَلَّ سَعْيُهم فِي الحياةِ الدُّنْيا فَإِنَّهم ما أَنْ يَضَعُوا أَقْدَامَهم حتَّى تَزِلَّ، وتَتَخَطَّفَهم الكَلاَلِيبُ مِنَ الجانِبَيْنِ، فَيُكَرْدَسُونَ فِي جَهنَّم.

والإيمَانُ بِالصِّرَاطِ وَاجِب، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا(٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا(٧٢) ﴾[مريم].

وَعَنْ السُّدِّيِّ قَالَ: سَأَلْتُ مُرَّةَ الهَمْدَانِيَّ عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ فَحَدَّثَنِي أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ مَسْعُودٍ حَدَّثَهُمْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَأَوَّلُهُمْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ، ثُمَّ كَالرِّيحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ ثُمَّ كَمَشْيِهِ»(١).

ولِذَلِكَ نَصَّ عَلَى وُجُوبِ الإيمانِ بِهِ كُلُّ مَنْ كَتَبَ فِي عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعة.

قَالَ السَّفَارِينِيُّ فِي مَنْظُومَتِه: «الدُّرَّةُ المُضِيَّةُ»:

واجْـزِمْ بِأَمْـرِ البَعْـثِ والنُّشُـورِ	والحَشْرِ جَزْمًـا بَعْـدَ نَفْـخِ الصُّـورِ
كَـذَا وُقُـوفِ الخَلْـقِ للحِسَـابِ	والصُّـحفِ والمِيـزَانِ للثَّـوابِ
كذَا الصِّراطِ ثُمَّ حَوْضِ المُصْطَفَى	فَيَـا هَنَـا لِمَـنْ بِـهِ نَـالَ الشِّفَـا »(٢).

وقَالَ الحَافِظُ الحَكَمِيُّ فِي مَنْظُومَتِه سُلَّم الوُصُول:

ويُنْصَـبُ الجِسْرُ بِـلاَ امْـتِرَاءِ	كَـمَا أَتَـى فِي مُحْكَـمِ الأَنْبَـاءِ
يَجُـوزُهُ النَّـاسُ عَـلَى أَحْـوَالِ	بِقَـدْرِ كَسْـبِهِمُ مِـنَ الأَعْـمَالِ
فَبَـيْنَ مُجْتَـازٍ إِلَى الجِنَـانِ	وَمُسْرِفٍ يُكَـبُّ فِي النِّـيرَانِ »(٣).

---

(١) صحيح: [ص.ت:٣١٥٩]، ت(٥١٦٨/ ٣٧٨/ ٤).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١٥٧و١٦٧و١٨٩/ ٢).

(٣) معارج القبول (٢٢١/ ٢).

وقَالَ الإمَامُ الطَّحَاوِيُّ: «ونُؤْمِنُ بالبَعْثِ وجَزَاءِ الأَعْمَالِ يَوْمَ القِيَامة، والعَرْضِ والحِسَابِ، وقِرَاءةِ الكِتَابِ، والثَّوَابِ والعِقَابِ، والصِّراطِ والميزَانِ»(١).

«والصِّرَاطُ فِي اللُّغَةِ: الطَّرِيقُ الوَاضِح، وهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ: سَرِطْتُ الشَّيْء -بِكَسرِ الرَّاء- إِذَا ابْتَلَعْتَه، لأَنَّه يَبْتَلِعُ المَارَّة، كَمَا أَنَّ الطَّرِيقَ كَذَلِكَ، أَي يُغَيِّبُهم. وفِي الشَّرْعِ: جِسْرٌ مَمْدُودٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّم، يَرِدُهُ الأَوَّلُون والآخِرُون، فَهُوَ قَنْطَرَةُ جَهنَّم بَيْنَ الجنَّةِ والنَّار»(٢).

فإذا أَرَادَ الله عزَّ وجلَّ لأَهْلِ الجنَّةِ أَنْ يَجُوزُوهُ إِلَيْها مَيَّزَ بَيْنَ الأُمَمِ أَوَّلاً، وَفَصَلَ بَيْنَهم، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا المجْرِمُونَ(٥٩) ﴾[يس]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ(٢٨) ﴾[يونس].

وقَدْ بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ كَيْفَ يَتِمُّ هذَا التَّمْيِيزُ فقَال: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلاَ يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ الله سُبْحَانَهُ -مِنَ الأَصْنَامِ وَالأَنْصَابِ- إِلاَّ يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ، فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ المسِيحَ ابْنَ الله، فَيُقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ الله مِنْ صَاحِبَةٍ وَلاَ وَلَدٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟ فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلاَ تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ،

(١) العقيدة الطحاوية: تعليق الألباني (٥١).

(٢) لوامع الأنوار البهية (١٨٩/ ٢).

(وفِي رِوايةٍ: وَتَبْقَى هَذِه الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوها) حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الله تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا، قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، قَالُوا يَا رَبَّنَا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: نَعُوذُ بِالله مِنْكَ لاَ نُشْرِكُ بِالله شَيْئًا- مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثًا- حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا ؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لله مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلاَّ أَذِنَ الله لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلاَّ جَعَلَ الله ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ أَنْتَ رَبُّنَا ثُمَّ يُضْرَبُ الجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، قِيلَ يَا رَسُولَ الله! وَمَا الجِسْرُ؟ قَالَ: دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ المؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»[1].

وهكَذَا يُمَيِّزُ الله الأُمَمَ، وتَبْقَى هذِه الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوها، وهم لَمْ يَكُونُوا يعْبُدونَ الله، ولَكنَّهم ظنُّوا أَنَّ بقاءَهم مع المُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ينْفَعُهم فِي الآخرةِ كمَا نَفَعَهم فِي الدُّنْيا، حَيْثُ عَصَمُوا دمَاءَهم وأَمْوَالَهم بإظْهَارِ الإسْلاَم، فأَقَرَّهم الله علَى بقَائِهم خِداعًا واسْتِهْزَاءً، ثُمَّ أَعْطَاهُم جَمِيعًا نُورًا ليجُوزُوا فِيهِ الصِّرَاط، فجَازَ المُؤْمِنُونَ الصَّادِقُون، وبَيْنَمَا المُنَافِقُونَ فِي وَسَطِ الجِسْرِ أُطْفِئَتْ أَنْوَارُهم فوَقَعُوا فِي النَّار:

«عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: يُعْطَى المُؤْمنُونَ نُورَهم علَى قَدْرِ أَعْمَالِهم، فمِنْهم مَنْ يُعْطَى نُورَه مثْلَ النَّخْلة، ومَنْهم مَنْ يُعْطَى دُونَ ذلِك، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ مَنْ يُعْطَى نُورَه على إِبْهَامِ قَدمِه،

(١) متفق عليه: خ(٧٤٣٩/ ٤٢٠-٤٢٢/ ١٣)، م(١٨٣/ ١٦٧-١٧١/ ١).

يُضِيءُ مرَّةً ويَنْطَفِئُ مرَّة، إذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَه، وإذَا انْطفَأَ قَامَ، فيمرُّونَ علَى الصِّراطِ كَحَدِّ السَّيْف، دَحْضٌ مَزلَّة، فيُقالُ لهم امْضُوا على قَدْرِ نُورِكم، فَمِنْهم مَنْ يَمرُّ كانْقِضَاضِ الكَوْكَب، ومَنْهم مَنْ يَمرُّ كالرِّيح، ومَنْهم مَنْ يمرُّ كالطَّرْف، ومَنْهم مَنْ يَمرُّ كشدِّ الرَّجلُ، ويَرْجلُ رَجْلاً، حتَّى يمرَّ الَّذي نُورُه على إبْهَام قَدَمه، تخرُّ يدٌ، وتعْلُو يد، وتخرُّ رِجْلٌ، وتعْلُو رِجْل، وتُصِيبُ جَوَانِبَه النَّار. وقَالَ الضَّحاكُ: لَيْسَ أحدٌ إلاَّ يُعْطَى يَوْمَ القِيامَةِ نُورًا، فإذَا انْتَهَوْا إلَى الصِّراطِ أُطْفِئَ نُورُ المُنَافِقِين، فَلَمَّا رَأى المُؤْمِنُونَ أَشْفَقُوا أَنْ يُطْفَأَ نُورُهم، كمَا أُطْفِئَ نُورُ المُنَافِقِين، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا(٨) ﴾[التحريم].

وعَنْ سُلَيْمِ بنِ عَامِرٍ قَالَ: خَرَجنا علَى جَنَازةٍ فِي بَابِ دِمشق، ومَعْنَا أَبُو أُمَامَةَ البَاهِلِي، فَلَمَّا صلَّى علَى الجَنَازة، وأَخَذُوا في دَفْنِها قَالَ: يا أيُّها النَّاسُ إنَّكم أصْبَحْتُم وأَمْسَيْتُم فِي مَنْزِلٍ تَقْتَسِمُونَ فِيه الحَسناتِ والسَّيِّئات، وتُوشِكُونَ تَظْعَنُوا منْه إلَى مَنزِلٍ آخر، وهو هذا - يُشِيرُ إلَى القَبْرِ - بيْتِ الوَحْدَة، وبَيْتِ الظُّلمة، وبيْتِ الدُّود، وبيْتِ الضِّيق، إلاَّ ما وَسَّعَ الله علَيْه، ثُمَّ تَنْتَقِلُونَ مِنْه إلَى مَواطنِ يَوْمِ القِيَامَة، فِي بَعْضِ تلْكَ المَواطنِ يغْشَى النَّاسَ أَمْرٌ مِنْ أَمْرِ الله، فتَبيَضُّ وجوهٌ، وتَسْودُّ وجوه، ثُمَّ تَنْتَقِلُونَ مِنْه إلى منزلٍ آخرَ يغْشَى النَّاسَ ظُلمةٌ شديدة، ثُمَّ يُقْسَمُ النُّور، فيُعْطَى المؤمِنُ نُورًا وَيُتْرَكُ الكافِرُ والمُنَافِق، وهُوَ المَثَلُ الَّذي ضَرَبَه الله في كِتَابِه: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ الله لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ(٤٠) ﴾[النور]، لا يسْتضِيءُ الكَافِرُ والمُنَافِق بنُورِ المُؤْمِن، كمَا لا يسْتَضِيءُ الأعْمَى بِبَصَرِ البَصِير، ويقُولُ المُنَافِقُونَ للذين آمنوا: ﴿ انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا(١٣) ﴾[الحديد]، وهِيَ خِدْعَةُ الله الَّتي خَدَعَ بِها المُنَافِقِين، حَيْثُ قال: ﴿ يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ(١٤٢) ﴾[النساء]، فيَرْجِعُونَ إلى المكانِ الَّذي قُسِمَ فِيه النُّور، فلاَ يَجِدُونَ شيْئًا، ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ(١٣) ﴾[الحديد]»[1].

---

(١) الفتن والملاحم(٢٦٥و٢٦٧) باختصار.

وقَدْ اخْتُلِفَ في مَعْنَى الورُودِ المَذْكُورِ فِي قولِه تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا[٧١] ﴾[مريم]، فقَالَ ابْنُ عبَّاس: الورُودُ الدُّخُول، وقِيلَ الجَوازُ على الصِّرَاط، لأنَّه جِسْرٌ مَنْصُوبٌ علَى مَتْنِ جَهنَّم. وقِيلَ الورُودُ هُوَ الإِشْرافُ علَيْها والقُرْبُ مِنْها. وقيل: حظُّ المُؤْمِن مِنْ ذلِكَ الورُودِ هو حرُّ الحُمَّى في دارِ الدُّنْيا. والصَّحِيحُ قَوْلُ ابنِ عبَّاسٍ ومَنْ وافقَه أَنَّ الورُودَ هو الدُّخُولُ، لأَنَّ كلَّ ما جَاءَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ فِي ورُودِ النَّاسِ جَاءَ بمَعْنَى الدُّخُول، كقَوْلِهِ تَعالَى فِي فِرْعَوْنَ وملئه: ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ[٩٨] ﴾ [هود]، وكقوله تعالى للكافرين: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ[٩٨] لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ[٩٩] ﴾ [الأنبياء]، وخَيْرُ ما يُفَسِّرُ به القُرْآنُ القُرْآن. ثُمَّ إِنَّ فِي الآيةِ نَفْسِها مَا يدلُّ على أَنَّ المُرادَ بالورُودِ الدُّخُول، وهو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا[٧٢] ﴾[مريم]، فهذا دليلٌ علَى أَنَّ ورُودَهم لها دُخولُهم فيها، إذْ لَوْ لَمْ يدْخلُوها لَمْ يقُلْ: ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا ﴾، بَلْ يقولُ: ونُدْخِلُ الظَّالِمِين»[١].

ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ فسَّرَ الآيَةَ على ظَاهِرِها، فقَالَ: «يَرِدُ النَّاسُ النَّارَ ثُمَّ يَصْدُرُونَ مِنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ»[٢]، وهوَ ﷺ الَّذي وَكَلَ إلَيْهِ ربُّهُ مُهِمَّةَ البيانِ لما أُنْزِلَ علَيْه، فلا بيانَ أَحْسنُ منْ بيانِه، وقد أقرَّ ﷺ حفْصةَ على ما فهِمتْهُ من الآيَة، وأَنَّهُ لا يبْقى برٌّ ولا فاجر، ولا تقيٌّ ولا ظالمٌ إلاَّ دخلها:

عَنْ أُمِّ مُبَشِّرٍ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ عِنْدَ حَفْصَةَ: «لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا». قَالَتْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ! فَانْتَهَرَهَا، فَقَالَتْ حَفْصَةُ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾»[٣].

---

(١) انظر التذكرة (٣٣٣-٣٣٥)، وأضواء البيان (٣٤٨-٣٥٣/ ٤).

(٢) سبق تخريجه أول الموضوع.

(٣) م(٢٤٩٦/ ١٩٤٢/ ٤).

«ففي تمسُّكِها بعمومِ الآيةِ دليلٌ على أنَّ ﴿ مِنكُمْ ﴾ للعُمومِ عندهم، وأنَّ ذلكَ معْروفٌ من لُغتِهم، وانْتِهارُ النبيِّ ﷺ لها تأديبٌ لها وزجْرٌ عنْ بادرةِ المُعارَضة، وترْكِ الحُرْمة، ولمَّا حصلَ الإنْكارُ صرَّحتْ بالاعْتِذار، فذكرتِ الآية، وحاصِلُ ما فهِمتْ منْها أنَّ الورودَ فيها بمعنى الدُّخول، وأنَّها قابلتْ عمومَ قوْلِهِ ﷺ: «**لاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ أَحَدٌ، الَّذِينَ بَايَعُوا تَحْتَهَا**» بعُمومِ قوْلِهِ تعالى: ﴿ **وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** ﴾، وكأنَّها رجَّحتْ عُمومَ القُرْآنِ فتمسَّكتْ به، فأجابَها النبيُّ ﷺ بأنَّ آخِرَ الآيةِ يُبيِّنُ المقْصود، فقرأَ قوْلَهُ تعالى: ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾.

وحاصِلُ الجواب: تسْليمٌ بأنَّ الورُودَ دُخولٌ، لكنَّهُ دُخولُ عُبورٍ، فينْجو منِ اتَّقى، ويُتْرَكُ فيها منْ ظلم، وبيانُ ذلكَ أنَّ جهنَّمَ -أعاذنا الله منها- مُحيطةٌ بأرْضِ المَحْشَر، وحائلةٌ بيْنَ النَّاسِ وبيْنَ الجنَّة، ولا طريقَ للجنَّةِ إلاَّ الصِّراطُ الَّذي هوَ جِسْرٌ ممْدودٌ على متْنِ جهنَّمَ، فلاَ بُدَّ لكلِّ منْ ضمَّهُ المحْشَرُ منَ العُبورِ عليْه، فناجٍ سالمٌ، ومخْدوشٌ مُرْسل، ومكْدوسٌ في نارِ جهنَّم، كما تقدَّم»[1]، «وليْسَ بعْدَ هذا تأْويلٌ، ولا يُفْتقرُ بعْدَ ذلكَ إلى دليل، ولا ينْفعُ بعْدهُ القالُ والْقيلُ»[2]، «وفيهِ بيانُ ضعْفِ قوْلِ منْ قالَ الورودُ مُختصٌّ بالكُفَّارِ، ومنْ قال: معنى الورودِ الدُّنُوُّ منْها، ومنْ قالَ: معْناهُ الإشْرافُ عليْها، ومنْ قالَ: معْنى وُرودِها ما يُصيبُ المؤمِنَ في الدُّنْيا منَ الحُمَّى»[3]، «ولهذا كانَ منْ دُعاءِ منْ مضى: اللهمَّ أخْرِجْني منَ النَّارِ سالمًا، وأدْخِلْني الجنَّةَ فائزًا. وقدْ أشْفقَ كثيرٌ منَ العُلماءِ منْ تحَقُّقِ الوُرودِ والجهْلِ بالصَّدَر، وكان أبو ميْسرةَ إذا أوى إلى فِراشهِ يقولُ: ليْتَ أُمِّي لمْ تلِدْني! فتقولُ لهُ امْرأتُهُ: يا أبا ميْسرة! إنَّ الله قدْ أحْسنَ إليْكَ، وهداكَ إلى الإسْلامِ! قالَ: أجل، ولكنَّ الله قدْ بيَّنَ لنا أنَّا وارِدونَ النَّارَ، ولمْ يُبيِّنْ لنا أنَّا

(١) المفهم (٦/٤٤٤).

(٢) عارضة الأحوذي (١٢/١٣).

(٣) فتح الباري (٣/١٢٤).

صادِرون. وعنِ الحسَنِ قال: قالَ رجلٌ لأخيه: أيْ أخي! هلْ أتاكَ أنَّكَ وارِدٌ النَّارَ؟ قالَ: نعم! قالَ: فهلْ أتاكَ أنَّكَ خارِجٌ منْها؟ قالَ: لا، قالَ: فعلامَ الضَّحِكُ إذنْ؟! قالَ: فما رُئِيَ ضاحِكًا حتَّى مات. وعنْ قيْسِ بنِ عاصمٍ قالَ: بكى ابنُ رواحةَ فبكتِ امْرأتُهُ، فقالَ لها: ما يُبْكيكِ؟ قالتْ: بكيْتُ حينَ رأيْتُكَ تبْكي، فقالَ عبْدُ الله: إنِّي قدْ علِمْتُ أنِّي وارِدٌ النَّارَ، فما أدْري أناجٍ منْها أمْ لا؟!»[1].

« فتوهَّمْ نفْسَكَ يا أخي إذا صِرْتَ على الصِّراطِ ونظَرْتَ إلى جهنَّمَ تحْتكَ سوْداءَ مُظْلِمة، قدْ لظى سعيرُها، وعلا لهيبُها، وتفكَّرْ فيما يحِلُّ بكَ منَ الفزَعِ إذا رأيْتَ الصِّراطَ ودِقَّتَه، ثُمَّ وقعَ بصَرُكَ على سوادِ جهنَّمَ منْ تحْتِه، ثُمَّ قرعَ سَمْعكَ شهيقُ النَّارِ وتغَيُّظُها، وقدْ كُلِّفْتَ أنْ تمْشِيَ على الصِّراطِ معَ ضعْفِ حالِك، واضْطِرابِ قلْبك، وتزلْزُلِ قدَمِك، وثِقَلِ ظَهْركَ بالأوْزارِ المانِعةِ لكَ منَ المشْيِ على بِساطِ الأرْضِ فضْلاً عنْ حِدَّةِ الصِّراط! فكيْفَ بكَ إذا وضعْتَ عليْهِ إحْدى رِجْلَيْكَ فأحْسَسْتَ بحِدَّتِه، واضْطُرِرْتَ إلى أنْ ترْفعَ القدَمَ الثَّانيَ والخَلائِقُ بيْنَ يدَيْكَ يزِلُّونَ ويعْثُرون، وتتَناولُهم زبانِيَةُ النَّارِ بالخطاطيفِ والْكلاليب، وأنْتَ تنْظُرُ إليْهم كيفَ يُنكَّسون، فتسْفُلُ إلى جِهةِ النَّارِ رؤوسُهم، وتعْلو أرْجُلُهم! فيالهُ منْ منْظرٍ ما أفْظعَه! ومُرْتقًى ما أصْعَبه! ومجازٍ ما أضْيقَه! فأفِقْ منْ غفْلتِك، وانْتبِهْ منْ رقْدتِك، وردِّدْ قوْلَ القائل:

أبـتْ نـفْسي تَتُـوبُ فـما احتِيـالي ... إذا بـرزَ الْعِبـادُ لـذي الجـلالِ
وقـاموا مـنْ قُبـورِهمْ سـكارى ... بـأوْزارٍ كأمْثـالِ الجبـالِ
وقدْ نُصِبَ الصِّراطُ لكيْ يجوزوا ... فمـنْهم مـنْ يُكـبُّ عـلى الشِّـمالِ
ومـنْهم مـنْ يسيـرُ لـدارِ عـدْنٍ ... تلقَّـاهُ العرائـسُ بالْغـوالي
يقـولُ لـه المُهَيـْمِنُ يـا ولِيِّـي ... غَفَـرْتُ لـكَ الـذُّنوبَ فـلا تُبـالي »[2].

---

(١) التذكرة (٣٣٦).

(٢) التذكرة (٣٣٠و٣٣٢) باختصار وتقديم وتأخير.

هذا، وإنَّ مِمَّا يجبُ التَّنْبيهُ عليْهِ: أنَّ السَّاقَ الْواردةَ في الحديثِ في قوْلِهِ ﷺ «فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ» صِفَةٌ منْ صِفاتِ الذَّاتِ، كاليدِ، والْقدمِ، والعيْنِ، ونحْوِها، يجبُ الإيمانُ بها، وإمْرارُها كما جاءت، منْ غيْرِ تكْييفٍ ولا تحْريفٍ، ولا تمْثيلٍ ولا تعْطيلٍ، وُقوفًا عنْدَ قوْلِهِ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١)﴾[الشورى].

فأوَّلُ الآيةِ ردٌّ على المشبِّهة، وآخِرُها ردٌّ على المُعطِّلة، وسبيلُ الحقِّ بيْنَهما لأهْلِ السُّنَّةِ، الفِرْقة النَّاجِية، إثْباتٌ بلا تمْثيل، وتنْزيهٌ بلا تعْطيل، وكشْفُ السَّاقِ هي الْعلامةُ الَّتي بيْنَ الْعِبادِ وربِّهم، فيعْرفونَهُ بها، فيسْجدُ لهُ كلُّ مؤمنٍ ومؤمنة، ويُجْعلُ ظهْرُ المنافقِ والْمُنافِقةِ طبقةً واحدةً، كلَّما أرادَ أنْ يَسْجُدَ خرَّ لِقَفاه، وهذا هوَ تفسيرُ قوْلِهِ تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فلاَ يَسْتَطِيعُونَ(٤٢)خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ(٤٣) ﴾ [القلم] «أي: إذا كانَ يوْمُ القيامة، وانكشفَ فيهِ منَ القلاقلِ والزَّلازلِ، والأهْوالِ ما لا يدْخلُ تحْتَ الْوهْم، وأتى الباري لفصْلِ الْقضاءِ بيْنَ عِبادِهِ ومُجازاتِهم، فكشفَ عنْ ساقِهِ الكريمةِ، الَّتي لا يُشْبِهُها شيْءٌ، ورأى الخلائقُ منْ جلالِ الله وعظمتِهِ ما لا يُمْكنُ التَّعْبيرُ عنْه، فحينَئِذٍ يُدْعَوْنَ إلى السُّجودِ لهُ، فيسْجدُ لهُ المؤمنونَ الَّذينَ كانوا يسْجدونَ لله طوْعًا واخْتِيارًا، ويذْهبُ الفُجَّارُ الْمُنافِقونَ ليسْجدوا فلا يقْدِرونَ على السُّجودِ، وتكونُ ظُهورُهم كصياصي البقرِ، لا يسْتطيعونَ الانْحِناءَ، وهذا الجزاءُ منْ جِنْسِ عملِهم، فإنَّهم كانوا يُدْعوْنَ في الدُّنْيا إلى السُّجودِ لله وتوْحيدِهِ وعِبادته، وهم سالِمون، لا عِلَّةَ فيهم، فيسْتكْبِرونَ عنْ ذلكَ ويأبوْن، فلا تسْألْ يوْمئذٍ عنْ حالِهم وسُوءِ مآلِهم، فإنَّ الله سخِطَ عليهم، وحقَّتْ عليْهم كلِمةُ العذاب، وتقطَّعتْ أسْبابُهم، ولمْ تنْفعْهمُ النَّدامةُ والاعْتِذارُ يوْمَ الْقيامة، ففي هذا ما يُزْعِجُ الْقُلوبَ عنِ المقامِ على المعاصي، ويُوجِبُ التَّدارُكَ مُدَّةَ الإمْكان»[١].

(١) تيسير الكريم المنان (٤٥٢و٤٥٣/ ٧).

فيا تارِكًا للصَّلاةِ! إلَى متى؟ ويا منْ لا يسْجدُ لربِّهِ إلى متى؟ ويا منْ لا يرْكعُ لربِّهِ إلى متى؟ اسْتَمِعْ إنْ كانَ لكَ عقْلٌ إلى ما بعْدَ هذا الخبرِ، ﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ(٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ(٤٥)﴾[القلم]، « وهذَا تَهْدِيدٌ شديد، أي دَعْنِي وإِيَّاه، منِّي ومَنْه، أنَا أعْلَمُ به كَيْفَ أسْتَدْرِجُه وأَمُدُّه في غيِّه وأُنْظِرُه، ثُمَّ آخذُه أخْذَ عزيزٍ مقْتَدر، ولهَذَا قَالَ تَعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ(٤٤)﴾[القلم]، أي وهمْ لا يشْعُرُونَ، بلْ يعْتَقِدُون أَنَّ ذلِكَ مِنَ الله كَرَامة، وهُوَ فِي نَفْسِ الأَمْرِ إهانة كَمَا قَالَ تعَالَى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ(٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَ يَشْعُرُونَ(٥٦)﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(٤٤)﴾[الأنعام]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي وأؤخِّرُهم وأُنْظِرُهم وأُمدُّهم وذلِكَ مِنْ كَيْدِي ومكْرِي بِهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي عظيمٌ لِمَنْ خالفَ أَمْرِي، وكَذَّبَ رُسُلِي واجْتَرَأ على مَعْصِيَتِي وفِي الصَّحِيحَيْن عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ(١٠٢)﴾[هود]»[1]»[2].

« وقوْله ﷺ « وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنْبَتَي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالاً» أيْ يقِفانِ في ناحِيتَي الصِّراطِ، والمعْنى أنَّ الأمانةَ والرِّحِمَ لِعظَمِ شأْنِهما، وفخامَةِ ما يلْزمُ الْعِبادَ منْ رِعايةِ حقِّهما، يُوقفَانِ هناكَ لِلأَمينِ والْخائن، والْواصلِ والْقاطِع، فيُحاجَّانِ عنِ المُحِقِّ ويشْهدانِ على المُبْطِل. قالَ الطَّيِّبيُّ: ويُمْكنُ أنْ يكونَ المُرادُ بالأمانةِ ما في قوْلِهِ تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً(٧٢)﴾[الأحزاب]، وصِلةِ الرَّحِمِ ما في قوْلِهِ تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ(١)﴾[النساء]، فيدْخلُ فيهِ معْنى التَّعْظيمِ لأمْرِ الله والشَّفقَةُ على خلْقِ الله، وكأَنَّهما اكتنَفَتا جنْبيِ الإسْلامِ الَّذي هوَ الصِّراطُ المسْتقيم، وفِطْرَتَي الإيمانِ والدِّينِ الْقويم»[3].

(١) متفق عليه: خ(٤٦٨٦/ ٣٥٤/ ٨)، م(٢٥٨٣/ ١٩٩٧/ ٤)، ت(٥١١٠/ ٣٥١/ ٤)، جه (٤٠١٨ / ١٣٣٢/ ٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٠٨/ ٤).

(٣) فتح الباري (٤٥٣/ ١١).

فلْينْظُرِ العاقِلُ هلِ ائتُمِنَ على ما ائتمَنهُ النَّاسُ عليهِ أمْ خان؟ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا(٥٨) ﴾ [النساء]، وقال: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ الله رَبَّهُ(٢٨٣) ﴾ [البقرة].

ونهى سُبْحانهُ وتعالى عنِ الخِيانةِ فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لاَ تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٢٧) ﴾ [الأنفال].

ولْينظُرِ العاقِلُ هلْ وصلَ رَحِمَهُ أمْ قطعَها، فإنَّ الله تعالى أمرَ بالوَصْلِ وجعلَهُ سببًا لِلجنَّة، ونهى عنِ القَطيعَةِ وجعلَها سببًا لِلنَّار، فقال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا الله الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ(١) ﴾ [النساء].

وقالَ تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ(٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ(٢٣) ﴾ [محمد].

وقالَ تعالى: ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ(١٩) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله ولاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ(٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ(٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ(٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالملاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ(٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ(٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(٢٥) ﴾ [الرعد].

نسألُ الله تعالى أنْ يُعينَنا على أداءِ الأمانةِ وصِلةِ الرَّحِم

❑ ❑ ❑

إخراج عصاة المسلمين من النار

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا ولاَ يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ، أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ»[1].

تحدَّثْنا عنِ الصِّراطِ وحِدَّتِه، وعظمَةِ خطَرِهِ ودِقَّتِه، والْكلاليب الَّتي في جَنبتَيْه، واختلافِ النَّاسِ في المُرورِ عليْه، فناجٍ سالم، ومخْدوشٌ مُرْسل، ومكْدوسٌ في النَّار، فأمَّا الَّذينَ نجَوْا فقدْ فازوا بالجنَّة، ﴿ **لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**(٤٨)﴾ [الحجر]، وأمَّا الَّذينَ وقعوا في النَّارِ فهمْ صِنْفان: مُسْلمونَ فسقَةٌ وكُفَّار.

يقولُ النبيُّ ﷺ: «**أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا**» يعْني الكفَّار «**فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا ولاَ يَحْيَوْن**»، كما قالَ تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَيُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**(٣٦)﴾ [فاطر]، وقالَ تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**(٩) **سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى**(١٠) **وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى**(١١) **الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى**(١٢) **ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا**(١٣)﴾ [الأعلى]، فهمْ في النَّارِ خالدينَ فيها أبدًا، ﴿ **كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**(٩٧)﴾ [الإسراء]، و﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**(٥٦)﴾ [النساء]، و﴿ **كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**(٢٠)﴾[السجدة].

---

(١) م(١٨٥/ ١٧٢و١٧٣/ ١).

«وأمَّا قوْلهُ ﷺ: «**وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ، أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ! أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ**».

فمعْناهُ أنَّ المُذْنبينَ منَ المُؤمنينَ يُميتُهمُ الله تعالى إماتةً، بعْدَ أنْ يُعذَّبوا المُدَّةَ الَّتي أرادَها الله تعالى، وهذهِ الإماتةُ حقيقيَّةٌ، يذْهبُ معها الإحْساسُ، ويكونُ عذابُهم على قدْرِ ذُنوبِهم ثُمَّ يُميتُهم، ثُمَّ يكونونَ مَحْبوسينَ في النَّارِ منْ غيْرِ إحْساسٍ المُدَّةَ الَّتي قدَّرها الله تعالى، ثُمَّ يُخْرجونَ منْها موْتى قدْ صاروا فحْمًا، فيُحْملونَ ضبائرَ كما تُحْملُ الأمْتِعة، ويُلْقَوْنَ على أنْهارِ الجنَّةِ، فيُصَبُّ عليْهم ماءُ الحياةِ فيَحْيَوْنَ، وينْبتونَ نباتَ الحِبَّةِ في حميلِ السَّيْلِ، في سُرْعةِ نُموِّها وضعْفِها، فتخْرجُ لِضعْفِها صفْراءَ مُلْتَوية، ثُمَّ تشْتدُّ قُوَّتُهم بعْدَ ذلك، ويصيرونَ إلى منازلِهم في الجنَّة، وتكْملُ أحْوالُهم»[1].

وأمَّا قوْلهُ ﷺ: «**حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ**» فالمرادُ بالشَّفاعةِ هنا الشَّفاعةُ في عُصاةِ المسْلمينَ لِيخْرجوا منَ النَّار، وهذهِ الشَّفاعةُ ليْستْ خاصَّةً بهِ ﷺ، وإنَّما هيَ لهُ ولِلأنبياءِ وغيْرِهم، لكنَّهُ ﷺ أوَّلُ الشَّافعينَ وأكْثرُهم نصيبًا منْها، وفيها يقولُ الحافظُ الحكميُّ:

«وثالثًا يشْفعُ في أقْوامِ	ماتوا على دينِ الهُدى الإسلامِ
وأوْبقتْهم كثْرةُ الآثامِ	فأُدْخِلوا النَّارَ بذي الإجْرامِ
أنْ يخْرجوا منْها إلى الجِنانِ	بفضْلِ ربِّ العرْشِ ذي الإحْسانِ

فهذهِ الشَّفاعةُ حقٌّ، يؤمِنُ بها أهْلُ السُّنَّةِ والجماعةِ كما آمنَ بها الصَّحابةُ رضْوانُ الله تعالى عليْهم، ودرجَ على الإيمانِ بذلكَ التَّابعونَ لهم بإحْسانٍ رضِيَ الله عنْهم ورضُوا عنْه، وأنْكرها في آخِرِ عصْرِ الصَّحابةِ الخوارجُ، وأنْكرها في عصْرِ التَّابعينَ المُعْتزِلة، وقالوا بخُلودِ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٣٨/ ٣)، والتذكرة (٣٤٠).

مِنْ دخلَ النَّارَ مِنْ عُصاةِ الموحِّدين، فجحَدُوا قوْلَ ربِّ العالمين: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) ﴾ [القلم]، وقوْلَهُ تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) ﴾[ص]، وقوْلَهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١) ﴾ [الجاثية]»[1].

«وقد تواترتْ بهذا النَّوْعِ منَ الشَّفاعةِ الأحاديثُ، وأنَّها تتكرَّرُ منْهُ ﷺ أربعَ مرَّات»[2]:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «يُدْخِلُ الله أَهْلَ الجنَّةِ الجنَّةَ، يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ: انظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا حُمَمًا قَدِ امْتَحَشُوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحيَاةِ أَوِ الحيَا، فَيَنْبُتُونَ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الحبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً»[3].

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً»[4].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَهْتَمُّونَ لِذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، قَالَ فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ: أَنْتَ آدَمُ أَبُو الخلْقِ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الملاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي

(١) معارج القبول (٢٥٦و٢٥٧/ ٢).

(٢) الفتن والملاحم (٣١٥و٣١٦).

(٣) متفق عليه: خ(٢٢/ ٧٢/ ١)، م(١٨٤/ ١٧٢/ ١) واللفظ له.

(٤) متفق عليه: خ(٧٤١٠/ ١٩٢و١٩٣/ ١٣)، م(١٩٣-٣٢٥-/ ١٨٢/ ١).

أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ الله، فَيَأْتُونَ نُوحًا عليه السلام فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ عليه السلام الَّذِي اتَّخَذَهُ الله خَلِيلاً، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى عليه السلام الَّذِي كَلَّمَهُ الله وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ، فَيَأْتُونَ مُوسَى عليه السلام فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا، وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى رُوحَ الله وَكَلِمَتَهُ، فَيَأْتُونَ عِيسَى رُوحَ الله وَكَلِمَتَهُ، فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدًا قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ الله، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَه، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ رَبِّي، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الجنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَقَعُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ الله أَنْ يَدَعَنِي، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ! قُلْ تُسْمَعْ، سَلْ تُعْطَه، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيه، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُخْرِجَهُمْ مِنَ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمُ الجنَّةَ، قَالَ أَنَسٌ: فَلاَ أَدْرِي فِي الثَّالِثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ: فَأَقُولُ يَا رَبِّ! مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلاَّ مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الخلُودُ»(١).

وَعَنْ مَعْبَدِ بنِ هِلاَلٍ الْعَنَزِيِّ قَالَ: اجْتَمَعْنَا نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَذَهَبْنَا إِلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ إِلَيْهِ يَسْأَلُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ، فَوَافَقْنَاهُ يُصَلِّي الضُّحَى، فَاسْتَأْذَنَّا فَأَذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لاَ تَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ أَوَّلَ مِنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: يَا أَبَا حَمْزَةَ! هَؤُلاَءِ إِخْوَانُكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ، جَاءُوكَ يَسْأَلُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ قَالَ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي

(١) م(١٩٣/ ١٨٠و١٨١/ ١).

بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ! فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَأْتُونِي، فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لا تَحْضُرُنِي الآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي! فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. قَالَ مَعْبَدٌ: فَلَمَّا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ قُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بِالحَسَنِ وَهُوَ مُتَوَارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فَأَتَيْنَاهُ فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَنَا، فَقُلْنَا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنَا فِي الشَّفَاعَةِ فَقَالَ: هِيهْ! فَحَدَّثْنَاهُ بِالحَدِيثِ فَانْتَهَى إِلَى هَذَا المَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيهْ فَقُلْنَا: لَمْ يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلاَ أَدْرِي أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا، قُلْنَا يَا أَبَا سَعِيدٍ فَحَدِّثْنَا فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الإِنْسَانُ عَجُولاً، مَا ذَكَرْتُهُ إِلاَّ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ، حَدَّثَنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ، قَالَ: ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَيَقُولُ: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ، وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي

وَعَظَمَتِي، لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله»[١].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ في حديث التميز بين الأمم- الذي مر في الموضوع السابق قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ثُمَّ يُضْرَبُ الجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَقُولُونَ: اللهمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ، قِيلَ يَا رَسُولَ! وَمَا الجِسْرُ؟ قَالَ: دَحْضٌ مَزِلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، فَيَمُرُّ المؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَالطَّيْرِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ»[٢]

«ثُمَّ يُؤْتَى بِالجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ. قُلْنَا يَا رَسُولَ الله وَمَا الجِسْرِ؟ قَالَ مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، المؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ المؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلجَبَّارِ وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا فَيَقُولُ الله تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ وَيُحَرِّمُ الله صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا.

---

(١) متفق عليه: خ(٧٥١٠/ ٤٧٣و٤٧٥/ ١٣)، م(١٩٣-٣٢٦-/ ١٨٢-١٨٤/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(٧٤٣٩/ ٤٢٠-٤٢٢/ ١٣)، م(١٨٣/ ١٦٧-١٧١/ ١).

قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَإِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا ﴾ فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالملاَئِكَةُ وَالمؤْمِنُونَ، فَيَقُولُ الجبَّار: بَقِيَتْ شَفَاعَتِي، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدِ امْتُحِشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الجنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الحيَاةِ، فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ، وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ، وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ، فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمُ الخوَاتِيمُ، فَيَدْخُلُونَ الجنَّةَ، فَيَقُولُ أَهْلُ الجنَّةِ: هَؤُلاَءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ، أَدْخَلَهُمُ الجنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلاَ خَيْرٍ قَدَّمُوهُ، فَيُقَالُ لهُمْ: لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[1].

فإنْ قيلَ: وكيْفَ يَعْرِفُ الشُّفعاءُ مَنْ أُمِروا بإخْراجِهم منَ النَّارِ وقدْ أكلتْهم، وصاروا -كما في الحديث- فحْمًا؟

فالجوابُ: أنَّ النَّارَ لاَ تأكُلُ أعْضاءَ السُّجودِ، كما في الحديثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ، وَأَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ بِرَحْمَتِهِ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، أَمَرَ الملاَئِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ لاَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، مِمَّنْ أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَهُ، مِمَّنْ يَقُولُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَيَعْرِفُونَهُمْ فِي النَّارِ يَعْرِفُونَهُمْ بِأَثَرِ السُّجُودِ تَأْكُلُ النَّارُ مِنِ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ أَثَرَ السُّجُودِ حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ**»[2].

«قالَ القاضي عِياض: فيهِ دليلٌ على أنَّ عذابَ المؤمنينَ المُذْنبينَ مُخالِفٌ لِعذابِ الكفَّار، وأنَّهُ لا يأْتي على جميعِ أعْضائهم. واسْتنْبطَ منْهُ ابنُ أبي جمْرةَ أنَّ منْ كانَ مُسْلمًا ولكنَّهُ كانَ لا يُصلِّي لا يخْرج، إذْ لا علامةَ له، لكنْ يُحْملُ على أنَّهُ يخْرجُ في القبْضَة، لِعمومِ قوْلِه «**لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ**».

---

(١) متفق عليه: خ(٧٤٣٩/ ٤٢٠-٤٢٢/ ١٣)، م(١٨٣/ ١٦٧-١٧١/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(٦٥٧٣/ ٤٤٤و٤٤٥/ ١١)، م(١٨٢/ ١٦٣-١٦٧/ ١).

قالَ الحافظُ ابنُ حجر: وَوَجدْتُ بخطِّ أبي:

يـا ربِّ أعْضـاءَ السُّـجودِ عتقْتَهـا مـنْ عبْدِكَ الجـاني وأنـتَ الـواقي

والعِتْقُ يسْري بالغنيِّ يا ذا الغنـى فـامننْ عـلى الفـاني بعِتْـقِ البـاقي »[1].

ولا يزالُ عُصاةُ المسْلمينَ يخْرجونَ منَ النَّار، حتَّى إذا خرجَ آخِرُهم أُغْلِقتْ على أهْلِها، وذُبِحَ الموْت، ونودِيَ: يا أهْلَ الجنَّةِ خلودٌ بلا موْت، ويا أهْلَ النَّارِ خلودٌ بلا موْت:

عَنْ عَبْدِ الله رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الجنَّةِ دُخُولاً، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا فَيَقُولُ الله لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا، أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الملِكُ؟! فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَكَانَ يَقُولُ ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجنَّةِ مَنْزِلَةً»[2].

وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ رَجُلٌ فَهْوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي الله شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَلأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ! لَعَلِّي إِنَّ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا! فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ! وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ، لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا،

(١) فتح الباري (٤٥٦و٤٥٧/ ١١).

(٢) متفق عليه: خ(٦٥٧١/ ٤١٨و٤١٩/ ١١)، م(١٨٦/ ١٧٣/ ١)، جه(٤٣٣٩/ ١٤٥٢و١٤٥٣/ ٢).

لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لاَ يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ، لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْه، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الجَنَّةِ، هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ، لأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لاَ تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ! هَذِهِ، لاَ أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ، لأَنَّهُ يَرَى مَا لاَ صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا! فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُود، فَقَالَ: أَلاَ تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَك؟ قَالَ هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: مِنْ ضِحْكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لاَأَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[1].

فإذا خرجَ جميعُ عُصاةِ المُسْلمينَ منَ النَّارِ تمنَّى الكفَّارُ حينئذٍ لوْ كانوا مُسْلمين:

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ وَمَعَهُمْ مَنْ شَاءَ اللهُ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، يَقُولُ الْكُفَّارُ: أَلَمْ تَكُونُوا مُسْلِمِينَ؟ قَالُوا: بَلَى! قَالُوا: فَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلاَمُكُمْ وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ قَالُوا: كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ فَأُخِذْنَا بِهَا، فَيُسْمَعُ مَا قَالُوا، فَأُمِرَ بِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ أَهْلُ النَّارِ قَالُوا: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ فَنَخْرُجَ كَمَا خَرَجُوا، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿الر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ(1) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ(2)﴾[الحجر]»[2].

فإذا استقرَّ أَهْلُ الجنَّةِ في الجنَّة، وأهْلُ النَّارِ في النَّار، ذُبِحَ الموْتُ، وبُشِّرَ الجميعُ بالحياةِ الدَّائمة، فيزْدادُ المُؤمنونَ فرحًا وسرورًا، ويزْدادُ الكافرون غمًّا وحزَنًا:

---

(١) م(١٨٧/ ١٧٤و١٧٥/ ١)، ورواه: خ(٦٥٧٣/ ٤٤٤و٤٤٥/ ١١) ضمن حديث عن أبي هريرة.

(٢) صحيح: [السنة لأبن أبي عاصم:٨٤٣]، ابن جرير(١٤/ ٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا أَدْخَلَ الله أَهْلَ الجنَّةِ الجنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ أُتِيَ بِالموْتِ مُلَبَّبًا، فَيُوقَفُ عَلَى السُّورِ بَيْنَ أَهْلِ الجنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجنَّةِ! فَيَطَّلِعُونَ خَائِفِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ! فَيَطَّلِعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ الشَّفَاعَةَ، فَيُقَالُ لأَهْلِ الجنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ: قَدْ عَرَفْنَاهُ، هُوَ الموْتُ الَّذِي وُكِّلَ بِنَا، فَيُضْجَعُ فَيُذْبَحُ ذَبْحًا عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ الجنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الجنَّةِ! خُلُودٌ لاَ مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ! خُلُودٌ لاَ مَوْتَ»[1].

وقَدْ أَنْكَرتِ الخَوارِجُ تِلْكَ الشَّفَاعةَ بناءً على مذْهَبِهُم البَاطلِ فِي كُفْرِ المُسْلِم بالمَعْصِيَةِ وخُلودِهِ فِي النَّار، وقَدْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمُ الصَّحَابَةُ مذَهبَهم وبَيَّنُوا لهم أَنَّ الآياتِ الَّتِي اسْتَدلُّوا بها فِي الكفَّارِ لاَ فِي عُصَاةِ المُسْلِمِين:

عَنْ أَبِي عَاصِمٍ قَالَ: حَدَّثَنِي يَزِيدُ الْفَقِيرُ قَالَ كُنْتُ قَدْ شَغَفَنِي رَأْيٌ مِنْ رَأْيِ الخَوَارِجِ فَخَرَجْنَا فِي عِصَابَةٍ ذَوِي عَدَدٍ نُرِيدُ أَنْ نَحُجَّ ثُمَّ نَخْرُجَ عَلَى النَّاسِ قَالَ فَمَرَرْنَا عَلَى المدِينَةِ فَإِذَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ الله يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَالِسٌ إِلَى سَارِيَةٍ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ ذَكَرَ الجهَنَّمِيِّينَ قَالَ فَقُلْتُ لَهُ يَا صَاحِبَ رَسُولِ الله مَا هَذَا الَّذِي تُحَدِّثُونَ وَالله يَقُولُ ﴿ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ(١٩٢) ﴾ [آل عمران] و ﴿ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا(٢٠) ﴾[السجدة]، فَمَا هَذَا الَّذِي تَقُولُونَ؟ قَالَ: فَقَالَ: أَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ بِمَقَامِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلاَم يَعْنِي الَّذِي يَبْعَثُهُ الله فِيهِ، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّهُ مَقَامُ مُحَمَّدٍ ﷺ المحْمُودُ الَّذِي يُخْرِجُ الله بِهِ مَنْ يُخْرِجُ. قَالَ ثُمَّ نَعَتَ وَضْعَ الصِّرَاطِ وَمَرَّ النَّاسِ عَلَيْهِ، قَالَ: وَأَخَافُ أَنْ لاَ أَكُونَ أَحْفَظُ ذَاكَ. قَالَ: غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ زَعَمَ أَنَّ قَوْمًا يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ بَعْدَ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا، قَالَ: يَعْنِي فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ عِيدَانُ السَّمَاسِمِ. قَالَ: فَيَدْخُلُونَ نَهَرًا مِنْ أَنْهَارِ الجنَّةِ

(١) صحيح: [ص.ت:٢٥٥٧]، ت(٢٦٨٢/ ٩٥و٩٦/ ٤)، وهو في الصحيحين بنحوه من حديث أبي سعيد الخدري: خ(٤٧٣٠/ م٤٢٨/ ٨)، م(٢٨٤٩/ ٢١٨٨/ ٤).

فَيَغْتَسِلُونَ فِيهِ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمُ الْقَرَاطِيسُ (يَعنِي أشدَّ مَا يَكُونُونَ بيَاضًا) **فَرَجَعْنَا، قُلْنَا: وَيْحَكُمْ أَتَرَوْنَ الشَّيْخَ يَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَرَجَعْنَا فَلاَ وَالله مَا خَرَجَ مِنَّا غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ.** (يَعنِي أنَّهم رَجَعُوا عَمَّا عزَمُوا عَلَيْه مِنْ نُصْرَةِ مَذْهَبِ الخَوَارِجِ والدَّعْوةِ إلَيْه، حِينَ حدَّثَهم جَابِرٌ بِمَا حدَّثهم عَنْ رسُولِ الله ﷺ إلاَّ رجُلاً خَالفَهم واسْتَمرَّ علَى مَا هُوَ عَلَيْه فِكْرِ الخَوارِج)»[1] ﴿ **وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**[٣٦] **وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ**[٣٧] ﴾[الزمر].

فالوَاجبُ علَى كُلِّ صَاحِبِ فِكْرٍ أَنْ يُراجِعَ نَفْسَه، وأَنْ يَزِنَ فِكْرَه بمِيزانِ «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وأَصْحَابِي**»[2]، فمَا لم يَكُنْ يَوْمئذٍ دِينًا فَلَنْ يكُونَ دِينًا أبدًا، ولن يصْلُحَ آخرَ هذِه الأُمَّةِ إلاَّ بمَا صَلُحَ بِهِ أوَّلها، وهو التَّمسُّكُ بالكتابِ والسُّنَّة بفَهْمِ سلَفِ الأُمَّةِ الصَّحابةِ والتَّابِعين، فإنَّهم كَانُوا أبرَّ هذِه الأُمَّةَ قلُوبًا، وأعْمَقَها عِلمًا، وأحْسَنِها فَهْمًا، وأقلَّها تكلُّفًا، وإنَّنا لَنحْمَدُ الله علَى مَا هَدَى إلَيْه قَادةَ الجَماعةِ الإسْلاَمِيَّةِ الَّتي حَمَلتِ السَّلاحَ سِنِين، وقَتلتْ مَنْ قَتَلتْ فِي الدَّاخِلِ والخَارجِ مِنَ الكَافِرينَ والمُسْلِمينَ علَى حدٍّ سواء، نَحْمَدُ الله أَنْ هَداهم لِفَهْمِ سَلَفِ الأُمَّةِ فوَضَعُوا أسْلَحتَهم وأعْلَنُوا تَوْبَتَهم وأَصْدَرُوا في ذلِكَ كُتُبَهم»[3]، فكَانُوا حقًّا مُقْتَدِينَ بأُولئكَ الَّذينَ رَجَعُوا عَنْ فِكْرِ الخَوارِجِ حينَ سَمِعُوا جَابرَ بنَ عبْدِ الله يُحَدِّثُهم عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، وإلى الاقْتداءِ بهَؤلاءِ القَادةِ نَدْعُو جَمِيعَ الشَّبابِ أَنْ يَرْجِعُوا عَنْ الأفْكَارِ المُنْحرِفَة، والآراءِ المُتَشَدِّدةِ، وأَنْ يُمْسِكُوا أَلسِنَتهم عَنْ تَكْفِيرِ المُسْلِمينَ ﴿ **وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ**[٣٣] ﴾[المطففين]،

---

(١) م(١٩١-٣٢٠/ ١٧٩و١٨٠/ ١).

(٢) حسن: [ص.ت:٢٦٤١]، ت(٢٧٧٩/ ١٣٥/ ٤).

(٣) أ- نهر الذكريات [المراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية] تأليف وإعداد: كرم زهدي. ناجح إبراهيم. علي الشريف. أسامة إبراهيم. حمدي عبد الرحمن. فؤاد الدواليبي. عاصم عبد الماجد. محمد درالبة. مكتبة التراث الإسلامي ٨ شارع عابدين القاهرة ط ١ وانظر العرض والتحليل لهذه الكتب في مجلة الدعوة السعودية من (٥٠-٥٥) العدد ١٩٢١ - ١٧ شوال ١٤٢٤ و١١/ ١٢/ ٢٠٠٣ والعدد شعبان ١٤٢٤هـ.

ب- تفجيرات الرياض الأحكام والآثار للمذكورين والناشر.

وَيَوْمَ يَجْتَمِعُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى كِتَابِ الله وسُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ واتِّباعِ أصْحابِ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمئِذٍ فقط يرْضَى الله عَنْهم ويُرْضِيهم كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٠٠)﴾[التوبة].

وقدْ دَلَّتِ الأحَاديثُ على أنَّ الإيمانَ يزيدُ وينْقُص، وأنَّه يتفاوَتُ في قُلُوبِ المُؤْمنين، فَأنَّ مَنْ دخل النار من عصاة المسلمين يخرجون أولاً فأوَّل على حسبِ هَذَا التَّفَاوتِ، كما قال النَّبيُّ ﷺ وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً».

وقدْ صَرَّحَ ربُّنا سُبْحَانَه فِي كِتَابِه الكَرِيم بزيادَةِ الإيمانِ ونَقْصِه، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ المؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ(٤)﴾[الفتح]، وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى(٧٦)﴾[مريم]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(١٢٤)﴾[التوبة].

ولقدْ رَأَى بَعْضُ الصَّحابَةِ تَفَاوتًا فِي قَلْبِه فِي مَجْلِسِ رَسُولِ الله ﷺ عَنْ غِيَابِه عَنْه، وخَافَ مِنْ ذَلِك:

عَنْ حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ: وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟! قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله! مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله! فَقَالَ

رَسُولُ الله ﷺ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ يَا رَسُولَ الله! نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الملاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلاَثَ مَرَّاتٍ»[1].

كما دلَّتِ الأحاديثُ علَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الكبيرةِ مِنَ المُسْلِمينَ لاَ يَكْفرُ بِها، لأنَّه وإنْ عُذِّبَ فِي النَّارِ سَيَخْرُجُ منها، ولوْ كانَ كافِرًا مَا خَرَجَ مِنها، وفِي ذَلِكَ يقُولُ الإمَامُ الطَّحاوِيُّ: «ولاَ نُكَفِّرُ أحدًا مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلَّه. وأَهْلُ الكبائِرِ مِنْ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ في النَّارِ لاَ يُخَلَّدُونَ إذا مَاتُوا وهُمْ مُوَحِّدُونَ وإِنْ لمْ يكُونُوا تَائبِينَ بعْدَ أَنْ لَقُوا الله مُؤْمِنين، وهُمْ فِي مَشِيئَتِه وحُكْمِه، إنْ شاءَ عفَا عَنْهم وأدْخَلَهمُ الجنَّةَ بفَضْلِه، كمَا ذَكَرَ عزَّ وجلَّ فِي كِتَابِه ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[النساء]، وإنْ شاءَ عذَّبَهم فِي النَّارِ بعَدْلِه ثُمَّ يُخْرِجُهم مِنها برَحْمَتِهِ وشفَاعةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِه ثُمَّ يَبْعَثُهم إلَى جَنَّتِه، وذلِكَ أَنَّ الله تَعَالَى تولَّى أَهْلَ مَعْرِفَتِه ولَمْ يَجْعَلْهم فِي الدَّارَيْنِ كأَهْلِ نُكْرَتِه الَّذين خَابُوا مِنْ هِدَايَتِه ولَمْ يَنَالُوا مِنْ وَلايَتِه»[2].

وقال الحافظ الحكمي:

والفَاسِقُ المِلِّيُّ ذُو العِصْيَانِ	لَمْ يُنْفَ عَنْه مُطْلَقُ الإيمَانِ
لَكِنْ بقَدْرِ الفِسْقِ والمَعَاصِي	إيمَانُه مَازَالَ فِي انْتِقَاصِ
ولاَ نَقُولُ إِنَّهُ فِي النَّارِ	مُخَلَّدٌ بَلْ أَمْرُه للبَارِي
تَحْتَ مَشِيئَةِ الله النَّافِذَهْ	إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْه وإِنْ شَاءَ آخذَه
بِقَدْرِ ذَنْبِه إِلَى الجِنَانِ	يَخْرُجُ إِنْ مَاتَ علَى الإيمَانِ

(١) م(٢٧٥٠/ ٢١٠١/ ٤)، ت(٢٦٣٣/ ٣٥/ ٤)، جه(٤٢٣٩/ ١٤١٦/ ٢).

(٢) العقيدة الطحاوية تعليق الألباني (٤٠و٤٥).

ثُمَّ قَالَ فِي الشَّرْحِ:

فَاسِقُ أَهْلِ القِبْلَةِ لا يُنْفَى عَنْه مُطْلَقُ الإيمان بِفُسُوقِه، ولاَ يُوصَفُ بالإيمانِ التَّامِّ، ولَكِنْ هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإيمان، أَوْ مُؤْمِنٌ بالإيمان، فَاسِقٌ بِكَبِيرتِه، فلاَ يُعْطَى الاسْمَ المُطْلَق، ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْم، والمُرادُ بالفِسْقِ هُنَا الفِسْقُ الأَصْغَر، وهو عَمَلُ الذُّنوبِ الكبائِرِ الَّتي سمَّاها الله ورَسُولُه فِسْقًا وكُفْرًا وظُلْما مع إجْراءِ أَحْكَامِ المُؤْمِنِينَ علَى عَامِلِها.

ولاَ مُنَافَاةَ بَيْنَ تَسْمِيةِ العَملِ فِسْقًا أَوْ عامِلِه فَاسقًا وبَيْنَ تَسْمِيَتِه مُسْلِمًا وجريانِ أحْكَامِ المُسْلِمِينَ علَيْه لأنَّه لَيْسَ كُلُّ فِسْقٍ يَكُونُ كُفْرًا، ولا كُلُّ ما سُمِّيَ كُفْرًا وظُلْما يكُونُ مُخْرِجًا مِنْ المِلَّة، حَتَّى يُنْظَرَ إلى لوازِمِه ومَلْزُوماتِه، وذلِكَ لأَنَّ كُلاًّ مِنَ الكُفْرِ والظُّلمِ والفِسْقِ والنِّفَاقِ جَاءتْ في النُّصوصِ علَى قِسْمَيْن: أَكْبَرُ يُخْرِجُ مِنَ المِلَّةِ لِمُنَافَاتِه أَصْلَ الدِّينِ بالكُلِّيَّة، وأَصْغَرُ يُنْقُصُ الإيمَانَ ويُنَافِي كَمَالَه ولا يُخْرِجُ صَاحِبَه مِنْه، فكُفْرٌ دُونَ كُفْر، وظُلم دُونَ ظُلم، وفِسْقٌ دُونَ فِسْق، ونِفَاقٌ دُونَ نِفَاق»[1].

كمَا دَلَّتِ الأَحَاديثُ علَى أَنَّ الشَّفاعةَ لا تَخْتَصُّ بالأنْبياء، بلْ تَشْفَعُ الملائكة، ويَشْفَعُ النَّبِيُّون، ويَشْفَعُ المُؤْمِنُون، وتَشْفَعُ الأَعْمَالُ الصَّالِحة، ﴿ **وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**[٢٨] ﴾[الأنبياء].

❑ ❑ ❑

---

(١) معارج القبول (٣٤١-٣٤٥/٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ، قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»[1].

خلقَ الله الخَلْقَ لِعِبادتِه، وأمرَهم بطاعتِه، ونهاهُم عنْ معْصِيَتِه، وَوعَدَ المُطيعينَ الْعابدينَ بالجنَّة، وتوعَّدَ العُصاةَ المُسْتكْبرينَ بالنَّار، قالَ تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ(٦٠) ﴾ [غافر].

وقالَ تعالى: ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا للهِ وَلاَ الملاَئِكَةُ المقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا(١٧٢)فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا ولاَ نَصِيرًا(١٧٣) ﴾ [النساء].

وقالَ تعالى: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١٣)وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ(١٤) ﴾[النساء].

ولقدْ أخْرجَ الله تعالى إبْليسَ منَ الجنَّةِ لما عصاه، فتوعدَ بإضْلالِهِ بني آدمَ وصَرْفِهم عنْ طاعةِ ربِّهم وعِبادتِه، فأخْبرَهُ الله تعالى أنَّ النَّارَ مثْواهم أجْمعين، هوَ ومنِ اتَّبعَهُ منَ الغاوين، قالَ تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلملاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ(٧١)فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ(٧٢)فَسَجَدَ الملاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(٧٣)إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ

---

(١) متفق عليه: خ(٣٢٦٥/ ٣٣٠/ ٦)، م(٢٨٤٣/ ٢١٨٩/ ٤)، ت(٢٧١٥/ ١١٠/ ٤).

الْكَافِرِينَ(٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ(٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ(٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ(٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ(٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ(٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ(٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ(٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ(٨٥)﴾[ص].

فلمّا نزلَ إلى الأرضِ حذَّرَ الله تعالى بني آدمَ منْه، وبيَّنَ لهم أنّهُ يُريدُ أنْ يُوردَهمُ النّار، فقالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ(٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ(٦)﴾[فاطر]، ومعَ ذلكَ استجابَ لهُ أكثرُ النّاس، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ(٢٠)﴾[سبأ]، ويوْمَ القيامةِ يُوبِّخُهمُ الله تعالى على اسْتِجابتِهم لِلشَّيْطانِ ونقْضِهم عهْدَ الرَّحمن، فيقولُ تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ(٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ(٦٤)﴾ [يس].

ولقد أخْبرَ الله تعالى أنَّ الشَّيْطانَ نفْسَهُ سيتبرَّأُ منْ أتْباعهِ بعدَ أنْ يوردَهمُ النّار، فقالَ تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٢)﴾ [إبراهيم].

والَّذي يتتَبَّعُ آياتِ القُرْآنِ يرى فيها منْ ألْوانِ العذابِ ما تقْشعِرُّ منْهُ الأبْدان، وتشيبُ منْهُ الوِلْدان، فرَّقَهُ الله تعالى على صفحاتِ كتابه، بأساليبَ مُخْتلِفة، وعِباراتٍ مُتنوِّعةٍ، تخْويفًا لِلْعباد، كما قالَ تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا(١١٣) ﴾ [طه].

وقالَ تعالى: ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ الله بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ(١٦) ﴾ [الزمر].

وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ الله كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا(٥٦) ﴾ [النساء].

وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ(٣٧) ﴾ [المائدة].

وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلاَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ فِي سَمِّ الخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي المجْرِمِينَ(٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ(٤١) ﴾ [الأعراف].

وقالَ تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا(١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا(١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا(١٣) لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا(١٤) ﴾ [الفرقان].

وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الله لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا(٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا(٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ(٦٦) ﴾ [الأحزاب].

وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا(٤) ﴾ [الإنسان].

وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا(١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا(١٣) ﴾ [المزمل].

وقالَ تعالى: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(١٥)مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ(١٦)يَتَجَرَّعُهُ ولاَيَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الموْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ(١٧) ﴾ [إبراهيم].

وقالَ تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٧٠)إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ(٧١)فِي الحمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ(٧٢) ﴾ [غافر].

وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ المجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(٧٤)لاَيُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ(٧٥)وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(٧٦)وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(٧٧)لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالحقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلحقِّ كَارِهُونَ(٧٨) ﴾ [الزخرف].

وقالَ تعالى: ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ(٤١)فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ(٤٢)وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ(٤٣)لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ(٤٤)إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ(٤٥)وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحنْثِ الْعَظِيمِ(٤٦)وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمبْعُوثُونَ(٤٧)أَوَءَابَاؤُنَا الأَوَّلُونَ(٤٨)قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ(٤٩)لَمجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ(٥٠)ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المكَذِّبُونَ(٥١)لآَكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ(٥٢)فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٥٣)فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحمِيمِ(٥٤)فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ(٥٥)هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ(٥٦) ﴾ [الواقعة].

وقالَ تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ(٢٥)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ(٢٦)يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ(٢٧)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ(٢٨)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ(٢٩)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(٣٠)ثُمَّ الجحِيمَ صَلُّوهُ(٣١)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(٣٢)إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ(٣٣)وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المسْكِينِ(٣٤)فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(٣٥)وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦)لاَيَأْكُلُهُ إِلاَّ الخاطِئُونَ(٣٧) ﴾ [الحاقة].

وقالَ تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا(٢١)لِلطَّاغِينَ مَآبًا(٢٢)لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا(٢٣)لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا(٢٤) إِلاَّحَمِيمًا وَغَسَّاقًا(٢٥)جَزَاءً وِفَاقًا(٢٦)إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا(٢٧)وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا(٢٨)وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا(٢٩)فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّعَذَابًا(٣٠) ﴾[النبأ].

ولقدْ سمَّى الله تعالى النَّارَ دارَ البوار، فقالَ تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾[إبراهيم]«أي الهلاك، يُقالُ: بارَ الشَّيْءُ يبُورُ بوْرًا، إذا هلكَ وبطَل»[1].

وأخْبرَ سُبْحانهُ أنَّ لها سبْعةَ أبْواب، فقالَ تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) ﴾ [الحجر] «أيْ قد كُتِبَ لكلِّ بابٍ منها جزْءٌ منْ أتْباعِ إبْليسَ يدْخلونه، لا محيدَ لهم عنْه، أجارنا الله منها، وكلٌّ يدْخلُ بحسَبِ عملِه، ويسْتقِرُّ في دركٍ بقدْرِ عمله. عنْ عليٍّ رضِيَ الله عنهُ قال: أبْوابُ جهنَّمَ سبْعة، بعْضُها فوْقَ بعْض، فيمْتلئُ الأوَّل، ثُمَّ الثَّاني، ثُمَّ الثَّالث، حتَّى تمْتلئَ كلُّها»[2].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ وَتَقُولُ قَطْ قَطْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ»[3].

«وقالَ ابنُ جُرَيْج: سبْعةُ أبْواب: أوَّلُها جهنّم، ثُمَّ لظى، ثُمَّ الحُطَمَة، ثُمَّ السَّعِير، ثُمَّ سَقر، ثُمَّ الجَحِيم، ثُمَّ الهَاوية»[4].

وقد سمَّى الله تعالى فِي القُرْآنِ الكَرِيم طبقَاتِ النَّار، فقال: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (١٦) تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (١٨) ﴾[المعارج].

قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾[المدثر].

---

(١) جامع البيان (٢١٩/ ١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥٥١و٥٥٢/ ٢).

(٣) متفق عليه: خ(٧٣٨٤/ ٦٩/٣٦٩/ ١٣)، م(٢٨٤٨/ ٢١٨٧و٢١٨٨/ ٤)، ت(٣٣٢٦/ ٦٥/ ٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥٥١و٥٥٢/ ٢).

قال تعالى: ﴿كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الحطَمَةِ(٤)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطَمَةُ(٥)نَارُ الله الموقَدَةُ(٦)الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ(٧)إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ(٨)فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ(٩)﴾[الهمزة].

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ(٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(٧)وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ(٨)فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ(٩)وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ(١٠)نَارٌ حَامِيَةٌ(١١)﴾[القارعة].

وكَثْرَةُ الأبوَابِ تدلُّ علَى سَعةِ الدَّار، وقَدْ بَيَّنَ النَّبيُّ ﷺ سَعَةَ جَهنَّم فقال: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(١).

وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَتَدْرِي مَا سَعَةُ جَهَنَّمَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: أَجَلْ، والله مَا تَدْرِي، إِنَّ ما بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِم وبَيْنَ عَاتِقِه مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفًا، تَجْرِي فِيهِ أَوْدِيَةُ القَيْحِ والدَّم. قُلْتُ: أَنْهَارٌ؟ قَالَ: بَلْ أَوْدِيَةٌ»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالَ: قُلْنَا الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا»(٣).

ودَرَجةُ حَرَارةَ النَّارِ عَاليةٌ جدًّا، ولقدْ أَنْكَرَ الله علَى المُنَافِقِينَ تخلُّفَهم عَنْ رسُولِ الله ﷺ في غَزْوةِ تَبُوكٍ بسبَبِ شِدَّةِ الحرِّ، فقال تعالى: ﴿فَرِحَ المخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الحرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ(٨١)﴾[التوبة]، لأَنَّ الحرَّ الَّذِي تخلَّفُوا بسبَبِه إِنَّمَا هُوَ نَفسٌ مِنْ أَنْفَاسِ النَّار:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ رَبِّ: أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ فِي الشِّتَاءِ، وَنَفَسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ

---

(١) م(٢٨٤٢/ ٢١٨٤/ ٤)، ت(٢٦٩٨/ ١٠٣/ ٤).

(٢) صحيح موقوف: [ص.تغ:٣٦٨٤]، حم(٤٠٨/ ١٦٧/ ٢٤)، ك(٤٣٦/ ٢).

(٣) م(٢٨٤٤/ ٢١٨٤و٢١٨٥/ ٤).

مِنَ الحرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ»(١).

فَإِذَا كانَ ذلِكَ الحرُّ الشَّدِيدُ الَّذِي يُصِيبُ النَّاسَ فِي الصَّيْفِ مَنْ نَفَسِ جَهنَّم، فكَيْفَ بِها ذَاتِها، وكَمْ تَبْلُغُ دَرَجةُ حَرارتِها:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ، قَالُوا: وَالله إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ الله! قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا».

وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ كَانَ فِي هَذَا المَسْجِدِ مِئَةُ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وفِيهِم رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَتَنَفَّسَ، فَأَصَابَهُم نَفَسُهُ، لاَحْتَرَقَ المَسْجِدُ وَمَنْ فِيهِ»(٢)

وهِيَ يَحْطِمُ بَعْضُها بعْضًا، حَتَّى صارَتْ سَوْداءَ مُظْلِمةً، كما في الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: «أَتَرَوْنَهَا حَمْرَاءَ كَنَارِكُمْ هَذِهِ؟ لَهِيَ أَسْوَدُ مِنَ القَارِ، وَالْقَارُ الزِّفْتُ»(٣).

والكفَّارُ في النَّارِ مُتَفَاوِتُونَ فِي العذاب، كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ﴾[الأحقاف]، «أي لكُلٍّ عَذَابٌ بحَسَبِ عَمَلِه»(٤).

عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ»(٥).

---

(١) متفق عليه: خ(٣٢٦٠/ ٣٣٠/ ٦)، م(٦١٧/ ٤٣١و٤٣٢/ ١).

(٢) صحيح: [ص.تغ:٣٦٦٨].

(٣) صحيح: [ص.تغ:٣٦٧٠]، ط(٨٢٦/ ٧٠٣).

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٥٩/ ٤).

(٥) م(٢٨٤٥-٣٣-/ ٢١٨٥/ ٤).

وأخفُّ أَهْلِ النَّارِ عذَابًا أَبُو طَالِب:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا أَبُو طَالِبٍ، وَهُوَ مُنْتَعِلٌ بِنَعْلَيْنِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ»(١).

وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا، مَنْ لَهُ نَعْلاَنِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، كَمَا يَغْلِ المِرْجَلُ مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا»(٢).

والكُفَّارُ فِي النَّارِ أَحْيَاءٌ لا يَمُوتُونَ أبدًا، مع أَنَّ النَّارَ تُحِيطُهم من جَمِيعِ الجهات، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ(٤١)﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا(٢٩)﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ(١٦)﴾ [الزمر].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ(٥٥)﴾ [العنكبوت].

وهُمْ معَ ذلِكَ لا يمُوتُونَ ولا عَنْ أَنْفُسِهِم يدْفَعُون، قال تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ(١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ(١٧)﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ ولاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ(٣٩)﴾ [الأنبياء].

لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ ولاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ لأَنَّ أَيْدِيَهم مغْلولَة، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا(٤)﴾ [الإنسان].

---

(١) م(٢١٢/١٩٦/١).

(٢) متفق عليه: خ(٦٥٦١و٦٥٦٢/ ٤١٧/ ١١)، م(٢١٣-٣٦٤-/ ١٩٦/ ١)، ت(٢٧٣١/ ١١٦/ ٤).

وقال تعالى: ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ (٧٢) ﴾ [غافر].

وقال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) ﴾ [الحاقة]، فتُجْمعُ الأيْدي إلى الأعْناقِ، والأرْجلُ إلى القفا، ثُمَّ يُكبُّ على وجْهِهِ في النَّار.

وفيها تعْظُمُ أجْسامُهم وجُلودُهم ليذوقوا الْعذاب:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ»(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَرْفَعُهُ قَالَ: «مَا بَيْنَ مَنْكِبَي الْكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ»(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الْكَافِرِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ»(٣).

وهُم في النَّارِ يُكْسَوْنَ، ويُطْعَمونَ، ويُسْقَوْنَ:

أمَّا كِسْوتُهم فقد قال تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ (١٩) ﴾ [الحج] «أيْ فُصِّلتْ لهم مُقطَّعاتٌ من نار، قالَ سعيدُ بنُ جُبيْر: من نُحاس، وهو أشدُّ الأشْياءِ حرارةً إذا حُمِيَ»(٤).

وقالَ تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) ﴾ [إبراهيم] «أيْ ثِيابُهمُ الَّتي يلْبسونَها منْ قطِران، وهو ألْصقُ شيْءٍ

(١) م(٢٨٥١/ ٢١٨٩/ ٤)، ت(٢٧٠٦/ ١٠٥/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٦٥٥١/ ٤١٥/ ١١)، م(٢٨٥٢/ ٢١٨٩/ ٤).

(٣) صحيح: [ص.ت:٢٥٧٧]، ت(٢٧٠٦/ ١٠٥/ ٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢١٢/ ٣).

بالنَّار، وكانَ ابنُ عبَّاسٍ يقول: القطِرانُ هو النُّحاسُ المُذاب»(١).

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»(٢).

أمَّا طعامُهم فهوَ أنواعٌ مُختلِفة:

منْها: الزَّقُّوم، قالَ الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ(٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ(٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ(٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ(٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ(٤٨) ﴾ [الدخان]، وقالَ تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ(٥١) لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ(٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٥٣) ﴾ [الواقعة]، وقالَ تعالى: ﴿ أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ(٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ(٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ(٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ(٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ(٦٦) ﴾ [الصافات].

ومنْها: الغِسْلين: وهوَ ما يسيلُ منْ جِراحاتِ أهْلِ النارِ منْ دمٍ وقَيْحٍ وصديدٍ قالَ تعالى عنْ صاحبِ الشِّمال: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ(٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ(٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ(٣٧) ﴾ [الحاقة].

ومنْها: الضَّريع: قالَ تعالى: ﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ(٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ(٧) ﴾ [الغاشية] قالَ البُخاريُّ: «الضَّريعُ نَبْتٌ يُقَالُ لَهُ الشِّبْرِقُ، يُسَمِّيهِ أَهْلُ الحجَازِ الضَّريعَ إذا يَبِسَ، وَهُوَ سُمٌّ»(٣).

وأمَّا شربُهم فهوَ أيضًا أنواعٌ مُختلِفة:

---

(١) المصدر السابق (٤٤٥/ ٢).

(٢) م(٩٣٤/ ٦٤٤/ ٢).

(٣) خ(٧٠٠/ ٨) تعليقًا.

منْها: الحَمِيم، وهو الماءُ المَغْليُّ الَّذي اشتدَّتْ درجةُ غلَيانِه، قالَ تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ(١٥)﴾ [محمد]، وقالَ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ(٦٧)﴾ [الصافات]، وقالَ تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الحمِيمِ(٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ(٥٥)﴾ [الواقعة]، وقالَ تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا(٢٩)﴾ [الكهف].

فهُم يشْربونَ الحَميمَ فيُقطِّعُ أمْعاءَهم، ويُصبُّ عليْهم فيُصْهِرُ جلودَهم، كما قالَ تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الحمِيمُ(١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالجلُودُ(٢٠)﴾ [الحج]، وقالَ تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الجحِيمِ(٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الحمِيمِ(٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ(٥٠)﴾ [الدخان].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الحمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الحمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلِتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ، وَهُوَ الصَّهْرُ، ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ»(١).

ومنْها: الصَّديد: قالَ تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ(١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ(١٦) يَتَجَرَّعُهُ ولاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الموْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ(١٧)﴾ [إبراهيم].

ومنْها: الغسَّاق: قالَ تعالى: ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا ولاَ شَرَابًا(٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا(٢٥)﴾ [النبأ]، وقالَ تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ(٥٧) وَءَاخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ(٥٨)﴾ [ص].

وهم بعْدَ ذلكَ التَّعْذيبِ تعْذيبٌ آخرُ بلَسْعِ الحيَّاتِ ولدْغِ العقارِب:

عَنْ عَبدِ الله بْنِ الحارِثِ الزُّبَيْدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ فِي النَّارِ حَيَّاتٍ كَأَمْثَالِ

---

(١) حسن: [ص.تغ:٣٦٧٩]، ت(٢٧٠٨/ ١٠٦/ ٤).

أَعْنَاقِ الْبُخْت، تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا وَإِنَّ فِي النَّارِ عَقَارِبَ كَأَمْثَالِ الْبِغَالِ الموكَفَةِ، تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً»(١).

وهم في هذا العذابِ خالدون، كما قالَ تعالى: ﴿**إِنَّ المجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ**(٧٤) **لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**(٧٥)﴾ [الزخرف]، لا تضْعفُ النَّارُ، ولا تفْنى أجْسامُهم، كما قالَ تعالى: ﴿**مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**(٩٧)﴾ [الإسراء]، وقالَ تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ الله كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**(٥٦)﴾ [النساء].

فلَمَّا آلَمهمُ العذابُ أخَذُوا يبْحثُونَ عَنْ مخْرج، فسأَلُوا مالِكًا وهو كَبِيرُ خزَنةِ النَّار، فلَمْ يجِدُوا عنْدهُ مَخْرجًا، قالَ تعالى: ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**(٧٧)﴾[الزخرف]، فلَمَّا يئسوا منْهُ سألوا خزنةَ النَّارِ أنْ يشْفعوا لهم عنْدَ الله في تخفيفِ العذابِ عنْهم ولوْ يوْمًا واحدًا فلم يُجيبوهم، قالَ تعالى: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ**(٤٩) **قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ**(٥٠)﴾ [غافر]، فلَمَّا يئسُوا مَنْهم قالُوا: إنَّ لنَا إخْوانًا وأبْنَاءً هدَاهمُ الله لِلإسلامِ فدخلوا الجنَّة، فهيَّا نسْألُهم شيْئًا مِمَّا عنْدهم، قالَ تعالى: ﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قَالُوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ**(٥٠)﴾ [الأعراف]، فلَمَّا يئسُوا منَ الخلْقِ قالوا إنَّهُ لا يُنْجيكم مِمَّا أنْتم فيهِ إلاَّ أنْ تدْعوا الله تعالى: ﴿**قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ**(١٠٦) **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ**(١٠٧) **قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ**(١٠٨)﴾ [المؤمنون]، فانْقطعَ الأمل، وخَابَ الرَّجاء، ولم يجِدُوا إلاَّ الصُّراخَ والعويل، والدُّعاءَ بالويْلِ والثُّبور، فقيلَ لهم:

---

(١) حسن: [ص.تغ:٣٦٧٦]، حم(٤٠٧/ ١٦٧/ ٢٤)، وأخرج الجملة الأولى: حب(٢٦١٣/ ٦٤٩)، ك(٥٩٣/ ٤).

﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[الفرقان].

عَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَدْعُونَ مَالِكًا فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا، ثُمَّ يَقُولُ ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فلا يُجِيبُهم مِثْلَ الدُّنْيا ثُمَّ يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، ثُمَّ ييأسُ القومُ، فما هوَ إلاَّ الزَّفيرُ والشَّهيق، تُشْبِهُ أصْوَاتُهُمْ أصْواتَ الحَمِير، أوَّلُها شَهيقٌ وآخِرُها زَفِير»[1].

وَعَنْ عَبْدِ الله بن قَيْسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَبْكُونَ، حَتَّى لَوْ أُجْرِيَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعِهِمْ لَجَرَتْ، وَإِنَّهُمْ لَيَبْكُونَ الدَّمَ-يَعْنِي- مَكَانَ الدَّمْعِ»[2].

ولنْ ينفعَهم هذا البُكاءُ، ولوْ أنَّ أعْيُنَهم جادتْ بهِ في الدُّنْيا مِنْ خشْيةِ الله لحرَّمَ الله أجْسادَهم على النَّار، كما قالَ ﷺ: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله»[3]، ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام].

فأفِقْ أيُّها الغافِل، وانْتبِهْ أيُّها الرَّاقِد، «واعْلمْ أنَّ صِفةَ جهنَّمَ تطول، وأيْسرُ اليسيرِ مِنْ ذلكَ ينْبغي أنْ يكْفي في التَّخْويف، فإنْ كُنتَ مؤمِنًا بهذا فانْتبِهْ لِنفْسِك، وخفْ ما بيْنَ يدَيْك، فإنَّ الله لا يجْمعُ على عبْدٍ خوْفيْن، ولسْنا نعْني بالخَوْفِ رِقَّةَ النِّساء، فتبْكي ساعةً ثُمَّ تتْرُكُ العمل، وإنَّما نُريدُ خوْفًا يمْنعُ عنِ المعاصي، ويحثُّ على الطَّاعة»[4].

---

(١) صحيح: [ص.تغ:٣٦٩١]، ك(٣٩٥/ ٢).

(٢) حسن: [س.ص:١٦٧٩]، ك(٦٠٥/ ٤).

(٣) صحيح: [ص.ت:١٦٣٩]، ت(١٦٩٠/ ٩٦/ ٣).

(٤) مختصر منهاج القاصدين (٤٠٣).

«واعْلم يا مسْكينُ أنَّ الله تعالى خلقَ النَّارَ بأهْوالِها، وخلقَ لها أهْلاً لا يزيدونَ ولا ينْقصُون، وأنَّ هذا أمْرٌ قد قُضِيَ وفُرِغَ منْه، فالعجبُ منْكَ حيْثُ تضْحكُ وتلْهو وتشْتغِلُ بمُحقِّراتِ الدُّنيا، ولسْتَ تدْري بماذا سبقَ القضاءُ في حقِّك، بلْ قد أتاكَ الخبرُ بأنَّ النَّارَ موْرِدُ الجميع، حيْثُ قالَ تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا(٧١) ﴾ [مريم]، فأنْتَ منَ الورودِ على يقين، ومنَ النَّجاةِ في شكٍّ، فاسْتشْعِرْ في قلْبكَ هوْلَ ذلكَ المْوِرد، فعساكَ تسْتَعِدُّ لِلنَّجاةِ منْه.

وإنْ أردْتَ أنْ تعْرفَ هلْ ستنْجو أمْ لا؟ فلكَ علامةٌ تسْتأْنِسُ بها، وتُصدِّقُ رجاءكَ بسبَبِها، وهيَ أنْ تنْظُرَ إلى أحْوالِكَ وأعْمالِك، فإنَّ كُلاًّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له، فإنْ كانَ قد يسَّرَ لكَ سبيلَ الخيْرِ فأبْشِرْ، فإنَّكَ مُبْعدٌ عنِ النَّار، وإنْ كُنْتَ لا تقْصِدُ خيْرًا إلاَّ وتُحيطُ بكَ العوائقُ فتدْفعُه، ولا تقْصدُ شرًّا إلاَّ تيسَّرَ لك، فاعْلم أنَّكَ مقْضِيٌّ عليْك، فإنَّ دلالةَ ذلكَ على العاقِبةِ كدلالةِ المطرِ على النَّبات، ودلالةِ الدُّخانِ على النَّار، فقد قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ(١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ(١٤) ﴾ [الانفطار]، فاعْرِضْ نفسَكَ على الآيتيْن تعْرف مسْتقرَّكَ في الدَّاريْن»[1].

﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا(٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا(٦٦) ﴾ [الفرقان].

﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(١٩٤) ﴾ [آل عمران].

آميـــن

❏ ❏ ❏

(١) الإحياء (٥٣٠-٥٣٥/٤) باختصار وتصرف.

دار السلام (*)

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: «شَهِدْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَجْلِسًا وَصَفَ فِيهِ الجَنَّةَ، حَتَّى انْتَهَى، ثُمَّ قَالَ ﷺ فِي آخِرِ حَدِيثِهِ: فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ اقْتَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(١٦) فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٧) ﴾[السجدة]»[1].

تحدَّثْنا عنِ الصِّراطِ ومرورِ النَّاسِ عليْه، وعرفْنا أنَّهم ثلاثةُ أقْسام: ناجٍ سالم، وناجٍ مخدوش، ومكْدوسٌ في النَّار، ثُمَّ تحدَّثْنا عنْ خُروجِ عُصاةِ المسْلمينَ منَ النَّارِ وحبْسِ الكافرينَ فيها أبدًا، ثُمَّ وصفْنا نارَ الكافرينَ، أعاذنا اللهُ منْها والمسْلمين. فهلْ دخلَ الَّذينَ نجوْا الجنَّةَ أمْ لا؟

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا خَلَصَ المؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا»[2].

إذنْ لم يدْخُلِ الَّذينَ نجَوْا منَ النَّارِ الجنَّةَ مُباشرةً، وإنَّما حُبِسوا على قنْطرةٍ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

فإنْ قالَ قائل: أوَ لسْتَ قد تحدثْتَ عنِ القِصاصِ وأنَّهُ يكونُ قبْلَ الحساب؟ فلماذا تأخَّرِ القِصاصُ بيْنَ هؤلاءِ أهْلِ الجنَّة؟

★ انظر حادي الأرواح لابن القيم.

(١) م(٢٨٢٥/ ٢١٧٥/ ٤).

(٢) خ(٢٤٤٠/١٩٦/ ٥).

فالجوابُ: «أنَّ اللهَ تعالى قد علم أنَّ المظالم الَّتي بيْنهم لا تسْتنْفِدُ حسناتِهم»(١)، وأنّ النُّفوسَ إلى السَّماحةِ فيها أقْربُ منْها إلى طلبِ القِصاص، وإنَّما أرادَ اللهُ تعالى أنْ يتقاصُّوها حتَّى تطْهُرَ قلوبُهم وتخْلُصَ نفُوسُهم، ولا يكونَ في قلْبِ أحدِهم حِقْدٌ ولا كراهيَةٌ لأخيه، حتَّى يكونوا في الجنَّةِ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(٤٧) ﴾ [الحجر]، ولذلكَ قالَ النبيُّ ﷺ: «حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّة»، فيأتونَها فيجِدونَها مُغْلقَة، فيشْفعُ لهم رسُولُ الله ﷺ في دُخولِها، فيُشفِّعُهُ الله، ويأذنُ لهم في دُخولِها.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الجَنَّةِ»(٢).

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ»(٣).

وَعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ! فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبْلَكَ»(٤).

فلا طريقَ لِلجنَّةِ إلاَّ طريقَ النبيِّ ﷺ، فمنِ اتَّبعهُ دخلَ الجنَّة، ومنْ لم يتَّبِعْهُ لم يدْخُلْها، كما قال ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ أَبَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ يَأْبَى قَالَ مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»(٥).

«وقالَ الجنيْدُ: الطُّرقُ كلُّها مسْدودةٌ، إلاَّ طريقَ منِ اقْتفى أثرَ النبيِّ ﷺ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: وعِزَّتي وجلالي! لوْ أتوْني منْ كلِّ طريقٍ، واسْتفْتحوا منْ كلِّ بابٍ، ما فتحْتُ لهم حتَّى يدْخلوا خلْفك»(٦).

(١) التذكرة (٣٣٩).

(٢)،(٣) م(١٩٦/١٨٨/١).

(٤) م(١٩٧/١٨٨/١).

(٥) خ(٧٢٣٨/٢٤٩/١٣).

(٦) طريق الهجرتين (٧).

فإذا دخلَ النبيُّ ﷺ دخلَ أتباعُهُ خلْفه، فيسْبقُ أحدُهم إلى منْزلِهِ في الجنَّةِ بلا دليلٍ يدلُّهُ عليه، حتَّى أقْسمَ النبيُّ ﷺ على أنَّهم بمنازِلهِم في الجنَّةِ أعْرفُ منهم بمنازِلهِم في الدُّنْيا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ [محمد]، «قالَ قتادة: كانَ يُقال: ما يُشْبِهُ بهم إلاَّ أهْلُ الجمُعةِ إذا انْصرفوا منْ جمُعتِهم»(١).

فإذا دخَلُوها وجَدُوا فيها منَ النَّعيمِ ما لا عيْنٌ رأت، ولا أذُنٌ سمِعت، ولا خطرَ على قلْبِ بشر. «وقد وصفَ اللهُ تعالى الجنَّةَ في كتابِهِ وصْفًا يقومُ مقامَ العَيان، في غيْرِ ما سُورةٍ منَ القُرآن، وأكْثرُ ذلكَ في سورةِ الواقِعةِ والرَّحمن، والغاشِيَةِ والإنسان، وبيَّنَ ذلكَ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ بأوْضحِ بيان»(٢)، وسنحاولُ أن نجْملَ هذا الوصْفَ إجْمالاً يحقِّقُ الغرضَ ويفي بالمقْصودِ إنْ شاءَ الله، فنقول:

أعدَّ اللهُ لأوْليائِهِ دارًا في الآخرة، يحْيوْنَ فيها حياةً كريمةً طيِّبة، وسمَّى اللهُ تعالى تلْكَ الدَّارَ بأسْماء:

منْها: الجنَّة، وهو الاسْمُ العامُّ المتناولُ لتلْكَ الدَّارِ وما اشْتملتْ عليهِ منْ أنْواعِ النَّعيمِ واللَّذَّةِ والبهْجة، والسُّرورِ وقُرَّةِ الأعْيُن.

والاسْمُ الثَّاني: دارُ السَّلام، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ (١٢٧) ﴾ [الأنعام]، وقالَ تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) ﴾ [يونس].

والاسْمُ الثَّالث: دارُ الخلْد، لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ في غيْرِ ما آية.

والاسْمُ الرَّابع: دارُ المقامة، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ [فاطر].

(١) فتح الباري (٣٩٩/١١).

(٢) التذكرة (٤٣٨).

والاسْمُ الخامس: جنَّةُ المأوى، قالَ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) ﴾ [النجم].

والاسْمُ السَّادس: جنَّاتُ عدْن، قالَ تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) ﴾ [مريم].

والاسْمُ السَّابع: دارُ الحيوان، قالَ تعالى: ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]، والمرادُ الجنَّةُ عنْدَ أهْلِ التَّفسير.

والاسْمُ الثَّامن: الفِرْدوس، قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) ﴾ [الكهف]، وهذا الاسْمُ يُقالُ على جميعِ الجنَّة، ويُقالُ على أفْضلِها وأعْلاها.

والاسْمُ التَّاسع: جناتُ النَّعيم، قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (٨) ﴾ [لقمان].

والاسْمُ العاشر: المقامُ الأمين، قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) ﴾ [الدخان].

والاسْمُ الحادي عشر: مقْعدُ الصِّدْق، قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ [القمر].

والاسْمُ الثَّاني عشر: قدَمُ الصِّدْق، قالَ تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ (٢) ﴾ [يونس].

وهذِهِ الدَّارُ لها أبْواب، كما قالَ تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا (٧٣) ﴾ [الزمر]، وقالَ تعالى: ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) ﴾ [ص].

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّ الأبْوابَ ثمانية:

عَنْ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ

أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الْوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، إِلاَّ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»[1].

كما بيَّنَ ﷺ أنَّ لكلِّ أهْلِ عملٍ صالحٍ بابًا واحدًا يدْخلونَ منْه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الجنَّةِ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الجهَادِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ! مَا عَلَى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ! فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ كُلِّهَا؟ قَالَ: نَعَمْ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ»[2].

والجنَّةُ واسِعةٌ جدًّا، يظْهرُ ذلكَ جليًّا منْ قوْلِهِ تعالى: ﴿ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ(٢١) ﴾ [الحديد]، كما يظْهرُ ذلكَ أيضًا منْ قوْلِهِ ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الجنَّةِ دُخُولاً، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ كَبْوًا فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الجنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا، أَوْ إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي أَوْ تَضْحَكُ مِنِّي وَأَنْتَ الملِكُ؟! فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ وَكَانَ يَقُولُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجنَّةِ مَنْزِلَةً»[3].

وهيَ درجاتٌ بعْضُها فوْقَ بعْض، قالَ تعالى: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً(٢١) ﴾ [الإسراء].

(١) م(٢٣٤/ ٢٠٩/ ١).

(٢) متفق عليه: خ(١٨٩٧/ ١١١/ ٤)، م(١٠٧٢/ ٧١١و٧١٢/ ٢)، ت(٣٧٥٦/ ٢٧٦/ ٥)، ن(٢٢و٢٣/ ٦).

(٣) متفق عليه: خ(٦٥٧١/ ٤١٨و٤١٩/ ١١)، م(١٨٦/ ١٧٣/ ١)، جه(٤٣٣٩/ ١٤٥٢و١٤٥٣/ ٢).

وقال تعالى: ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالمجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ المجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَفَضَّلَ اللهُ المجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا(٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا(٩٦)﴾ [النساء].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فِي الجنَّةِ مِائَةُ دَرَجَة، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مِائَةُ عَامٍ»(١).

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فِي الجنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ»(٢).

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ صِفةَ بنائها فقال: «لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَملاَطُهَا المسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ، وَالْيَاقُوتُ وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ»(٣).

وأخبرَ اللهُ تعالى أنَّ الجنَّةَ غُرفٌ بعْضُها فوْقَ بعْض، فقالَ تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَولاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ(٣٧)﴾ [سبأ]، وقالَ تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ الميعَادَ(٢٠)﴾ [الزمر]، وقالَ تعالى: ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللهِ لاَ يُخْلِفُ اللهُ الميعَادَ(٢٠)﴾ [العنكبوت].

عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ فِي الجنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا. فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لمنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: لمنْ أَطَابَ الْكَلاَمَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى للهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(٤).

---

(١) صحيح: [ص.ت:٢٥٢٩]، ت(٢٦٤٩/ ٨١/ ٤).

(٢) صحيح: [ص.ت:٢٥٣١]، ت(٢٦٥١/ ٨٢/ ٤).

(٣) حسن لغيره: [ص.تغ:٣٧١١]، ت(٢٦٤٦/ ٧٩/ ٤).

(٤) حسن: [ص.ت:١٩٨٤]، ت(٢٠٥٠/ ٢٣٨/ ٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الخدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الجنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ المشْرِقِ أَوِ المغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المرْسَلِينَ»[1].

وفي الجنَّةِ خيام، قال تعالى: ﴿ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَامِ(٧٢) ﴾ [الرحمن].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلمؤْمِنِ فِي الجنَّةِ لخيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلاً، لِلمؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المؤْمِنُ، فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[2].

وفي الجنَّةِ أنهارٌ جارية، وأشجارٌ وارفة، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الجنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا(٣٥) ﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ الجنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لم يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ(١٥) ﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ(١) ﴾ [الكوثر].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجنَّةِ حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ، وَالْيَاقُوتِ تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ»[3].

عَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجنَّةِ بَحْرَ الماءِ، وَبَحْرَ الْعَسَلِ، وَبَحْرَ اللَّبَنِ، وَبَحْرَ الخمْرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الأَنْهَارُ بَعْدُ»[4].

---

(١) متفق عليه: خ(٢٣٥٦/ ٣٢٠/ ٦)، م(٢٨٣١/ ٢١٧٧/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٤٨٧٩/ ٤٦٢/ ٨)، م(٢٨٣٨/ ٢١٨٢/ ٤)، ت(٢٦٤٨/ ٨١/ ٤).

(٣) صحيح: [ص.ت:٣٣٦١]، ت(٣٤١٩/ ١١٩و١٢٠/ ٥)، جه(٤٣٣٤/ ١٤٥٠/ ٢).

(٤) صحيح: [ص.ت:٢٥٧١]، ت(٢٦٩٠/ ١٠٠/ ٤).

وَعَـنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ رَضِي اللهُ عَنْـهُ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا سَـأَلْتُمُ اللهَ فَاسْـأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجنَّةِ، وَأَعْلَى الجنَّةِ، فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجنَّةِ»(١).

وَعَنْ أَنَسٍ بنِ مَالِكٍ قَالَ: «لَعَلَّكُم تَظُنُّونَ أَنَّ أَنْهَارَ الجنَّةِ أُخْدُودٌ فِي الأَرْضِ؟ لاَ وَاللهِ، إِنَّهَا لَسَائِحَةٌ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، إِحْدَى حَافَّتَيْهَا اللُّؤْلُؤ، والأُخْرَى اليَاقُوتُ، وطِينُهُ المِسْكُ الأَذْفَرُ. قَالَ: قُلْتُ: مَا الأَذْفَرُ؟ قَالَ: الَّذِي لاَ خَلْطَ فِيهِ»(٢).

وَعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «إِنَّ فِي الجنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠)﴾[الواقعة] وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ فِي الجنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَوْ تَغْرُبُ»(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الجوَادَ المضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا»(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا فِي الجنَّةِ شَجَرَةٌ إِلاَّ وَسَاقُهَا مِنْ ذَهَبٍ»(٥).

وَعَنْ عُتْبَةَ بنِ عَبْدٍ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: مَا حَوْضُكَ الَّذِي تُحَدِّثُ عَنْهُ؟ فَقَالَ: هُوَ كَمَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى بُصْرَى، ثُمَّ يَمُدُّنِي اللهُ فِيهِ بِكُرَاعٍ، لاَ يَدْرِي بَشَرٌ مِمَّنْ خُلِقَ أَيُّ طَرَفَيْهِ. فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللهِ! فِيهَا فَاكِهَةٌ؟ قَالَ: «نَعَم، وفِيهَا شَجَرَةٌ تُدْعَى طُوبَى، هِيَ تُطَابِقُ الفِرْدَوْسَ. فَقَالَ: أَيَّ شَجَرِ أَرْضِنَا تُشْبِهُ؟ قَالَ: لَيْسَ تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ، ولَكِنْ أَتَيْتَ الشَّامَ؟ قَالَ: لاَ يَا رَسُول اللهِ! قَالَ: فَإِنَّهَا تُشْبِهُ شَجَرَةً بِالشَّامِ تُدْعَى (الجوْزَة)، تُنْبِتُ عَلَى

(١) خ(٢٧٩٠/ ١١/ ٦).

(٢) صحيح: [ص.تغ:٣٧٢٣].

(٣) خ(٣٢٥٢/ ٣١٩و٣٢٠/ ٦).

(٤) متفق عليه: خ(٦٥٥٣/ ٤١٦/ ١١)، م(٢٨٢٨/ ٢١٧٦/ ٤).

(٥) صحيح: [ص.ت:٢٥٢٥]، ت(٢٦٤٥/ ٧٩/ ٤).

سَاقٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَنْتَشِرُ أَعْلاَهَا. قَالَ: فَمَا عِظَمُ أَصْلُهَا؟ قَالَ: لَوْ ارْتَحَلَتْ جَذَعَةٌ مِنْ إِبِلِ أَهْلِكَ، لما قَطَعَتْها حَتَى تَنْكَسِرَ تَرْقُوَتُهَا هَرَمًا. قَالَ فِيهَا عِنَبٌ؟ قَالَ: نَعَم. قَالَ: فَمَا عِظَمُ العُنْقُودِ مِنْهَا؟ قَالَ: مَسِيرَةُ شَهْرٍ للْغُرَابِ الأَبْقَع، لاَ يَقَعُ وَلاَ يَنْثَنِي وَلاَ يَفْتُر. قَالَ: فَمَا عِظَمُ الحَبَّةُ مِنْهُ؟ قَالَ: هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ مِنْ غَنَمِهِ تَيْسًا عَظِيمًا؟ قَالَ: نَعَم. قَالَ: فَسَلخ إِهَابَهُ، فَأَعْطَاهُ أُمَّكَ؟ فَقَالَ: ادْبُغِي هَذَا، ثُمَّ افْرِي لَنَا مِنْهُ ذَنُوبًا نَرْوِي بِهِ مَاشِيَتِنَا؟ قَالَ: نَعَم. قَالَ: فَإِنَّ تِلْكَ الحَبَّةُ تُشبِعُنِي وَأَهْلَ بَيْتِي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَعَامَّةُ عَشِيرَتَكَ»[1].

ولذلك لما قَامَ ﷺ لصَلاةِ الكُسُوفِ عُرِضَتْ علَيْه الجَنَّةُ فتقَدَّمَ ثُمَّ تأَخَّر، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ الله! رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيئًا فِي مُقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ، قَالَ: إِنِي رَأَيْتُ الجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لأَكَلْتُم مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا»[2].

وقد ذكر الله تعالى فواكه الجنة فقال: ﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ(٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ(٤٢)﴾[المرسلات].

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللهِ المُخْلَصِينَ(٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ(٤١)فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ(٤٢)﴾[الصافات].

وقال تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلمتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ(٤٩)جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ(٥٠)مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ(٥١)﴾[ص].

وقال تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ(١٧)بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ(١٨)لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ(١٩)وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ(٢٠)وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ(٢١)وَحُورٌ عِينٌ(٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المكْنُونِ(٢٣)جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(٢٤)لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا(٢٥)إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا(٢٦)وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ(٢٧)فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ(٢٨)وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ(٢٩)وَظِلٍّ مَمْدُودٍ(٣٠)وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ(٣١)وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ(٣٢) لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ(٣٣)﴾[الواقعة].

---

(١) صحيح لغيره: [ص.تغ:٣٧٢٩].

(٢) متفق عليه: خ(١٠٥٢/ ٥٤٠/ ٢)، م(٩٠٧/ ٦٢٦/ ٢)، ن(١٤٦-١٤٨/ ٣).

وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلما رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٥) ﴾[البقرة].

وقال تعالى: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً(١٤) ﴾[الإنسان].

أَمَّا لِباسُهم وحُلِيُّهم، فقَدْ قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً(٣٠)أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا(٣١) ﴾[الكهف].

وقالَ تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ(٢١) ﴾[الإنسان].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ خَلِيلِي ﷺ يَقُولُ: «تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ»[1].

«وقالَ الحسن: الحِلْيةُ في الجنَّةِ على الرِّجالِ أحْسنُ منْها على النِّساء»[2].

وهُم فيها أَسِرَّةٌ، كما قالَ تعالى: ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ(١٣) ﴾ [الغاشية].

وقالَ تعالى: ﴿ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ(٣٤) ﴾ [الواقعة].

وقالَ تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ(٢٠) ﴾ [الطور].

وقالَ تعالى: ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ(١٥)مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ(١٦) ﴾ [الواقعة].

وقالَ تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ(١٣) ﴾ [الإنسان].

---

(١) م(٢٥٠/ ٢١٩/ ١)، ن(٩٣/ ١).

(٢) حادي الأرواح (١٤٧).

وقالَ تعالى: ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ(٥٤) ﴾ [الرحمن]، «عنِ ابنِ مسعودٍ قال: أُخبرْتُم بالبطائن، فكيفَ بالظَّهائر؟»[1].

وفي الجنَّةِ يُزوِّجُ اللهُ أهْلَها حتَّى لا يبْقَى فيها أعْزب، فمنْ كان لهُ أزْواجٌ مؤْمناتٌ في الدُّنْيا كُنَّ معهُ في الجنَّة، كما قالَ تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ(٢٣) ﴾ [الرعد].

ومن لم يكنْ لهُ أزْواجٌ في الدُّنْيا زوَّجهُ اللهُ تعالى مِمَّنْ لم يكن لها زوْجٌ في الدُّنْيا، ثُمَّ يُزوِّجُ اللهُ تعالى رجالَ الجنَّةِ أجْمعينَ من الحُورِ العِين، كما قالَ تعالى: ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ(٥٤) ﴾ [الدخان]، وقد وصفَهنَّ اللهُ تعالى بوصْفٍ جَعلَهنَّ في غايةِ الحُسْنِ والجمال، فقالَ تعالى: ﴿ وَحُورٌ عِينٌ(٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ المكْنُونِ(٢٣) ﴾ [الواقعة]، وقالَ تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ(٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ(٤٩) ﴾ [الصافات]، وقالَ تعالى: ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالمرْجَانُ(٥٨) ﴾ [الرحمن].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الحُسْنِ»[2].

وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلملأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا يَعْنِي الخِمَارَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[3].

ولهم فيها خدمٌ يخْدُمونهم، ويأتونهم بما يشْتَهون منَ المطاعم والمشاربِ والملابسِ وغيْرِها، قالَ تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ(٢٤) ﴾ [الطور]، وقال تعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا(١٩) ﴾ [الإنسان]، فإذا كانَ هذا جمالَ الخادمِ! فما بالُكَ بجمالِ المخْدوم؟!

---

(١) حسن موقوف: [ص.تغ:٣٧٤٦]، وعزاه المنذري للبيهقي.

(٢) متفق عليه: خ(٣٢٤٦/ ٣١٨/ ٦)، م(٢٨٣٤/ ٢١٧٩/ ٤)، جه(٤٣٣٣/ ١٤٤٩/ ٢).

(٣) خ(٦٥٦٨/ ٤١٨/ ١١)، ت(١٦٩٩/ ١٠٠/ ٣).

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ»(١).

فهذا ما أعدَّ اللهُ لأوليائهِ في الجنَّةِ منَ النَّعيم، فهم بهِ مشغولون، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الجنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ(٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ(٥٧) ﴾ [يس].

فهم يأكلونَ ويشربونَ ويُجامِعون، حتَّى إنَّ أحدَهم ليُعْطى قُوَّة مائةِ رجلٍ في الأكلِ والشُّرْبِ والجماع:

عَنْ زَيْدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ! تَزْعُمُ أَنَّ أَهْلَ الجنَّةِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ؟ قَالَ: «نَعَم! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ أَحَدَهُم لَيُعْطَى قُوَّةَ مِائَةِ رَجُلٍ، فِي الأَكْلِ وَالشُّرْبِ والجماعِ». قَالَ: فَإِنَّ الَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ تَكُونُ لَهُ الحاجَة، وَلَيْسَ فِي الجنَّةِ أَذَى؟ قَالَ: «تَكُونُ حَاجَةُ أَحَدِهِم رَشْحًا يَفِيضُ مِنْ جُلُودِهِم كَرَشْحِ المسْكِ، فَيَضْمُرُ بَطْنُهُ»(٢).

فإنْ قالَ قائلٌ: إذا كانَ أهلُ الجنَّةِ يُجامعون، فهلْ يتوالدون؟

فالجوابُ: لا تَوالُدَ في الجنَّةِ إلاَّ إذا اشْتهى الزَّوْجانِ ذلك:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الجنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا يَشْتَهِي»(٣).

ومنْ نعيمِ الجنَّةِ سماعُ الغِناءِ منَ الخيْراتِ الحسان:

عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قَالَ: السَّمَاعُ. وَمَعْنَى السَّمَاعِ مِثْلَ مَا وَرَدَ فِي الحدِيثِ أَنَّ الحُورَ الْعِينَ يُرَفِّعْنَ بِأَصْوَاتِهِنَّ(٤).

(١) صحيح: [ص.ت:٢٥٣٨]، ت(٢٦٦١/ ٨٥/ ٤).

(٢) صحيح: [ص.تغ:٣٧٣٩].

(٣) صحيح: [ص.ت:٢٥٦٣]، ت(٢٦٨٩/ ٩٩/ ٤).

(٤) صحيح الإسناد مقطوعًا: [ص.ت:٢٥٦٥]، ت(٢٥٦٥/ ٢٨/ ١٠) عارضة الأحوذي.

وَعَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الحُورَ العِينَ يُغَنِّينَ يَقُلْنَ: نَحْنُ الحُورُ الحِسَان، هُدِينَا لأَزْوَاجٍ كِرَام»[1].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ مَا سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ. إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ: « نَحْنُ الخَيْرَاتُ الحِسَان، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرَام، يَنْظُرُونَ بِقُرَّةِ أَعْيَان » . وَإِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ: « نَحْنُ الخَالِدَاتُ فَلاَ نَمُتْنَهْ. نَحْنُ الآَمِنَاتُ فَلاَ نَخَفْنَهْ. نَحْنُ المُقِيمَاتُ فَلاَ نَظْعَنَّهْ » »[2].

فهذا شُغْلُ أهلِ الجنَّة: الأكلُ، والشُّرْبُ،والجماع، والسَّماع، وهم مع ذلك الشُّغْل لا يغْفلونَ عنْ ذِكْرِ الله:

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، ولاَ يَتْفُلُونَ ولاَ يَبُولُونَ، ولاَ يَتَغَوَّطُونَ، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ. قَالُوا: فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟ قَالَ جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ»[3].

ولا يزالونَ في هذا النَّعيمِ ما دامتِ السَّمواتُ والأرض، «لا يَمُوتُونَ فِيها لكَمالِ حياتِهم، وكمالِهم في ازْدِيادٍ مِنْ قوَّةِ الشَّباب، ونَضْرةِ الوُجوه، وحُسْنِ الهَيْئة، ولهذا جاءَ في بعْضِ الأحاديثِ أنَّهم لا ينامونَ لئلاَّ يشْتَغِلوا بالنَّوْمِ عنِ الملاذِّ والحياةِ الهَنيئة»[4].

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ »[5].

---

(١) صحيح لغيره: [ص.تغ:٣٧٥٠]، طس(٦٤٩٧/ ٣٩٣/ ٦).

(٢) صحيح: [ص.تغ:٣٧٤٩]، طص(٧٣٤/ ٣٥/ ٢)، طس(٤٩١٧/ ٢٦٦/ ٥).

(٣) م(٢٨٣٥/ ٢١٨٠/ ٤).

(٤) الفتن والملاحم (٣٨٤).

(٥) م(٢٨٣٧/ ٢١٨٢/ ٤)، ت(٣٢٩٧/ ٥١/ ٥).

وَعَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «النَّوْمُ أَخُو الموْتِ، وَلاَ يَنَامُ أَهْلُ الجنَّةِ»(١).

فهنيئًا لهم هذا النَّعيمُ الَّذي يُرْضيهم حتَّى لا ينْتظرونَ غيْرَه، ولكنَّ اللهَ يمنُّ عليْهم بفضْلِه: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الجنَّةِ: يَا أَهْلَ الجنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لم تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ؟ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(٢)، وصدقَ اللهُ العظيمُ حيْثُ قال: ﴿وَعَدَ اللهُ المؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ(٧٢)﴾ [التوبة]، «أيْ: رضا الله عنْهم أكْبرُ وأعْظمُ ممَّا هم فيهِ منَ النَّعيم»(٣).

ومنَ الجديرِ بالذِّكرِ أنَّ منْ هذا النَّعيمِ في الجنَّةِ ما هوَ محُرَّمٌ في الدُّنْيا، كالذَّهبِ والحريرِ، فإنَّهما محُرَّمانِ على الرِّجالِ، وكالخمْرِ والغِناءِ، فإنَّهما محُرَّمانِ على الرِّجالِ والنِّساء، فمنْ أرادَ أنْ يتمتَّعَ بذلكَ في الجنَّةِ فلْيتركْهُ في الدُّنْيا، وإلاَّ حُرِمَهُ في الجنَّةِ إنْ دخلَها: عَنْ عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لاتَلْبَسُوا الحرِيرَ فَإِنَّهُ مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لم يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ»(٤)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَبِسَ الحرِيرَ فِي الدُّنْيَا لم يَلْبَسْهُ فِي الآخِرَةِ، وَمَنْ شَرِبَ الخمْرَ فِي الدُّنْيَا لم يَشْرَبْهُ فِي الآخِرَةِ، وَمَنْ شَرِبَ فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ لم يَشْرَبْ بِهَا فِي الآخِرَةِ»(٥).

اللهمَّ إنَّا نسْألكَ رضاكَ والجنَّةَ، ونعوذُ بكَ منْ سخطِكَ والنَّار، اللهمَّ لا تجْعلْ مُصيبَتنا في دينِنا، ولا تجْعلِ الدُّنْيا أكْبرَ همِّنا ولا مبْلغَ علمنا

آميـن.

❑ ❑ ❑

---

(١) صحيح: [س.ص:١٠٨٧]، وانظر تحقيقه هناك.

(٢) متفق عليه: خ(٦٥٤٩/ ٤١٥/ ١١)، م(٢٨٢٩/ ٢١٧٦/ ٤)، ت(٢٦٨٠/ ٩٤/ ٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٧٠/ ٢).

(٤) متفق عليه: خ(٥٨٣٤/ ٢٨٤/ ١٠)، م(٢٠٦٩-١١-/ ١٦٤١و١٦٤٢/ ٣).

(٥) صحيح: [ص.تغ:٢٠٥٠]، ك(١٤١/ ٤).

رؤية الله في دار السلام

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: تَلاَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَذِهِ الآيَةَ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ وَقَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجُنَّةِ الجُنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجُنَّةِ! إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الجُنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟! قَالَ فَيَكْشِفُ الحجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ يَعْنِي إِلَيْهِ وَلاَ أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ»(1).

تحدَّثْنا عنْ وصْفِ الجنَّةِ في الكتابِ والسُّنَّة، وذكرْنا قوْلَ النبيِّ ﷺ: «فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ اقْتَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾».

فهُم بهذا النَّعيمِ مشْغولون، وعنْهُ راضون، ولا إلى غيْرِهِ يتطلَّعون، لكنَّ الله تعالى قد قال: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(٣٥)﴾ [ق]، «يعْني الزِّيادةَ لهم في النَّعيم مِمَّا لم يخْطرْ ببالِهم. وقالَ جابرٌ وأنسٌ: هوَ النَّظرُ إلى وجْهِ الله عزَّ وجلَّ»(2).

فهذا هوَ الوعْدُ الَّذي وعدَ الله بهِ أهْلَ الجنَّة، فإذا دخلُوها ناداهم مُنادٍ: «يَا أَهْلَ الجُنَّةِ! إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الجُنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟! قَالَ فَيَكْشِفُ الحجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ».

---

(١) م(١٨١/ ١٦٣/ ١)، ت(٢٦٧٦/ ٩٢/ ٤)، جه(١٨٧/ ٦٧/ ١) واللفظ له.

(٢) معالم التنزيل(٢١٨/ ٥).

«فإذا نظروا إليْهِ نسَوْا نعيمَ الجنَّةِ، أيْ لهَوْ عنْهُ بلذَّةِ النَّظرِ إلى وجْهِهِ الكريم، وذلكَ أنَّ ما دونَ الله تعالى لا يُقاوِمُ تجلِّيه، ولوْلا أنَّ الله تعالى يُثبِّتُهم ويُبْقيهم لحلَّ بهم ما حلَّ بالجَبلِ حينَ تجلَّى له»[1].

قالَ الإمامُ النَّوَوِيُّ: «اعْلم أنَّ مذْهبَ أهْلِ السُّنَّةِ بأجْمعِهم أنَّ رُؤْيةَ الله تعالى مُمكنةٌ غيْرُ مُسْتحيلةٍ عقْلاً، وأجْمعوا أيْضًا على وُقوعِها في الآخِرة، وأنَّ المُؤْمنينَ يرَوْنَ الله تعالى دونَ الكافرين.

وزعمتْ طائفةٌ منْ أهْلِ البدعِ والمُعْتزلةُ والخوارجُ وبعْضُ المُرْجئةِ أنَّ الله تعالى لا يراهُ أحدٌ منْ خلْقه، وأنَّ رُؤْيتَهُ مُسْتحيلةٌ عقْلاً، وهذا الَّذي قالوهُ خطأٌ صريحٌ، وجهْلٌ قبيح، وقد تظاهرتْ أدلَّةُ الكتابِ والسُّنَّةِ وإجْماعُ الصَّحابةِ فمنْ بعدهم منْ سلفِ الأُمَّةِ على إثْباتِ رؤْيةِ الله تعالى في الآخِرةِ لِلمؤْمنين، ورواها نحْوٌ منْ عشرينَ صحابيًّا عنْ رسولِ الله ﷺ، وآياتُ القُرْآنِ فيها مشْهورة، واعْتِراضاتُ المُبْتدِعةِ عليْها لها أجْوِبةٌ مشْهورة»[2].

أمَّا أدلَّةُ الكتاب فمنْها: قوْلهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس]، فالحُسْنى الجنَّة، والزِّيادةُ النَّظرُ إلى وجْهِهِ الكريم، كذلكَ فسَّرها رسولُ الله ﷺ الَّذي أُنْزِلَ عليْهِ القُرآنُ الكريم، كما في حديثِ صُهيْب، وكذلكَ فسَّرها الصَّحابةُ رضْوانُ الله عليْهم أجْمعين، منْهم أبو بكْرٍ الصِّديق، وحُذيْفة، وأبو موسى الأشْعريُّ، وابنُ مسْعود، وابنُ عبَّاس، وكعْبُ ابنُ عُجْرة، وأُبيُّ بنُ كعْب، ومنَ التَّابعين: عبدالرحمنِ بنُ أبي ليْلى، وعامرُ بنُ سعيد، والضَّحَّاك، وقتادة، وابنُ المُسيّب، والحسنُ البصْري، وعِكْرمة، ومُجاهد.

---

(١) التذكرة (٤٩٦).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ٣).

ومنْها قوْلهُ تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق].

قالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ وأنسُ بنُ مالكٌ: المزيدُ هوَ النَّظرُ إلى وجْهِ الله عزَّ وجلَّ، وكذلكَ قالَ أُبيُّ بنُ كعْب، وجابر، وحُذيْفة، وزيْدُ بنُ ثابت، وسلمانُ الفارسيُّ، وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ، وأبو أُمامة، وأبو هُريْرة، وابنُ عمر، وابنُ مسْعود، وعائشة، رضيَ الله عنْهم أجمعين.

ومنْها: قوْلُـهُ تعالى في المُكذِّبينَ بيوْمِ الدِّين: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[المطففين]، وَوَجْهُ الاسْتدْلالِ بها على ثُبوتِ رُؤْيةِ المؤْمنينَ أنّهُ سُبْحانهُ وتعالى جعلَ منْ أعْظمِ عُقوبةِ الكُفَّارِ كوْنَهم محْجوبينَ عنْ رُؤْيتِهِ واسْتِماعِ كلامه، فلوْ لم يرهُ المُؤْمنونَ ولم يسْمعوا كلامَهُ كانوا محْجوبينَ عنْه.

عنِ المُزنيِّ قال: سمعْتُ الشَّافِعيَّ يقولُ في قوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين]: فيها دِلالةٌ على أنَّ أوْلياءَ الله يروْنَ ربَّهم يوْمَ القيامة.

وعنْ الرَّبيعِ بنِ سُليْمانَ قال: حضرْتُ الشَّافعيَّ وجاءتْهُ رُقْعةٌ منَ الصَّعيدِ فيها: ما تقولُ في قوْلِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين]؟ فقالَ الشَّافعيُّ: لَمَّا أنْ حجبَ هؤلاءِ في السَّخطِ كانَ في هذا دليلٌ على أنَّ أوْلياءهُ يروْنهُ في الرِّضى. فقُلْتُ: يا أبا عبْدِ الله! وبهِ تقول؟ قالَ: نعم، ولو لم يؤْمنْ محمَّدُ بنُ إدْريسَ أنَّهُ يرى الله لما عبدَ الله عزَّ وجلَّ.

ومنْها: قولهُ تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام]، وهذهِ منَ الآياتِ الَّتي اسْتدلَّ بها المُبْتدعةُ على ما اعْتقدوهُ من نفْيِ الرؤْية.

قالَ شيْخُ الإسْلامِ ابْنُ تيْميَة: وهيَ على جوازِ الرؤْيةِ أدلُّ منْها على انْتفائها، فإنَّ الله تعالى إنَّما ذكرها في سِياقِ التَّمدُّح، ومعْلومٌ أنَّ المدْحَ إنَّما يكونُ بالأوْصافِ الثُّبوتيَّة، وأمَّا العدمُ

المحْضُ فليْسَ بكمالٍ فلا يُمْدحُ به، وإنَّما يُمْدحُ الربُّ تباركَ وتعالى بالْعدمِ إذا تضمَّنَ أمْرًا وُجوديًّا، كمدْحِهِ بنفْيِ السِّنَةِ والنَّوْمِ المُتضمِّنِ كمالَ الْقيُّوميَّة، وفِي الموْتِ المُتضمِّنِ كمالَ الحياة، ونفْيِ اللُّغوبِ المُتضمِّنِ كمالَ القُدْرة، ونفْيِ الظُّلم المُتضمِّنِ كمالَ العدْل، ونفْيِ المِثْلِ المُتضمِّنِ كمالَ ذاتِهِ وصفاتِه، ولهذا لم يُتمدَّحْ بعدمٍ محْضٍ لا يتضمَّنُ أمْرًا ثُبوتيًّا، فإنَّ المعْدومَ يُشاركُ الموْصوفَ في ذلكَ العدم، ولا يُوصفُ الكاملُ بأمْرٍ يشْترِكُ هوَ والمعْدومُ فيه.

فلوْ كانَ المُرادُ بقوْلِهِ: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ أنَّهُ لا يُرى بحالٍ لم يكنْ في ذلكَ مدْحٌ ولاكمال، لِمُشاركةِ المعْدومِ لهُ في ذلك، فإنَّ العدمَ الصِّرْفَ لا يُرى ولا تُدْركهُ الأبْصار، والربُّ جلَّ جلالُهُ يتعالى أنْ يُمْدحَ بما يُشاركهُ فيهِ العدمُ المحْض، فالمعْنى إذًا: أنَّهُ يُرى ولا يُدْرك، ولا يُحاطُ به، كما كانَ المعْنى في قوْلِهِ: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ(٦١) ﴾ [يونس] أنَّهُ يعْلمُ كلَّ شيْء، وفي قوْلِهِ: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ(٣٨) ﴾ [ق] أنَّهُ كاملُ القُدرة، فقوْلهُ: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ يدلُّ على غايةِ عظمتِه، وأنَّهُ أكبرُ من كلِّ شيْء، وأنَّهُ لعظمتِهِ لا يُدْركُ بحيْثُ يُحاطُ به، فإنَّ الإدْراكَ هوَ الإحاطةُ بالشيْء، وهوَ قدْرٌ زائدٌ على الرُّؤْية، كما قالَ تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ(٦٢) ﴾ [الشعراء]، فلم ينْفِ موسى الرُّؤْيةَ لهم، ولم يُريدوا بقوْلِهم ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ إنَّا لمرْئيُّون، فإنَّ موسى نفى إدْراكَهم إيَّاهُ بقوْلِهِ ﴿ كَلَّا ﴾ ، فالرُّؤْيةُ والإدْراكُ كلٌّ منْهما يُوجدُ معَ الآخرِ وبدونه، فالربُّ تعالى يُرى ولا يُدْرك، كما يُعْلمُ ولا يُحاطُ به، وهذا هوَ الَّذي فهِمهُ الصَّحابةُ والأئمَّةُ منَ الآية، قالَ ابنُ عبَّاس: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ لا تُحيطُ بهِ الأبْصار، وقالَ قتادة: هوَ أعْظمُ منْ أنْ تُدْركهُ الأبْصار، وقالَ عطيَّة: ينْظرونَ إلى الله ولا تُحيطُ أبْصارُهم بهِ منْ عظمتِه، وبصرُهُ يُحيطُ بهم.

ومنْها: قوْلهُ تعالى لِموسى حينَ سألهُ الرُّؤْيةَ: ﴿ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ

مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا(١٤٣)﴾ [الأعراف]، وهيَ أيْضًا مِمَّا اسْتدلَ بِهِ المُبْتدعةُ على نفْيِ الرُّؤْية، واسْتدلَّ بها نفْسِها أهْلُ السُّنَّةِ على إثْباتِها، وذلكَ منْ وُجُوه:

الأوَّل: أنَّهُ لا يُظنُّ بكليمِ الله موسى عليهِ السَّلامُ أنْ يسْأَلَ ربَّهُ ما لا يجوزُ عليْه، بلْ هو منْ أبْطلِ الباطلِ وأعْظمِ المُحال.

الثَّاني: أنَّ الله سُبْحانهُ لم يُنْكرْ على موسى سُؤالَه، ولوْ كانَ مُحالاً لأنْكرَ عليْهِ كما أنْكرَ على نُوحٍ سُؤالَهُ نجاةَ ابنه، ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلم إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦)﴾ [هود].

الثَّالث: أنَّهُ أجابهُ بقوْلهِ: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ولم يقُلْ: إنِّي لا أُرى، ولا إنِّي لسْتُ بمرْئيٍّ، ولا تجوزُ رُؤْيتي، والفرْقُ بيْنَ الجوابيْنِ ظاهرٌ لمنْ تأمَّله، وهذا يدلُّ على أنَّهُ سُبْحانهُ وتعالى يُرى، ولكنَّ موسى لا تحْتمِلُ قواهُ رُؤْيتَهُ في هذهِ الدُّنْيا لِضَعْفِ قُوَّةِ البشرِ فيها عنْ رُؤْيتِهِ تعالى، ولذلكَ قالَ لهُ: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ فأعْلمهُ أنَّ الجبلَ معَ قوَّتهِ وصلابتهِ لا يثْبتُ لتجلِّيهِ لهُ في هذه الدَّا، فكيْفَ بالبشرِ الضَّعيفِ الَّذي خُلِقَ من ضعْف!

الرَّابع: أنَّ الله سُبْحانهُ قادرٌ على أن يجْعلَ الجبلَ مُسْتقرًّا مكانه، وليْسَ هذا بِمُمْتَنعٍ في مقْدورِه، بلْ هو مُمكن، وقد علَّقَ بهِ الرُّؤْية، ولو كانتْ مُحالةً في ذاتِها لم يُعلِّقْها بالمْمكنِ في ذاته.

ومنْها: قوْلهُ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ وهذا منْ أبْينِ الأدلَّةِ على جوازِ رُؤْيتهِ تباركَ وتعالى، فإنَّهُ إذا جازَ أنْ يتجلَّى لِلْجبلِ الَّذي هوَ جمادٌ لا ثوابَ لهُ ولا عِقاب، فكيْفَ يمْتنعُ أنْ يتجلَّى لأنْبيائهِ ورُسلهِ وأوْليائهِ في دارِ كرامتهِ ويُريهم نفْسَه؟!

فأعْلمَ سُبْحانهُ موسى أنَّ الجبلَ إذا لم يثْبُتْ لرُؤْيتهِ في هذهِ الدَّار فالْبشرُ أضْعف.

ومنْها: أنَّ الله سُبْحانهُ قد كلَّم موسى وخاطبَهُ وناجاهُ وناداه، ومنْ جازَ عليْهِ التَّكلُّمُ والتَّكْليمُ، وأنْ يُسْمِعَ مُخاطبَهُ كلامَهُ معهُ بغيْرِ واسطةٍ فرُؤْيتُهُ أوْلى بالجواز، ولهذا لا يتمُّ إنْكارُ الرُّؤْيةِ إلاَّ بإنْكارِ الكلام، وقد جمعَ بيْنهما المُبْتدعة.

وأمَّا دعْواهم تأبيدَ النَّفي بـ«لن»، وأنَّ ذلكَ يدلُّ على نفْيِ الرُّؤْيةِ في الآخرةِ ففاسد، فإنَّها لوْ قُيِّدتْ بالتَّأْبيدِ لا تدلُّ على دوامَ النَّفْيِ في الآخرة، فكيْفَ إذا أُطْلِقت؟

قالَ الله تعالى في اليهودِ وعدمِ تمنِّيهمُ الموْتَ في الدُّنْيا: ﴿ **وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ(٩٥)** ﴾ [البقرة].

ثُمَّ أخْبرَ أنَّهم سيتمنَّوْهُ في الآخرة، فقالَ تعالى: ﴿ **وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(٧٧)** ﴾ [الزخرف].

وأمَّا الأحاديثُ عنِ النبيِّ ﷺ وأصْحابهِ الدَّالَّةِ على الرُّؤْيةِ فمُتواترة، رواها عنِ النبيِّ ﷺ: أبُو بكرٍ الصِّديق، وأبو هُريْرة، وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ، وجريرُ بنُ عبدِ الله البجليُّ، وصُهيْبٌ الرُّوميُّ، وابنُ مسْعود، وعليٌّ، وأبو موسى الأشْعريُّ، وغيرُهم ممَّنْ بلغَ عددُهم بضْعًا وعشْرينَ صحابيًّا.

عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِالله قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ: أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِه، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا، ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب ﴾[1].

---

(١) متفق عليه: خ(٥٧٣/ ٥٢/ ٢)، م(٦٣٣/ ٤٣٩/ ١)، د(٤٧٠٣/ ٥١/ ١٣)، ت(٢٦٧٥/ ٩٢/ ٤)، جه(١٧٧/ ٦٣/ ١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلاَّ كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا»[1].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا؟ قُلْنَا لاَ قَالَ: فَإِنَّكُمْ لاَ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلاَّ كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا»[2].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[3].

فهذهِ الأحاديثُ قد دلَّتْ على ثُبوتِ الرُّؤْيةِ لأهْلِ الجنَّة، كما دلَّتْ على كلامِ الله تعالى معهم، وتلْكَ كرامةٌ أُخرى، ترْجمَ لها البُخاري في صحيحهِ[4] فقال: «بابُ كلامِ الرَّبِّ تباركَ وتعالى معَ أهْلِ الجنَّة» ، ثُمَّ أسْندَ عدَّةَ أحاديث، فنسْألُ الله العظيمَ منْ فضْله.

وقد وردَ أنَّ هذهِ الرُّؤْيةَ تقعُ لأهلِ الجنَّةِ كلَّ يوْمِ جُمعة، ولذلكَ سُمِّيَ يومَ المزيد.

قالَ ابنُ كثيرٍ في قوْلهِ تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق]، قالَ:

---

(١) م(٢٩٦٨/ ٢٢٧٩/ ٤).

(٢) متفق عليه: خ(٧٤٣٩/ ٤٢٠-٤٢٢/ ١٣)، م(١٨٣/ ١٦٧-١٧١/ ١).

(٣) متفق عليه: خ(٤٨٧٨/ ٦٢٤/ ٨)، م(١٨٠/ ١٦٣/ ١)، ت(٢٦٤٨/ ٨١/ ٤)، جه(١٨٦/ ٦٦و٦٧/ ١).

(٤) خ(٤٨٧/ ١٣)

«هوَ كقوْلِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس]، وقد تقدَّم عنْ صُهيْبٍ أنَّها النَّظرُ إلى وجْهِ الله الكريم.

وروى البزَّارُ وابنُ أبي حاتمٍ عنْ أنسٍ في قوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: يظْهرُ لهمُ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ في كلِّ جمُعة. وقد رواهُ الإمامُ الشَّافعيُّ مرْفوعًا عنْ أنس»[1].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ وَفِي يَدِهِ كَهَيْئَةِ المرْآةِ الْبَيْضَاءِ فيهَا نُكْتةٌ سَوْداء. فَقُلْتُ: مَا هذِهِ يَا جِبْرِيل؟ قَالَ: هَذهِ الجُمعَة، بَعثَ بِهَا ربُّكَ إلَيْك، تَكونُ عِيدًا لكَ وَلأمَّتِكَ بَعْدَك. فَقُلْتُ: مَا لنَا فِيها؟ فقَالَ: لكُم خَيْرٌ كَثِير، أَنْتُمُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَفيهَا سَاعَةٌ لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يُصلِّي يَسْأَلُ الله فِيهَا شَيْئًا إلاَّ أعْطَاهُ إيَّاه. فَقُلْتُ: مَا هَذهِ النُّكْتَةُ السَّوْداء؟ قالَ: هَذهِ السَّاعةُ تَقُومُ يَوْمَ الجُمُعَة، وهُوَ سَيِّدُ الأيَّام، ونَحْنُ نُسَمِّيهِ يَوْمَ المزِيد. قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ: مَا المزِيد؟ قال: ذَلِكَ أنَّ ربَّكَ اتَّخَذَ فِي الجَنَّةِ وَادِيًا أفْيَح، مِنْ مِسْكٍ أبْيَض، فإذَا كانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ مِنْ أيَّامِ الآخِرَةِ يَهْبِطُ الرَّبُّ تبَاركَ وتَعالى عَنْ عَرْشِهِ إلى كُرْسِيِّهِ وَحَفَّ الكُرْسِيَّ بِمَنابِرَ مِنْ نُورٍ والحاصِلُ علَيْهَا النَّبِيُّون، وَحُفَّتِ المنابِرُ بِكَرَاسِيَّ مِنْ ذَهَبٍ وَالحاصِلُ علَيْها الشُّهَدَاءِ ويَهْبِطُ أَهْلُ الغُرَفِ مِنْ غُرَفِهم فَيَجْلِسُونَ على كُثْبَانِ المِسْكِ لايَرونَ لأهْلِ الكرَاسِيِّ والمنَابِرِ علَيْهم فَضْلاً فِي المَجْلِس، ويَبْدُو لهُمْ ذُو الجَلالِ والإكْرَامِ فَيَقُولَ سَلُونِي فَيَقُولُونَ نَسْأَلُكَ الرِّضَا يَا رَب. فيَقُولُ: رِضَائِي أحلَّكم دَارِي وأنَالكُم كَرَامَتِي، ثُمَّ يقُولُ: سَلُونِي، فَيَقُولُونَ بأجْمَعِهِم: نَسْأَلُكَ الرِّضَا فَيُشْهِدُهُم علَى الرِّضَا، ثُمَّ يقُولُ: سَلُونِي، فَيَسْأَلُونَه حتَّى تَنْتَهِي رَغْبَتُهم. فَيَفْتَحُ لهُم عِنْدَ ذلِكَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ولاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ولاَ خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَرٍ إلَى مِقْدَارِ مُنْصَرفِ النَّاسِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، ثُمَّ يَصْعَدُ الرَّبُ تَبَارَكَ وتَعَالَى عَلَى كُرْسِيِّهِ، فَيَصْعَدُ مَعَهُ الشُّهَدَاءُ والصِّدِّيقُونَ- أَحْسَبُهُ قَالَ- وَيَرْجِعُ أَهْلُ الغُرَفِ إلَى غُرَفِهِم دُرَّةٍ بَيْضَاء، لا فَصْمَ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢٢٨/ ٤).

فيها ولا وَصْمَ أَوْ يَاقُوتَةٍ حَمْراء، أَوْ زُبُرْجُدَةٍ خَضْراءِ، مَنْها غُرَفُها وأَبْوَابُها، مَطَّرِدَةٌ فِيها أَنْهارُها، مُتدلِّيَةٌ فِيهـا ثِمارُهـا، فِيهـا أَزْوَاجُهـا وخَـدمُها، فَلَيْسُـوا إِلَى شَيْءٍ أَحْـوجَ مِـنْهُم إِلَى يَـوْمِ الجُمُعَةِ ليزْدَادُوا فِيه كَرامةً، وليزْدَادُوا فِيه نَظَرًا إِلَى وَجْهِه تَبَارَك وتَعَالَى، ولذَلِكَ دُعِيَ (يَوْمُ المَزِيد) »[1].

قالَ ابنُ القيِّم: هذا حديثٌ عظيمُ الشَّأنِ، رواهُ أئمَّةُ أهْلِ السُّنَّةِ وتلقَّوْهُ بالقبول، وجمَّل بهِ الشَّافعيُّ مُسْندَه.

فإذا رجعَ أهْلُ الجنَّةِ إلى منازلِهِم وجدوا أهْلَهـم قـدِ ازدادوا بعْـدهم حُسْنًا وجمالاً، ورأوْهم أهْلوهم قدِ ازدادوا بعْدهم حُسْنًا وجمالاً:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُم: وَالله لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَالله لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالاً»[2].

وهكذا ثبتَتِ الرُّؤْيةُ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجْماعِ سلفِ الأمَّة، فوجبَ الإيمانُ بها، وقطْعُ الأوْهامِ والأفْهامِ عنْ مُحاولةِ معْرِفَةِ كيْفيَّتِها، ولذلكَ قالَ الإمامُ الطَّحاويُّ -رحمهُ الله-: «والرُّؤْيةُ حقٌّ لأهْلِ الجنَّة، بغيْرِ إحاطةٍ ولا كيفيَّة، كما نطقَ بهِ كتابُ ربِّنا، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة]، وتفْسيرُهُ على ما أرادَ الله تعالى وعلِمه، وكلُّ ما جاءَ في ذلكَ منَ الحديثِ الصَّحيحِ عنِ النبيِّ ﷺ فهوَ كما قال، ومعْناهُ على ما أراد، لا ندْخلُ في ذلكَ مُتأوِّلينَ بآرائنا، ولا مُتوهِّمينَ بأفْهامنا، فإنَّهُ ما سلِمَ في دينهِ إلاَّ منْ سلَّمَ لله عزَّ وجلَّ، وردَّ علم ما اشْتبهَ عليْهِ إلى عالِمه.

---

(١) حسن لغيره: [ص.تغ:٣٧٦١]، فع(٢٠٨و٢٠٩)، طس(٦٧١٧/ ٤٦و٤٧/ ٧)، بز(٣٥١٩/ ١٩٤-١٩٦/ ٤).

(٢) م(٢٨٣٣/ ٢١٧٨/ ٤).

ولا يصِحُ الإيمانُ بالرُّؤْيةِ لأهْلِ دارِ السلامِ لمنِ اعْتبرَها منهم بوهْم، أوْ تأوَّلَها بفهْم، إذْ كانَ تأويلُ الرُّؤْيةِ وتأويلُ كلِّ معْنىً يُضافُ إلى الرُّبوبيَّةِ بتَرْكِ التأويل، ولُزوم دينِ المسْلمين»[1].

«فنَسْألُ الله النَّعيمَ والنَّظر لربِّنا منْ غيْرِ ما شيْنٍ غبَر
فإنَّهُ يُنْظَرُ بالأبْصارِ كما أتى في النَّصِّ والأخْبارِ
لأنَّهُ سُبْحانَهُ لمْ يُحْجبِ إلاَّ عنِ الكافرِ والمُكذِّبِ»[2].

❑ ❑ ❑

(١) الطحاوية. تعليق الألباني (٢٦-٢٨).

(٢) لوامع الأنوار البهية (٢٤٠-٢٤٤/٢).

اختيار الأصدقاء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[1].

إِنَّ الإنْسانَ لا يَسْتَغْنِي عن النَّاس، وإِنَّ الفرْدَ لا يَسْتَغْنِي عَنْ الجَماعة، وإِنَّ الإنْسانَ لا يَسْتطِيعُ أَنْ ينزَوِيَ فِي قَعْرِ بَيْتِه ويعْتَزِلَ عن النَّاس، فالإنْسانُ كما يقُولُونَ مَدَنِيٌّ بطَبْعِه، يُحِبُّ الألْفَةَ والاجْتِماع، ويكْرَهُ العُزْلةَ والانْقِطَاع.

ولَمَّا كَانَ الإسْلاَمُ دينًا شاملاً، ولَيْسَ مُجَرَّدَ طقُوسٍ دينيَّةٍ تُؤدَّى في المساجدِ فحَسْب، فقَدْ نظَّمَ الإسْلاَمُ شُئُونَ الحياةِ كُلَّها، فنظَّمَ علاَقةَ الفَرْدِ بربِّه، وعلاقةَ الفَرْدِ بمُجْتَمَعِه، وأَمرَ المُسْلِمَ أَنْ يُقِيمَ علاقتَه بالآخرِينَ علَى أَسَاسٍ من الدِّين، فيصلَ مَنْ يَصِلُ مَا بَيْنه وَبَيْنَ الله، ويَقْطَعَ مَنْ يَقْطَعُ مَا بَيْنه وَبَيْنَ الله، حَتَّى يكُونَ حُبُّه لله، وبُغْضُه لله، وذلكَ أَوْثَقُ عُرَى الإيمان:

عن ابن عباس قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ : «أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الحُبُّ فِي الله، والبُغْضُ فِي الله»[2].

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لله وَأَبْغَضَ لله وَأَعْطَى لله وَمَنَعَ لله فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»[3].

والإسْلامُ حِينَ يُكلِّفُ المُسْلِمَ أَنْ ينْتَقِيَ أَصْحَابَه وخِلاَّنَه إِنَّما يُرِيدُ بذلِكَ الحِفَاظَ علَى المُسْلِمِ نَفْسِه مَنْ الفِتَن، لأَنَّ «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ**» «أيّ علَى عَادَةِ صَاحِبِه وطَرِيقَتِه وسِيرَته، فإِنَّ الطِّباعَ سرَّاقَة، والصُّحْبَةَ تُؤثِّرُ في إصْلاحِ الحَالِ وفَسَادِه، قَالَ الغَزَالِيُّ: مُجَالسَةُ الحَرِيصِ ومُخَالَطتُه تُحرِّكُ الحِرْصَ، ومُجَالسَةُ الزَّاهِدِ ومُخالطَتُه تُزهِّدُ في الدُّنْيا»[4].

---

(١) حسن: [ص.ت:٢٣٧٨]، ت(٢٤٨٤/ ١٧/ ٤)، د(٤٨١٢/ ١٧٩/ ١٣).

(٢) حسن: [ص.ج:٢٥٣٦]، طب(١١٥٣٧/ ٢١٥/ ١١).

(٣) صحيح: [ص.د:٣٩١٥]، د(٤٦٥٥/ ٤٣٨/ ١٢).

(٤) تحفة الأحوذي (٤٩/ ٧)، إحياء علوم الدين (١٧٣/ ٢).

وكَثِيرًا مَا يَسِيرُ الإنسانُ فِي الطَّرِيقِ الَّذِي لاَ يَهْواهُ نُزُولاً علَى رَغْبَةِ صَاحِبَه، وإنَّ للعَدْوَى فِي الأخْلاقِ قَانُونًا كَمَا هيَ فِي الأجْسَام، وإذَا كانَتِ الأمْرَاضُ الحِسيَّةُ تَنْتَقِلُ مِنَ المَرِيضِ إلَى السَلِيمِ بإذْنِ الله، فكذلِكَ الأمْرَاضُ القَلْبِيَّةُ الخُلُقِيَّة، بلْ إنَّ تَأْثِيرَ مَرِيضِ القَلْبِ سَيِّئِ الخُلُقِ في النَّاسِ أَشدُّ وأَسْرَع، والدَّلِيلُ مِنَ الوَاقِعِ أَنَّهُ لَوْ صَاحِبَ رَجلٌ غَيْرُ مُدَخِّنٍ رِجَالاً مُدخِّنِينَ -مَثلاً- لَرَأيْتَهُ بَعْدَ أَيَام قَلِيلةٍ مِنْ جُمْلَتِهم، والعَكْسُ نَادِر، بَلْ إنَّ الإنْسَانُ لَيخْرجُ مِنْ مَذْهَبِهِ إلَى مَذْهَبِ صَاحِبه، ويَتْرِكُ فِكْرَه لفِكْره، بلْ قَدْ يتْرِكُ دِينَه بسَبَبِ صَاحِبه، ولنَا فِي ذلِكَ إطْلاَلَتَانِ علَى أَهْلِ الجَنَّةِ وأَهْلِ النَّار.

قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ **فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ(٥٠)قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(٥١)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ المصَدِّقِينَ(٥٢)أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٥٣)قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ(٥٤)فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الجَحِيمِ(٥٥)قَالَ تَالله إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ(٥٦)وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ المحْضَرِينَ(٥٧)أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ(٥٨)إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ(٥٩)إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٠)إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(٦٠)لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ(٦١)** ﴾ [الصافات].

يُخْبِرُ تعَالَى عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنَّهُ أَقْبَلَ بَعْضُهم علَى بَعْضٍ يتَسَاءلُونَ أَيْ عَنْ أَحْوالِهم وكَيْفَ كَانُوا في الدُّنْيا، ومَاذَا كَانُوا يُعَانُون فِيها، وذَلِكَ فِي حَدِيثِهم علَى شَرابِهم واجْتِمَاعِهم فِي تَنَادُمِهم، ومُعَاشَرتِهم فِي مَجَالِسِهم وهُمْ جُلُوسٌ علَى السُّرُر، والخَدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهم يَسْعَوْنَ ويَجِيئُونَ بكُلِّ خَيْرٍ عَظِيم، مِنْ مَآكَلَ ومشَارِبَ ومَلاَبِسَ وغَيْرَ ذلِك، مِمَّا لاَ عَيْنٌ رَأتْ، ولاَ أُذُنٌ سَمِعَت، ولاَ خَطَرَ علَى قَلْبِ بَشَر»[1].

وقَالَ الألُوسِيُّ: «وقَولُه تعَالَى: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ مَعْطُوفًا علَى قَولِه تعَالَى: ﴿ **يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ(٤٥)**﴾[الصافات]، أَي يَشْرَبُونَ فيَتحادَثُونَ علَى

(١) تفسير القرآن العظيم (٧و٨/ ٤).

الشُّرْبِ كَمَا هُوَ عَادَةُ الْمُجْتَمِعِينَ علَيْه، كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

ومَـا بَقِيَـتْ مِـنَ اللَّـذَاتِ إلاَّ مُحَادَثَـةُ الكِـرَامِ عـلَى الشَّرابِ

وعبَّرَ بالمَاضِي مَعَ أَنَّ الْمُعْطُوفَ علَيْهِ مُضَارِعٌ للإِشْعَارِ بالاعْتِنَاءِ بهَذَا الْمُعْطُوفِ بالنِّسْبَةِ إِلَى المَعْطُوفِ علَيْه، فكَيْفَ لا يُقْبِلُونَ علَى الحَدِيثِ وهُوَ مِنْ أَعْظَمِ لذَّاتِهم الَّتِي يتَعَاطَوْنَهـا، مَعَ مَا فِي ذلِكَ مِنَ الإشَارةِ إِلَى تحُّقِقِ الوقُوعِ حَتْمًا وتَسَاؤلِهم عَنْ المَعَارِفِ والفَضَائِلِ ومَا جَرَى لَهُمْ وعلَيْهم فِي الدُّنْيا، ومَا أَحْلَى تَذكُّرَ مَا فَاتَ عِنْدَ رَفَاهِيةِ الحَالِ وفَراغِ البالِ»[1].

ومِمَّا قَالُوه فِي حَدِيثِهم ذَاكَ قَوْلُ أَحَدِهم: ﴿ **إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ** ﴾ كَافِرٌ مُلحدٌ، ﴿ **لا يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ**(٣٣) ﴾[الحاقة]، ولا يُصدِّقُ بِيَوْمِ الدِّين، ﴿ **يَقُولُ** ﴾ كُلَّمَا جَالَسْتُه ﴿ **أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ**(٥٢) **أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ** ﴾ «أي مُجَازُونَ بأَعْمَالِنا؟ أيْ: كيْفَ تُصدِّقُ بهَذَا الأمْرِ البَعِيد، الَّذِي فِي غَايةِ الاسْتِغْراب، وهُوَ أَنَّنَا إذَا تمزَّقْنا فصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أَنَّنا نُبْعثُ ونُعاد، ثُمَّ نُحاسَبُ ونُجازَى بأعْمالِنا»[2].

وهذهِ شُبْهتُهم الَّتِي صدَّتْهم عنِ الإيمانِ بالبعْثِ بعْدَ الموْت، أنَّهم يموتونَ وتأكلُهم الأرض، فكيْفَ يتميَّزونَ منْها، وتُجْمعُ عِظامُهمُ الباليَة، وتُعادُ إليْهم أرْواحُهم الَّتي فارقَتْهم؟

وإنَّما أوتوا منْ قِياسِهم عِلم الله بعلمهم، وقُدْرةَ الله بقُدْرتِهم، فلمَّا عجزوا أنْ يُحيطوا عِلما بذرَّاتِ أجْسامِ الأمْوات، وكانوا على يقينٍ تامٍّ -وهوَ الحقُّ- أنَّهُ لا يسْتطيعُ أحدٌ منَ الخلْقِ أنْ يُحْيِيَ العِظامَ وهيَ رَمِيم، أنْكروا البعْثَ، ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**(٦٧) ﴾ [الزمر]، ولو قدَروهُ حقَّ قدْره، وعلِموا أنَّهُ ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**(١١) ﴾ [الشورى] في ذاتِه،و﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ في صِفاتِه، و﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ** ﴾ في أفْعالِه، لعِلموا أنَّ الله بكلِّ شيْءٍ عليم، وأنَّ الله على كلِّ شيْءٍ قدير، كما قالَ سُبْحانه: ﴿ **اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**(١٢) ﴾[الطلاق].

---

(١) روح المعاني (٩٠و٩١/ ٢٣).

(٢) تيسير الكريم المنان (٦/٣٧٩).

ولذلكَ لَمَّا حكى الله تعالى شُبْهتَهم هذهِ: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق] قالَ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق]، ثُمَّ لفتَ أنظارَهم إلى مظاهرِ القُدْرةِ فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق].

ثُمَّ قالَ ذلكَ المُؤمنُ لإخوانهِ في الجنَّة: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ «أيْ معي في النَّار، لعلِّي أرى قريني ذلكَ الَّذي كانَ يقولُ لي: أئِنَّكَ لمنَ المصَدِّقينَ بأنَّنا مبْعوثونَ بعدَ المَمات؟ ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أيْ في وسَطِ الجحيم، وفي الكلامِ متْروكٌ استُغْنِيَ بدلالةِ الكلامِ عنْ ذِكْره، وهوَ فقالوا نعم»[1]، «قالَ كعْبٌ: إنَّ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ كُوىً، فإذا أرادَ المؤمنُ أنْ ينْظرَ إلى عدُوٍّ كانَ لهُ في الدُّنْيا اطَّلعَ منْ بعْضِ هذهِ الكُوى. وعنْ قتادةَ قال: لوْلا أنَّ الله جلَّ وعلاَ عرَّفهُ إيَّاهُ لما عرفَه، لقدْ تغيَّرَ حِبْرُهُ وسِبْرُه، أي لوْنهُ وهيئتُه»[2].

«فلمَّا رأى قرينَهُ في النَّارِ ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ أيْ إنْ كِدْتَ في الدُّنْيا لتُهلِكني بصدِّكَ إيَّايَ عنِ الإيمانِ بالبعْثِ والثَّوابِ والعِقاب»[3] ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ «أيْ لوْلا رحْمةُ ربِّي بي، وإنْعامهُ عليَّ بالإسْلام، وهدايتي إلى الحقِّ، وعِصْمتي عنِ الضَّلال، لكنْتُ منَ المُحْضرينَ معكَ في النَّار»[4].

ثُمَّ التفتَ إلى إخْوانهِ في الجنَّةِ مُسْتفهِمًا عنْ دوامِ ما هُمْ فيهِ منَ النَّعيم وبقائهم فيهِ أبدًا، فقال: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ؟ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ؟﴾، لأنَّ الإنْسانَ لا تَتِمُّ فرْحتُهُ

(١) جامع البيان (٦٠/ ٢٣).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٨٣/ ١٥).
(٣) جامع البيان (٦١/ ٢٣).
(٤) فتح القدير (٣٩٧/ ٤).

بما هوَ فيهِ منَ النَّعيمِ إلاَّ إذا أيْقنَ بدوامِهِ، فإنَّ شبحَ الموْتِ دائمًا يُنغِّصُ على النَّاسِ حياتَهم، ويُعكِّرُ عليْهم صفْوَهم، فلمَّا رأى المؤْمنُ ما هوَ فيهِ منَ النَّعيمِ، وما آلَ إليْهِ صاحِبُهُ في الجحيمِ، أرادَ أنْ يطْمئنَّ على دوامِ نَعيمهِ ودوامِ عافِيَتِه، فقال: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ؟ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ؟﴾، قالَ الطَّبريُّ: «يقولُ: أفما نحنُ بميِّتينَ غيْرَ موْتَتِنا الأولى في الدُّنْيا، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ بعدَ دُخولِنا الجنَّة؟ قالوا: نعم. قالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يقولُ: إنَّ هذا لهوَ النَّجاءُ العظيمُ ممَّا كنَّا في الدُّنْيا نحْذرُ منْ عِقابِ الله، وإدْراكُ ما كنَّا فيهِ نُؤمِّلُ بإيمانِنا وطاعتِنا ربَّنا»[1].

قالَ تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ «أي: لِمِثْلِ هذا العطاءِ الجزيل، والفضْلِ العظيم، فلْيعْملِ العاملون، فإنَّ هذهِ هيَ التِّجارةُ الرَّابحة، لا العملُ لِلدُّنْيا الزَّائلة، فإنَّها صفْقةٌ خاسِرة، نعيمُها مُنْقطع، وخيْرُها زائل، وصاحِبُها عنْ قريبٍ منْها راحِل»[2]، فمنْ آثَرَها خسِرَ الدُّنْيا والآخرة، وذوقوا عذابَ الحريق، كما قالَ تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ(٨٦)﴾ [البقرة].

وهكذا نجَّى الله ذلكَ المؤْمنَ منْ كيْدِ قرينهِ الكافر، وربطَ على قلْبه، «والله يهْدي منْ يشاءُ ويعْصِمُ ويُعافي فضْلاً، ويُضِلُّ منْ يشاءُ ويخْذُلُ ويبْتلي عدْلاً»[3]، وذلكَ المُؤْمنُ مثالٌ لمنْ يعْصِمهمُ الله عزَّ وجلَّ بِفضْلِه.

وفي القرآنِ الكريمِ مثالٌ آخرُ لِلمخْذولينَ المفتونين:

قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً(٢٧) يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً(٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً(٢٩)﴾ [الفرقان].

(١) جامع البيان (٢٣/٦٢).
(٢) فتح القدير (٤/٣٩٧).
(٣) الطحاوية، تعليق الألباني (٢٢).

«رُويَ أنَّ هذهِ الآياتِ نزلتْ في عُقْبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ وأُبيِّ بنِ خلف، وكانَ عُقْبةُ أسْلم فلم يزلْ بهِ أُبيٌّ حتَّى ارْتدَّ، ولكنَّ العِبْرةَ بعُمومِ اللَّفْظِ لا بخصوصِ السَّبب، فكلُّ ظالمٍ أطاعَ خليلَهُ في الكُفْرِ حتَّى ماتَ على ذلكَ يجْري لهُ مِثْلُ ما جرى لابنِ أبي مُعَيْط.

وقد تضمَّنتِ الآياتُ سِتَّةَ أُمور:

الأوَّل: أنَّ الظَّالمَ سيندمُ يوْمَ القيامة، قالَ تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْه**﴾ وهوَ كنايةٌ عن شِدَّةِ النَّدمِ والحَسْرة، لأنَّ النَّادِمَ ندمًا شديدًا يعضُّ على يدَيْه، وقد جاء ذلكَ مُوضَّحًا في آياتٍ أُخر، قال تعالى: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**(٥٤)﴾[يونس]، وقالَ تعالى: ﴿**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**(٣٣)﴾ [سبأ]، وقالَ تعالى: ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ**(٣١)﴾ [الأنعام]، والحسْرةُ أشدُّ النَّدامة، وقالَ تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمُ الله أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**(١٦٧)﴾ [البقرة].

الثَّاني: أنَّ الظَّالمَ يتمنَّى يوْمَ القيامةِ أنْ يكونَ اتَّخذَ معَ الرَّسولِ سبيلاً أيْ طريقًا إلى الجنَّة، ﴿**يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً**﴾، وقد جاءَ ذلكَ أيْضًا في آياتٍ أُخْرى، قالَ تعالى: ﴿**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا الله وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ**(٦٦)﴾ [الأحزاب]، وقالَ تعالى: ﴿**رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ**(٢)﴾ [الحجر]، وقالَ تعالى: ﴿**كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا**(٢١) **وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**(٢٢) **وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى**(٢٣) **يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي**(٢٤)﴾ [الفجر].

الثَّالث: أنَّ الظَّالمَ يدعو بالوَيْلِ يوْمَ القيامة، يقولُ: ﴿**يَا وَيْلَتَى**﴾ وقد جاءَ ذلكَ مُوضَّحًا في قوْلهِ تعالى: ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا**(١١) **إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**(١٢) **وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا**(١٣) **لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا**(١٤)﴾ [الفرقان].

الرَّابع: أنَّ الظَّالمَ يندمُ يوْمَ القيامة على طاعةِ قُرناءِ السُّوء، يقولُ: ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾، وقد جاءَ ذلكَ مُوضَّحًا في قوْلِهِ تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ(١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا(١٦٧)﴾ [البقرة] وهوَ دليلٌ واضحٌ على ندَمِهم على مُوالاتِهم وطاعتِهم في الدُّنيا.

الخامس: أنَّ أخِلاَّءَ الضَّلالِ منْ شياطينِ الإنْسِ والجنِّ يُضِلُّونَ أخِلاَّءهم عنِ الذِّكْرِ بعْدَ إذْ جاءهم، كما قال: ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾،وقد جاءَ ذلكَ مُوضَّحًا في آياتٍ أُخَر، قالَ تعالى: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ(٢٠٢)﴾[الأعراف]، وقالَ تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ(٢٥)﴾ [فصلت].

السَّادس: أنَّ الشَّيْطان يخْذُلُ الإنسان دائمًا، كما قال: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾، أمَّا خُذْلانُ الشَّيْطانِ للإنسانِ في الدُّنيا، فمنْهُ خُذْلانهُ لِلمشركينَ يوْمَ بدْر، كما قالَ تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٤٨)﴾[الأنفال]، ومنْهُ قولهُ تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(١٦)﴾ [الحشر].

وأمَّا خُذْلانُ الشَّيْطانِ لأتْباعِهِ في الآخرة، فمنْهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٢٢)﴾[إبراهيم](١).

«فلينْظُرِ العبْدُ لنفسهِ وقْتَ الإمْكان، ولْيتداركِ المُمْكنَ قبْلَ فواتِ الأوان، ولْيُوالِ منْ ولايتُهُ فيها سعادتُه، ولْيُعادِ منْ تنْفعُهُ عداوتُهُ وتضرُّهُ صداقتُه»(٢).

(١) أضواء البيان (٣١٣-٣١٦/ ٦).

(٢) تيسير الكريم المنان (٤٧٦/ ٥).

وهكذا رأيْنا كيفَ يُؤثّرُ الصَّديقُ في صَديقِه، فاتَّقُوا الله في أنْفُسِكم ولاَ تُصاحِبُوا إلاَّ الأخْيَار، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**لاَ تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِنًا وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ**»[1]، لاَ تُصاحِبْ إلاَّ منْ إذا ذكرْتَ الله أعانك، وإذا نسيتَ ذكَّرك، وإذا نودِي: حيَّ على الصَّلاَة قامَ معك، صاحِبْ منْ لا يُبطِّئُكَ عنْ عملِ الخيْر، ولا يصُدُّكَ عنْه، فإنَّ هؤلاءِ الأصْحابَ يكونونَ زينةً لكَ في الدُّنْيا وشُفعاءَ لكَ في الآخرةِ إنْ تخلَّفْتَ عنْهم في دُخُولِ الجنَّة، كما سبقَ في حديثِ الشَّفاعةِ أنَّهم يُجادِلونَ ربَّهم في إخْوانٍ لهم يقولونَ: ربَّنا كانوا يُصلُّونَ معنا، ويصومونَ معنا، فلا يزالونَ بالله حتَّى يُشفِّعَهم فيهم، ولذلكَ ندِمَ أهْلُ النَّارِ على فقْدِهمُ الصَّديقَ والشَّفيع، فقالوا:﴿ **فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ**(١٠٠) **وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ**(١٠١)﴾ [الشعراء].

واعْلموا أنَّ العُلماءَ اشْترطوا فيمنْ تخْتارُ صُحْبتُهُ خمْسةَ شرُوطٍ:

«وهيَ: أنْ يكونَ عاقلاً، حَسَنَ الخُلُق، غَيْرَ فاسِقٍ، ولا مُبْتدعٍ، ولا حريصٍ على الدُّنْيا.

أمَّا العقْلُ فهُوَ رأْسُ المال، فلا خيْرَ في صُحْبةِ الأحْمقِ الَّذي يضُرُّكَ منْ حيْثُ أرادَ أنْ ينفعَك. وأمَّا حُسْنُ الخُلُقِ فلا بُدَّ منه، إذْ رُبَّ عاقلٍ يغْلِبُهُ الغضَب، أوْ تغْلِبُهُ الشَّهْوة، فيتَّبعُ هواهُ ويُخالفُ عقْلَه. وأمَّا الفاسِقُ المُصِرُّ على الفِسْقِ فلا فائدةَ في صُحْبتِه، لأنَّ منْ يخافُ الله لا يُصِرُّ على معْصِيتِه، ومنْ لا يخافُ الله لا تُؤْمنُ غائلتُه، ولا يُوثَقُ بصداقتِه، وقد قالَ عمر: احْذرْ صديقَكَ إلاَّ الأمين، ولا أمينَ إلاَّ منْ يخْشى الله. وأمَّا المُبْتدِعُ ففي صُحْبتِهِ خطرٌ سِرايةِ البدْعةِ وتعدِّي شُؤْمِها، ومنْ أخْطرِ البدعِ بدْعةُ التَّكْفيرِ والتَّفْسيق، فالواجبُ على الشَّبابِ إذا شمُّوا منْ أحَدِهم رائحةَ التَّكْفيرِ أنْ يحْذَروهُ ويجْتنِبوه، حتَّى لا تسْري بِدْعتُهُ إليْهم. وأمَّا الحريصُ على الدُّنْيا فصُحْبتُهُ سُمٌّ قاتل، لأنَّ الطِباعَ مجْبولةٌ على التشبُّهِ والاقْتداء، بلِ الطَّبْعُ يسْرقُ منَ الطَّبْعِ منْ حيْثُ لا يدْري صاحِبُه،فمُجالسَةُ الحريصِ على الدُّنْيا تُحرِّكُ الحِرْص، ومُجالسَةُ الزَّاهِدِ تُزهِّدُ في الدُّنْيا، فلذلكَ تُكْرهُ صُحْبةُ طلاَّبِ الدُّنْيا، وتُسْتَحبُّ صُحْبةُ الرَّاغبينَ في الآخرة»[2].

اللهمَّ ارزُقْنا حُبَّك، وحُبَّ منْ يُحِبُّك. اللهمَّ أحِبَّنا، وحبِّبْنا إلى عبادك،

وحبِّبْ صالحي عبادكَ إليْنا ... آمين

❑ ❑ ❑

---

(١) حسن: [ص.د:٤٠٤٥]، د(٤٨١١/ ١٧٨/ ١٣)، ت(٢٥٠٦/ ٢٧/ ٤).

(٢) الإحياء (١٧٠-١٧٣/ ٢) باختصار وبعض الزيادة.



الخاتمة

عَنْ عُبَادَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»[1].

قالَ عبدُ العظيم:

وأنا أشهدُ أنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، وأرجو الله أنْ يُدْخِلني الجنَّةَ عَلَى مَا كَانَ منِّي مِنْ عَمَلٍ بفضْلِهِ ورحمتِهِ، إنَّهُ وليُّ ذلكَ والقادرُ عليه.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

آميـن

❏ ❏ ❏

---

(١) متفق عليه: خ(٣٤٣٥/ ٤٧٤/ ٦)، م(٢٨/ ٥٧/ ١).

شرح الرموز المستخدمة في التخريج والتحقيق

الرمز	الشـــــرح	الرمز	الشـــــرح
بز	البزار	ص.خد	صحيح الأدب المفرد
ت	ترمذى	ص. د	صحيح أبى داود
جه	ابن ماجه	ص.نس	صحيح النسائى
حب	ابن حبان	طب	الطبرانى في الكبير
حم	مسند أحمد (الفتح الربانى)	طح	الطحاوى شرح معانى الآثار
خ	البخارى (فتح البارى)	طس	الطبرانى في الأوسط
خز	صحيح ابن خزيمة	طص	الطبرانى في الصغير
د	أبو داود (عون المعبود)	قط	الدارقطني
س.ص	السلسلة الصحيحة	كم (ك)	الحاكم
ش	مصنف ابن أبى شيبة	م	مسلم
ص.ت	صحيح الترمذى	مى	الدارمى
ص.جه	صحيح ابن ماجه	نس(ن)	النسائى
ص.تغ	صحيح الترغيب والترهيب	هق	البيهقى

قائمة المراجع

١- أحكام القرآن . ابن العربي . ط ٣ . ١٩٧٠م دار الفكر . بيروت .

٢- أضواء البيان . الشنقيطي . الرئاسة العامة لإدارات البحوث . ١٩٨٣م .

٣- أيسر التفاسير . الجزائري . ط٢-١٤٠٧هـ . جدة .

٤- الأذكار . النووي . مكتبة الحلبي . مصر .

٥- إحياء علوم الدين . الغزالي . دار الفكر . بيروت .

٦- إرواء الغليل . الألباني . المكتب الإسلامي . ط٢ . ١٤٠٥هـ .

٧- إغاثة اللفهان . ابن القيم . دار المعرفة .

٨- الإسلام والتصوف . د . مصطفى عبد الرازق .

٩- الإيمان . د . محمد نعيم ياسين . ط٤ . مكتبة الرسالة . عمّان . ١٤٠٥هـ .

١٠- البحر المحيط . أبو حيان الأندلسي . دار الفكر . بيروت .

١١- تحفة الأحوذي . المباركفوري . دار الفكر . بيروت .

١٢- تحفة الأخيار . بترتيب شرح مشكل الآثار . الطحاوي . ط١ . ١٤٢٠هـ . دار بلنسيه . الرياض.

١٣- تحفة المريد . البيجوري . المعاهد الأزهرية . ١٩٩٤م .

١٤- تفجيرات الرياض الأحكام والآثار . كرم زهدي وإخوانه . مكتبة التراث الإسلامي ٨ شارع عابدين القاهرة ط ١ .

١٥- تفسير القرآن العظيم . دار المعرفة . ١٩٨٣م .

١٦- تلبيس إبليس . ابن الجوزي . دار الفكر . بيروت .

١٧- تهذيب مدارج السالكين . ابن القيم . وزارة العدل . الإمارات .

١٨- تيسير الكريم المنان . السعدي . الرئاسة العامة بالسعودية . ١٤٠٤هـ .

١٩- التذكرة . القرطبي . المكتبة السلفية .

٢٠- التصوف بين الحق والخلق . محمد فهر شقفة . الدار السلفية . ط٣ . ١٩٨٣

٢١- التوبة وظيفة العمر . محمد بن إبراهيم الحمد . دار ابن خزيمة الرياض . ط١ . ١٤٢١هـ

٢٢- جامع الأصول . ابن الأثير . دار الفكر . ١٤٠٣هـ .

٢٣- جامع البيان . الطبري . دار الفكر . ١٤٠٥هـ .

٢٤- جامع العلوم والحكم . ابن رجب الحنبلي . دار الفكر .

٢٥- الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . دار الكتب المصرية .

٢٦- حادي الأرواح . ابن القيم . دار الكتب العلمية . بيروت .

٢٧- الدر المنثور . السيوطي . دار الفكر .

٢٨- روح المعاني . الآلوسي . دار الفكر . ١٤٠٣هـ .

٢٩- زاد المعاد . ابن القيم . مؤسسة الرسالة . ١٤٠٦هـ .

٣٠- سنن ابن ماجه . دار الفكر ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ .

٣١- سنن أبى داود (عون المعبود) . دار الفكر – ط ٣ -١٣٩٩ هـ .

٣٢- سنن البيهقي . دار المعرفة .

٣٣- سنن الترمذي . دار الفكر ط ٢ – ١٤٠٣ هـ .

٣٤- سنن الدارقطني . دار المحاسن للطباعة – القاهرة .

٣٥- سنن الدارمي . حديث أكاديمي – باكستان ١٤٠٤ هـ .

٣٦- سنن النسائي . دار الفكر .

٣٧- السلسلة الصحيحة . الألباني – المكتب الإسلامي – بيروت – ط ٤ – ١٤٠٥ هـ .

٣٨- السلسلة الضعيفة . الألباني . المكتب الإسلامي . ط٥ . ١٤٠٥هـ .

٣٩- السيرة النبوية العطرة . محمد إبراهيم شقرة . مطبعة التاج . عمّان . ١٤٠٨هـ

٤٠- شرح رياض الصالحين . ابن عثيمين . ط١ . دار الوطن . ١٤١٥هـ

٤١- شرح الطحاوية . ابن أبى العز (تحقيق الألباني) – المكتب الإسلامي بيروت ط ٦ – ١٤٠٠ هـ.

٤٢- صحيح البخاري (فتح الباري) دار المعرفة بيروت ط ٥ – ١٤٠٥هـ .

٤٣- صحيح الجامع الصغير . الألباني– المكتب الإسلامي– ط٣ – ١٣٨٨هـ

٤٤- صحيح الأدب المفرد . الألباني – دار الصديق– ط ٢– ١٤١٥ هـ

٤٥- صحيح سنن ابن ماجة . الألباني – مكتب التربية العربي لدول الخليج ط ٢ – ١٤٠٧ هـ .

٤٦- صحيح سنن أبى داود . الألباني – مكتب التربية العربي لدول الخليج ط٢ / ١٤٠٩ هـ .

٤٧- صحيح سنن الترمذي . الألباني – مكتبة المعارف – الرياض ط ٢ – ١٤٢٠ هـ .

٤٨- صحيح سنن النسائي الألباني – مكتبة المعارف الرياض ط ٢ ١٤١٩هـ

٤٩- صحيح مسلم . تحقيق عبد الباقي . دار الفكر .

٥٠- صحيح مسلم بشرح النووي . . . دار إحياء التراث العربي _ بيروت ط ٢ – ١٣٥٢ هـ .

٥١- الصحيح المسند من أسباب النزول . مقبل بن هادي الوداعي . مكتبة المعارف . الرياض . ١٤٠٠هـ.

٥٢- طريق الهجرتين . لابن القيم . المطبعة السلفية ط ٢ – ١٣٩٤ هـ .

٥٣- عارضة الأحوذي . ابن العربي . ط دار الكتب العلمية ١٤١٨ ز .

٥٤- عقيدة المؤمن . الجزائري . دار الفكر .

٥٥- العقيدة الطحاوية (بتعليق الألباني) . المكتب الإسلامي ط١–١٣٩٨هـ .

٥٦- فتح القدير . الشوكاني . ط دار الفكر .

٥٧- فتح الباري . ابن حجر . دار المعرفة .

٥٨- في ظلال القرآن . سيد قطب .

٥٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير . المناوي . دار الفكر .

٦٠- الفتح الرباني . ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني . البنا . دار الشهاب . القاهرة .

٦١- قطف الثمر في عقيدة أهل الأثر . صديق حسن خان . شركة الشرق الأوسط للطباعة . ط١ . ١٤٠٤هـ .

٦٢- كتاب السنة لابن أبي عاصم . المكتب الإسلامي . ط١ . ١٤٠٠هـ .

٦٣- كتاب الكبائر . الذهبي . دار الهدى الوطنية . بيروت .

٦٤- كشف الأستار عن زوائد البزار . الهيثمي . مؤسسة الرسالة ط ٢–١٤٠٤هـ

٦٥- الكشاف . الزمخشري . دار المعرفة .

٦٦- لسان العرب . دار صادر - بيروت .

٦٧- لطائف المعارف . ابن رجب الحنبلي . دار الكتب العلمية . بيروت .

٦٨- لوامع الأنوار البهية . السفاريني . مؤسسة الخافقين . ط٢ . ١٩٨٢م .

٦٩- مجموع فتاوى ابن تيمية . جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم/ الحرمين .

٧٠- محاسن التأويل . القاسمي . دار الفكر ط ٢ - ١٣٩٨ هـ .

٧١- مختصر البخاري . الألباني . المكتب الإسلامي . ط٥ . ١٤٠٦هـ .

٧٢- مختصر منهاج القاصدين . المقدسي . مكتبة دار البيان دمشق . ١٣٩٨هـ .

٧٣- مختصر تفسير المنار . رشيد رضا . المكتب الإسلامي ط٢ - ١٤٠٤هـ .

٧٤- مسند الإمام أحمد . تحقيق الأرنؤوط . مؤسسة الرسالة . ط١ . ١٤١٣هـ .

٧٥- معارج القبول . حافظ بن أحمد الحكمي . ط١ . ١٤٠٣هـ .

٧٦- معالم التنزيل . البغوي . دار الفكر . بيروت . ١٤٠٥هـ .

٧٧- معالم السنن . الخطابي . تحقيق الفقي . مكتبة السنة المحمدية . عابدين .

٧٨- مفاتيح الغيب . الرازي . ط٣ . دار الفكر . ١٤٠٥هـ .

٧٩- المفردات . الراغب الأصفهاني . دار المعرفة بيروت .

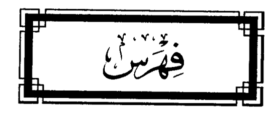
٨٠- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم . القرطبي . دار ابن كثير . دمشق .

٨١- نضرة النعيم . دار الوسيلة . جدة . ط١ . ١٤١٨هـ .

٨٢- نهر الذكريات . [المراجعات الفقهية للجماعة الإسلامية] تأليف وإعداد: كرم زهدي وإخوانه . مكتبة التراث الإسلامي ٨ شارع عابدين القاهرة ط ١ .

٨٣- النهاية في الفتن والملاحم . ابن كثير . دار الكتب العلمية . ط١ . ١٤٠٨هـ .

❑ ❑ ❑



الموضـوع الصفحة

❑ ❑ ❑

الموضوع الصفحة

❑ ❑ ❑

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضـوع — الصفحة

الموضـوع الصفحة

الموضـوع الصفحـة

❑ ❑ ❑

الموضوع | الصفحة

الموضـوع الصفحة

❑ ❑ ❑

الموضـوع الصفحـة

الموضـوع الصفحة

❑ ❑ ❑

